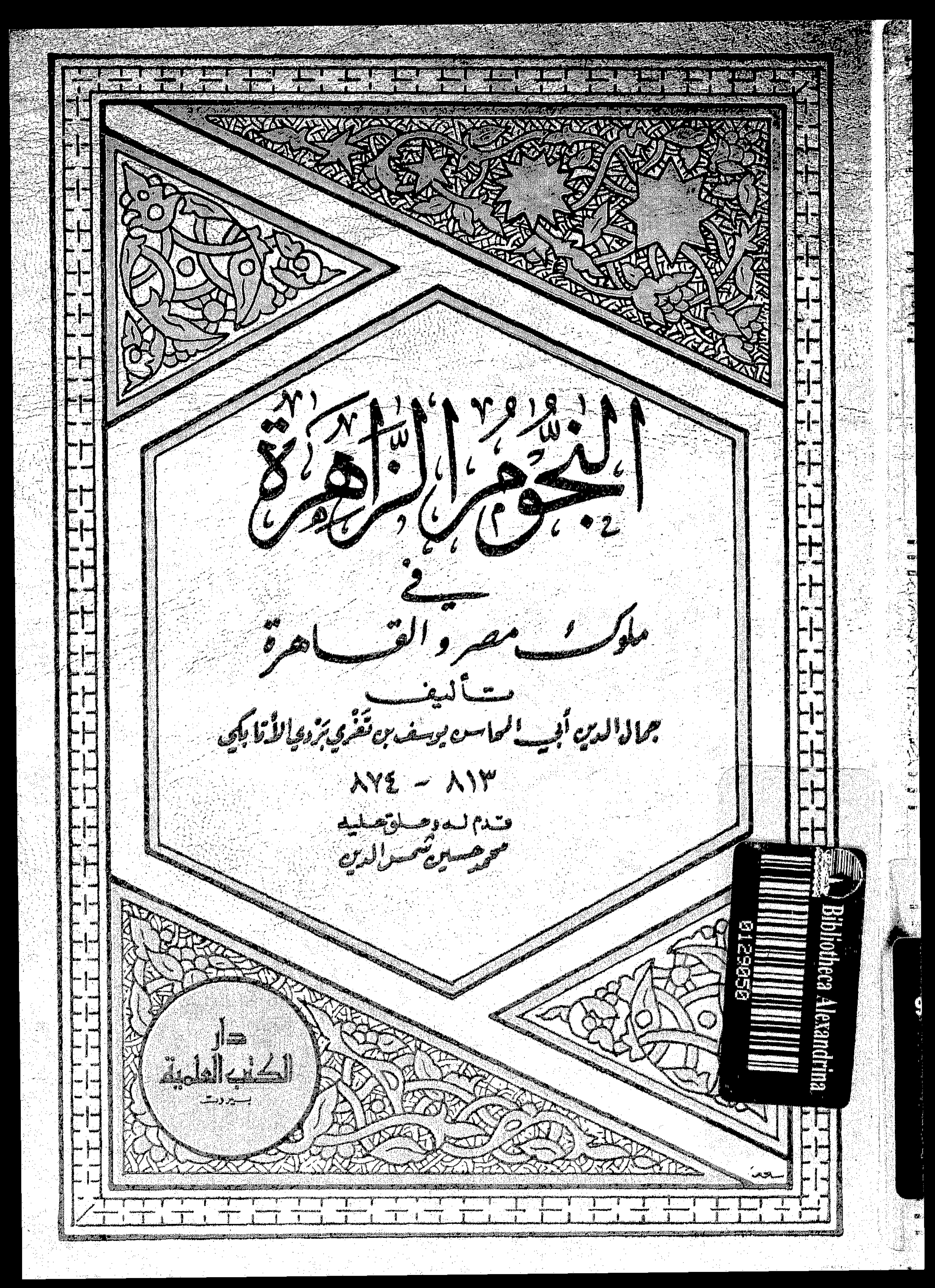
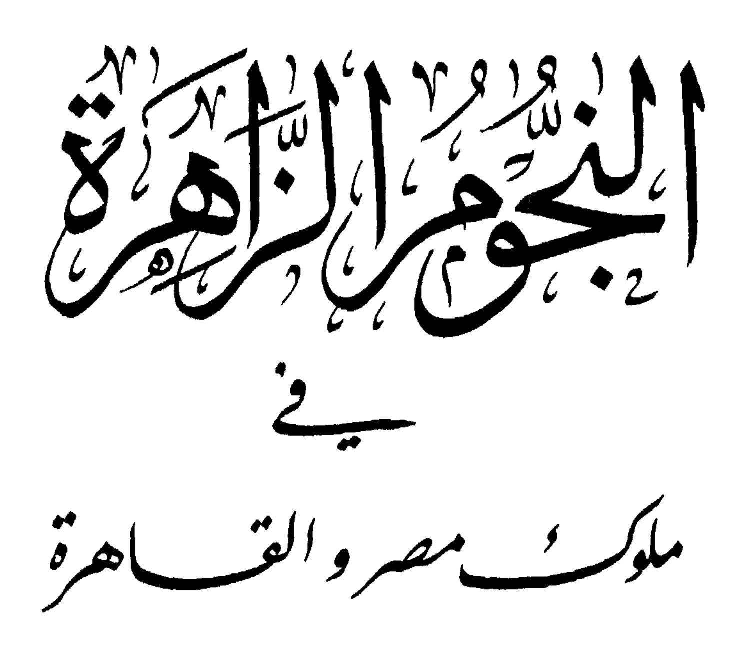

النجوم الزاهرة
في
ملوك مصر والقاهرة
تأليف
جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي
٨١٣ - ٨٧٤
قدم له وعلق عليه
محمد حسين شمس الدين
دار الكتب العلمية
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0129050



النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء العاشر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

ذكر سلطنة الملك المنصور[1] أبي بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ابن السلطان الملك الناصر أبي المعالي محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. جلس على تخت الملك بالإيوان[2] من قلعة الجبل بعهد من أبيه إليه صبيحة تُوفِّي والدُه، وهو يوم الخميس حادي عشرين ذي الحجّة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ولقَّبه الأمراء الأكابر بالملك المنصور على لقب جَدّه. والمنصور هذا هو الثالث عشر من ملوك الترك بديار مصر، والأوّل من أولاد[3] الملك الناصر محمد بن قلاوون. واتّفق الأمراء على إقامة الأمير سيف الدين طُقُزْدَمُر الحَمَوِيّ، حَمُو الملك المنصور هذا، في نيابة السلطنة بديار مصر كونه من أكابر الأمراء، وأيضاً صِهْر[4] السلطان، ويكون الأمير قَوصون الناصريّ مدَبِّر المملكة، ورأس المَشُورة[5]، ويُشاركه في الرأي الأمير بَشْتَك الناصريّ.

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ٥٥١/٣/٢ ـ ٥٧٠؛ وبدائع الزهور: ٤٨٦/١/١ ـ ٤٨٩؛ والجوهر الثمين: ١٧٣/٢؛ والبداية والنهاية: ٢٠٢/١٤؛ ودول الأسلام: ٤٢٦ ـ ٤٢٧؛ وتاريخ الشجاعي: ١٢٤؛ وشذرات الذهب: ١٣٦/٦.

(٢) هذا الإيوان كان يعرف بدار العدل. أنشأه الملك المنصور قلاوون، ثم جدده ابنه الأشرف فعرف بالقاعة الأشرفية. وكان يجلس فيه نائب دار العدل إلى أن هدمه الناصر محمد بن قلاوون ثم أعاد بناءه سنة ٧٣٠هـ، وزاد فيه، ونصب في صدره سرير الملك. وكان الملوك يجلسون فيه لنظر المظالم، ولذلك سمي دار العدل. (خطط المقريزي: ٢٠٦/٢).

(٣) وقد ولي السلطنة من أبناء الناصر محمد بن قلاوون ثمانية سلاطين ما بين ٧٤١هـ ـ ٧٦٢هـ، وهم على التوالي: أبو بكر، كجك، أحمد، إسماعيل، شعبان، حاجي، حسن، صالح. (معجم زامباور: ١٦٣).

(٤) كان هذا الأمير زوج والدة السلطان أبي بكر. (السلوك).

(٥) كذا أيضاً في السلوك: وفي بدائع الزهور أنه عيَّن أتابك العساكر؛ ولم يذكر مدبر المملكة ولا رأس =

وتمّ ذلك ورُسم بتجهيز التشاريف والخِلَع إلى نوّاب البلاد الشاميّة على يد الأمير قُطْلُوبُغَا الفخريّ، ورُسم له بتحليف الأمراء والنوّاب بالبلاد الشاميّة على العادة.

ونُودي بالقاهرة ومصر أن يتعامل الناس بالفضّة والذهب بسعر[١] الله تعالى، فسُرَّ الناس بذلك، فإنهم كانوا قد امتنعوا من التعامل بالفضة وألاّ تكون معاملتهم إلاّ بالذهب. ثم أَفْرَج عن بركة الحبش [وقف الأشراف][٢]، وكان النشْو قد أخذها من الأشراف، وصار يُنفق فيهم من بيت المال. ثم كتَب إلى ولاة الأعمال برفع المظالم وألاّ يُرْمَى على بلاد الأجناد شعيرٌ ولا تبنٌ[٣].

ثم في يوم الخميس ثامن عشرين ذي الحجّة أَنعم الملك المنصور على عشرة أمراء بإمرة طبلخاناه. ثم جمع القضاة في يوم السبت سلخه في جامع القلعة للنظر في أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان وإعادته إلى الخلافة، وحضر معهم الأمير طاجار الدَّوَادار. فاتّفقوا على إعادته لعهد أبيه إليه بالخلافة بمقتضى مكتوب ثابت على قاضي قُوص.

= المشورة. ولعل هذه التسميات الثلاث كانت مترادفة وتجمع لشخص واحد. والمعروف أن أتابك العساكر كان كبير الأمراء المقدمين والقائد الأعلى للجيوش وكان هنالك مجلس استشاري للسلطان يسمى مجلس المشورة (أو مجلس المشور) ــ وهو في الواقع مجلس الدولة ــ يتكون من كبار الأمراء الذين يكوِّنون مجلساً استشارياً وتنفيذياً معاً. وكان عدد هؤلاء محدداً، ففي أوائل أيام السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون كان أمر المشورة والتدبير موكولاً إلى تسعة أمراء، ثم اقتضت الأحوال وقتذاك أن يصير هذا العدد إلى عشرة والواضح أن السلطان كان يسمي لهذه الهيئة رأساً، يمكن اعتباره بمثابة الوزير، خاصة بعد تعطيل وإلغاء منصب الوزير في دولة الناصر محمد بن قلاوون.

(١) المقصود بذلك أن الحكومة تركت تسعير الفضة والذهب حراً. فقد ورد أنه قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم: «سعِّر لنا» فقال: «إن الله هو المسعِّر» أي أنه هو الذي يرخص الأشياء ويغليها، فلا اعتراض لأحد عليه، ولذلك لا يجوز التسعير. (انظر لسان العرب: سعر).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) ذكر المقريزي هذا المقرر الإقطاعي تحت عنوان: موظف الأتبان. فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام: قسم للديوان، وقسم للمقطع، وقسم للفلاح؛ فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم، ويؤخذ في التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وسدس دينار، فيحصل من ذلك مال كثير. وقد بطل هذا من الديوان. (خطط المقريزي: ١/ ١١٠).

ثم في يوم الاثنين ثاني المحرّم سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة خلَع السلطان على جميع الأمراء المقدّمين في المَوْكب بدار العدل وطلع القضاة، وجلس الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد على الدرجة الثالثة من تخت السلطان، وعليه خِلْعة خضراء وفوق عمامته طَرْحة سوداء مرقومة بالذهب. ثم خَرج السلطان من باب السرّ على العادة إلى الإيوان، فقام له الخليفة والقضاة ومَن كان جالساً من الأمراء، وجلس على الدرجة الأولى دون الخليفة. وقام الخليفة وآفتتح الخطبة بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ آللهَ يَأْمُرُ بِآلْعَدْلِ وَآلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي آلْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ آلْفَحْشَاءِ وَآلْمُنْكَرِ وَآلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ آللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا آلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ آللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ آللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١). ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق وتعظيم شعائر الإسلام ونُصرة الدين، ثم قال: «فوّضتُ إليكَ جميع أحكام المسلمين، وقلّدتُك ما تقلّدتُه من أمور الدين».

ثم تلا قوله تعالى: [إِنَّ آلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ آللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ] ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ آللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾(٢). وجلس فجيء في الحال بخِلْعة سوداء فألبسها الخليفةُ السلطانَ بيده، ثم قلّده سيفاً عربيّاً؛ وأخذ القاضي علاء الدين عليّ بن فضل الله كاتب السرّ في قراءة عهد الخليفة للسلطان حتّى فرَغ منه، ثم قدّمه إلى الخليفة فكتب عليه، ثم كتب بعده قُضاة القضاة بالشهادة عليه، ثم قُدِّمَ السِّمَاطُ فأكلوا وآنقضت الخِدمة.

ثم قَدِم الأمير بَيْغَرا في يوم الخميس خامس المحرّم من عند الأمير أحمد آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكَرَك وقد حلّفه بمدينة الكَرَك لأخيه السلطان الملك المنصور هذا، ففَرح الناس بذلك.

ثم في يوم الأحد ثامن المحرّم قُبِضَ على الأمير بَشْتَك الناصريّ؛ وذلك أنه طلب أن يستقرّ في نيابة الشام، ودخل على الأمير قَوْصُون وسأله في ذلك وأعلمه أنّ

(١) سورة النحل، الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

السلطان كان قبل موته وعده بها وألَحّ في سؤاله، وقَوْصُون يُدافعه ويحتّج عليه بأنه قد كتب إلى الأمير أَلْطُنْبُغَا الصالحيّ نائب دِمَشق تقليداً بآستمراره في نيابة دِمَشق على عادته ولا يليق عزلُه سريعاً، فقام عنه بشتك وهو غير راضٍ؛ فإنه كان قد تَوَهَّمَ من قوصون وخَشِيَ منه على نفسه وطلب الخروج من ديار مصر لِما كان بينهما قديماً من المنافرة، ولأنَّ قَوْصُون صار الآن مُتَحَكِّماً في الدولة. فلمّا خرج بشتك من عند قوصون وهو غير راضٍ سعى بِخَاصَّكِيَّة السلطان وحَمَل إليهم مالاً كثيراً في السرّ، وبعث إلى الأمراء الكِبار وطلب منهم المساعدة؛ فما زالوا بالسلطان حتى أنعم عليه بنيابة الشام، وطلب الأميرَ قوصون وأعلمه بذلك فلم يُوافقه، وقرّر مع السلطان أنه يحدّث الأمراء في ذلك ويَعِدُهُم بأنه يُولّي بشتك إذا قَدِم الأمير قُطْلُوبُغَا الفخريّ من تحليف نائب الشام وبنسخة اليمين. فلمّا دخل الأمراء عرّفهم السلطان طلبَ بشتك بنيابة الشام، فأخذوا في الثناء عليه والشكر منه؛ فاستدعاه وطيّب خاطره ووعده بها عند قدوم الفخريّ، ورَسم له بأن يتجهز للسفر؛ فظن بشتك أن ذلك صحيح، وقام مع الأمراء من الخدمة، وأخذ في عرض خيوله، وبعث لكل من أكابر الأمراء المقدَّمين ما بين ثلاثة أرؤس إلى رأسين بالقماش المذهب الفاخر، وبعث معها أيضاً الهُجُنَ؛ ثم بعث إلى الأمراء الخاصَّكِيَّة مثل مَلِكْتَمُر الحِجازيّ وأَلْطُنْبُغَا المارِدَانيّ شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر واللؤلؤ والتحف. وفرّق عِدّةً من الجواري في الأمراء بحيث إنه لم يبق أحد من الأمراء إلا وأرسل إليه. ثم فرّق على مماليكه وأجناده، وأخرج ثمانين جارية بعد ما شوّرهنّ بالأقمشة والزراكِش وزوجهنّ. وفرّق من شونته على الأمراء اثني عشر ألف إردب غلة. وزاد بشتك في العطاء حتى وقع الإنكار عليه، واتهمه السلطان والأميرُ قَوْصُون بأنه يُريد الوثوب على السلطان، وعَمِلوا هذا من فعله حُجّة [للقبض][1] عليه. وكان ما خَصّ الأمير قَوْصُون من تفرقة بَشْتَك في هذه النَّوْبة حَجَرَيْن من حجارة معاصير القصب بما فيهما من القُنُود[2] والسكر والأعسال والأبقار والغلال والآلات، وخمسمائة فدّان من القصَب مزروعة في أراضٍ

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) القنود: جمع قند، وهو عسل قصب السكر إذا جمد.

مِلْك له، وغير ذلك، فأدهش الأمراءَ كثرةُ عطائه، وآستغنى منه جماعة من مماليكه وحواشيه.

ولما كثُرت القالةُ فيه بأنّه يريد إفساد الدولة خلا به بعض خواصّه وعرّفه ذلك، وأشار عليه بإمساك يده عن العطاء، فقال: «هم إذا قبضوا عليّ أخذوا مالي وأنا أحقّ بتفرقته منهم، وإذا سَلِمتُ فالمال كثير». هذا وقد قام قَوْصُون في أمر بَشْتَك المذكور قياماً حتّى وافقه السلطانُ على القبض عليه عند قدوم قُطْلُوبُغَا الفخريّ. فأشاع قوصون أنّ بشتك يريد القبض على الفخريّ إذا حضر، فبلغ ذلك بعضَ خواصّ قُطْلُوبُغَا، فبعث إليه من تلقّاه وعرّفه بما وقع من تجهيز بشتك وأنّه على عَزْم من أن يلقاك في طريقك ويقتلَك، فكن على حَذَر؛ فأخذ قُطْلُوبُغَا من الصالحيّة يحترز على نفسه حتّى نزل سِرْياقوس. واتّفق من الأمر العجيب أن بَشْتَك خرج إلى حوشه بالرَّيْدَانِيَّة[1] خارج القاهرة ليَعْرِض هُجُنَه وجماله، فطار الخبرُ إلى قُطْلُوبُغَا أنّ بشتك قد خرج إلى الرَّيْدَانِيّة في آنتظارك، فآستعد قطلوبغا ولبس السلاح من تحت ثيابه، وسار حتّى تلقّاه عِدّة كثيرة من مماليكه وحواشيه وهوعلى أُهْبة الخروج للحرب، وخَرج [قطلوبغا] عن الطريق وسلك من تحت الجبل لينجو من بَشْتَك وقد قَوِي عنده صحّة ما بَلغه؛ وكان عند بَشْتَك عِلْم من قدومه؛ فلمّا قَرُب [قطلوبغا] من الموضع الذي فيه بشتك لاحت له غبرة خيل، فحدَس بشتك أنّه قُطْلُوبُغَا الفخري، قد قَدِم، فبعَث إليه أحدَ مماليكه يبلِّغه سلامَه وأنّه يقف حتّى يأتيه فيجتمع به. فلمّا بلَغ الفخريَّ ذلك زاد خوفُه من بشتك، فقال له: «سلِّم على الأمير وقل له: لا يمكن اجتماعه بي قبل أن أقف قُدّام السلطان. ثم بعد ذلك اجتمع به وبغيره» فمضى مملوك بشتك وفي ظن قُطْلُوبُغَا أنّه إذا بلّغه مملوكُه الجوابَ رَكِب إليه، فأَمَر قُطْلُوبُغَا مماليكه بأن يسيروا قليلاً قليلاً، وساق هوبمفرده مِشواراً[2] واحداً إلى القلعة. ودخَل إلى السلطان وبلّغه طاعةَ النوّاب وفرحَهم بأيّامه. ثم أَخذ يعرِّف السلطان والأمير قَوْصُون وسائرَ الأمراء بما اتفق له مع بَشْتَك، وأنّه كان يُريد

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/١٣٩.
(٢) المشوار هنا بمعنى الشوط.

معارضتَه في طريقه وقَتْلَه؛ فأعلمه السلطانُ وقوصونُ بما آتفقا عليه من القَبْض على بشتك.

فلما كان عصرُ اليوم المذكور، ودخل الأمراءُ إلى الخدمة على العادة بالقصر وفيهم الأمير بشتك، وأكَلوا السِّماط، تقدَّم الأميرُ قطلوبغا الفخريّ والأمير طُقُزْدَمُر [الناصري الساقي](١) إلى بشتك وأخذا سيفَه وكتَّفاه. وقُبض معه على أخيه أَيْوَان وعلى طُولُوتَمُر ومملوكَيْن من المماليك السلطانيّة كانا يلوذان ببشتك؛ وقُيِّدوا جميعاً، وسُفِّروا إلى الإسكندريّة في الّليل صحبةَ الأمير أَسَنْدَمُر العُمَرِيّ. وقُبض على جميع مماليكه، ووقَعت الحَوْطَة على موجوده ودُوره، وتُتُبِّعت غِلْمانُه وحواشيه. وأنعم السلطانُ من إقطاع بَشْتَك على الأمير قَوْصُون بخُصوص(٢) الشَّرْق زيادةً على ما بيده، وأخذ السلطانُ المطرية(٣) ومُنية(٤) ابن خَصِيب وشَبْرا(٥)، وفرّق بقيّةَ الإقطاع على مَلِكْتَمُر الحجازيّ وغيره من الأمراء. فلمّا أصبحوا يوم الاثنين تاسع المحرّم حُمِلت حواصل بَشْتَك، وهي من الذهب العَيْن مائتا ألف دينار مصريّة، ومن اللؤلؤ والجواهر والحوائص الذهب والْكَلْفَتاه الزَّرْكَش شيءٌ كثير جدّاً؛ هذا بعد أن فَرّق غالب موجوده حسب ما تقدّم ذكرُه على الأمراء والمماليك. ثم أَخرج السلطانُ الأمير أحمد شادّ الشَّرَبْخاناه منفيّاً إلى طَرَابُلُس لميله مع بَشْتَك.

في يوم الخميس أنعم السلطان على أخويه: شعبان ورمضان كلّ واحد بإمْرة. وفيه قَبَض السلطان على الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير بَكْتَمُر الحاجب لشيء أوجب ذلك. وفي يوم الاثنين ثالث عشرين المحرّم خلَع السلطان الملك المنصور أبو بكر على الأمير طُقُزْدَمُر الحَمَويّ بنيابة السلطنة بالديار المصريّة، وكان رُشح لها قبل تاريخه، فَلبِس الخِلْعة، وجلَس في دَسْت النيابة، وحكَم وصرّف الأمور.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) هي بلدة كبيرة تعرف اليوم باسم «الحمام» بمركز أبنوب بمديرية أسيوط الحالية بمصر. (محمد رمزي).

(٣) قرية بضواحي القاهرة.

(٤) هي مدينة المنيا، قاعدة مديرية المنيا بمصر.

(٥) المقصود بها ناحية شبرا الخيمة، إحدى قرى ضواحي القاهرة.

وفي يوم الاثنين سَلْخه[١] قَبَض السلطان على الأمير آقْبُغا عبد الواحد وعلى أولاده، وخلع على الأمير طُقْتَمُر الأحمديّ واستقرّ أُستاداراً عوضاً عن آقبغا المذكور، ورسم للأمير طَيْبُغا المَجدِيّ والي القاهرة بإيقاع الحَوْطة على موجود آقبغا، وسُلِّم ولدُه الكبيرُ إلى المُقَدَّم إبراهيم بن صابر.

وأصبح يومُ الثلاثاء أوّل صفر فتحدّث الأمراءُ أن ينزل في تَرْسيم[٢] المَجْدِيّ ليتصرّف في أمره، فنَزَل في صُحبة المَجْدِيّ وأخذ في بيع موجوده؛ وكان السلطان قد حَلَف قديماً أنّه متى تسلطن قبَض عليه وصادره وضربه بالمقارع لأمور صدَرت منه في حقّه أيام والده الملك الناصر. فكان ممّا أُبيع لآقبغا عبد الواحد سراويلُ لزوجته بمائتي ألف درهم فضّة، وقَبْقَاب وخُفّ وسَرْمُوجَة[٣] بخمسة وسبعين ألف درهم. وثار بِه جماعةٌ كثيرة من الناس ممن كان ظلمهم في أيام تحكّمُه وطلبوا حقوقهم منه وشَكوه، فأَقسم السلطان لئن لم يُرضهم ليسمرنّه على جمل ويُشَهِّره بالقاهرة ففرّق فيهم مائتي ألف درهم حتى سكتوا؛ وكادت العامة تقتله لولا المجديّ لسوء سِيرته وكثرة ظلمه أيّام ولايته.

وفي يوم الأربعاء تاسع صفر قبَض السلطان على المقدّم[٤] إبراهيم بن صابر وسلّمه لمحمد بن شمس [الدين][٥] المقدّم وأُحِيط بأمواله؛ فوجَدَ له نحو سبعين حجْرة[٦] في الجُشار[٧]، ومائة وعشرين بَقَرة في الزرايب، ومائتي كبش، وجُوقتين

(١) أي سلخ المحرم، كما جاء في السلوك.

(٢) الترسيم، وتجمع على تراسيم، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة شخص بوضعه تحت المراقبة. (السلوك: ١/٣/٧٤٠، حاشية).

(٣) ترد أيضاً: سرموزة. وهي نوع من الأحذية.

(٤) في السلوك: «مقدّم الدولة». ومقدم الدولة هو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير، والمراد المقدم على الدولة. والدولة لفظ قد خصه العرف بمتعلقات الوزارة، كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة. (صبح الأعشى: ٤٦٨/٥).

(٥) زيادة عن السلوك.

(٦) في السلوك: «نحو تسعين حجرة». والحجرة والحجر (بكسر الحاء) الفرس الأنثى.

(٧) الجشار: مكان رعي الماشية.

كلاب سَلُوقيّة[١]، وعِدّة طيور جوارح مـع البَازْدَارِيّة[٢]. ووُجِد له من الغلال وغيرها شيءٌ كثير.

ثم قدِم الخبر على السلطان من الأمير طَشْتَمُر حُمّص أخضر الساقي نائب حلب بخروج ابن دُلْغادر[٣] عن الطاعة وموافقته لإرِتْنَا[٤] متملّك الروم على المسير لأخذ حلب، وأنه قد جَمَـع بأَبُلُسْتَيْن جمْعاً كثيراً؛ وسأل طَشْتَمُر أن يُنجده [السلطان] بعسكر من مصر، فتشوّش السلطان لذلك وعوّق الجواب.

وفيه رَسم السلطان بضرب آقْبُغَا عبد الواحد بالمقارع، فلم يُمكّنـه الأمير قَوْصُون من ذلك، فآشتدّ حَنَقُ السلطان وأطلق لسانه بحضرة خَاصَّكيّته في حقّ قَوْصُون وغيره.

وفي ذلك اليوم عَقَد السلطانُ نكاحَه على جاريتين من المولّدات الّلاتي في بيت السلطان، وكتَب القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتبُ السرّ صداقَهما، فخلـع عليه السلطان وأعطاه عشرة آلاف درهم. ورَسم السلطان لجمال الكُفاة ناظر الخاصّ أن يُجهّزهما بمائة ألف دينار، فشرَع جمالُ الكُفاة في عمل الجَهاز. وبينما هو في ذلك رَكِب الأمير قَوْصُون على السلطان بجماعة من الأمراء في يوم السبت تاسـع عشر صفر وخلَعوه من المُلك في يوم الأحد عشرينه، وأُخرج هو وإخوتُه إلى قُوص صحبةَ الأمير بَهادُر بن جَرِكْتَمُر.

---

(١) سلوقية: نسبة إلى سلوق، بلدة باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب.

(٢) راجع ص ١٧٠ من الجزء التاسع، حاشية (٢).

(٣) هو زين الدين قراجا بن دلغادر. وهو أول السلالة الدلغادرية في حكم إمارة الأبلستين بآسيا الصغرى. (السلوك: ٥٦٦/٣/٢، حاشية: ٢) وقد ورد في معجم زامباور باسم: زين الدين عبد الرشيد قراجا بك بن ذو القادر الساساني. حكم من سنة ٧٤٠هـ إلى سنة ٧٨٠هـ، وتوفي عمره مائة سنة. (انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ٢٣٥، وفيه ثبت بأسماء النواحي التي حكمت عليها أسرة ذو لقادر).

(٤) هو الأمير علاء الدين أرتنا بن جعفر. وكان هذا الأمير والياً من قبل إيلخانات فارس على بلاد السلاجقة الروم من سنة ٧٢٨هـ. وقد استقلّ بإمارة سيواس وما تبعها من البلاد المجاورة سنة ٧٣٦هـ، وظلت سلالته تتداولها من بعده حتى أواخر القرن التاسع الهجري (انظر معجم زامباور: ٢٣٢ ــ ٢٣٣).

وكان سببُ خَلْع الملك المنصور هذا أنّ المنصور كان قَرَّب الأمير يَلْبُغا اليَحْيَاويّ وشُغِفَ به شَغَفاً كثيراً، ونادَم الأمير مَلِكْتَمُر الحجازيّ وآختص به وبالأمير طاجار الدَّوَادَار وبالأمير قُطْلِيجا الحَمَوي وجماعة من الخاصِّكِيّة؛ وعَكَف على اللّهو وشُرب الخمر وسماع الملاهي. فشقّ ذلك على الأمير قَوْصُون وغيره لأنّه لم يُعْهد من مَلِك قبله شُرْب خمرٍ فيما رُوِي؛ فحَمَلوا الأمير طُقُزْدَمُر النائب على محادثته في ذلك وكفِّه عنه، فزاده لومُه إغراءً، وأفحش في التّجاهُر باللّهو، حتى تكلّم به كلّ أحد من الأمراء والأجناد والعامّة. فصار في الليل يَطلب الغِلْمان [ويبعثهم] لإحضار المغاني، فغَلَب عليه السُّكرُ في بعض الليالي، فصاح من الشُّباك على الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور: «هاتِ لي قطقط[1]» فقال أَيْدُغْمُش: «يا خَوَنْد، ما عندي فَرَس بهذا الاسم» فتكلّم بذلك السّلاَخُورِيّة[2] والركابيّة[3] وتداولته الألسنة.

قلت: وأظن قطقط[4] كانت آمـرأة مغنيّة. والله أعلم.

فلمّا زاد أمره طلب الأمير قَوْصُون طاجارَ الدَّوَادَار والشّهابـيّ شادّ العمائر، وعنَّفهما ووبخّهما وقال لهما: «سلطانُ مصر يَليق به أن يعمل مقاماتٍ ويُحضِر إليه البغايا والمغَاني! أهكذا كان يفعل والده»؟ وعرّفهم أن الأمراء قد بلغهم ذلك وتشوّش خواطرُهم؛ فدخلوا وعرّفوا السلطان كلامه، وزادوا في القول؛ فأخذ جلساءُ الملك المنصور في الوقيعة في قَوْصُون والتحدث في القبض عليه وعلى الأمير قُطْلُوبُغا الفخريّ والأمير بِيبرس الأحمديّ والأمير طُقُزْدَمُر النائب. فَنمّ عليهم الأميرُ يَلْبُغا اليَحْيَاويّ لقَوْصُون ــ وكان قد آستماله قوصون بكثرة العطاء فيمن استمال من المماليك السلطانية ــ وعرّفه أن الاتّفاق قد تقرّر على القَبْض عليه في يوم الجمعة وقت الصلاة؛ فآنقطع قوصون عن الصلاة وأظهر أنّ برِجْله وجَعاً؛ وبَعث في ليلة السبت يُعرّف بِيبَرْس الأحمديّ

(١) في السلوك: «ابن عطعط».

(٢) السلاخورية والسراخورية: جمع سلاخور وسراخور، وهو الذي يتحدث على علف دواب السلطان من الخيل وغيرها. (انظر صبح الأعشى: ٥/٤٦٠).

(٣) الركابية: هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة أو السلطان عند ركوبه في المواكب. ويعرفون أيضاً في عصر المماليك بالسلاحدارية والطبردارية. (صبح الأعشى: ٣/٤٨٠).

(٤) ورد في بدائع الزهور أن «عطعط» اسم لمغن كان يغني بمصر والشام.

بالخبر ويحثُّه على الركوب معه، وطلب المماليك السلطانيّة وواعدَهم على الركوب وملأهم بكثرة المواعيد. ثمّ بعَث إلى الأمير الحاج آل ملك والأمير جنكلي بن البابا ـ وهؤلاء أكابر الأمراء ـ فلم يطلع الفجرُ حتَّى ركب الأمير قَوْصُون من باب سِرّ القلعة بمماليكه ومماليك السلطان وسار نحو الصحراء؛ وبعثَ مماليكه في طلب الأمراء فأتاه جَرِكْتَمُر[1] وبهادُر وبرَسْبُغا وقُطْلُوبُغا الفخريّ والأحمدي وأخذوا آقبغا عبد الواحد من ترسيم طَيْبُغا المَجْدِيّ، فسار معه المجديّ أيضاً. ووقفوا بأجمعهم عند قُبّة النصر، ودَقَّت طبلخاناتهم، فلم يبق أحد من الأمراء حتَّى أتى قَوْصُون[2].

هذا والسلطان وندماؤه وخاصَّكّيته في غفلة لهَوِهْم وغَيْبة سُكْرهم، إلى أن دَخَل عليهم أربابُ الوظائف، وأيقظوهم من نومهم، وعرّفوهم ما دُهوا به. فبعَث السلطانُ طاجار الدوادار إلى الأمير طُقُزْدَمُر النائب يسألُه عن الخبر ويستدعيه، فوجد عنده جَنكلي بن البابا والوزير وعدّة من الأمراء المقيمين بالقلعة؛ فآمتنع طُقُزْدَمُر من الدخول على السلطان، وقال: «أنا مع الأمراء حتّى أنظر ما عاقبة هذا الأمر»، ثم قال لطاجار: «أنت وغيرُك سببُ هذا، حتى أفسدتم السلطان بفسادكم ولَعِبكم، قلْ للسلطان يجمع مماليكَه ومماليكَ أبيه حوله» فرجع طاجار وبلَّغ السلطانَ ذلك، فخرج السلطان إلى الإيوان وطلَب المماليك، فصارت كلّ طائفة تخرج على أنّها تدخل إليه فتخرج إلى باب القُلّة حتى صاروا نحو الأربعمائة مملوك، وسارُوا يداً واحدة من باب القُلّة إلى باب القلعة، فوجدوه مُغْلقاً، فرجعوا إلى النائب طُقُزْدَمر بعدما أخرقوا بوالي باب القلعة وأنكروا عليه وعلى مَنْ عنده من الأمراء (أعني عن الأمير طُقُزْدَمُر)؛ فقال لهم طُقُزْدَمُر: «السلطان ابن أستاذكم جالس على كرسيّ الْمُلك، وأنتم تطلبون غيرَه»؟. فقالوا: «ما لنا ابن أستاذ، وما لنا أستاذٌ إلّا قَوْصُون. ابن أستاذنا مشغول عنا لا يعرفنا» ومضَوْا إلى باب القرافة وهدموا منه جانباً وخرجوا، فإذا خيول بعضهم واقفة فرَكِب بعضهم، وأردف عدّة منهم، ومشى باقيهم إلى قُبّة النصر. ففرح بهم قوصون والأمراء، وأركبوهم الخيول وأعطوْهم الأسلحة

(١) في السلوك: «فأتاه جركتمر بن بهادر في إخوته».
(٢) في السلوك: «فلم يبق أحد من الأمراء حتى أتاهم».

وأوقفوهم بين أصحابهم. ثم أرسل قوصون الأمير مسعود [بن خَطير][1] الحاجب إلى السلطان يطلب منه مَلِكْتَمُر الحجازيّ ويَلْبُغَا اليحْيَاوِيّ، وهما من أمراء الألوف الخاصّكيّة، وطاجار الدّوادار وغيرهم، ويعرّفه أنه أستاذه وأستاذ جميع الأمراء وابن أستاذهم وأنهم على طاعته، وإنما يريدون هؤلاء لِمَا صدر منهم من الفساد ورَمْي الفتن. فطلع الأمير مسعود فوجد السلطان بالإيوان من القلعة، وهم حوله في طائفة من المماليك، فقبّل الأرض وبلّغه الرسالة، فقال السلطان: «لا كيدَ ولا كرامة لهم، وما أُسَيِّر مماليكي ومماليك أبـي لهم، وقد كذَبوا فيما نقلوا عنهم، ومهما قدروا عليه يفعلوه». فما هو إلاّ أن خرج عنه الأميرُ مسعود حتى اقتضى رأيه بأن يركب بمن معه وينزل من القلعة ويطلب النائب طُقُزْدَمُر ومَن عنده من الأمراء والمماليك ويدقّ كوساته. فتوجه إلى الشّبّاك، وأَمَر أَيْدُغْمُش أمير آخور أن يَشدّ الخيل للحرب، فأخبره أنه لم يبق في الإسطبل غلامٌ ولا سايسٌ ولا سلاخُورِيّ يشدُّ فرساً واحداً، فبعَث إلى النائب يستدعيه فآمتنع عليه.

وبعث الأمير قَوْصون بُلك الجْمَدار وبَرْسبغا إلى طُقُزْدَمر النائب يُعلمانه[2] بأنه متى لم يحضر الغرماء إليه وإلا[3] زحف على القلعة وأخذهم غَصْباً فبعث طُقُزْدَمُر إلى السلطان يُشير عليه بإرسالهم، فعَلم السلطان أنّ النائب وأمير آخور قد خذلاه، فقام ودَخل على أمّه. فلم يجد الغرماء بُدّاً من الإذعان، وخرجوا إلى النائب، وهم الأمير مَلِكْتَمُر الحجازيّ وأَلْطُنْبُغا المارداني ويَلْبُغَا اليَحْياوِيّ، وهؤلاء مقدمو الألوف، وأَحدُ خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون ـ رحمه الله ـ وطاجار الدَّوادار والشهابـيّ شادّ العمائر وبَكْلَمِش المَارديني وقُطْلِيجا الحَمَويّ؛ فبعثَهم طُقُزْدَمُر النائب إلى قَوْصُون صحبة بُلكَ الجَمَدار وبَرْسبُغَا. فلَمّا رآهم قوصون صاح في الحاجب أن يُرَجِّلَهم عن خيولهم من بعيد، فأُنْزِلـوا إنزالاً قبيحاً، وأُخِذُوا حتى أوقِفوا بين يدي قوصون، فعَنّفَهم ووبّخهم، وأمرَ بهم فقُيِّدوا وعُمِلت الـزناجيـرُ[4] في رقابهم،

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «يعلماه».

(٣) الجملة غير مستقيمة، غير أن معناها غير خاف. وهي تشير إلى ركاكة أسلوب المؤرخ.

(٤) الزناجير: لفظ عاميّ معناه السلاسل.

والخُشُب في أيديهم؛ ثمَّ تركَهم في خِيَمَ ضُرِبت لهم عند قُبّة النصر[١]. واستدعى طُقُزْدَمُر النائب والأمير جَنْكلي بن البابا والوزير والأمراء المقيمين بالقلعة والأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور، فنزلوا إليه واتفقوا على خَلْع الملك المنصور وإخراجه [وإخوته من القلعة][٢]. فتوجّه الأمير بَرْسُبُغا في جماعة إلى القلعة وأخرج الملك المنصور وإخوته وهم سبعة نفَر، ومع كلّ منهم مملوكٌ صغير وخادم وفرس وبُقْجَة قماش وأركبهم إلى شاطىء النيل وأنزلهم في حَرّاقة[٣] وسار [جركتمر بن بهادر][٤] بهم إلى قُوص؛ ولم يترك [برسبغا][٤] بالقلعة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلاّ كُجُك. ثم سَلّم قَوْصُون الأمراء المقيَّدين إلى والي القاهرة، فمضى بهم إلى خِزانة شمائل[٥] وسَجنهم بها إلا يَلْبُغا اليَحْيَاوِيّ، فإنّه أفرج عنه. وكان يوماً عظيماً بالديار المصريّة من إخراج أولاد السلطان الملك الناصر على هذه الصورة، وحَبْس هؤلاء الأمراء الملوك في خِزانة شمائل، وتهتّك حُرَم السلطان على إخراج أولاد الناصر؛ وكَثُر البكاءُ والعَويلُ بالقاهرة، فكان هذا اليوم من أشنع الأيام.

وبات قوصون ومن معه ليلة الأحد بخيامهم في قبّة النصر خارج القاهرة، وركبوا بُكرة يوم الأحد العشرين من صفر إلى قلعة الجبل واتفقوا على إقامة كُجُك ابن الملك الناصر محمد في السلطنة، فأقيم وجلس على كرسيّ المُلك حسب ما يأتي ذكرُه في أول ترجمته. وخُلع الملك المنصور في يوم السبت تاسع عشر صفر من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، فكانت مدّة مُلْكه على مصر تسعة وخمسين

(١) عبارة السلوك: «ثم نزل قوصون والأمراء في خيم ضربت لهم عند قبة النصر».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الحراقة: سفينة صغيرة.

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) هذه الخزانة كانت من سجون القاهرة. عرفت بالأمير علم الدين شمائل والي القاهرة في أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب. وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظراً يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة. وما زالت هذه الخزانة على ذلك إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٨هـ. (خطط المقريزي: ١٨٨/٢).

يوماً، ومن حين قلّده الخليفة [ثمانية و][١] أربعين يوماً، لأنّه لمّا تسلطن كان الخليفة [الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان][١] المستكفي لم يتمّ أمُره في الخلافة، ثم انتظم أمرُه بعد ذلك فبايع الملكَ المنصورَ حسب ما ذكرناه. وخُلِع الملك المنصور أبو بكر من السلطنة وسَلم القلعة بغير قتال مع كثرة مَن كان معه من خواصّ أمراء أبيه ومماليكه، خِذْلان من الله تعالى!.

وفي خلعه من السلطنة وإخراجه إلى قُوص مع إخوته عِبْرة لمن اعتبر؛ فإن والده الملك الناصر محمد بن قلاوون كان أخرج الخليفة أبا الربيع سليمان المستكفي بأولاده وحواشيه إلى قُوص منفيّاً مرسّماً عليه فقُوصِصَ الملك الناصر عن قريب في ذرّيته بمثل ذلك؛ وأَخْرَجَ أولادَه أعزُّ مماليكه وزوجُ ابنته، وهو قَوْصُون الناصريّ؛ فتوجّه الملك المنصور مع إخوته إلى قُوص وصحبتُه بهادر بن جَركْتَمُر مثل[٢] الترسيم عليه وعلى إخوته، وأقام بها نحو الشهرين. ودَسّ عليه قَوْصون عبدَ المؤمن متولي قوص فقتله وحَمَل رأسَه إلى قوصون سرّاً في أواخر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة؛ وكَتَموا ذلك عن الناس. فلمّا أُمْسك قوصون تحقّق الناس ذلك. وجاءَ من حاقق بَهادُر أنّه غرَّق طاجار الدوادار واستحسّ[٣] على قتل المنصور، فطُلِب عبد المؤمن وقُرِّر فآعترف، فسمَّره السلطان الملك الناصر أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد تسلطن بعد أخيه كُجُك آخذاً بدم أخيه الملك المنصور هذا.

وكان الملك المنصور سلطاناً كريماً شابّاً حُمِل إليه مالُ بشتك ومال آقبغا عبد الواحد ومال بَرْسبُغا فوهَب ذلك جميعَه إلى الخاصّكيّة الأمراء من مماليك والده مثل مَلِكْتَمُر الحجازيّ وأَلْطُنْبغا الماردانيّ ويَلْبُغا اليَحْيَاوِيّ وطاجار الدَّوادَار، وهؤلاء كانوا عظماء أمراء الألوف من الخاصّكيّة وأعيان مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصهاره، وأَحَبَّهم وأحبُّوه، فالْتَهى بهم عن قَوْصُون وقَوِي بهم بأسُه؛

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) كذا هي عبارة الأصل.
(٣) كذا. ولعلّ المراد: «استحثّ» أي حرّض الناس عليه ودفعهم إلى قتله.

فخاف قَوْصُون عاقبةَ أمره وتقرّب خُشْدَاشِيته إليه فدبَّر عليه وعليهم حتّى تمّ له ذلك. وكانت الناس تباشرتْ بيُمْن سلطنته؛ فإنه لمّا تسلطن آنتظمت الأمورُ على أحسن ما يكون، ولم يقع بين الناس خلافٌ، ولا وقع سيفٌ حتّى خالف قَوْصُونُ، فَرموْه بأمور وقبائح ودواهي، وآدعوا أنّه كان ينزل هو والمذكورون من مماليك أبيه إلى بحر النيل ويركَب معهم في المراكب وأشياء من ذلك، الله أعلم بصحّتها. ولم يكن مَسْك بشْتَك بخاطره ولا عن أمره إلّا مراعاة لخاطر قَوْصُون لِما كان بينهما من أيام أستاذهما الملك الناصر محمد من المنافرة. وكان الملك المنصور شابّاً حُلْوَ الوجه، فيه سُمْرة وهَيَفُ قَوام، وكان تقديرُ عمره ما حول العشرين سنة، وكان أفحلَ الإخوة وأشجعَهم. زوَّجه أبوه بنت الأمير سيف الدين طُقُزْدَمُر الحَمويّ.

قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ في تاريخه: وعَمِل الناس عزاءه ودارت جواريه[١] في الليل بالدّرارِك[٢] في شوارع القاهرة أيّاماً، وأبْكَيْن الناس، وتأسّفوا عليه لأنّه خُذِل؛ وعُمِل عليه وأُخِذَ بغتةً، وقُتِلَ غضّاً طرِيّاً، ولو آستمرّ لجاء منه ملك عظيم. كان في عزمه أَلّا يُغَيِّر قاعدةً من قواعد جَدّه الملك المنصور قلاوون، ويُبْطِل ما كان أحدثه أبوه من إقطاعات العُرْبان وإنعاماتهم، وغير ذلك. اِنتهى كلام الصلاح الصَّفَدِيّ بآختصار.

وأمّا أمر بَشْتَك وحبسه فإنه كان من أجلّ مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان ثَقُل عليه في أواخر أمره؛ فإنه لمّا مات بَكْتَمُر الساقي وَرِثه في جميع أمواله، في داره وإسطبله، وتزوّج بآمرأته أمّ أحمد بن بكتمر الساقي واشترى جارِيته خُوبِي[٣] بستة آلاف دينار، وكان معها من القُماش ما قيمتُه عشرة آلاف دينار، وأخَذَ ابن بَكْتَمُر عنده. وكانت الشرقية تُحْمَى لبَكْتَمُر الساقي فحماها

(١) في الأصل: «ودار جواره» وما أثبتناه من طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) المراد الدرابك. وهي جمع دِرْبَكّة ودربوكّة أو دَرَبُكّة. وهي آلة يضرب بها. ويقال لها الطبلة.

(٣) خوبي: بضم الخاء المعجمة وسكون الواو بعدها باء موحدة مكسورة. وهي مغنّية كانت فائقة في ضرب العود. ماتت بعد الأربعين وسبعمائة. (الدرر الكامنة).

هو بعده، فعَظُم ذلك على قَوْصُون ولم يَسَعْه إلّا السُّكات لمَيْل السلطان إليه. وكان مع هذه الرياسة الضخمة غير عفيف الذَّيْل عن المَلِيح والقبيح، وبالغ في ذلك وأفرط حتّى في نساء الفلاحين وغيرهم. وكان سبب قُربه من أُستاذه الملك الناصر أنّ الملك الناصر قال يوماً في مبدأ أمره لمجد الدين السَّلَّامِيّ[1]: «أريد أن أشتري لي مملوكاً يُشبه بُوسَعيد بن خَرْبَنْدَا ملك التّتار»، فقال مجد الدين: «دَعْ ذلك، فهذا بَشْتَك يُشبهه لا فرق بينهما» فحظِيَ عنده لذلك. ولمّا نَدَبه السلطان لمَسْك تَنْكِز وتوجّه إلى الشام للحَوْطة على مال تَنْكِز، وَرأى أمرَ دِمَشْق طَمِع في نيابتها ولم يجَسُر يُفاتح السلطان في ذلك، وبَقِي في نفسه منها حَزَازة؛ فلمّا مَرِض السلطان وأشرف على الموت ألبس بَشتك مماليكه، فإنّه كان بلَغه عن قَوْصُون أنّه ألبس مماليكه، ثم آنتظم الأمر على أن السلطان جَعل آبنه أبا بكر وليّ عهده، وقد قدّمنا ذكرَ ذلك كلّه مفصّلاً في أواخر ترجمة الملك الناصر. فلمّا وقع ذلك قال بَشْتَك: «لا أوافق على سلطنة أبي بكر، ما أُريد إلّا سيّدي أحمد الذي بالكَرَك». فلمّا مات السلطان وسُجِّيَ قام قَوْصُون إلى الشُّبّاك وطلب بَشْتَك وقال له: «يا أمير تعالَ، أنا ما يجيء منّي سلطان، لأنّي كنت أبيع الطَّسْمَا[2] والكشاتوين في البلاد وأنت آشتريتَ منّي، وأهلُ البلاد يعرفون ذلك منّي؛ وأنت ما يجيء منك سلطان، لأنّك كنتَ تبيع البُوزَا[3]، وأنا آشتريتُ ذلك منك، وأهل البلاد يعرفون ذلك كلَّه؛ فما يكون سلطاناً مَنْ عُرِف ببيع الطسما والبُرْغَالي[4]، ولا من عُرِفَ ببَيْع البوُزَا. وهذا أستاذنا هو الذي أوصى لمن هو أخبرُ به من أولاده، وهذا في ذمّته وما يسعنا إلّا آمتثال أمره حيّاً وميّتاً؛ وأنا ما أُخالفك إن أردت أحمد أو غيره، ولو أردت أن تَعْمَل

---

(١) كان تاجر الخاص في الرقيق. وهو الذي سعى مع النوين جوبان في الصلح بين الملك الناصر وبو سعيد ملك التتار وازدادت وجاهته بين الملكين. توفي سنة ٧٤٣هـ. (الدرر الكامنة).

(٢) الطسمة: كلمة فارسية معناها قطعة سير من الجلد تستحد عليها الموسى. وهي تعريب كلمة: تاسمة. والكشاتوين: نوع من تطريز الجلد. (النجوم الزاهرة: ١٠/٢٠، حاشية ١و٢، طبعة دار الكتب المصرية).

(٣) البوزا (البوزة): هي الشراب المعروف المتخذ من الأرز أو الشعير أو الذرة العويجة (المرجع السابق).

(٤) البرغالي: خف من جلد الفرس مبطن بجلد ذئب.

كلّ يوم سلطاناً ما خالفتُك»؛ فقال بَشْتَك: «كلّ هذا صحيح، والأمر أمرُك» وأحضَرَا المصحف وحلَف كلٌّ للآخر وتعانقاً؛ ثم قاما إلى رِجلَي السلطان فقبّلاهما وبَكَيا، ووضعا آبن السلطان على كرسيّ الملك. وقد تقدم ذكرُ ذلك كلّه. وتمّ الأمر بينهما على ذلك، حتى بدا لبَشْتَك أن يلي نيابة الشام فعاكسه قَوْصُون فثارت الكمائن والضغائن القديمة بينهما حتى وقع ما حكيناه؛ وأُمسك بَشْتَك وآعتقل بالإسكندريّة إلى أن قُتل في محبسه بالإسكندرية بعد أيام في سلطنة الملك الأشرف كُجُك آبن الملك النّاصر محمد بن قلاوون في شهر ربيع الآخر من سنة آثنتين وأربعين المذكورة، حسب ما يأتي ذكرُه. وبَشْتَك هذا أوّل من أُمسك من أمراء الدولة الناصريّة. وكان كريماً مُهاباً: كان يَذْبَح في سِماطه في كل يوم خمسين رأساً من الغنم وفرساً لا بدّ منه، خارجاً عن الدجاج والإوز والْحَلْوَى[1]. إنتهى ترجمة الملك المنصور أبي بكر بن محمد بن قلاوون. رحمه الله تعالى.

(١) أفرد المقريزي ترجمة طويلة للأمير بشتك. انظر الخطط: ٢/٣٤.

ذكر سلطنة الملك الأشرف علاء الدين كُجُك[١] على مصر

هو السلطان الملك الأشرف علاء الدين كُجُك آبـن السلطان الملك الناصر، ناصر الـدين أبـي المعالي محمـد آبن السلطان الملك المنصور سيف الـدين قلاوون الألفيّ الصالحيّ النَّجْمِيّ. جلس على تخت المُلك باتّفاق الأمراء بعد خَلْـع أخيه أبـي بكر آبـن الملك الناصر محمد في يوم الاثنين حادي عشرين صفر سنة آثنتـين وأربعين وسبعمائة؛ ورَكِب بشعار السلطنة ولُقِّب بالملك الأشرف ولم يَكْمل له من العمر خمس[٢] سنين، وقيل كان عمرُه دون سبـع سنين. وأُمُّه أُمّ ولد تُسمَّى أُرْدُو تركيّة[٣] الجنس. وهو السلطان الرابـع عشر من ملوك الترك بديار مصر، والثاني من أولاد الملك الناصر محمد آبن قلاوون.

ولمّا تَمّ أمرُه في السلطنة جلَس الأمراء وآشتـوروا فيمَن يقيموه[٤] في نيابة

---

(١) قال ابن إياس: وكجك لفظ أعجميّ، معناه بالعربـي «صغيِّر» فكأن والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلي بعده الملك وهو صغير، فسماه كجك؛ والملوك لهم فراسة في الأمور قبل وقوعها. (بدائـع الزهور: ١/١/٤٩١).
ولفظ كوجوك معناه في اللغة التركية: الصغير. (تأصيل ما ورد في تاريـخ الجبرتي من الدخيل: ٦٣).
وترجمة وأخبار الأشرف علاء الدين كجك في: السلوك للمقريزي: ٢/٣/٥٧١؛ وبدائـع الزهور: ١/١/٤٩٠؛
والجوهر الثمين: ٢/١٧٤؛ وتاريـخ الشجاعي: ١٤١؛ والبداية والنهاية: ١٤/٢٠٤؛ والدرر الكامنة: ٣/٢٦٥؛ والأعلام: ٥/٢٢٠؛ وشذرات الذهب: ٦/١٥٠.

(٢) في تاريـخ الشجاعي: «وتقدير عمره ست سنين وأربعة أشهر». وفي الجوهر الثمين: «وعمره سبـع سنين، وقيل خمس سنين». وفي بدائـع الزهور: «سبـع سنين».

(٣) في السلوك: «تترية».

(٤) كذا. والصواب: «يقيمونه».

السلطنة فرُشّح الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور، فآمتنع أيدغمش من ذلك، فوقع الاتفاق على الأمير قَوْصُون الناصريّ، فأجاب وشرَط على الأمراء أن يُقيم على حاله في الأشرفيّة[1] من القلعة ولا يخرج منها إلى دار النيابة[2] خارج باب القُلّة من القلعة، فأجابوه الأمراء إلى ذلك، فـآستقر من يومه في النيابة، وتصرَّف في أمور المملكة، والسلطانُ آلةٌ في السلطنة، فقال في ذلك بعضُ شعراء العصر: [البسيط]

سلطانُنا اليومَ طفـلٌ والأكابـرُ في خُلْف وبينهمُ الشيـطان قد نَـزَغَا
فكيف يَطْمع مِن تُغْشيه[3] مَظْلَمَةٌ أن يبلُـغ السُّؤْلَ والسلطانُ ما بَلَغَا

ثـم آتّفقت الأمراء على إخراج الأمير أَلْطُنْبُغا المارِدانيّ من الحبس فأُخرج من يومه. وفي ليلة الأربعاء ثالث عشرين صفر أخرج الأمير قُطْلُوبُغا الحَمَويّ وطاجار الدَّوادار ومَلِكْتَمُر الحجازيّ والشِّهابـيّ شادّ العمائر من حبس خِزانة شمائل بالقاهرة، وحُمِلوا إلى ثغر الإسكندريّة فسُجِنوا بها.

وتوجّه الأمير بُلَك الجَمَدار على البريد إلى حلب لتحليف النائب طَشْتَمُر الساقي المعروف بحمّص أخضر والأمراء. وتوجّه الأمير بَيْغَرا إلى دِمَشْق بمثل ذلك إلى نائبها الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ، وتوجّه الأمير جَرِكْتَمُر بن بهادُر إلى طرابُلُس وحَمَاة لتحليف نُوّابها والأمراء، وكُتب إلى الأعمال بإعفاء الجند من المغارم.

ثم ركب الأمير قَوْصُون في يوم الخميس رابع عشرينه في دَسْت النيابة، وترجّل له الأمراء ومشُوا في خدمته، وأخَذَ وأعطى وأنفق على الأمراء لكلّ أمير مائة ومقدّم ألف: ألف دينار، ولكلّ أمير طبلخاناه خمسمائة دينار؛ ولكلّ أمير عشرة مائتي دينار، ولكلّ مقدّم حلْقة خمسين ديناراً، ولكلّ جندي خمسة عشر ديناراً.

---

(١) المقصود قاعة الأشرفية التي كانت بالقلعة وهدمها الناصر محمد بن قلاوون وأقام في مكانها الإيوان. وقد ذكرها المقريزي باسم الأشرفية. (الخطط: ٢/٢١١).
(٢) انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٤، وصبح الأعشى: ٣/٣٧٤.
(٣) في السلوك وبدائع الزهور: «من مسّته».

ثم في يوم [السبت][(١)] سادس عشرينه سَمَّر قَوْصُون وليّ الدولة أبا الفَرَج آبن خَطير صِهْر النَّشْو، وكان قد توصّل إلى الملك المنصور بسفَارة أُستاذه مَلِكْتَمُر الحجازيّ، ووقع منه أمور حقَدها عليه قوصون لوقتها، ولمّا سُمِّر بتشهيره على جمل بمصر والقاهرة وقد أُشعِلت الشموع بالحوانيت والشوارع ودقّت الطبول وفَرِح الناس فَرَحاً زائداً لأنّه كان ممّن بَقِي من حواشي النَّشْو وأصهاره، وفيه يقول الأديب جمال الدين إبراهيم المِعْمار: [مخلع البسيط]

قد أخلف النَّشْوَ صِهْرُ سُوءٍ قَبيحُ فِعْلٍ كما تَرُوهُ
أراد للشّر فَتْحَ بابٍ فأغلَقُوه وسَمَّرُوهُ

ولمّا كان يومُ الخميس مستهلّ شهر ربيع الأوّل من سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة أنعم قَوْصُون على أحد وعشرين مملوكاً من المماليك السلطانية بإمريّات: منهم ستة طبلخاناه والبقيّة عشرات.

وفي رابع عشر شهر ربيع الأوّل توجّه الأمير طُوغان لإحضار الشهابيّ أحمد آبن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكَرَك محتفظاً به ليُنْفَى إلى أُسْوان. وسببُ ذلك أنّه ورد كتاب مَلِكْتَمُر السَّرْجَوانِي نائب الكرَك يتضمّن أنّ أحمد المذكور خرَج عن طَوْعه وكثُر شغَفَهُ بشباب أهل الكَرَك وآنهماكه في معاقرة الخمر، وأنّه يخاف على نفسه منه أن يوافق الكَركيين على قتله، وطلبَ الإعفاء من نيابة الكَرَك.

ثمّ في يوم السبت سابع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور خَلَع على الأمير طُقُزْدُمُر الْحَمويّ نائب السلطنة بديار مصر بنيابة حَمَاة عوضاً عن الملك الأفضل ابن الملك المؤيّد الأيُّوبي، وأنعم على الملك الأفضل بتقدمة ألف بدمَشْق، وأنعَم على الأمير أقْبُغا عبد الواحد بإمرة بدِمشق، ورَسم لسفره [إليها][(٢)].

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه جلس السلطان الملك الأشرف كُجُك على

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) زيادة عن السلوك.

تخت الملك وخَلَع على جميع الأمراء وأرباب الدولة بدار العدل، وقبّل الأمراء الأرض بين يديه ثم تقدّموا إليه على قَدْر مراتبهم وقبّلوا يدَه، فكان عِدّةُ الخِلَع في هذا اليوم ألفاً ومائتي خِلْعة.

ثم في تاسع عشرينه ورَد كتاب الشهابيّ أحمد آبن الملك الناصر محمد من الكَرك بأنه لا يحضر إلى القاهرة حتى يأتيَه أكابرُ الأمراء إلى الكَرَك ويُحَلِّفَهم، ثم يحضر إخوته من بلاد الصعيد إلى قلعة الكَرَك، ويحضر بعد ذلك، وينتصب سلطاناً. فأجيب بأنه لم يُطلب إلّا لشكوى النائب منه، وجُهِّزت له هدّية سنيّة، وأنّه يحضر حتى تُعمل المصلحة. فلم يكن بعد أيّام إلّا وحضر الأمير مَلِكْتَمُر السَّرْجَوانِيّ نائب الكَرَك إلى القاهرة في يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر، وأخبرَ الأمير قَوْصُون وغيره بامتناع الشهابيّ أحمد من الحضور، وأنّه أقام على الخلاف؛ فآجتمع الأمراء بالقصر في يوم الجمعة خامس عشرة للمَشُورة في أمر أحمد المذكور، حتىّ تقرّر الأمر على تجريد العساكر لأخذه.

ثم في يوم السبت سادس عشره آبتدأت الفتنة بين الأمير قَوْصون وبين المماليك السلطانية؛ وذلك أنّ قوصون أرسل يطلب من مقدّم المماليك مملوكاً من طبقة الزُّمُرّذيّة[1] جميل الصورة، فمنعه خُشْداشِيتُه أن يخرج من عندهم، فتلطَّف بهم المقدَّم حتّى أخذه ومضى به إلى قَوْصُون فبات عنده. ثم طَلب [قوصون] من الغد نحو أربعة مماليك أُخَر أو خمسة، منهم شَيْخُون وصرغتمش وأَيْتَمَشُ عبد الغني، فامتنع خُشْدَاشِيَتُهم من ذلك، وقام منهم نحو المائة مملوك، وقالوا: «نحن مماليك السلطان، ما نحن مماليك قَوْصُون»؛ وأخرجوا الطواشي المقدَّم من عندهم على أقبح وجه. فمضى المقدَّم إلى قوصون وعرَّفه الحال، فأَخْرَج إليهم قوصون الأمير بَرْسُبُغا الحاجب وشَاوِرشي دَواداره في عدّة من مماليكه ليأتوه بهم، فإذا بالمماليك قد تعصَّبوا مع كبارهم وخرجوا على حَمِيَّة يريدون الأمير بيبرس الأحمديّ، فإذا به راكب. فمضَوْا إلى بيت الأمير جَنْكَلي بن البابا فلَقُوه في

(١) الزمرذية: إحدى طباق المماليك بالإيوان بالقلعة، واشتهرت كذلك باسم الذهبية، وخصصت للمماليك الواردين من بلاد الخطا والقبجاق. (خطط المقريزي: ٢/٢١٤).

طريقهم؛ فقالوا له: «نحن مماليك السلطان مُشْتَرى ماله، فكيف نترك آبن أستاذِنا ونخدُم غيره، مَنْ هو مملوك مثلُنا فينال غرضَه منّا ويَفْضَحنا بين الناس»؟ وجَهَروا له بالكلام الفاحش فتلطَّف بهم جَنْكَلِي فلم يرجعوا عما هم عليه، فحنِق منهم، وقال: «أنتم الظالمون بالأمس. ولمّا خرجتم قلتُ لكم [أنا و] طقزدمر نائب السلطنة: اِرجعوا إلى خدمة [آبن] أُستاذكم قلتم: ما لنا آبن أستاذ غير قَوْصُون، والآن تشكون منه»! فآعتذروا له ومضَوْا به[1]، وقد حضر الأحمديُّ فآجتمعوا به، وتوجَّهوا إلى مَنْكَلِي بُغَا الفخريّ فإذا قد وافاه بَرسبُغا من عند قَوْصُون، فأرادوا أن يُوقعوا به فكفَّهم الفخريّ عنه. هذا وقَوْصون قد بَلغه خبرُهم، فأراد أن يخرج ويجمع الأمراء، فما زال به مَنْ عنده حتّى سكن إلى بُكرة النهار، فكانت تلك الليلة ليلة مَهُولة.

ثمّ طلب الأمير قَوصون جَنْكَلِي والأحمديّ والفخريّ وبقيّة الأمراء إليه، وأغراهم بالمماليك السلطانيّة وخوّفهم عاقبةَ أمرهم من آستخفافهم بالأمراء؛ فبعثوا بالأمير مسعود الحاجب إليهم ليُحضرَهم، فإذا جَمْعُهم قد كثُف وكَثُر، فلم يلتَفِتوا إليه فعاد. فخرج إليهم أَلْطُنْبُغا الماردانيّ وقُطْلُوبُغا الفخريّ وهما أكبرُ الأمراء الخاصّكِيّة من خُشْدَاشِيَتِهم، وما زالا بهم حتّى أخَذَا مَنْ وقع عليه الطلب، ودخلا بهم إلى قَوْصون، فقبّلوا يدَه فقام لهم وقبَّل رأسهم وطيَّب خواطرَهم ووعدهم بكلّ خير وآنصرفوا، وفي ذهن قَوْصون أنّه قد حصَل الصلح، وذلك في يوم السبت. فلمّا كان [ليلة][2] الاثنين وقت الغروب تحالف المماليك الناصريّة على قَتْل قَوْصُون وبعثوا إلى مَنْ بالقاهرة منهم؛ فبات قَوْصُون ــ وقد بلغه ذلك ــ على حذَر. ورَكِب يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر المَوْكِبَ مع الأمراء تحت القلعة، وطلب أَيْدُغْمُش أمير آخور، وأخذ قَوْصون يلوم الأمراء في إقامته في نيابة السلطنة، وهم يترضَّوه ويَعِدوه بالقيام معه؛ فأدركه الأمير بِيبَرْس الأحمديّ وأعلمه بأنّ المماليك السلطانيّة قد آتفقوا على قتله، فمضى بهم (أعني الأمراء) إلى جهة قُبّة النصر

---

(١) هذا اللفظ زائد لا لزوم له.

(٢) زيادة عن السلوك.

فٱرتجّت القلعة وقُفِلت أبوابُها، ولبِسَت المماليك السلطانيّة السلاحَ بالقلعة وكَسَرُوا الزَّرَدْخَاناه[١] السلطانيّة. هذا وقد ٱمتـلأت الرميلة[٢] بالعامّة، وصاحوا: يا ناصريّة! نحن معكم، فأجابوهم من القلعة، فأشاروا لهم بالتوجُّه إلى بيت قَوْصون فتوجّهوا نحوه وكَسَرُوا بابه وهجموا عليه، وكَسَروا مَنْ كان يَرْمِى عليهم من أعلى البيت. وبلَـغ ذلك قَوْصون، فعاد بمن كان معه [من الأمراء]، وأوقعوا بالعامّة حتّى وصلوا إلى سور القلعة فرماهم المماليك من أعلى القلعة بالنُّشّاب وأَحْموا العامّة. فقُتل في المعركة الأميرُ محمود صِهْر الأمير جَنْكَلِي بن البابا بسهم نُشَّاب من القلعة، وقُتِل معه آخرُ. ووصلوا حاشية قَوْصُون إلى إسطبل قوصون، وقد بدأ النهب فيه، فقتلوا من العامّة جماعة كثيرةً وقبضوا على جماعة. فلم تُطِق المماليك السلطانيّة مقاومةَ الأمراء فكفُّوا عن القتال وفتحوا باب القلعة لهم. فطلَـع إليهم الأمير بَرْسبُغا الحاجب وأنزل ثمانية من أعيان المماليك السلطانيّة إلى قَوْصون، وقد وقف قوصون بجانب زاوية تقيّ الدين رجب تحت القلعة. فَوسّط قَوْصون منهم واحداً ٱسمـه صربغا، فإنّه الذي فَتـح خزائن السلاح وألبس المماليك، وأَمَر به قَوْصُون فعُلِّق على باب زوِيلَة. وأراد أن يُوسِّط البقيّة فشفَـع فيهم الأمراء، فحُبِسوا بخِزانة شمائل مقيَّدين. ثم رسم قوصون بتسمير عِدّة من العوامّ فسُمِّر منهم تسعة على باب زويلة. ثم أَمَر بالركوبِ على العامّة وقبضهم ففرُّوا حتّى إنهم لم يقدروا منهم على حَرْفوش[٣] واحد. ثم طلَـع قَوْصُون إلى القلعة قريب العصر، ومَدَّ لـلأمراء سِمـاطاً فـأكلوا. وبَقِيت الأطلاب[٤] والأجناد واقفة تحت القلعة إلى آخر النهار، فكان ذلك اليوم من الأيام

---

(١) الزردخاناه: هي دار السلاح، وهي تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسيّ العربية والنشاب والرماح وغير ذلك. وتعني أيضاً السجن المخصص للمجرمين من الأمراء واصحاب الرتب. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٦٩).

(٢) كانت من الميادين الواسعة تحت قلعة الجبل بالقاهرة. وتعرف الآن بالمنشية، وبها ميدان صلاح الدين. (محمد رمزي).

(٣) الحرافيش: هم اللصوص والزعّار والسفلة من الناس. ــ راجـع فهرس المصطلحات.

(٤) الأطلاب: جمع طُلب، بضم أوله. وهي وحدات عسكرية صغيرة.

المشهودة؛ وكان جملة من قُتِل فيه من الفئتين ثمانية وخمسين رجلًا وآنصرف الناس.

ثم في ليلة الثلاثاء طلع الأمير بَرْسُبُغا الحاجب إلى طِباق المماليك بالقلعة ومعه عِدّة من المماليك وقَبضوا على مائة مملوك منهم، وعُمِلوا في الحديد، وحُبِسوا بخزانة شمائل، فمنهم من قُتِل، ومنهم من نُفِي من مصر. ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر سَمَّر قوصون تسعة من العوامّ. ثم في يوم الأربعاء عشرينه سَمَّر قوصون أيضاً ثلاثة من الطواشيّة في عِدّة من الحَرَافِيش على باب زويلة. وسبب ذلك أنّ قوصون لما نَزَل من القلعة ومضى إلى قُبّة النصر وقابلتْه المماليك السلطانيّة أخذت الطواشيّة في الصياح على نسائه وأفحشوا في سبّهنّ؛ وآستمر الطواشيّة في التسمير حتى مات أحدهم وشُفِع في الاثنين.

ثم عرَض قوصون مماليك الأطباق، وأنعم على مائتين منهم بإقطاعات كبيرة، وعيَّن جماعة منهم بإمريات. ثم أكثر قوصون من الإحسان إليهم.

وبينما قوصون في ذلك قَدِم عليه كُتب نائب الشام وأمراء الشام وفيها كتب أحمد آبن السلطان الملك الناصر لهم مختومة لم تُفَكّ؛ ففتحها قوصون فإذا فيها لنائب الشام أنه كاتب لنائب حلب الأمير طَشْتَمُر الساقي حمص أخضر وغيره، وأنهم آتّفقوا معه؛ وأكثرَ من الشكوى من قوصون. فأوقف قوصون الأمراء عليها، وما زال بهم حتى وافقوه على تجريد العسكر إلى الكرك.

وفي هذه الأيام ظهرت المماليك التي كانت الفتنة بسببهم عند[1] خُشْدَاشِيَتِهم، فسُلِّم صرغتمش إلى الأمير أَلْطُنْبُغا المارِدانيّ، وسُلِّم أَيْتَمَش إلى الأمير آخور، وسُلِّم شَيْخون إلى الأمير أَرُنْبُغَا السِّلاح دار، وهؤلاء الأمراء الثلاثة ناصريّة.

ثم أُشِيع بالقاهرة أنّ أحمد آبن الملك الناصر قد تحرّك من الكَرَك في طلب المجيء إلى الديار المصريّة، فكثُر الاضطراب ووقع الشروع في تجهيز العساكر

(١) في السلوك: «فرّقت المماليك... على خشداشيتهم» وهي أوضح.

صحبةَ الأمير قُطْلُوبُغا الفخريّ، وآستحلفه قَوْصون، وبعث إليه بعشرة آلاف دينار، وعَيَّن معه أيضاً الأمير قُمارِي أخا بكتمر الساقي ومعهما أربعة وعشرون أميراً، ما بين طبلخانات وعشرات، وأنفق على الجميع. ثم بعث قَوْصُون إلى قُطْلُوبُغَا الفخريّ بخمسة آلاف دينار أخرى عند سفره، وركِب لوَدَاعه صحبةَ الأمراء، حتى نزل بالرَّيْدَانِيّة في يوم الثلاثاء خامس عشرين ربيع الآخر، وكلّ ذلك في سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة. هذا والأمراء لم يكن منهم أحد راضياً بسفر هذه التجريدة، بل أشار الأمير الحاج آل ملك والأمير جَنْكَلِي بن البابا على قَوْصُون بأنه لا يُحرِّك ساكناً فلم يَقْبل قوصون. وكانا أشارا عليه بأنّه يكتب إلى أحمد بن الناصر يعتُبه على مكاتبته لنائب الشام وغيره، فكتب إليه بذلك؛ فأجاب بأنّ طُوغان أسمعه كلاماً فاحشاً وأغلظ عليه في القول، فحَمَله الحَنَق على مكاتبة نائب الشام، وأنّ قوصون والده بعد والده ونحو ذلك. فلم يُقْنِع قوصون ذلك، وجهّز العساكر لأخذه. وبعد خروج العساكر رَكِب الأمير قوصون في يوم الثلاثاء ثالث جُمَادَى الأولى إلى سِرْيَاقوس وصحبته الأمراء على عادتهم[1] (توجه السلطان ثم عاد). وبعد مدّة يسيرة ظهر للأمير قوصون مخالفةُ الأمير طَشْتَمُر الساقيّ نائب حَلَب المعروف بحمّص أخضر. وسبب مخالفته أنّه شقّ عليه إخراج أولاد استاذه الملك الناصر إلى الصعيد، وأيضاً تجهيز العساكر لقتال أحمد آبن الملك الناصر بالكَرَك؛ وكان قد بعث إليه أيضاً أحمد آبن الملك الناصر يشكو من قوصون، وأنه يريد القبض عليه ويطلب منه النُّصْرة عليه؛ فكتب طَشْتَمُر إلى أمراء الديار المصريّة وإلى قوصون بالعَتْب، فقبض على قاصده بقَطْيَا[2] وسُجِن. وكَتَب قوصون إلى الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نائب الشام بأن الأمير طَشْتَمُر حمّص أخضر نائب حلب شرع يتكلم في إقامة الفتنة وأنه لا يُصْغي إلى قوله، وبعث إليه بأشياء كثيرة من الهدايا والتحف، فأجاب أَلْطُنْبُغَا نائب الشام بالسمع والطاعة والشكر والثناء.

(١) هذه العبارة التي وضعناها بين هلالين من عندنا غير ظاهرة المعنى.

(٢) قطيا: بلدة مصرية كانت في الطريق ما بين مصر والعريش.

ولما تمّ لقَوْصُون ذلك وقـع بينه وبين الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور، وكادت الفتنة تقوم بينهما، وأغلظ أيدغمش لقَوصون في الكلام. وسببه أن بعض مماليك أمير علي بن أيدغمش وشَى إليه بأنّ قوصون قرر مـع بَرسبُغا الحاجب أن يَبِيت بالقاهرة ويركب في عِدّة من مماليك قوصون ويَكبِس على أيدغمش؛ فأخذ أيدغمش في الاحتراز، وآمتنـع مـن طلوع القلعة أياماً بحجة أنه متوعِّك. وكان ذلك بعد أن تَصالحا بعد تفاوضهما بمدّة يسيرة؛ وصار أيـدغمش إذا سيَّر قـوصون النـائب بالرُّمَيلْة[1] في أيام المواكب يُغلِق أيدغمش باب الإسطبل السلطاني، ويوقف طائفة من الأَوْجاقية عليه، فاشتهر الخبرُ بين الناس وكثُرت القالةُ. وبلَـغ قوصونَ تغيرُ خاطر أيدغمش عليه، فحلف للأمراء أنه ما يعرف لتغيره سبباً. فما زالت الأمراء بأيدغمش حتى طلـع القلعة، وعرَّف قوصون بحضرة الأمراء ما بلغه، فحلفَ قوصون على المصحف أن هذا لم يقـع منه، ولا عنده منه خبر، وتصالحا. وبعث إليه أيدغمش بعد نزوله إلى الإسطبل الناقل إليه فردّه قوصون إليه ولم يُعاقبه.

ثم قَدِم الخبر بوفاة الأميـر بَشْتَك النـاصريّ المقـدم ذكره بمَحْبِسـه بثغر الإسكندريّة، فاتُّهِـم قوصون بقتله. وكان الأمير قوصون قد أنشأ قاعة لجلوسه مـع الأمراء من داخل باب القلعة، وفتـح فيها شُبَّاكاً يُطِلُّ على الدَّرْكَاه، وجَلس فيه مـع الأمراء، ومَدَّ سِماطاً بالقاعة المذكورة وزاد في سِماطه من الحَلْوى والدَّجاج والإِوَزّ ونحو ذلك، وأكثر من الخِلَـع والإنعامات، وصار يجلس مـع الأمـراء بالقـاعة المذكورة. فلمّا قَدِم الخبرُ بموت بَشْتَك تغيّر خاطرُ جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم لموته، فما زال بهم قوصون حتى صالحهم وحلَف لهم.

ثم قَدِم الخبرُ من عبد المؤمن والي قوص بأن الملك المنصور أبا بكر وَجَد في نفسه تغيُّراً، وفي جسده توعُّكاً لَزِم الفراشَ منه أياماً ومات؛ وآتُّهـم قوصون أيضاً بأنّه أمر عبدَ المؤمن بقتله، فتغيّر لذلك خاطرُ الأمراء والمماليك الناصرية قاطبة، وهم يوم ذاك عساكر الإسلام ومَنْ سواهم فقليل.

---

(١) الرميلة: اسم كان يطلق على المنطقة التي تشمل اليوم ميدان محمد علي وميدان صلاح الدين وميدان السيدة عائشة. (محمد رمزي).

ثم قَدِم الخبر على قوصون بنزول العسكر الذي صحبة الأمير قُطْلُوبُغا الفخريّ على مدينة الكَرَك وقد آمتنعت منه وآستعد أهلها للقتال. وكان الوقت شتاءً، فأقام العسكر نحو عشرين يوماً في شدّة من البرد والأمطار والثلُوج وموت الدواب، وتسلط أهل الكرك عليهم بالسب والّلعن والتّوبيخ، وشنُّوا الغارات عليهم، وصاروا يقطعون قِرَبَهم ورَوَاياهم؛ هذا وقوصون يمد الفخريّ بالأموال ويحضّه على لزوم الحِصار.

ثم قَدِم الخبر من دِمشق بأن تَمُر الموسويّ[1] قَدِم من حلب، وآستمال جماعة من الأمراء إلى طَشْتَمُر الساقي حمّص أخضر نائب حلب. فكتب قوصون بالقبض عليه. ثم حمل قوصون تشريفاً إلى نائب حلب المذكور، فلم يرضَ نائب حلب بالتشريف وردّه؛ وكتب إلى قوصون يَعْتبه على إخراج أولاد أستاذه إلى الصعيد، فأجابه قوصون بأعذار غير مقبولة.

ثم قَدِم الخبر على قوصون أيضاً من شَطِّي [بن عبيّة][2] أمير العرب بأنّ قطلوبغا الفخريّ قد خامر على قوصون، وحلَف لأحمد بن الناصر هو ومن معه من الأمراء، وأنّهم أقاموا أحمد سلطاناً ولقّبوه بالملك الناصر؛ وذلك بمكاتبة الأمير طَشْتَمُر الساقي نائب حلب له يَعْتِبُه على موافقة قوصون، وقد فعل بأولاد أستاذه ما فعل، ويَعْزِم عليه أنّه يدخل في طاعة أحمد، ويقوم بنُصْرته. فصادف ذلك من الفخري ضَجَرَه من الإقامة على حِصار الكَرَك وشدّة البَرْد وعِظم الغلاء، فجمع مَن معه وكتب إلى أحمد يخاطبه بالسلطنة وقرّر الصلح معه. وكتب لنائب حلب بذلك فأعاد جوابَه بالشكر، وأعلمه بأن الأمير طُقُزْدَمُر نائب حماة وأمراء دِمشق قد وافقوه على القيام بنُصْرة أحمد. وكان الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نائب الشام قد أحسَّ بشيء من هذا فآحترس على الطُّرُقات، حتّى ظَفِر بقاصد طَشْتَمُر نائب حلب على طريق بعلبك ومعه كتب فأخذها منه، وبعث بها إلى قَوْصُون، فقَدِمت ثاني يوم ورود كتاب شطِّي بمخابرة الفخري، فإذا فيها: «الملكي الناصريّ» فآضطرب قوصون وجَمع الأمراء وعرَّفهم ما وقع وأوقفهم على الكُتب، وذكر لهم أنّه وصل منه إلى قُطْلُوبُغا

(١) في السلوك: «الموساوي».

(٢) زيادة عن مسالك الأبصار: ١/١١١.

الفخري في هذه السَّفرة مبلغُ أربعين ألف دينار سوى الخيل والقُماش والتُّحَف. ورَسم [قوصون] بإيقاع الحَوْطة على دور الأمراء المجرَّدين مع الفخري إلى الكَرَك، فما زال به الأمراء حتى كفَّ عن ذلك. وألزم مباشريهم بحمل ما وصل إليهم وبجميع حواصلهم، وصار قَوْصُون في أمر مَرِيج مما بلغه. وكتَب إلى الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحي نائب الشام بخروجه لقتال طشتمر الساقي حمّص أخضر نائب حلب، ومعه نائب حِمْص ونائب صفد ونائب طرابلس؛ وكتب إليهم قوصون بالسمع والطاعة إلى طاعة نائب الشام، وحمَل إليهم النفقات. فلما بلغ أَلْطُنْبُغا الصالحي نائب الشام ذلك تجهَّز وخرج من دِمشق بعساكرها في جمادي الآخرة فتلقّاه الأمير أُرُقْطاي نائب طرابُلس على حِمْص وصار من جملة عساكره، وأخبره بكتاب نائب حلب إليه يدعوه لموافقته وأنه أبى عليه. ثم بعث ألطنبغا نائب الشام إلى الأمير طُقُزْدَمُر نائب حماة مَن آستماله وحلّفه على طاعة الملك الأشرف كُجُك. ولما بلغ طشتمر حمص أخضر مجيءُ ألطنبغا نائب الشام إليه أرسل آستدعى آبن دُلْغَادر، فقدم عليه، فـآتّفق معه على المسير إلى أَبُلُسْتَيْن؛ وسار به، ومعه ما خفّ من أمواله، وأخذ أولاده ومماليكه فأدركه عسكرُ حلب، وقد وصل إليهم كتابُ نائب الشام بالاحتراس عليه ومَنْعه من الخروج من حلب؛ فقاتلوه عِدّة وجوه فلم ينالوا منه غرضاً؛ وقُتِل من الفريقين خمسةُ نفر وعادوا وأكثرُهم جَرْحَى. فلما وصل طشتمر إلى أَبُلُسْتَيْن كتب إلى إرتْنَا[1] يستأذِنه في العبور إلى الروم، فبَعث إليه إرتنا بقاضيه وعِدّة من ألزامه، وجهّز له الإقامات. فمضى طشتمر إلى قَيْصرِيّة، وقد توجّه إرتنا لمحاربة آبن دِمِرْدَاش بعد أن رتب لطشتمر كلَّ يوم ألفي درهم.

وأما أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نائب الشام فإنّه قَدِم إلى حلب، وكتَب إلى قَوْصُون يُعلِمه بتسحُّب طَشْتَمُر نائب حلب إلى جهة الروم، وأنّه آستولى على مدينة حلب. فقَدِم كتابه على قوصون في يوم الأربعاء ثاني شهر رجب. ثم في يوم الإثنين سابع[2] رجب فرّق الأمير قوصون إقطاعات الأمراء المجرَّدين مع قُطْلُوبُغا الفخري

(١) راجع ص ١٠ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٢) في السلوك: «ثامنه».

الخارجين عن طاعة قوصون، وعِدَّتُهم آثنـان وثلاثون أميراً، منهم أمراء طبلخانات ستة عشر، وأمراء عشرات ستة عشر، وأميران مقدمان: الفخري وقُمارِي.

ثم في يوم الثلاثاء تاسـع عشرين رجب قدِم الأمير الشيـخ علي بن دِلَنْجِي القازانيّ أحد أمراء العشرات المجردين، وأخبر بمسير قطلوبغا الفخريّ من الكَرَك إلى دِمشق، وأنّه يريد مواقعته مـع ألطنبغا الصالحي نائب الشام. وكان من خبَره أنّ الأمير ألطنبغا لما دخل حلب أخذ موجود طشتمر حمص أخضر وباعه؛ وبينما هو في ذلك بلغه دخولُ قطلوبغا الفخري بمَنْ معه إلى دِمَشق، وأنّه دعا للناصر أحمد، وقد وافقه آق سُنْقُر السَّلاَّرِي نائب غزة وأصلم نائب صفد ومن تأخر من أمراء دِمشق بها، مثل سَنْجَر الجُمَقْدَار وتَمُر الساقي، وأنَّ آق سُنْقُر نائب غزة وقف لحفظ الطرقات حتى لا يصل أحد من مصر إلى ألطنبغا الصالحي، وأن قطلوبغا أخَذَ في تحصيل الأموال من دِمَشْق للنفقة على الأمراء والجند، وأن الأمير طُقُزْدَمُر نائب حماة قَدِم عليه في غد دخوله. ورَكِب الفخري وتلقّاه وقَوِي بهم وآستخـدم جنداً كثيرة ونادى بدِمشق: من أراد الإقطاع والنفقة فليحضُر. وأخذ مالاً كثيراً من التجّار، وأَكْرَهَ قاضي القضاة تقي الدين بن السبكي حتى أخذ مال الأيتام، وأَخَذَ أُجَرَ الأملاك والأوقاف لثلاث سنين، فجمـع مالاً عظيماً. وأتتْه جماعات من الأجناد والتُّرْكُمان، وكتَب أوراقاً من ديوان الجيش بأسماء الأجناد البطالين، وأنعم على البطّالين بالخيل والقماش والسلاح. وحلّف [قطلوبغا] الجميـع للسلطان الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون، وعَمِل برسمه العصائبَ السلطانيّة والسناجق الخليفتية والكنابيش والسروج والغاشية والقبّة والطّيْر وسائر أُبَّهة السلطنة. وكتب إلى الملك الناصر أحمد يعرّفه بذلك فأجابه الناصر بالشكر والثناء. فلما سمِـع قوصون ذلك جمـع الأمراء للمَشورة فـآتفق الرأي على تجريد أمراء إلى غزة، فتوجه بَرسْبُغا الحاجب وأمير محمود الحاجب وعلاء الدين عليّ بن طُغْرِيل في جماعة.

ثم كتب قوصون إلى ألطنبغا نائب الشام على يد أُطْلَمِش الكَرِيميّ بأن يسير من حلب إلى قتال الفخري بدِمَشق، فتوجّه أطلمِش الكريمي [على البريد][1] من

(١) زيادة عن السلوك.

البريّة لانقطاع الطريق حتّى وصَل إلى حلب، وعرّف ألطنبغا الخبر، فخرج ألطنبغا بمن معه من العساكر وسار حتى قَدِمَ حِمْص، وقد خرج الفخري من دِمَشق ونزل على خان لاجين وأمسك المضيق، وأقام الجبليّة والعَشِير على الجبَلَيْن، ووقف هو بالعسكر في وسط الطريق.

وأما ألطنبغا فإنّه حلّف من معه من العساكر وسار من حِمْص يريد الفخري حتى قَرُب منه، وعدَدُ الجَمعيْن نحو ثلاثة عشر ألف فارس، فتمهل ألطنبغا كراهيةً لسفك الدماء، وأرسل إلى الفخري رُسُلاً؛ ودام على ذلك ثلاثة أيام فلم يتمّ بينهما أمر. وبعث قُطْلُوبُغا الفخري إلى جماعة من أصحاب ألطنبغا يَعِدُهم [ويستميلُهم][1] حتى وافقوه. فلمّا تَعِبت الرسل بينهم وملّت[2] العسكر من شدّة البرد، بعث ألطنبغا في الليل جماعة من أصحابه ليهجموا على الفخري من ورائه، ويلقاهم هو من قدّامه؛ ورَكِب من الغد، فمال كلُّ أمير بمَن معه من أصحابه إلى جهة الفخري، وصاروا من جملته، فلم يبقَ معه سوى أَرُقْطاي نائب طرابلس وأَسَنْبُغَا بن [بَكْتَمر][1] البوبكري وأَيْدَمُر المَرْقَبِيّ من أمراء دِمشق، فانهزموا على طريق صفد إلى جهة غزة، والقوم في أثرهم ، بعد أن كانت بينهم وقعةٌ هائلة إنهزم فيها أَلْطُنْبُغا نائب الشام.

ثم ٱلتفت الفخري إلى جهة دِمَشق، وترك السير خلف ألطنبغا حتّى دخل دِمشق مؤيَّداً منصوراً. وكتَب في الحال مع البريد إلى الأمير طَشْتَمُر الساقي حمّص أخضر نائب حلب يعرِّفه بنُصْرته ويدعوه إلى الحضور من بلاد الروم، وأنّه في ٱنتظاره بدِمَشق. ثم حلَف الفخري ومَنْ معه للملك الناصر أحمد، وأَمَر الخطباء فدعوا له على منابر دِمشق وضرب السِّكّة بٱسمه.

وأمّا ألطنبغا الصالحي نائب دِمَشق فإنّه وصل إلى غزّة بمن معه فتلقّاهم الأمير بَرسْبُغا الحاجب ورُفْقَتُهُ؛ وكتب ألطنبغا إلى قوصون بما وقع، فلمّا بلغ قوصونَ الخبرُ قامت قيامتُه وقَبَض على [إخوة][1] أحمد شادّ الشرابخاناه وعلى قَرَطاي أُستادار

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «ومات». وما أثبتناه عن السلوك.

الفخري. ثم قَدِم على قوصون كتابُ الفخري يعتِبُه على إخراج أولاد أستاذه إلى قُوص وقَتْل الملك المنصور أبي بكر، وأنّ الاتفاق وقَع على سلطنة الملك الناصر أحمد، ويُشير عليه بأن يختار بلداً يقيم بها حتى يسأل له السلطان الملك الناصر أحمد في تقليده نيابَتها. فقام قوصون وقعد لمّا سَمِع ذلك، وجَمَع الأمراء فوقَع الاتفاق على تجهيز التّقادِم للأمراء بغزة. فجهز قوصون لكل من ألطنبغا نائب الشام وأرُقْطاي نائب طرابلس ثلاثين بَذْلَة قماش وثلاثين قباء مُسَنْجبَة بطرازات زَرْكَش ومائتي خُفّ ومائتي كَلْفتاه وكسوة لجميع مماليكهما وغلمانهما وحواشيهما. وجهز لكل من الأمراء الذين معهما ثلاث بَذْلات وأَقْبِية بسِنْجاب وكُسوة لمماليكهم وحواشيهم. وأخذ قوصون في الإنعام على المماليك السلطانيّة، وأخرَج ثلاثمائة ألف دينار من الذخيرة لتجهيز أمره، حتى يخرجَ بالعساكر إلى الشام. وأخرج أربعمائة قَرْقَل[1] وعِدة زَرَدِيّات وخُوَذ وغيرها، وأنعم على جماعة من المماليك السلطانية بإمريات، وغير إقطاعات جماعة منهم. ثم كتَب قوصون إلى الأمراء بمسيرهم من غَزّة إلى جهة القاهرة، وهيّأ لهم الإقامات والخيول، وبعث إليهم بالحلاوات والفواكه وسائر ما يَليق بهم.

وبينما قوصون في ذلك إذ رَكِب الأمراء عليه في ليلة الثلاثاء تاسع عشرين رجب وقت العشاء الآخرة. وسبب ركوبهم عليه تنكُّرُ قلوب الأكابر عليه لأمور بدت منه، منها: قَتلُ الأمير بَشْتَك الناصريّ بغير ذنب، وهو أعزُّ خُشْداشِيته، ولم يَكْفِه ذلك حتّى قَتل الملك المنصورَ أبا بكر وهو آبن أستاذه، وكان يكفيه الخلع من الملك. ومنها قوّةُ الوحشة بينه وبين الأمير أَيْدُغْمُش الناصريّ أمير آخور، وهو أكبر خشداشِيته؛ فأخذ أَيْدُغْمُش يدبِّر عليه، وغيَّر خواطر جماعة كثيرة عليه. ثم[2] كان من انتصار قُطْلُوبُغا الفخري على أَلْطُنْبُغا الصالحي نائب الشام [ما كان، فكتب قطلوبغا إلى أيدغمش سراً بأنه سلطن أحمد، وحرّضه على الركوب إلى الكرك بمن

(١) القرقل: تجمع على قرقلات، وهي نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد وتغشى بالديباج الأحمر والأصفر. وقد تكون مبطنة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٧٢).

(٢) في الأصل: «إلى أن كان». والتعديل والزيادة التالية عن السلوك للتوضيح.

قدر على استمالته]. وكان قوصون قد آحتفل لقدوم ألطنبغا نائب الشام ومن معه احتفالاً زائداً، وفتح ذَخِيرة السلطان، وأكثرَ من النفقات والإنعامات حتى بلغت إنعاماتُه على الأمراء والخاصَّكيّة ستمائة ألف دينار. فشاع بأنه يريد [أن] يتسلطن، فخاف أيدغمش وغيرُه من تحكُّمه في السلطنة، وحرَّض الأمراءَ الخاصّكِيّة حتى وافقه الأميرُ علاء الدين ألطنبغا المَارِدَانيّ والأمير يلْبُغا اليَحْيَاوِيّ في عدّة من المماليك السلطانيّة، وجَمْعٌ كثير من أكابر الأمراء، منهم: الأمير الحاجّ آل ملك والأمير بدر الدين جَنْكَلي بن البابا وآتفقوا الجميع أنهم يَسيرُوا[1] جميعاً إلى الكرك عند قدوم ألطنبغا نائب الشام وخروجهم إلى لقائه.

فلما كان يوم الإثنين رَكِب الأمير قوصون في المَوْكِب تحت القلعة على العادة وطلب الأمير تلجك آبن أخته وأخرجه إلى لقاء الأمير ألطنبغا الصالحيّ نائب الشام ـ وقد ورد الخبرُ بنزوله على بلبيس ـ ليأتي به سريعاً. فوافاه ومن معه إلى بلبيس، فسأله في القدوم إلى القاهرة بسرعة، فلم يُوافقه على السرعة وقصد أن يكون حضورُه في يوم الخميس أوّل شعبان. وبات [ألطنبغا] ليلة الثلاثاء على بلبيس، ورَكِبَ من الغد ونزل سِرْيَاقُوس، فبلغه ركوبُ الأمراء على قَوْصُون، وأنه محصور بالقلعة، فرَكِب بمن معه إلى بركة الحاج، وإذا بطُلْب قَوْصُون وسَنْجَقه قد وافوه في نحو مائة مملوك، وأعلموه أنّ في نصف الليل رَكِبت الأمراء وآحتاطت بإسطبل قوصون، ثم حَصَرُوه في قلعة الجبل، فخرجوا هم على حَمِيّة حتى وصلوا إليهم؛ هذا ما كان من أمر أَلْطُنْبُغا نائب الشام.

وأمّا أمر قوصون فإنّه لما بعث تلجك ليأتيه بالأمير ألطنبغا نائب الشام سريعاً، تحقّق أَيْدُغْمُش وأصحابُه أنّ قوصون فَهِم عنهم ما دبَّروه، فتواعد الأمير أيدغمش مع مَنْ وافقه على أن يركبوا في الليل إلى الكرك. فجهَّز كلّ منهم حالَه، حتى كان ثُلُث الليل فَتح الأمراء باب السور[2] من قلعة الجبل ونزلوا إلى الأمير أيدغمش بالإسطبل السلطانيّ. ثم مضى كلٌّ واحد إلى إسطبله، فلم ينتصف الليل إلا وعامة

---

(١) تركنا هذه الصيغة في التعبير وبعض الصيغ المشابهة دون تصحيح بهدف الإشارة إلى أسلوب الكاتب وعبارته الركيكة.

(٢) في السلوك: «باب السرّ» بدون عبارة: «من قلعة الجبل».

الأمراء بأطلابهم في سوق الخيل تحت القلعة، وهم: الأمير ألطنبغا المَارِدَانِيّ ويَلْبُغا الْيَحْيَاوِيّ وبهادُر الدِّمِرْدَاشي والحاج آل ملك والجَاوْلِي وقُمارِي الحَسَنِيّ أمير شِكار وأُرُنْبُغا وآق سُنْقُر السَّلَّارِيّ. وبعثوا إلى إسطبلات الأمراء مثل جَنْكَلي بن البابا وبِيبَرْس الأحمدي وطُرْغَاي وقيَاتَمر والوزير ولَبِست مماليكهم وأخرجت أطلابُهم. ثم خرج إليهم الأمير أَيْدُغْمُش بمماليكه ومَنْ عنده من الأوجاقيّة، ووقفوا جميعاً ينتظرون نزول قَوْصُون إليهم، فأحسّ قوصون بهم وقد انتبه، فطلَب الأمراء المقيمين بالقلعة، فأتاه منهم اثنا عشر أميراً، منهم جَنْكَلي بن البابا وقياتَمُر والوزير. ولبِست مماليكُ قَوْصون التي كانت عنده بالقلعة وسألته أن ينزل ويُدرِك إسطبلَه ويجتمع بمن فيه من مماليكه، وكانوا سبعمائة مملوك، وكان قوصون يغترّ بهم ويقول: «إيش أُبالي بالأمراء وغيرهم! عندي سبعمائة مملوك أَلْقَى بهم كل مَنْ في الأرض» فلم يوافقهم قوصون على النزول لِما سَبق في القِدَم[1]. وأقام قَوْصُون بالقلعة إلى أن طلع النهار؛ فلمّا لم يظهر له حركةٌ طَمِع أيدغمش فيه، وأمر الأوجاقية أن تطلُع إلى الطبلخاناه[2] السلطانية وأخرجَ لهم الكُوسات، فدَقُّوا حربيّاً. ثم نادى أَيْدُغْمُش: «معاشرَ أجناد الحَلْقة ومماليك السلطان والأجناد [و]البطّالين يحضُروا، ومَنْ ليس له فرس وليس له سلاح يحضُر ويأخذ له الفرس والسلاح ويركب معنا، ويقاتل قَوْصُون» فأتاه جماعة كثيرة من أجناد الحَلْقة والمماليك ما بين لابس سلاح وراكب وبين ماشٍ وعلى حِمار. وأقبلت العامّةُ كالجَرَاد المُنْتشِر لما في نفوسهم من قَوْصون، فنادى لهم أيدغمش: «يا كَسّابة[1]، عليكم بإسطبل قوصون، انهبوه»

---

(١) المراد: لما أراد الله به، كما هي عبارة السلوك.

(٢) الطبلخاناه: كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقي السلطانية أو بيت الطبل. وتشتمل على الطبول والأبواق. والطبلخاناه السلطانية هي المكان المخصص من حواصل السلطان لطبول الفرقة وأبواقها وتوابعها من الآلات؛ ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة ويتولى أمرها في السفر. ولها مهتار يتسلم حواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه، وله رجال تحت يده، ما بين دينْدار وهو الذي يضرب على الطبل، ومنفّر وهو الذي ينفخ في البوق، وكوسيّ وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس، وغير ذلك. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٢٨).

(٣) الكَسّابة: الذين همهم في الحرب كسب الغنائم. وكان قسم من هؤلاء يخرج مع الجيوش للنهب والسلب. وغالباً ما كان يطلق عليهم اسم الحرافشة والحرافيش.

فأحاطوا به، ومماليكُ قوصون من أعلاه ترميهم بالنشاب حتى أتلفوا منهم عِدَّةً كثيرة؛ فركِب مماليكُ يَلْبُغا الْيَحْيَاويّ من أعلى بيت يلبغا ــ والبيت المذكور هو الآن موضع مدرسة السلطان حسن ــ وكان بيت يلبغا يُشرف على بيت قوصون، فلمّا طلعوا مماليك يلبغا اليحياوي تسلَّطوا على مماليك قوصون ورموْا عليهم بالنُّشّاب مساعدةً للعوام، وجرحوا منهم جماعة كثيرة وحالوا بينهم وبين العامة. فهجمت العامّة عند ذلك إسطبل قوصون ونهبوا زَرَدْخَاناته وحواصلَه وأموالَه وكسروا باب قصره بالفؤوس بعد مكابدة شديدة، وطلَعوا إلى القصر ونهبوا ما فيه، وقوصون ينظر ذلك من شباك القلعة ويقول: «يا مسلمين ما تحفظون هذا المال! إما أن يكون لي أو يكون للسلطان» فقال أيدغمش: «هذا شكرانه للناس، والذي عندك فوق من الجوهر والتُّحَف يكفي السلطان». وصار قوصون كلّما همّ للركوب بمماليكه كسّروا عليه الخاصِكيّة وقالوا له: «يا خَوَنْد غداً نركب ونقتل هؤلاء» وصاروا يهوِّنوا عليه أمر أيدغمش وأصحابه لباطن كان لهم مع أيدغمش، حتى كان من أمره ما كان.

ولمّا هجمت العامة بيت قوصون خرجوا مماليكُه منه على حَمِيّة وشقُّوا القاهرة، وتوجّهوا إلى عند الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحي نائب الشام، فبعث أَيْدغُمُش في أثرهم إلى ألطنبغا نائب الشام ومَن معه بالسلام عليهم، وأن يمنعوا مماليك قَوْصُون من الاختلاط بهم، فإنّ الأمير يلبغا اليحياوي والأمير آق سنقر قادمان في جَمْع كبير لأخذ مماليك قوصون وحواشيه. فأمر ألطنبغا نائب الشام مماليكَ قوصون وتلجك وبَرْسُبغَا الحاجب أن يكونوا على حِدة؛ ولبِسوا الجميع، وأخذ الأمير برسبغا مماليك قوصون وجماعته إلى جهة الجبل، فلَقِيهم الأمير يلبغا اليحياوي بمن معه على بُعد، وكان ذلك بعدما أمسك قوصون، فسار خلفهم إلى قرب إطْفِيح. وقيل في أمر مماليك قوصون غير ذلك على ما سنذكره بعد القبض على قوصون.

وأمّا قوصون فإنه بقي واقفاً بشُبّاك القلعة والعامّة تنهب في بيته؛ فلم يمضِ إلا ساعات من النهار حتى نُهِب جميعُ ما في إسطبله، وقوصون يضرب يداً على يد ويقول: «يا أمراء! هذا تصرفُ جُنْد! يُنْهَب هذا المالُ جميعُه» وكان أيدغمش قصد بذلك أن يقطع قلب قوصون. ثم بعث قوصون إلى أيدغمش يقول: «إنّ هذا المالَ

عظيمٌ وينفع المسلمين والسلطان، فكيف تفعل هذا وتُنادي بنهبه؟» فردّ جوابَه: «نحن قصدُنا أنت، ولو راح هذا المال وأضعافه» هذا كلُّه والقلعة مغلّقة الأبواب، وجماعةُ قوصون يرمون من الأشرفيّة[١] بالنُّشّاب إلى أن قَرُب العصر، والعامّة تجمع نُشّابهم وتُعطيه لمن هو من جهة أيدغمش. فلما رأى قوصون أمرَه في إدبار سَلَّم نفسَه؛ ودخل عليه الأميرُ بُلكَ الجَمَدَار ومَلِكْتَمُر السَّرْجَواني يأمراه[٢] أن يُقيم في موضع حتى يحضُر آبن أستاذه من الكَرَك فيتصرّف فيه كما يختار، فلم يجد بُدّاً من الإذعان. وأخذ يُوصي الأمير جَنْكَلي بن البابا وأمير مسعود حاجب الحُجّاب على أولاده؛ فأُخذ وقُيِّد، ومضَوْا به إلى البُرْج[٣] الذي كان بَشْتك فيه، ورسَم عليه جماعة من الأمراء. وكان الذي تولّى مَسْكَهُ وحبسه جَنْكَلي بن البابا وأمير مسعود الحاجب وأُرُنْبُغا أمير جَانْدَار.

وأمّا الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نائب الشام ومَنْ معه فإن بَرْسبُغا وتلجك والقَوْصُونيّة لمّا فارقوا ألطنبغا المذكور سار ألطنبغا وأَرُقْطاي والأمراء يريدون القاهرة، وأشار ألطنبغا نائب الشام على أرقطاي نائب طرابلس أن يرد برسبغا وتلجك والقوصونية ويُقاتل بهم أَيْدُغْمُش: فإنّه ينضمّ إليه جميعُ حواشي قوصون، ويأخذوا أيدغمش، ويُخرجوا قوصون، ويُقيموه كبيراً لهم، أو يُخرجوه إلى حيث يختار، ويقيموا سلطاناً أو ينتظروا أحمد؛ فلم يُوافقه أَرُقْطاي على ذلك لعفّته عن سَفْك الدماء. فلمّا أعيا أَلْطُنْبُغا أمره سارا نحو القاهرة حتى وافيا أيدغمش وهو واقف تحت القلعة بأصحابه؛ فأقبل أيدغمش عليهما وعانقهما وأمرهما أن يطلعا إلى القلعة فطلعا. ثم أرسل أيدغمش الأمير قازان والأمير آق سُنْقُر خلف بَرْسبُغا وتلجك ومن معهما. وجلس أيدغمش مع ثقاته من الأمراء وقرّر معهم تسفير قوصون في الليل إلى الإسكندريّة، والقبض على ألطنبغا الصالحي نائب الشام وعلى أَرُقْطاي نائب طرابلس ومن يلوذ بهما من الغد ــ فكان كذلك وقُبِض عليهم ــ وتسفيرَ الأمير بِيبَرْس

---

(١) أي القاعة الأشرفية في القلعة. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٢١١.

(٢) كذا. وهي من جملة الأخطاء الشائعة في أسلوب المؤلف.

(٣) هذا البرج كان من سجون القلعة. وقد هدمه محمد علي باشا وجدد مكانه برجاً أصغرَ من القديم، لا يزال قائماً، ويعرف باسم برج المقطم لأنه يشرف على جبل المقطم. (محمد رمزي).

الأحمديّ والأمير جَنْكَلي بن البابا لإحضار السلطان الملك الناصر أحمد من الكرك.
ثم أُخرِج الأمير قوصون من سجنه بقلعة الجبل في ليلة الخميس مع مائة فارس حتّى أوصلوه إلى النيل، ورَكِب البحر ومُضِي به إلى الإسكندرية فسُجِن بها على ما سيأتي ذكرُه.

وأمّا ما نُهِب لقوصون في هذه الحركة فشيء كثير؛ فإنه كان في حواصله من الذهب النَّقْد أربعمائة ألف دينار عين في أكياس، ومن الحوائص الذهب والكَلْفَتَات الزركش والأواني فشيء لا ينحصر، وثلاثةُ أكياس أَطْلس فيها فصوص وجواهر مثمّنة بما يُنِيف على مائة ألف دينار، ومائةٌ وثمانون زَوْج بُسط، منها ما طوله أربعون ذراعاً وثلاثون ذراعاً، كلُّها من عمل الروم وآمِد وشِيراز، وستة عشر زَوْجاً من عمل الشريف[1] بمصر، وأربعةُ أزواج بُسُط حرير لا يقوم عليها لحسنها؛ فـانحط سعر الذهب من كَثْرة ما نُهِب لقَوْصون، حتّى صُرِف بأحد عشر درهماً الدينار ممّا صار، وكَثُر في أيدي الناس بعدما كان الدينار بعشرين درهماً، ولأنّ أَيْدُغْمُش نادى بعد ذلك بالقاهرة ومصر أنّ من أحضر من العامة ذهباً لتاجر أو صَيْرَفي أو مُتَعَيِّش يُقْبَض عليه ويُحْضَرُ به إلى أيدغمش، فكان مَنْ معه منهم ذهب يأخذ فيه ما يُدْفَع إليه من غير توقُّف، فرخُص سعرُ الذهب لذلك. وكثُرت مرافعاتُ[2] الناس بعضُهم لبعض فيما نُهِب، فجَمع أيدغمش شيئاً كثيراً من ذلك؛ فإن العامة يوم نُهب إسطبل قوصون أخذوا من قَصْره حتّى سقوفه وأبوابه ورُخامه وتركوه خراباً، ثم مضوا إلى خانقاته بباب القرافة فمنعهم صوفيتُها من النهب، فما زالت العامّة تقاتلهم حتّى فتحوها، ونهبوا جميع مَا فيها، حتى سلبوا الرجال والنساء ثيابَهم، فلم يدعوا لأحد شيئاً، وقطعوا بُسُطَها وكسروا رُخامها وأخربوا بركتها، وأخذوا الشبابيك وخشب السقوف والمصاحف، وشَعَّثُوا الجُدُرَ. ثم مضوا إلى بيوت مماليك قوصون، وهم في حَشْدٍ عظيم، فنهبوها وخرّبوها وما حولها، وتتبعوا حواشي قوصون بالقاهرة

---

(١) الشريف: اسم صانع اشتهر بصناعة البسط في هذا العصر. ـ انظر خطط المقريزي: ٢/٧٣.
(٢) لعل الصواب: «مدافعة» أي تدافع الناس.

والحُكُورة وبولاق والزَّرِيبة[١] وبركة قُرْمُوط[٢]، وباعت العامة السقوف والأواني بأخسّ الأثمان، وصارت العامة إذا أرادوا نَهْب أحدٍ قالوا: هذا قَوْصُونِيّ!، فيذهب في الحال جميعُ ماله. وزادت الأوباش في ذلك حتى خرجوا عن الحدّ. وشَمِل الخوفُ كلّ أحد، فقام الأمراء على أيدغمش وأنكروا عليه تمكينَ العامّة من النهب، فأمر لسبعة من الأمراء، فنزلوا إلى القاهرة، والعامّة مجتمعةٌ على باب الصالحية في نهب بيت القاضي الغُوري الحنفيّ، فقبضوا على عِدّة منهم، وضربوهم بالمَقَارِع، وشهَّروهم، فـآنكفُّوا عن نهب الناس. إنتهى.

وأمّا أصل قوصون وآتصـاله بالملك الناصر محمد بن قلاوون حتى صار ساقيه أعظمَ مماليكه هو وبَكْتَمُر الساقي، فإنّ قوصون كان ممن حضر إلى الديار المصريّة من بلاد التُّرك صحبةَ [خَوَنْد][٣] بنت أُزْبَك خان التي تزوجها الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو غير مملوك. فلمّا كان في بعض الأيام طلَـع قوصون إلى القلعة في خدمة بعض التُّجار، فرآه السلطان الملك الناصر فأعجبه، فقال للتاجر: لأيّ شيء ما تبيعني هذا المملوك؟» فقال التاجر: «هذا ما هو مملوك» فقال الملك الناصر: «لا بُدّ أن أشتريه» ووزن ثمنه مبلـغ ثمانية آلاف درهم، وجهّز الثمن إلى أخيه صُوصُون إلى البلاد[٤]. ثم أنشأه الملك الناصر وجعلَه ساقياً، ثم رقَّاه حتى جعله أمير مائة ومقدَّم ألف؛ وعَظُم عند الملك الناصر وحَظِي عنده وزوّجه بـآبنته وهي ثانية بنت زوّجها الملك الناصر لمماليكه في سنة سبـع وعشرين وسبعماية؛ وكان له عُرْس حفل؛ آحتفـل به الملك الناصر، وحَمل الأمراء التقادِمَ إليه، فكان جملة التقادم خمسين ألف دينار. ولما كان يقـع بينه وبين بَكْتَمُر الساقي منافسة يقول قَوْصُون: «أنا ما تنقّلت من الإسطبلات إلى الطِّباق، بل اشترانـي السلطان وجعلني خاصّكِيّاً مقرّباً عنده دفعة واحدة» فكان الملك الناصر يتنـوّع في الإنعام على قوصون، حتى قيل إنه دفـع إليه مرة مفتاح زَرَدْخانات الأمير بكتمر الساقي بعد موته،

(١) أي زريبة قوصون. ص ١٣٩، حاشية(٥).
(٢) في الأصل: «وبركة الفيل». والتصحيح عن السلوك.
(٣) زيادة عن خطط المقريزي: ٣٠٧/٢.
(٤) أي بلاد القبجاق التي جاء منها قوصون إلى الديار المصرية.

وقيمتها ستمائة ألف دينار، قاله الشيخ صلاح الدين الصفديّ في «تاريخه». ثم تزايد أمر قوصون حتى وقع له ما حكيناه. وآستمرّ قوصون بسجن الإسكندرية هو وأَلْطُنْبُغا الصالحي نائب الشام وغيرهما حتى حضر الملك الناصر أحمد من الكَرَك وجلس على كرسي الملك بقلعة الجبل، حسب ما يأتي ذكرُه. وآتفقت آراء الأمراء على قتل قوصون، فجهّزوا لقتله شهاب الدين أحمد بن صُبْح إلى الإسكندريّة، فتوجّه إليها وخَنَق قوصون وألطنبغا نائب الشام وغيرهما في شوّال سنة آثنتين وأربعين، وقيل في ذي القعدة على ما يأتي بيان ذلك في وقته.

وخلّف قوصون عدَّة أولاد من بنت أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون. وكان أميراً جليلاً كريماً خيِّراً شجاعاً؛ وكان يُعطي العطايا الهائلة؛ وكان إذا رَكِب للصيد في أيام أستاذه يركب في خدمته ثُلُث عسكر مصر؛ وكان يركب قدّامه بالقاهرة مائة نقيب؛ وكان أخوه صوصون أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية، وقيل أمير طلبخاناه. وكان وقع بين قوصون وبين تَنْكِز نائب الشام، فلمّا قُبِض على تنكز وحُمِل إلى القاهرة ما عامله قوصون إلا بكل خير. ولما أُمسِك قوصون وقُتِلَ قال فيه الصلاح الصفدي: [السريع]

قَوصونُ قد كانت له رتبةٌ ... تسمو على بدر السما الزاهرِ
فحطّه في القيد أَيْدُغْمُشٌ ... من شاهقٍ عالٍ على الطائرِ
ولم يَجِد من ذلّه حاجباً[1] ... فأين عينُ الملك الناصرِ
صار عجيباً أمرهُ كلُّه ... في أوّل الأمر وفي الآخِرِ

وقال في قوصون وفي واقعته عدّةٌ من الشعراء من الشعر والبَلَالِيق[2] والأزجال. وعَمِلت الحلوانيّة مِثالَه في حلاوة العَلَالِيق[3]، فقال في ذلك جمال الدين

(١) في السلوك: «صاحباً».

(٢) راجع الجزء التاسع، ص ١٠٦، حاشية (٣).

(٣) ذكر المقريزي في خططه: ٢/ ١٠٠ في كلامه على سوق الحلاويين أن فيه «من السكر المعمول بالصناعة ما يحيّر الناظر حسنها... ومن أحسن الأشياء منظراً ما كان يصنع من السكر في المواسم مثل خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق، واحدها علاقة، ترفع بخيوط على الجوانب؛ فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، تشترى للأطفال...»

إبراهيم الأديب المعمار: [مجزوء الرمل]

شخصَ قوصونَ رأينا في العَلاليق مسمَّرْ
فَعجِبنا منه لمّا جاء في التسمير سُكّرْ

ولبعض عوامّ مصر قصيدة «كان وكان» أوّلها:

من الكَرَك جانا الناصرْ وجَبْ معهْ أسْد الغابَهْ
ووقعتك يا أمير قوصونْ ما كانتِ الاّ كدّابَهْ

وأشياء غير ذلك، وقد خرجنا عن المقصود ولنرجع إلى ذكر أيدغمش وما فعله بمصر.

وأما أيدغمش فإنه آستمرّ مدبِّر الديار المصريّة، وقام بأمر السلطان الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، وجمعَ الأمراء وخلَع الملك الأشرف علاء الدين كُجُك آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون من المُلك في يوم الخميس أوّل شعبان من سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة. فكانت مدّة سلطنته على مصر خمسة أشهر وعشرة أيام، ولم يكن له فيها من السلطنة إلاّ مجرّد الاسم فقط، وليس له من الأمر شيء، وذلك لصِغَر سنّه. وكان المتصرّف في المملكة في سلطنته الأمير قوصون. وكانت إذا حضرت العَلاَمة أعطى قَوْصون الأشرف كُجُك في يده قلماً، وجاء الفقيه الذي يُقرئه القرآن فيكتب العلامة والقلم في يد الأشرف كجك. واستمر الأشرف كجك بعد خلعه من السلطنة في الدور السلطانية تحت كَنَف والدته وهو ووالدته في ذلّ وصَغَار وهَوَان مع من تسلطن من إخوته، لا سيّما مع أُمّ الملك الصالح إسماعيل؛ فكانت في كلّ قليل إذا توعّك ولدُها الملك الصالح إسماعيل، وكان كثير الضعف، تَتَّهِم المذكورة أنها تتعمّد له بالسِّحْر، وتأخذ جوارِيَها وحواشِيَها وتعاقبهم؛ وأخذت منها جملةً مستكثَرَة، فدامت على هذا مدّة سلطنة الملك الصالح، حتى نزل مرّة إلى سرحة سِرْياقوس وبعث دَسّ عليه أربعة خدّام طواشيّة فقتلوه على فراشه في سنة ست وأربعين وسبعمائة، وله من العمر آثنتا عشرة سنة. وعظُم مُصابه على والدته، بل على الناس قاطبة. رحمه الله تعالى.

ذكر سلطنة الملك الناصر أحمد[1] على مصر

السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد آبن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد آبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. تسلطن بعد خلع أخيه الأشرف كُجُك؛ وكان بُويِع بالسلطنة قبل خلع كُجُك أيضاً وهو بقلعة الكَرَك حسب ما ذكرناه في واقعة قُطْلُوبُغا الفخري مع أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نائب الشام. وأمّ الملك الناصر هذا كان آسمها بَيَاض، كانت تُجيد الغِناء، وكانت من عتقاء الأمير بهادُر آص رأس نَوْبة، وكانت تُعرف بقُومة، وكان للناس بها آجتماعات في مجالس أُنسهم. فلمّا بلغ السلطانَ الملك الناصر خبرُها طلبها، وآختصّ بها، وحَظِيت عنده، فوَلَدت أحمد هذا على فراشه. ثم تزوّجها بعد ذلك الأمير مَلِكْتَمُر السَّرْجَوانِيّ في حياة الملك الناصر محمد. اِنتهى.

قلت: والملك الناصر أحمد هذا هو الخامس عشر من ملوك الترك بالديار المصريّة والثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. والآن نذكر ما وقع بالديار المصريّة بعد خلع الأشرف كُجُك إلى حين دخول الملك الناصر هذا إليها من الكرك. ولما قبض أيدغمش على قوصون وخلع الملك الأشرف كُجُك من السلطنة، حسب ما تقدّم ذكرُه، بعث بالأمير جَنْكَلي بن البابا والأمير بِيبَرْس الأحمديّ والأمير قُماري أمير شِكار إلى الملك الناصر أحمد بالكرك وعلى يدهم كُتُب الأمراء يخبرونه بما وقع ويستدعونه إلى تخت مُلكه. ثم جلس الأمير سيف الدين أيدغمش والأمير أَلْطُنْبُغا المارِداني والأمير بهادر الدمِرْدَاشِي والأمير يَلْبُغا اليَحيَاوِيّ وآستدعوا

---

(١) انظر ترجمته وأخباره في السلوك: ٥٩٣/٣/٢؛ وبدائع الزهور: ٤٩٥/١/١؛ والجوهر الثمين: ١٧٩/٢؛ والبداية والنهاية: ٢٠٣/١٤ وما بعدها؛ وتاريخ الشجاعي: ٢٠٤؛

الأمراء؛ فلما حضروا أَمرَ أيدغمش بالقبض على ألطنبغا الصالحي الناصري نائب الشام، وعلى الأمير أَرُقْطاي نائب طرابُلُس وسُجِنا بقلعة الجبل؛ وأمسكوا بعدهما سبعة[1] أمراء أُخَر من أمراء الطبلخاناه، والأمير قياتَمُر أحد مقدمي الألوف، وجَرِكْتَمُر بن بهادُر أيضاً من مقدَّمي الألوف وعدّة أمراء أُخر، حتى كانت عِدّة مَنْ قُبِض عليه من الأمراء في هذا اليوم خمسة وعشرين أميراً. ثم كتب الأمير أيدغمش إلى الأمير قُطْلُوبُغَا الفخري يعرفه بما وقع ويحرضه على الحضور صحبة السلطان الملك الناصر [أحمد]. ثم طلب أَيْدُغْمُش جمالَ الدين يوسف والي الجيزة وخلَع عليه بولاية القاهرة؛ فنزل إلى القاهرة فإذا بالعامّة في نهب بيوت مماليك قَوْصُون، فقبَض على عشرين منهم وضربهم بالمقارع وسجنهم بعدما شهَّرهم؛ فآجتمعت الغوغاء ووقفوا لأيدغمش وصاحوا عليه: «ولَّيْتَ على الناس واحد قَوْصُوني ما يُخلِّي منا واحداً»! وعرفوه ما وقع، فبعث الأَوْجاقية[2] في طلبه، فوجدوه بالصَّلِيبة[3] يريد القلعة، فصاحت عليه الغوغاء: «قوصوني! يا غَيْـرِيّة[4] على الملك النـاصر»، ورَجموه من كلّ جهة. فقامت الجبليّة والأَوْجاقية في ردّهم فلم يُطيقوا ذلك، وجرت بينهم الدماء، فهرَب الوالي إلى إسطبل أَلْطُنْبُغا المارداني، وحمتْه مماليك ألطنبغا من العامّة، فطلب أيدغمش الغوغاء وخيَّرهم فيمن يلي فقالوا: «نجم الدين الذي كان وَلِي قبل آبـن المُحْسِني»، فطلبه وخلَـع عليه، فصاحـوا: «بحياة الملك الصالـح الناصر! إعزل عنا آبـن رخيمة المقدّم وحمامص رفيقه» فأذن لهم في نهبهما، فتسارع نحو الألف منهم إلى دار آبـن رخيمة بجانب بيت الأمير كُوكَاي فنهبوه ونهبوا بيت رفيقه ثم آنكفّوا عن الناس.

وفي يوم الجمعة ثاني شعبان دُعِي على منابر مصر والقاهرة للسلطان الملك الناصر أحمد. وفي يوم الاثنين خامسه تجمَّعت العامّة بسوق الخيل، ومعهم رايات

---

(١) في السلوك: «وأخذوا بعدهما سبعة عشر أمير طبلخاناه».

(٢) الأوجاقية أو الأوشاقية: واحدها أوجاقي أو أوشاقي، وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة. (صبح الأعشى: ١٣/٢٣٩).

(٣) أي خط الصليبة بالقاهرة.

(٤) كذا أيضاً في السلوك. والمراد أنهم ينادون الغيارى على الملك الناصر.

صُفْر، وتصايحوا بالأمير أَيْدُغْمُش: «زوّدنا لنروح إلى أُستاذنا الملك الناصر ونجيء صحبتَه» فكتب لهم مرسوماً بالإقامة والرواتب في كلّ منزلة، وتوجهوا مسافرين من الغد. وفي يوم الأربعاء سابع شعبان وصل الأمراء من سجن الإسكندريّة الذين كان سجنهم قوصون حتى أفرج عنهم أَيْدُغْمُش، وهم الأمير مَلِكْتَمُر الحجازيّ وقُطْلِيجَا الحَمَوِيّ وأربعة وخمسون نفراً من المماليك الناصريّة. وكان قوصون لمّا دخل إلى الإسكندريّة مقيَّداً وافوه هؤلاء بعد أن أُطلِقوا فسلموا عليه سلَام شامت فبكى قوصون وآعتـذر لهم بما صدر منه في حقّهم. وعندما قَدِموا إلى ساحل مصر رَكِب الأمراء إلى لقائهم، وخرجت الناس لرؤيتهم فكان لقدومهم يومٌ مشهود، حتى طلَعوا إلى القلعة فتلقّت خَوَنْد الحِجارية بنت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون زوجها مَلِكْتَمُر الحجازيّ بخُدَّامها وجواريها، ومغانيها تَضِرب بالدفوف والشَّبَّابات فرَحاً به. ومعها أختها زوجة بَشْتَك تساعدها بالفرح وهي شامتة بقوصون لكونه قتلَ زوجها بَشْتَك الناصريّ قبل تاريخه هذا. وأختها بنت الملك الناصر الأخرى زوجة قوصون بجانبها في عَويل وبُكاء وصِياح ولَطْم على قوصون. وقد آفترق جواري الملك الناصر وأولاده فرقتين، فرقة مع الحجازية وفرقة مع القَوْصُونيّة؛ والعجبُ أن هذا الفرح والعزاء كان قبل ذلك بالعكس، فكان العزاء إذ ذاك في بيت الحجازيّ، والفرح في بيت قوصون، والآن العزاء في بيت قوصون والفرح في بيت الحجازي، وزوجة بشتك، وإن كان فرط في زوجها الفَرَط، فهي تساعد أختها الحجازيّة شماتَةً بقوصون، فحالُها كقول مَن قال: [الوافر]

وما من حُبِّه أحنو عليهِ ... ولكن بغض قومٍ آخرين

فآنظُر إلى هذا الدهر وتقلباته بأسرع وقت من حال إلى حال، فنعوذ بالله من زوال النِّعَم.

ثم قَدِم بعد ذلك كتب الأمراء المتوجّهين إلى الكَرَك لإحضار الملك الناصر، بأنهم لمّا قربوا من الكرك بعث كلّ منهم مملوكه يعرّف السلطان الملك الناصر بحضورهم إلى الكرك، فبعث إليهم الملك الناصر رجلاً نَصْرانيّاً من نصارى الكرك يقول: «يا أمراء، السلطان يقول لكم: إن كان معكم كتب فهاتوها، أو مشافهة

فقولوها» فدُفِعت الكتُب إلى النصرانيّ، فمضَى بها ثم عاد من آخر النهار بكتاب مختوم وقال عن السلطان: «سلِّم على الأمراء وعرِّفهم أن يقيموا بغَزّة حتّى يَرِد عليهم ما يعتمدوه». وحضر مملوك من قبله يأمر الأمير قُماري بالإقامة على ناحية صافِيْثا[١]، ثم بعث إلى الأمراء بخاتَم وكتاب يتضمّن إقامتهم على غَزّة والاعتذار عن لقائهم فعاد جَنْكَلِي والأحمدي إلى غَزّة، وتوجّه قماري إلى ناحية صَافِيْثا. فلمّا وقف الأمير أَيْدُغْمُش على ذلك كَتب من فوره إلى الأمير قطلوبغا الفخريّ يسأله أن يصحب السلطانَ الملك الناصر في قدومه إلى مصر ليجلس على تخت مُلكه. ثم كَتب أيدغمش للأمراء بغَزّة بالإقامة بها في آنتظار السلطان، وعرَّفهم بمكاتبة الفخريّ. وأخذ أيدغمش في تجهيز أمور السلطنة، وأشاع قدومَ السلطان خوفاً من إشاعة ما عامل الناصرُ أحمدُ به الأمراءَ فيفسُد عليه ما دبّره. فلما قَدِم البريد بكتاب أيدغمش إلى دمشق وافَى قدومَ كتاب السلطان أيضاً من الكَرَك يتضمّن القبضَ على طُرُنْطَاي البَجْمَقْدَار[٢] والأمير طَيْنَال، وحَمْل مالهم إلى الكرك. وكان قطلوبغا الفخري قد وَلّى طينال نيابة طرابُلُس، وطرنطاي نيابةَ حِمْص، فـآعتذر الفخري بأنّ طينال في شُغل بحركة الفرنـج، وأشار عليه بـألّا يحرِّك ساكناً في هذا الوقت، وسأله سرعة حضور السلطان ليسير بالعساكر في رِكابه إلى مصر، وأكثر الفخري من مُصادرة الناس بدِمَشق.

ثم قَدِم الأمير طَشْتَمُر الساقي، المعروف بحمّص أخضر نائب حلب كان، من بلاد الروم إلى الشام فتلقاه الفخري وأنزله في مكان يليق به؛ وكان في كتاب الناصر أنه لا يخرج من الكَرَك حتّى يحضُر الأمير طَشْتَمُر من بلاد الروم، فكتب الفخري بحضوره إلى الناصر وأنّه يُسرع في مجيئه إلى دِمَشق. وأخذ الفخري أيضاً في تجهيز ما يحتاج السلطان إليه، وفي ظنه أنّ السلطان يسير إليه بدِمَشْق فيركب في خدمته بالعساكر إلى مصر؛ فلم يشعُر الفخري إلّا وكتابُ السلطان قد وَرَد عليه مـع بعض الكَرَكِيّين يتضمّن أنّه يركب من دِمَشق ليجتمـع مـع السلطان على غَزّة؛ فشقّ

(١) في السلوك: «. . . بالإقامة على ناحية الصافية، وبعث إليه بخاتم. .».

(٢) ويقال أيضاً: البشمقدار؛ وهو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير. وبشمق بالتركية: النعل. (صبح الأعش: ٥/٤٥٩).

ذلك عليه، وسار من دِمشق بعساكرها وبمن آستخدمه حتّى قدِم غزة في عِدّة كبيرة، فتلقّاه الأمير جَنْكَلِي والأحمدي وقُماري أمير شِكَار.

وأمّا أمر الديار المصريّة فإنّ الأميرين يَلْبُغَا اليَحْيَاوِي ومَلِكْتَمُر الحجازيّ تفاوضاً في الكلام حتّى بلغَا إلى المخاصمة، وصار لكل منهما طائفة، ولَبِسوا آلة الحرب. فتجمّعت الغوغاء تحت القلعة لنَهْب بيوت من عساه ينكسر من الأمراء، فلم يزل الأمير أَيْدُغْمُش بالأمراء حتّى آنكفوا عن القتال، وبعث إلى العامة عِدّةً من الأَوْجاقِيّة، فقبضوا على جماعة منهم وأودعهم بالسجن.

ثم في يوم الخميس سابع شهر رمضان قَدِم أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من قُوص إلى القاهرة، وعِدّتُهم ستة، فركِب الأمراء إلى لقائهم وهَرَعت العامّة إليهم. فخرجوا من الحَرَّاقة وركبوا الخيول إلى القرافة حتى جاؤوا تربة جَرِكْتَمُر، فصاحت العامّة: «هذه تربة الذي قَتَل أستاذنا الملك المنصور» وهجموها وأخذوا ما فيها وأخربوها حتى صارت كوم تراب. فلمّا وصل أولاد السلطان تحت القلعة وأفاهم الأميرُ جمال الدين يوسف والي القاهرة كان[1]، فنزل وقَبَّلَ رُكْبَة رمضان آبن الملك الناصر، فَرَفَسه برجله وسبّه وقال له: «أتنسى ونحن في الحَرَّاقة عند توجّهنا إلى قُوص، وقد طلبنا مأْكَلاً من الجيزة، فقلتَ خذوهم ورُوحوا إلى لعنة الله ما عندنا شيء»! فصاحت بهم العامّة: «بالله مَكّنا من نَهْبه، هذا قَوْصُونيّ»! فأشار بيده أن آنهبوا بيته، فتسارعوا في الحال إلى بيته المجاور لجامع الظاهر بالحُسَيْنِيّة، حتّى صاروا منه إلى باب الفتوح، فقامت إخوتُه ومن يلوذُ به في دفع العامة بالسلاح، وبعث الأمير أَيْدُغْمُش أيضاً لجماعة ليردّوهم عن النهب، وخرج إليهم نجم الدين والي القاهرة؛ وقد تقاتل القوم حتّى كفّهم عن القتال، فكان يوماً مَهُولاً، قُتِل فيه من العامّة عشرة رجال، وجُرِح خَلْقٌ كثير، ولم ينتهب شيء.

ثم قَدِم الخبر من غَـزّة بقدوم الفخـري وطَقُزْدَمُـر إلى غَزّة وآجتمـاعهم مـع جَنْكَلي والأحمدي وقُماري، وهم في آنتظـار السلطان، وأنّ الأمير أيدغمش

---

(١) في السلوك: «جمال الدين يوسف والي الجيزة الذي تولى القاهرة».

يُحلِّف جميـع أمراء مصر وعساكرها للملك الناصر على العادة. فجُمِعوا بالميدان؛ فأُخْرجت نسخة اليمين المحضَّرة، فإذا هي تتضمّن الحَلِف للسلطان ثم للأمير قُطْلُوبُغَا الفخري. فتوقّف الأمراء عن الحَلِف لقطلوبغا الفخري، حتى آبتدأ الأمير أيدغمش فحلف، فتَبِعه الجميع خوفاً من وقوع الفتنة.

وأمّا أمر الفخري والأمراء فإنّهم لما وصلوا إلى غَزّة جمَع لهم نائبها آق سنقر الإقامات من الشعير والغنم. ثم كتب الأمراء جميعاً إلى الملك الناصر بقدومهم إلى غَزّة وعرّفوه بذلك وآستحثوه على سُرعة الحضور صحبةَ[1] مماليكهم والأمير قماري أمير شِكار. فساروا إلى الكَرَك، وكان قد سبقهم إلى الكرك الأمير يحيي بن طَايَرْبُغَا صِهْر الأمير أَيْدُغْمُش يستحثّ الملك الناصر أيضاً على المسير إلى مصر. فأقاموا جميعاً ثلاثة أيام لم يؤذن لهم في دخول المدينة. ثم أتاهم كاتبٌ نَصْرانيّ وبَازْدَار يُقال له أبو بكر ويوسف بن النصّال[2]، وهؤلاء الثلاثة هم خاصّة الملك الناصر أحمد من أهل الكَرَك، فسلّموا عليهم وطلبوا ما معهم من الكتب. فشقّ ذلك على الأمير قُماري وقال لهم: «معنا مشافهاتٌ من الأمراء للسلطان، لا بُدّ من الاجتماع به» فقالوا: «لا يمكن الاجتماعُ به. وقد رَسَم إن كان معكم كتابٌ أو مشافهة فأعلمونا بها» فلم يجدوا بُدّاً من دَفْـع الكتب إليهم؛ وأقاموا إلى غد؛ فجاءتهم كتبٌ مختومة، وقيل للأمير يحيـى بن طَايَرْبُغَا: «اِذهب إلى عند الأمراء بغزّة» فساروا عائدين إلى غزة، فإذا في الكتب الثناء على الأمراء، وأن يتوجهوا إلى مصر، فإن السلطان يقصد مصر بمفرده. فتغيّرت خواطر الأمراء وقالوا وطالوا، وخرَج الفخريّ عن الحدّ وأفرط به الغضب، وعزَم على الخلاف. فرَكِب إليه طَشْتَمُر حُمّص أخضر والأمير جَنْكَلِي ابن البابا والأمير بِيبَرْس الأحمدي، وما زالوا به حتّى كفّ عمّا عَزم عليه، ووافق على المسير. وكتبوا بما كان من ذلك إلى الأمير أيدغمش، وتوجّهوا جميعاً من غَزّة يريدون مصر.

وكان أيدغمش قد بَعث آبنـه بالخيل الخاصّ إلى السلطان، فلمّا وصل إلى

(١) عبارة السلوك: «وكتب الأمراء إلى السلطان بقدومهم صحبة مماليكهم مع الأمير قماري».

(٢) في السلوك: «ابن البصال».

الكرك أرسل السلطانُ من أخذ منه الخيلَ، ورَسَم بعوده إلى أبيه. وأخرج [السلطان] رجلًا من الكرك يُعرف بأبي بكر البَازْدار ومعه رجلان ليبشِّروا بقدومه، فوصلوا إلى الأمير أيدغمش في يوم الاثنين خامس عشرينه، وبلّغوه سلام السلطان، وعرّفوه أنّه كان قد رَكِب الهُجُنَ وسار على البريّة صحبةَ العرب، وأنه يُصَابح أو يُماسِي، فخلَع عليهم وبعث بهم إلى الأمراء، فأعطاهم كلّ أمير من الأمراء المقدَّمين خمسة آلاف درهم، وأعطاهم بقيّة الأمراء على قَدْر حالهم، وخرج العامّة إلى لقاء [السلطان].

فلمّا كان يوم الأربعاء سابع عشرين شهر رمضان قَدِم قاصدُ السلطان إلى الأمير أَيْدُغْمُش بأنّ السلطان يأتي ليلًا من باب القرافة، وأمر أن يُفتح له باب السرّ حتى يَعْبُرَ منه، ففتحه. وجلس أيدغمش وأَلْطُنْبُغا الماردانيّ حتى مضى جانبٌ من ليلة الخميس ثامن عشرينه أقبل السلطان في الليل في نحو العشرة رجال من أهل الكَرَك، وقد تَلَثَّم وعليه ثيابٌ مُفَرَّجة، فتلقوه وسلّموا عليه، فلم يقف معهم، وأخذ جماعته ودخل بهم. ورجع الأمراء وهم يعجبون من أمره، وأصبحوا وقد دُقَّت البشائر بالقلعة وزُيِّنت القاهرة ومصر.

وآستدعى السلطانُ أيدغمشَ في بكرة يوم الجمعة، فدخل عليه وقبَّل له الأرض. فاستدناه وطيّب خاطرَه، وقال له: «أنا ما كنتُ أتطلع إلى الملك، وكنتُ قانعاً بذلك المكان؛ فلمّا سيَّرتم في طلبي ما أمكنني إلا أن أحضُر كما رسمتُم» فقام أيدغمش وقبّل الأرض ثانياً؛ ثم كتب عن السلطان إلى الأمراء الشاميّين يعرّفهم بقدومه إلى مصر وأنه في آنتظارهم، وكتب علامته بين الأسطر: «المملوك أحمد بن محمد». وكتب إليهم أيدغمش كتاباً، وخرج مملوكهُ بذلك على البريد، فلقِيهم على الوَرَّادة، فلم يُعجبهم هيئةُ عبور السلطان إلى مصر، وكتبوا إلى أيدغمش أن يخرج إليهم هو والأمراء إلى سِرْياقوس ليتفقوا على ما يفعلوه. فلمّا كان يوم عيد الفِطْر منَع السلطان الأمراء من طلوع القلعة، ورَسَم لكلّ أمير أن يَعمل سِماطَه في داره، ولم ينزل السلطان لصلاة العيد، وأمر الطواشي عنْبَر السَّحَرْتِي مقدّم المماليك ونائبه الطواشي الإسماعيلي أن يجلسا على باب القلعة ويمنعا مَن يدخل عليه، وخلا

بنفسه مـع الكَرَكِيين: وكان الحاج عليّ «إخوان[١] سَلّار» إذا أَتَى بطعام للسلطان على عادته خَرَج إليه يوسفُ وأبو بكر البَازْدَار وأطعماه شِشْنِي[٢] الطعام، وتسلّما السِّماط منه، وعَبَرا به إلى السلطان؛ ويقف الحاجّ عليّ «إخوان سلّار» بمن معه حتى يخرج إليهم الماعون.

وحكى الرئيسُ جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء أنّ السلطان آستدعـاه وقد عَرَض له وَجَـعٌ في رأسه، فوجده جالساً وبجانبه شابٌّ من أهل الكَرَك جالس، وبقية الكَرَكِيّين قيامٌ؛ فوصفَ له ما يلائمه، وتردّد إليه يومين وهو على هذه الهيئة. اِنتهى.

ثم في يوم الأحد تاسـع شوّال قَدِم الأمير سيف الدين قُطْلُوبَغا الفخري والأمير طَشْتَمُر الساقي حُمّص أخضر وجميـعُ أمراء الشام وقضاتها والوزراء ونوّاب القِلاع في عالَم كبير حتى سدّوا الأفُق، ونزل كثيرٌ منهم تحت القلعة في الخِيَم. وكان خرج إلى لقائهم الأمير أَيْدُغْمُش والحاجّ آل ملك والجَاوْلي وأَلْطُنْبُغا المارداني وغيرُهم. وأخذ الفخري يتحدّث مـع أيدغمش فيما عمله السلطان من قدومه في زِيّ العُربان وآختصاصـه بالكَرَكِيّين، وإقامة أبـي بكر البَازْدَار حاجبَه. وأنكر [أيدغمش ذلك على السلطان][٣] غاية الإنكار، وطلب من الأمراء موافقته على خَلْعه وردّه إلى

(١) الخوان سلار: لقب مختص بكبير رجال المطبخ السلطاني. وهو مركب من لفظين: أحدهما «خوان» وهو الذي يؤكل عليه، وهو معرب؛ والثاني «سلار»، وهي فارسية ومعناها المقدّم. وعلى ذلك فمعناها: مقدم الخوان. والعامة تقول «إخوان سلار» وهو خطأ. (صبح الأعشى: ٥/٤٧١).

(٢) ششني الطعام: لفظ فارسي جرى استعماله في اللغة العربية بمبناه ومعناه، أي حصة قليلة تؤخذ من الشيء، كائناً ما يكون من طعام أو شراب أو مادة من المواد، ليستدل بها على كيفية الشيء. وششنيّ الطعام في المطبخ السلطاني ما يؤخذ منه لمذاقه واختباره من باب المحافظة والاحتراز على حياة السلطان. (محيط المحيط). ويقال للذي يتذوق الطعام والشراب: الشيشني (صبح الأعشى: ٥/٤٦٠) والذي يتحدث في أمر السماط السلطاني ويتذوق الشراب قبل السلطان في الولائم والأسمطة خوفاً من أن يدسّ فيه سمّ أو نحوه يسمى «الجاشنكير». وهي كلمة فارسية مركبة من «جاشنا» بجيم في أوله، وهي الفارسية القريبة من الشين، ومعناها الذوق؛ والقسم الثاني من الكلمة هو «كير» ومعناها المتناول، أي الذي يتذوق الطعام. (صبح الأعشى: ٤/٢١، ٤٦).

(٣) في الأصل: «وأنكر عليه ذلك» والزيادة والتعديل للتوضيح.

مكانه، فلم يُمَكِّنه طشتمر حمص أخضر من ذلك، وساعده الأمراء أيضاً، وما زالوا به حتى أعرض عمّا هَمّ به، ووافق الأمراء على طاعته.

فلما كان يوم الاثنين عاشره لبس السلطان شِعار السلطنة وجلس على تخت الملك. وحضر الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد، وقضاةُ مصر الأربعة، وقُضاة دِمشق الأربعة، وجميعُ الأمراء والمقدمين. وبايعه الخليفة بالسلطنة، وقبّلوا الأرض بين يديه على العادة. ثم قام السلطان على قدميه، فتقدّم الأمراء وباسُوا يده واحداً بعد واحد على قَدْر مراتبهم. وجاء الخليفة بعدهم وقضاةُ القضاة ما عدا القاضي حُسام الدين الغورِيّ الحنفيّ: فإنه لمّا طلع مع القضاة وجلسوا بجامع القلعة حتّى يُؤذَنَ لهم على العادة جَمَع عليه بعض صِبْيان المطبخ جَمْعاً من الأوباش لحِقْدٍ كان في نفسه منه عندما تحاكم هو وزوجتُه عنده قبل ذلك، فأهانه القاضي المذكور؛ فلمّا وجد الطباخ الفُرصة هجم عليه بأوباشه، ومدّ يدَه إلى الغُورِيّ من بين القضاة، وأقاموه وحَرَقوا عمامتَه في حَلْقه، وقطعوا ثيابه وهم يصيحون: «يا قَوْصُونِيّ»! ثم ضربوه بالنعال ضرباً مُبَرِّحاً، وقالوا له: «يا كافر يا فاسق»! فآرتجّت القلعة، وأقبل عَلَم[1] دار حتى خلّصه منهم وهو يستغيث: «يا مسلمين! كيف يَجري هذا على قاض من قضاة المسلمين»؟. فأخذ المماليك جماعة من تلك الأوباش، وجروهم إلى الأمير أَيْدُغْمُش فضربهم، وبعث طائفة من الأوجاقية ساروا بالغُورِي إلى منزله، ولم يحضر المَوْكب. وثارت العامّة على بيته بالمدرسة الصالحية ونهبوه، فكان يوماً شنيعاً.

ثم في يوم الخميس ثالث عشره عَمِل السلطان موكِباً آخر وخلَع على سائر الأمراء قاطبةً، وأنعم على الأمير طَشْتَمُر حُمّص أخضر بعشرة آلاف دينار، وعلى الأمير قطلوبغا الفخري بما حضر معه من البلاد الشامية وهو أربعة آلاف دينار ومائة ألف درهم فضّة. ونزل في موكب عظيم بمن حضر صحبتَه من أمراء البلاد الشامية

(١) العلم دار: ممسك العلم أو حامله في موكب السلطان. وهي مركبة من كلمتين: «علم» العربية، و «دار» الفارسية. (صبح الأعشى: ٥/٤٦٣).

وهم الأمير سنجر الجُمَقْدار[١] وتَمُر الساقي وطُرُنْطَاي البَجْمَقْدار وآقْبُغا عبد الواحد وتَمُر الموسوي وآبـن قَراسُنقر وأَسَنْبُغا بن البوبكري وبَكْتَمر العلائي وأصلم نائب صفد. ثم طلب السلطان الوزير نجم الدين، ورَسَم له أن يكون يوسف البازدار ورفيقه مقدَّمَي البَازْدَارِيَّة، ومقدَّمي الدولة، وخلَـع السلطان عليهما كَلْفتاه زَرْكش وأقبية طَرْدوحش بحوائص ذهب؛ فحكما مصر[٢] في الدولة، وتكبّرا على الناس، وسارا [فيهم][٣] بحُمق زائد، [وصارا لا يأتمران بأمر الوزير، ويمضيان ما أحبّا][٤].

ثم في يوم السبت خامس عشره خلَـع على الأمير طشتمر الساقي حمّص أخضر بآستقـراره في نيابة السلطنة بالديار المصريّة، فتوّجه بخلْعته وباشر النيابة، وجلس والحجاب قيامٌ بين يديه والأمراء في خدمته.

وفي يوم الاثنين سابـع عشره أخرَج السلطانُ عبدَ المؤمن بن عبد الوهاب السَّلَامي والي قُوص من السجن، ورسَم بتسميره، فسُمِّرَ على باب البِيمارستان المنصوريّ بمسامير جافية شنيعة، وطِيف به مدّة ستة أيام وهو يُحادِث الناس في الليل بأخباره؛ ومما حدّثهم به أنه هو الذي كان وثَبَ على النَّشو ناظر الخاصّ[١] وضرَبه بالسيف، حسب ما ذكرناه في ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون من أمر النشو، وأنّه لما سقطت عمامتُه عن رأسه ظنّها رأسَه. وكان إذا قيل له: «آصبـر يا عبد المؤمن» يقول: «أسأل الله الصبر» ويُنْشِد كثيراً قوله: [البسيط]

---

(١) الجمقدار: هو الذي يمشي في المواكب السلطانية عن يمين السلطان، ويحمل دبوساً له رأس ضخم مذهب. وهو لفظ تركي مركب من كلمتين: «جُمق» أو «جوماق» بالجيم المشربة، وهي الدبوس أو العصا الغليظة الرأس. والثانية «دار» ومعناها صاحب أو ممسك. وربما كانت كلمة «جوماق» أصلاً للكلمة المصرية «الشومة» وهي في لغة الريف المصري النبوّت الغليظ يضرب به في العراك العنيف. وقد ثبت استعمال الترك هذه الكلمة في العصر المملوكي بمعنى الشومة. (انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٩١، وتأهيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ٩٥).

(٢) كذا هي عبارة الأصل.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) كان ناظر خاص السلطان محمد بن قلاوون.

يُبْكَى علينا ولا نَبْكِي على أحدٍ　　لنحن أغلظ أكبـاداً من الإبـلِ

وكان السبب لقتله ومُثْلته هذه أنه قَتَل الملك المنصور أبا بكر بن الناصر محمد بقُوص بأمر قَوْصُون. ثم شُنِق [عبد المؤمن] بعد ذلك في يوم السبت ثاني عشرين شوّال على قنطرة السدّ [ظاهر مدينة مصر عند الكيمان][1] وأكلتْه الكِلاب. ثم قَبَض السلطان على أحد وعشرين أميراً وأخرجهم إلى الإسكندرّيّة صحبة الأمير طَشْتَمُر طُلَّليه.

ثم في الخميس سابـع عشرينه خلَـع على الأمير الحاجّ آل ملك بنيابة حماة عوضاً عن طَقُزْدَمُر الحموي، وعلى بِيبْرس الأحمدي وآستقـرّ في نيابة صفد عوضاً عن أَصْلم الناصري، وعلى آق سنقر وآستقـرّ نائب غَزّة على عادته.

وفي مستهلّ ذي القعدة خلَـع على الأمير قُطْلُوبُغا الفخري بنيابة دِمَشق، وعلى الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور بنيابة حلب.

ثم في يوم الثلاثاء ثانيه آستقرّ قماري أميرُ شِكار أميرَ آخور عوضـاً عن أيدغمش؛ وآستقـرّ أحمد شادُّ الشَّرَبْخاناه أميرَ شِكار؛ وآستقـرّ آقبغا عبد الواحد في نيابة حِمْص. ثم أنعم السلطان على الأمير زين الدين قَرَاجا بن دُلْغَادِر بإنعامات كثيرة، وكتب له بالإمرة على التُّرْكُمان ونيابة أَبُلُسْتَيْن.

وفي يوم الأحد سابـع ذي القعدة خرج الأمير أيدغمش متوجّهاً إلى نيابة حلب.

وفي يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير قطلوبغا الفخري متوجّهاً إلى نيابة دِمشق، ومعه من تأخّر من عساكر الشام. وخرج الأمير [طشتمر حمص أخضر] نائب السلطنة بالقاهرة لوَداعه وجميـع الأمراء، ومَدّ له سِماطاً عظيماً.

ولما توجّه الفخري وأيدغمش وغيرُهما من الديار المصرية وبقي الأمير طَشْتَمُر الساقي حمص أخضر نائب السلطنة بالقاهرة قبضَ عليه السلطان بعد خروج الفخري بخمسة أيام، وذلك في يوم السبت العشرين من ذي القعدة.

(١) زيادة عن السلوك.

وسبب القبض على طشتمر أنه بقي يُعارض السلطان بحيث إنه كان يَرُدُّ مراسيمه ويتعاظَم على الأمراء والأجناد تعاظماً زائداً؛ وكان إذا شَفَع عنده أحدٌ من الأمراء في شَفاعة لا يقبلها؛ وكان لا يقف لأمير إذا دخَل عليه، وإذا أتته قصّة عليها عَلامةُ السلطان بإقطاع أو غيره أخَذَ ذلك وطَرَد مَنْ هي بآسمه، وأحرق به. وقرّر [طشتمُر] مع السلطان أنه لا يُمْضي من المراسيم إلّا ما يختاره، ورَسم للحاجب بألّا يُقدِّم أحدٌ قصّة للسلطان إلّا أن يكون حاضراً، فلم يتجاسر أحد أن يقدّم قصّة للسلطان في غَيْبته. وأخذ إقطاع الأمير بِيبَرْس الأحمدي وتَقدِمَته لولده، فكرهته الناس. وصارت أربابُ الدولة وأصحابُ الأشغال كلّها في بابه، وتقرّبوا إليه بالهدايا والتُّحَف. وآنفرد بتدبير الملك، وحَطَّ على الكَرَكِيِّين و[قصد] منعهم من الدخول على السلطان، فلم يتهيّأ له ذلك. وكان ناصر الدين المعروف بفار السّقُوف قد توصّل إلى الكركيين حتى آستقرّ إمَامَ السلطان يُصَلِّي به الخمس [وصار كذلك] ناظِر المشهد النَّفيسيّ عوضاً عن تقيّ الدين علي بن القَسْطَلّاني خطيب جامع عمرو وجامع القلعة؛ وخلَع عليه السلطان بغير علم طَشْتَمر النائب، فبعث إليه طشتمر عِدَّة نُقباء ونَزَع الخِلْعة من عليه وسلّمه إلى المقدَّم إبراهيم بن صابر، وأمرَ بضربه وإلزامه بحمل مائة ألف درهم فضربه آبنُ صابر ضرباً مُبرِّحاً وآستخرج منه أربعين ألف درهم. ثم أفرج عنه بشفاعة أَيْدُغْمُش والفخري فيه، بعدما أشهد عليه أنه لا يطلُع القلعة. ثم أخذ قصير[1] مُعين من مباشري قَوْصُون وأحاط بما فيه من القُنود والأعسال والسكّر وغير ذلك. فعظُم ما فعله على السلطان وعلى الأمراء، فإنه خرج عن الحدّ، إلى أن قرر السلطان مع مقدّم المماليك عَنْبَر السَّحَرْتِي والأمير آق سنقر السّلّاري في القبض على طشتمر وعلى قُطْلُوبغا الفخري، وأن يَستدعي مماليك بَشْتَك وقوصون ويُنزلهم بالأطباق من القلعة ويُعطيهم إقطاعات بالحلْقة ليصيروا من جملة مماليك السلطان خوفاً من حركة طشتمر النائب.

ثم رتّب السلطان عنده مماليك بداخل القصر للقبض على طشتمر أيضاً. وكان

(١) في السلوك: «قصر معين بالغور». وفي الأصل «قطر معين» وهو تحريف. والتصحيح عن معجم البلدان. وهو قصير معين الدين بالغور من أعمال الأردن، يكثر فيه قصب السكّر.

مما جدّد طشتمر في نيابته أن منَع الأمراء أن تُدْخِل مماليكَها إلى القصر، وبَسَطَ من باب القصر بساطاً إلى داخله كما كان في الأيام الناصريّة، فصار الأمير لا يدخل إلى القصر إلّا بمفرده، فكان ما دَبَّره عليه. ثم دخل هو أيضاً بمفرده ومعه ولداه إلى القصر، وجلس على السِّماط على العادة؛ فعندما رُفِع السماط قبَض كشلي السلاح دار أحدُ المماليك السلطانية، وكان معروفاً بالقوّة، على كتِفَيْه من خلف ظهره قبضاً عنيفاً، ثم بدَر إليه جماعة من المماليك وأخذوا سيفه وقيَّدوه وقيدوا ولديه ونزل أمير مسعود الحاجب في عدة من المماليك السلطانية فأوقع الحَوْطة على بيته وأخذ مماليكه فسجنهم. ثم خرج في الحال ساعة القبض على طَشْتَمر الأمير أَلْطُنْبُغا المارداني والأمير أَرُنْبغا أمير سلاح ومعهما من أمراء الطبلخاناه والعشرات نحو خمسة عشر أميراً ومعهم أيضاً من المماليك السلطانية وغيرهم ألف فارس، وتوجّهوا ليقبضوا على الأمير قُطْلُوبُغا الفخري. وكَتب [السلطان] للأمير آق سنقر الناصري نائب غزّة بالركوب معهم بعسكره وجميع منْ عنده ومَنْ هو في معاملته. وكان الفخري قد رَكب من الصالحية، فبلغه مَسْكُ طشتمر ومسيرُ العسكر إليه من هَجَّان بعث به إليه بعضُ ثقاته، فساق إلى قَطْيا وأكل بها شيئاً، ثم رحَل مسرعاً حتى دخل العريش فإذا آق سنقر بعسكره في انتظاره على الزَّعْقة، وكان ذلك وقت الغروب، فوقف كلٌّ منهما تُجاه صاحبه حتى أظلم الليل، فسار الفخري بمن معه وهم ستون فارساً على البريّة. فلمّا أصبح آق سُنْقُر عَلِم أن الفخري فاته، ومال أصحابه على أثقال الفخري فنهبوها وعادوا إلى غزّة. وآستمرّ الفخري سائراً ليلته، ومن الغد حتى آنتصف النهار وهو سائقٌ، فلم يتأخّر معه إلا سبعةُ فِرسان، ومبلغُ أربعة آلاف وخمسمائة دينار، وقد وصل يُبْنَى[1] وعليها الأمير أَيْدُغْمُش وهو نازل؛ فترامَى عليه [الفخري]، وعرّفه بما جرى، وأنه قطَع خمسة عشر بَريداً[2] في مَسير يوم واحد. فطيّب أيدغمش خاطرَه، وأنزله في خَيْمة وقام له بما يليق به. فلمّا جَنَّه الليل أَمَر به

(١) في السلوك: «بيسان». وعن قرية يبنة أو يبنى، راجع الجزء التاسع من هذا الكتاب، ص ١٤٩، حاشية (٢).

(٢) البريد في المسافة: أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع. وفي التقدير المتري العشري فإن البريد يساوي ٥٠٤٠ متراً. (معجم متن اللغة).

فقُيِّد وهو نائم، وكتَب بذلك إلى السلطان مع بُكَا الخُضري. وكان السلطان لمّا بلغه هروبُ الفخري تنكَّر على الأمراء وآتهمهم بالمُخامرة عليه، وهَمَّ في يوم الإثنين أن يُمسكهم، فتأخَّر عن الخدمة الجَاولي في يوم الإثنين المذكور، وهو تاسع عشرين ذي القعدة وتأخّر معه جماعة كبيرة. فلمّا كان وقتُ الظهر بَعث لكل أمير طائرَ[1] إوزّ مَشْوِيّ وسأل عنهم؛ ثم بعث إليهم آخر النهار أن يَطْلُعوا من الغد. فجاء بُكَا الخُضَري عشيّة يوم الثلاثاء مستهلّ ذي الحجّة، ومعه البِشارةُ بالقبض على سيف الدين قُطْلُوبُغا الفخري، فسُرَّ السلطانُ بذلك، وكتَب بحمله إلى الكَرَك. فلمّا طلع الأمراء إلى الخدمة في يوم الثلاثاء ترضّاهم السلطان وبشّرهم بمسك الفخري، ثم أخبرهم أنه عَزَم على التوجُّه إلى الكَرَك. وتجهّز [السلطان] وأخذ الأموال صحبته، وأخرج الأميرَ طَشْتَمُر حمّص أخضر مُقَيَّداً في مَحارَة[2] في ليلة الأربعاء ومعه جماعة من المماليك السلطانيّة موكَّلون به.

ثم تقدّم السلطان إلى الخليفة، بعدما ولاّه نظر المشهد النَّفِيسِيّ عوضاً عن آبن القَسْطَلاَّنِيّ، أن يسافر معه إلى الكَرَك. ورَسَم لجمال الكُفاة ناظر الجيش والخاصّ وللقاضي علاء الدين عليّ بن فضل الله [العمري] كاتب السِّر أن يتوجَّها معه إلى الكَرَك. ثم رَكِب السلطان ومعه الأمراء من قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثانيه بعدما أَمَّر ثمانية من المماليك السلطانية وخلَع عليهم على باب الخزانة، وخلَع على الأمير شمس الدين آق سنقر السَّلاَّرِي وقرَّره نائب الغَيْبَة، وخلَع على شمس الدين محمد بن عَدْلان باستقراره قاضي العسكر، وخلَع على زَيْن الدين عمر بن كمال الدين عبد الرحمن آبن أبي بكر البَسْطامِيّ وآستقرّ به قاضي قضاة الحنفيّة بالديار المِصْرية عوضاً عن حُسام الدين الغُورِي. فلمّا سار السلطان حتى قرب قُبَّة النصر خارج القاهرة وقف حتى قَبّل الأمراءُ يدَه على مراتبهم ورجعوا عنه، فنزل في الحال عن فرسه، ولبِس ثياب العُرْبان وهي كامِليّة مُفَرّجة وعمامةٌ بلثّامَيْن، وسايَرَ الكَرَكِيّين في طريقه، وترك الأمراءَ الذين معه وهم قُماري وَمَلِكْتَمُر الحجازي

(١) في السلوك: «أربعين طائر إوز».

(٢) المحارة: صندوق للسفر شبه الهودج.

وأبو بكر وعمر آبنا أَرْغُون النائب مع المماليك السلطانية والطُّلْب. وتوجّه على البَرِيّة إلى الكَرَك [وليس معه إلّا الكركيون ومملوكان][(١)] وهم في أَثَره، فقاسوا مَشقَّة عظيمة من العطش وغيره حتى وصلوا ظاهر الكرك، وقد سبقهم السلطان إليها، وقَدِمها في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجّة. وكتب [السلطان] للأمراء بالديار المصرية يعرّفهم بذلك ويُسلِّم عليهم، فقَدِم كتابُه القاهرة في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجّة.

ولمّا دخل الملك الناصر أحمد إلى الكرك لم يُمكّن أحداً من العسكر أن يدخل المدينة سوى [علاء الدين علي بن فضل الله] كاتب السرّ وجمال الكُفاة ناظر الجيش والخاصّ فقط. ورَسَم أن يسير الأمير المقدَّم عَنْبَر السَّحَرْتي بالمماليك السلطانية إلى قرية[(٢)] الخليل عليه السلام، وأن يسير قُمارِي وعمر آبن النائب أرغون والخليفة إلى القُدس الشريف. ثم رَسَم السلطان لمقدَّم المماليك عنبر السَّحَرْتي أن ينتقل بالمماليك السلطانية من الخليل إلى غَزّة لغلاء الأسعار بالخليل. وفي أثناء ذلك وصل أمير عليّ بن أَيْدُغْمُش بالفخري مقيَّداً إلى غزة وبها العساكر، فبعث السلطان إليه من تَسلَّم منه الفخري وأعاد آبن أيدغمش إلى أبيه ولم يجتمع به. فسجَن السلطان قُطْلُوبُغَا الفخري وطَشْتَمُر حمص أخضر بقلعة الكَرَك بعدما نَكَّل بالفخري وأُهين من العامّة إهانةً زائدة. ثم كتب السلطان لآق سُنْقر السَّلَّارِي نائب الغَيْبَة بإرسال حريم الفخري إلى الكرك، وكانوا قد ساروا من القاهرة بعد مسير الفخري بيوم، فجهزهُنَّ إليه؛ فأخذ أهل الكرك جميعَ ما معهنّ حتى ثيابهنّ، وبالغوا في الفُحْش بهنّ والإساءة. ثم كتب السلطان لآق سنقر السلاري نائب الغيبة بالديار المصرية أن يُوقع الحَوْطة على موجود طَشْتَمُر حمص أخضر وقُطْلُوبُغا الفخري، ويُحمل ذلك إليه بالكَرَك. وكان شأن الملك الناصر أحمد أنه إذا رَسَم

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) هي مدينة الخليل في فلسطين. واسمها الكنعاني «قرية أربع» ثم عرفت باسم حبرون أو حبرى. وقد بنيت على سفح جبل الرميدة في حين كان بيت إبراهيم الخليل على سفح جبل الرأس المقابل له. ولما اتصلت حبرون ببيت إبراهيم سميت المدينة الجديدة «الخليل» نسبة إلى خليل الرحمن عليه السلام. (الموسوعة الفلسطينية: ٢/٣٥٢).

بشيء جاء كاتبٌ كَرِكِيٌّ لكاتب السرّ وعرَّفه عن السلطان بما يريد، فيكتب كاتب السرّ ذلك ويُناوله للكاتب الكركي حتى يأخذ عليه علامةَ السلطان، ويبعثه حيث يرسم به؛ هذا ما كان من أمر الملك الناصر.

أما العسكر المتوجِّه من القاهرة إلى غزة فإن آبن أَيْدُغْمُش لمَّا قَدِم عليهم بمدينة غزة ومعه الفخري أراد الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغا المارِدانيّ أن يؤخّره عنده بغزة حتّى يراجع فيه السلطان فلم يُوافقه آبن أيدغمش، وتوجّه به إلى الكرك، فرحَل ألطنبغا المارداني وبقيّة العساكر عند ذلك إلى جهة الديار المصريّة، فقَدِموها يوم السبت سادس عشرين ذي الحجّة. وآنعكف السلطان على اللّهو وآحتجب عن الناس إلّا الْكَرِكيّين. ثم بلغه تغيُّر خواطر الأمراء فأخذ في تحصين قلعة الكرك ومدينتها وأشحنها بالغلال والأقوات والأسلحة.

وأمّا أمر الديار المصرية فإنه شَقّ عليهم غَيْبَةُ السلطان منها، وآضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء، وصار عند أكابر الأمراء تشويش كثير لِمَا بلغهم من مُصاب حريم الأمير قطلوبغا الفخري. وبقي الأمير آق سنقر السَّلَّارِي في تخوّف عظيم، فإنه بلغه بأن جماعة من المماليك الذين قُبِض على أستاذينهم[١] قد باطنوا بعض الأمراء على الركوب عليه، فترك آق سنقر الركوب في أيام المواكب أياماً حتى آجتمع الأمراء عنده وحَلَفوا له. ثم آتفق رأيُ الأمراء على أن كتبوا للسلطان الملك الناصر أحمد كتاباً في خامس محرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بأنّ الأمور واقفة لغَيْبة السلطان، وقد نافَق غالبُ عُرْبان الصعيد وغيره وطَمِع أرباب الفساد، وخِيفت السُّبُل وفسدَت الأحوال، وسألوا حضوره إلى الديار المصرية، وأرسلوا الكتاب على يد الأمير طَقْتَمُر الصلاحيّ فتوجّه طقتمر إليه، ثم عاد إلى الديار المصرية بجوابه في حادي عشره: «بأنني قاعد في موضع [ما] أشتهي، وأيّ وقت أردتُ حضرت إليكم»[٢] وذكر طَقْتَمُر أنّ السلطان لم يُمكِّنه الاجتماع به، وأنه بعث مَن أخذ منه الكتاب، ثم أرسل إليه الجواب.

(١) في الأصل: «أستاذهم». وقد استعملنا الصيغة واللفظ المستعملين في ذلك العصر.

(٢) كذا أيضاً في السلوك والجوهر الثمين. وفي بدائع الزهور: «إن الشتاء قد دخل، وإني قد اخترت الإقامة في الكرك إلى أن يمضي الشتاء، وبعد ذلك إن أراد الله تعالى عدت إلى مصر».

وقَدم الخبر بأنه قَتلَ الأمير طَشْتَمُر الساقي حمّص أخضر، والأمير قُطْلُوبغا الفخري، وكان قصد قتلهما بالجوع، فأقاما يومين بلياليهما لا يُطعمان طعاماً. فكسرا قَيْدَهما ــ وكان السلطان قد ركب للصيد ــ وخَلَعا باب السجن ليلاً وخَرَجا إلى الحارس فأخذا سيفه وهو نائم فأحسّ بهما، وقام يَصيح حتى لحِقه أصحابه فأخذوهما؛ وبعثوا إلى السلطان بخبرهما، فقَدِم في زيّ العُرْبان ووقف على الخندق وأحضرهما، وقد كثُرت بهما الجراحات، فأَمَر يوسف [بن البصّارة][1] ورفيقَه بضرب أعناقهما، وأخذ يسبُّهما فردّا عليه السبَّ ردّاً قبيحاً، وضُرِبَت[2] رقابهما. فلمّا بلغ الأمراءَ ذلك آشتدّ قلقُهم.

ثم قَدِم كتاب السلطان للأمراء يُطيِّب خواطرهم ويعرّفهم أن مصر والشام والكرك له، وأنه حيثما شاء أقام، ورَسَم أن تُجَهَّز له الأغنام من بلاد الصعيد. فتنكرت قلوب الأمراء، ونفَرت خواطرهم وتكلّموا فيما بينهم في خَلْعه، حتى آتفق الأمراء على خَلْعه من السلطنة، وإقامة أخيه إسماعيل آبن الملك الناصر محمد، فخُلِع في يوم الأربعاء حادي عشرين المحرّم من سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر[3] وثلاثة عشر يوماً، منها مدّة إقامته بمدينة الكَرَك ــ ومراسيمُه نافذةٌ بمصر ــ أحد وخمسين يوماً. وإقامته بمصر شهران إلا أيام[4].

وكان لمّا خرج من الديار المصرية متوجّهاً إلى الكَرَك جمع الأغنام التي كانت لأبيه وأغنام قَوْصُون، وعِدَّتُها أربعة آلاف رأس وأربعمائة رأس من البقر التي كان آستحسنها أبوه، وأخذ الطيور التي كانت بالأحواش على آختلاف أنواعها، وحملَها على رؤوس الحمّالين إلى الكرك؛ وساق الأغنام والأبقار إليها، ومعهم عدّة سقّايين، وعرَض الخيول والهُجُن، وأخذ ما آختاره منها ومن البَخَاتى وحُمُر الوحش

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في بدائع الزهور والجوهر الثمين أنه وسّطهما. والكاتب هنا ينقل عن السلوك.

(٣) كذا أيضاً في السلوك. وفي بدائع الزهور والجوهر الثمين: «كانت مدة مملكته إلى أن تسلطن أخوه إسماعيل شهرين واثني عشر يوماً». وفي تاريخ الشجاعي: «خمسة شهور وعشرين يوماً، منها على التخت بديار مصر أحد وخمسون يوماً».

(٤) في السلوك: «وأيام».

والزراريف والسِّباع، وسيَّرها إلى الكرك. ثم فتح الذخيرة[١] وأخذ منها جميعَ ما فيها من الذهب والفضة، وهو ستمائة ألف دينار وصندوق فيه الجواهر التي جمعها أبوه في مدة سلطنته. وتتبّع جواري أبيه حتى عرَف المتموِّلات منهنّ، فصار يبعث إلى الواحدة منهنّ يُعرِّفها أنه يدخل عليها الليلة، فإذا تجمّلت بحليها وجواهرها أرسل مَنْ يحضرها إليه، فإذا خرجت من موضعها ندَب مَن يأخذ جميعَ ما عندها، ثم يأخذ جميعَ ما عليها، حتى سلَب أكثرَهنّ. ثم عَرَض الركاب خاناه، وأخذ ما فيها من السروج واللُّجُم والسلاسل الذهب والفضة. وأخذ الطائر الذهب الذي كان على القُبَّة[٢]، وأخذ الغاشِيَة الذهب وطَلَعَات السناجق؛ وما ترك بالقلعة مالاً إلاّ أخذه، وآستمر بالكرك.

فلمّا تسلطن أخوه الملك الصالح إسماعيل حسب ما يأتي ذكره أرسل إلى الكرك يطلب من أخيه الناصر أحمد هذا شعائرَ الملك، وما كان أخذه من الخزائن وغيرها، فلم يلتفت الناصر إلى كلامه؛ فندَب السلطان الملك الصالح تجريدة لحصاره بالكرك، واستمرّ يبعث إليه تجريدة بعد أخرى سبع تجاريد، حتى إنّه لم يبق بمصر والشام أمير إلا تجرّد إلى الكرك مرّة ومرّتين إلى أن ظَفِروا به حسب ما يأتي ذكر ذلك كلّه مفصَّلاً في ترجمة الملك الصالح إسماعيل. ولمّا ظَفروا بالملك الناصر أحمد قيدوه وحبسوه بالكرك بعد أن حاصروه بها مدّة سنتين وشهر وثلاثة أيام، حتى قُبِض عليه، أتلف فيها أموالاً كثيرة في النفقات على المقاتلة، وأخذ أمره يتلاشى وهلك مَنْ عنده بالجوع. وضرب الذهب وخلَط به الفضّة والنحاس ونفق ذلك في الناس، فكان الدينار الذي ضرَبه يُساوي خمسة دراهم.

وكان القبض على الملك الناصر من الكرك في يوم الإثنين الظهر ثاني عشرين

---

(١) هذا المصطلح جرى في العصر المملوكي بمعنى ممتلكات السلطان من المنقولات العامة.

(٢) ذكرها القلقشندي في كلامه على الآلات الملوكية ورسوم الملك. قال: «ومنها المظلّة، واسمها بالفارسية الجنز، بنون بين الجيم والزاي». ــ (كذا ضبطها بالعبارة أولاً، ثم ضبطها بالعبارة مرة ثانية باسم الجتر، بجيم مكسورة، قد تبدل شيناً معجمة، وتاء مثناة فوق). قال: ويعبّر عنها العامة اليوم بالقبّة والطير؛ وهي قبّة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب. (صبح الأعشى: ٢/١٤١، ٤/٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت).

صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة؛ وكُتِب بذلك إلى السلطان، فأرسل السلطان الملك الصالح الأمير مَنْجَك اليُوسِفي الناصريّ السلاح دار إلى الكرك فقتله وحزّ رأسه وتوجه بها إلى القاهرة.

وكان الملك الناصر أحمد هذا قد أخرجه أبوه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكَرَك وهو صغير، لعلّه لم يبلغ العشر سنين، فرُبِّيَ بالكرك وأحبّ أهلها وصارت له وطناً؛ وكان نائب الكرك إذ ذاك مَلِكْتَمُر السَّرْجَوَانِيّ زوج أمّه. ثم أرسل إليه أبوه أخويه: إبراهيم وأبا بكر المنصور، فأقاموا الجميع بالكرك إلى أن طلبهم والدهم، وأعاد الناصرَ هذا إلى الكرك ثم طلبه ثانياً وزوّجه ببنت الأمير طَايَرْبُغا من أقارب الملك الناصر، ثم أعاده إلى الكرك.

وكان الناصر هذا أحسن إخوته وجهاً وشكلاً، وكان صاحب لِحْية كبيرة وشعر غزير؛ وكان ضخماً شُجاعاً صاحب بَأْسٍ وقُوّة مُفْرِطة، وعنده شهامةٌ مع ظلم وجبروت؛ وهو أسوأ أولاد الملك الناصر سيرةً مع خفَّة وطَيْش.

* * *

السنة التي حكم في أوّلها المنصور أبو بكر إلى حادي عشرين صفر، على أنه حَكم من السنة الماضية تسعة أيام. ثم حكَم فيها من صفر إلى يوم الخميس أوّل شعبان الملك الأشرف كجك. ثم حكم فيما بقي منها الملك الناصر أحمد هذا؛ والثلاثة أولاد الناصر محمد بن قلاوون حسب ما تقدّم ذكره

والسنة المذكورة سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة.

فيها وقعت حادثة غريبة، وهي أن رجلاً بَوَارديّاً[1] يقال له محمد بن خلف، بخُطّ السُّيُوفِيّين من القاهرة، قُبِض عليه في يوم السبت سادس عشر رمضان، وأحضِر إلى محتَسِب القاهرة فوُجِد بمخزنه من فراخ الحمام والزرازير المملوحة عِدّةُ أربعة وثلاثين ألف ومائة وستة وتسعين، من ذلك أفراخ حمام [عدة] ألف ومائة وستة

(١) يفهم من سياق العبارة أن البواردي هو تاجر الطيور المحفوظة بواسطة التمليح أو التبريد. ولعل لفظ «البواردي» مشتق اشتقاقاً عامياً من التبريد والبرودة.

وتسعين فرخاً، وزرازير عدّة ثلاثة وثلاثين ألف زرزور، وجميعها قد نُتُنَت وتغيّرت أحوالها، فأُدِّب وشُهِّر.

وفيها تُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغا الصالحيّ الناصريّ نائب الشام مقتولاً بسجن الإسكندرية. كان أصله من صِغار مماليك المنصور قلاوون، ورُبِّـي عند الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتوجه معه إلى الكَرَك؛ فلما عاد الملك الناصر إلى مُلكه أنعم عليه بإمرة عشرة وجعله جَاشْنَكِيرَه، ثم ولّاه حاجباً. ثم نقله من الحجوبيّة إلى نيابة حلب بعد موت أرْغُون النائب، فسار فيها سِيرةً مشكورة وغزا بلاد سِيس، حتّى أخذها بالأمان؛ وقال في ذلك العلّامة زَيْن الدين عمر بن الوَرْدي قصيدة طَنَّانة أوّلها: [الطويل]

جِهـادُك مقبـولٌ وعـامـك قـابـلُ ألا في سبيل المجد ما أنت فاعلُ

وعَمّر الأمير ألطنبغا المذكور في نيابته بحَلَب جامعاً[١] في شرقيّها، ولم يكن إذ ذاك داخل سور حلب جامـع تُقام فيه الخطبة سوى الجامـع الكبير الأمَوِيّ. وأقام بحلب حتى وقـع بينه وبين تَنْكِز نائب الشام، فشكاه تَنْكِز إلى الملك الناصر، فعزله عن نيابة حلب، وولّاه نيابة غَزّة إلى أن غَضِب السلطان على تنكِز ولّاه عـوضه نيابة الشام، إلى أن مات الملك الناصر وتسلطن أولاده أنضمّ ألطنبغا هذا إلى قَوْصون، فكان ذلك سبيلاً لهلاكه؛ وقد تقدم ذكر ذلك كلّه مفصلاً. وكان أميراً جليلاً شجاعاً مشكور السيرة ومات وقد جاوز الخمسين سنة من العمر.

وفيها تُوُفِّي ملك التتار أُزْبَك خان بن طُغْرلجا بن مَنْكُوتَمُر بن طُغَان بن بَاطُو بن دُوشِي خان بن جنكز خان. ومات أُزْبَك خان بعد أن مَلَك نحواً من ثلاثين سنة؛ وكان أسلم وحسنُ إسلامه وحرّض رعيته على الإسلام فأسلم بعضُهم. ولم يَلْبَس

---

(١) ذكره ابن الشحنة باسم جامع الطون بغا الصالحي. قال: بناه بحلب بطرف الميدان الأسود سنة ٧٢٣هـ وهو أول جامع بني بحلب بعد الجامع الكبير داخل سورها على كتف خندق الروم شرقي المدينة. وجعل له بابين: باباً غربياً يستطرق منه إلى حوش عظيم يعرف به ومنه إلى المدينة، وهو بابه الكبير، وباباً شرقياً صغيراً يستطرق منه على جسر إلى ظاهر البلد. (الدرّ المنتخب: ص ٧١ ــ ٧٢).

أُزْبَك خان بعد أن أسلم السَّرَاقُوجَات[١]، وكان يَلْبَس حِياصةً من فولاذ ويقول: لُبْس الذهب حرامٌ على الرجال؛ وكان يميل إلى دِين وخير، ويتردّد إلى الفقراء، وكان عنده عدل في رعيته، وتزوّج الملك الناصر محمد بـآبنته. وكان أُزْبَك شجاعاً كريماً مليحَ الصورة ذا هَيْبة وحُرمة. ومملكتُه متسعة، وهي من بحر قُسْطَنْطِينِيّة إلى نهر إِرْتِش مسيرة ثمانمائة فرسخ، لكن أكثر ذلك قُرًى ومراع. ووَلِي المُلكَ بعده [ابنه] جَانِي بَكْ خان.

وتُـوُفِّي الأمير سيف الـدين بَشْتَـك بن عبـد الله النـاصـري مقتـولاً بسجن الإسكندرية في شهر ربيع الآخر. وكان إقطاعه يَعْمَل بمائتي ألف دينار في كلّ سنة، وأنعَم عليه أستاذُه الملك الناصر محمد في يوم واحد بألف ألف درهم. وكان راتبه لسماطه في كلّ يوم خمسين رأساً من الغنم وفَرَساً، لا بدَّ من ذلك. وكان كثير التِّيه، لا يُحَدِّث مباشريه إلا بتَرْجُمان[٢]. وهوصاحب القصر[٣] ببين القصرين، والحمام[٤] بالقرب من سُوَيْقَة العِزِّي، والجامع عند قنطرة طُقُزْدَمُر خارج القاهرة. قال الشيخ صلاح الدين الصفدي: «وكان بَشْتَك أهيفَ القامة، حُلْو الوجه. قربه السلطان وأدناه، وكان يُسمِّيه في غَيْبته بالأمير، وكان إقطاعه سبعة عشرة [إمرة][٥] طبلخاناه أكبر من إقطاع قَوْصون، وما يَعْلَم قوصون بذلك».

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طاجار بن عبد الله الناصري الدَّوادَار قتيلاً بثغر الإسكندرية. وكان من خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن أكابر مماليكه، ورقّاه حتى ولّاه الدَّوَادَارِيّة، وكان ممّن آنضـم إلى الملك المنصور أبـي بكر فقُبِض عليه عند خَلْعه وقُتِل.

(١) السراقوجات أو السراغوجات: جمع سراقوج وسراغوج. وأصل اللفظ فارسي، يستعمل بمعنى الطاقية وبمعنى المغفر للسيف. وهومؤلف من كلمتين: «سَرَا» أي الرأس، و«أغوش» بمعنى أن يحضن أوأن يمسك ويضم. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ١٢٨).

(٢) ذكر المقريزي أنه كان يعرف العربية ولا يتكلم بها. (خطط: ٣٤/٢، وأورد له ترجمة طويلة).

(٣) راجع ص ١١٥ من الجزء التاسع.

(٤) لم يذكر المقريزي في خططه هذا الحمام. وقال الاستاذ محمد رمزي أن هذا الحمام لا يزال قائماً بشارع سوق السلاح الذي كان يسمى سويقة العزّي بالقاهرة.

(٥) زيادة عن السلوك.

وفيها تُوُفِّي الأمير سيف الدين جَرِكْتَمُر بن عبد الله الناصريّ قتيلاً.

وتُوُفِّي الأمير قوصون بن عبد الله الناصريّ الساقي قتيلاً بثغر الإسكندرية في شوّال، وقد مرّ من ذكره ما فيه كفاية عن تكراره ثانياً.

وتُوُفِّي الملك الأفضل علاء الدين علي آبن الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل [آبن الملك الأفضل علي] آبن الملك المظفّر محمود آبن الملك المنصور محمد آبن الملك المظفّر تقيّ الدين عمر بن شَاهِنْشاه آبن الأمير نجم الدين أيّوب بن شَادِي بن مَرْوان الأُيُّوبي صاحب حَمَاة وآبن صاحبها. مات بدِمَشق، وهو من جملة أمرائها بعد ما باشر سلطنة حماة عشرين سنة إلى أن نقله قوصون إلى إمْرة الشام؛ وولي نيابة حماة بعده الأمير طُقُزْدَمُر الحَمَوي. وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء حادي عشر ربيع الآخر عن ثلاثين سنة.

وتُوفّي الأمير شرف الدين، وقيل مظفّر الدين موسى بن مُهَنّا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حُديثة بن عُصَيّة بن فضل بن ربيعة أمير آل فضل بمدينة تَدْمُر. وكان من أجلّ ملوك العرب، مات فجأة في العشر الأخير من جُمادَى الأولى.

وتُوفّي الحافظ الحجّة جمال الدين أبو الحجّاج يوسف بن الزَّكي عبد الرحمن بن يوسف بن عليّ بن عبد الملك ابن أبي الزُّهْر القُضاعِيّ الكَلْبي المِزّي الحلبي المولد. وُلِد بظاهر حلب في عاشر ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وستمائة، ومات بدِمَشق في ثاني عشر صفر. وكان إمامَ عصره أحد الحفّاظ المشهورين. سَمِع الكثير ورحَل وكَتَب وصنّف. وقد ذكرنا عِدّة كبيرة من مشايخه وسماعاته في ترجمته في «المنهل الصافي» ونبذة كبيرة من أخباره. ومن مصنفاته «كتاب تهذيب الكمال» وهو في غاية الحسن في معناه.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين تَمُر بن عبد الله الساقيّ الناصريّ أحدُ أمراء الألوف في يوم الأحد ثامن عشرين ذي الحجة. وكان من أكابر الأمراء ومن أعيان خاصكيّة الملك الناصر محمد بن قلاوون ومماليكه.

وتُوُفِّي القاضي برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن فخر الدين خليل بن إبراهيم الرسعني[١] الشافعي قاضي حلب بها. وكان فقيهاً فاضلاً، ولي القضاء بحلب وغيرها وأفتى ودرّس.

وتوفي الأمير علاء الدين علي آبن الأمير الكبير سيف الدين سَلّار في شهر ربيع الآخر. وكان من أعيان الأمراء بالديار المصرية.

وتُوُفِّي خطيب جامع دِمَشق الأُمَويّ الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة جلال الدين محمد القَزْويني الشافعيّ. وكان فاضلاً خطيباً فصيحاً.

وتُوُفِّي الأمير ركن الدين بِيبَرْس بن عبد الله الناصريّ السلاح دار نائب الفتوحات بآياس وغيرها. وكان من أجلّ الأمراء الناصريّة. كان شجاعاً كريماً، وله المواقف المشهودة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ثماني[٢] عشرة ذراعاً وتسع أصابع. والله تعالى أعلم.

---

(١) نسبة إلى رأس عين، مدينة بالجزيرة وقرية بفلسطين.

(٢) ذكر المقريزي في السلوك أنه في يوم الجمعة تاسع ربيع الأول من هذه السنة وفّى النيل ستة عشر ذراعاً، وفتح سدّ الخليج بكرة يوم السبت. ثم نقص الماء أربع أصابع، ثم رد النقص وزاد إصبعاً من سبعة عشر ذراعاً في يوم الخميس خامس عشره.

ذكر سلطنة الملك الصالح إسماعيل[١] على مصر

السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو الفداء إسماعيل آبن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون؛ وهو السلطان السادس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والرابع من بني محمد بن قلاوون. جلس على تخت الملك في يوم الخميس ثاني عشرين المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد بآتفاق الأمراء على ذلك لِما بلغهم عن حُسن سِيرته؛ فإنّه قيل للأمراء، لمّا أخرَج قوصون أولادَ الملك الناصر إلى قُوص: كان إسماعيل هذا يصوم يومي الإثنين والخميس، ويشغل أوقاته بالصلاة وقراءة القرآن، مع العِفّة والصِّيانة عمّا يُرْمَى به الشَّباب من اللّهو واللّعب. فلمّا بلغهم ذلك آتّفقوا على إقامته في الملك، وسلطنوه وحلّفوا له الأمراء والعساكر، وحلَف لهم أيضاً السلطان الملك الصالح إسماعيل المذكور ألّا يُؤذِي أحداً وألا يَقبِض على أمير بغير ذنب. فتمّ أمرُه، ولُقِّب بالملك الصالح، ودُقَّت البشائر، ونُودي بزينة القاهرة ومصر. ورَسَم بالإفراج عن المسجونين بثغر الإسكندرية، وكتَب بالإفراج أيضاً إلى الوجه القبلي[٢] والبحري، وألّا يُترِكَ بالسجون إلّا من آستحقّ

(١) انظر ترجمته وأخباره في: السلوك: ٦١٩/٣/٢؛ والجوهر الثمين: ١٨٣/٢؛ وتاريخ الشجاعي: ٢٣١؛ وبدائع الزهور: ٤٩٨/١/١؛ والبداية والنهاية: ٢٢٠/١٤ وما بعدها؛ وشذرات الذهب: ١٤٨/٦.

(٢) الوجه البحري من البلاد المصرية هو الذي يمتد شمالي القاهرة على شكل مروحة وينتهي حده بالبحر المتوسط، ويقال له أيضاً أسفل الأرض أو مصر السفلى. وهذه التسمية مقابل أعلى الأرض، أو مصر العليا، أو الصعيد، وهي الوجه القبلي الذي يمتد على جانبي النيل من جنوب القاهرة إلى آخر حدود مصر الجنوبية مع السودان. وسمي الوجه القبلي صعيداً لأن أرضه كلما وجلت في الجنوب أخذت في الصعود والارتفاع.

عليه القتل. وآستقرّ الأميرُ أَرْغُون العلائي زوج أُمّ الملك الصالح رأس[١] نوبة، ويكون رأس المَشُورة ومدبّر السلطنة وكافل السلطان. وآستقرّ الأمير آق سُنْقر السّلّاري نائب السلطنة بالديار المصرية. وكتب [السلطان] للأمراء ببلاد الشام والنوّاب بآستمرارهم، وأرسل إليهم الخِلَع على يد الأمير طُقْتَمُر الصلاحيّ؛ وكتَب بتقليد الأمير أَيْدُغْمُش نائب حلب بنيابة الشام، وآستقرّ عوضه في نيابة حلب الأمير طُقُزْدَمُر الحموي نائب حَمَاة. وآستقر في نيابة حماة عوضاً عن طقزدمر الأمير علم الدين سَنْجَر الجَاوْلي.

ثم كتب السلطان الملك الصالح إسماعيل إلى أخيه الملك الناصر أحمد بالسلام، وإعلامه أنّ الأمراء أقاموه في السلطنة لمّا علموا أنه[٢] ليس له رغبة في مُلك مصر، وأنّه يُحب بلاد الكَرَك والشُّوبك، «وهي بحكمك وملكك». وسأله أن يُرسِل القُبَّة والطَّيْر والغاشية والنِّمْجاة؛ وتوجّه بالكتاب الأمير قُبْلَاي. وخرج الأمير بَيْغَرا ومعه عِدّةٌ من الأوجاقية لجرّ الخيول السلطانية من الكَرَك الذي كان الملك الناصر أخذهم من الإسطبل السلطاني، وتوجّه الجميع إلى جهة الكرك.

ثم في يوم الأربعاء ثامن عشرين المحرم قَدِم الأمراء المسجونون بثغر الإسكندرية إلى القاهرة، وعدّتُهم ستة وعشرون أميراً، منهم الأمير قياتَمُر وطَيْبُغا المَجْدِيّ وآبن طُوغان جق وأَسَنْبُغا آبن البوبكري وآبن سُوسُون وناصر الدين محمد بن المحسني والحاجّ أَرُقطاي نائب طرابُلُس في آخرين. و[في يوم الخميس][٣] طلعوا إلى القلعة وقبّلوا الأرض بين يدي السلطان. ثم رَسَم السلطان أن يجلس أَرُقطاي مكان الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي المنتقل إلى نيابة حماة، وأن يتوجّه البقيةُ على إمريات ببلاد الشام.

---

(١) رأس نوبة: لقب على الذي يتحدث على مماليك السلطان أو الأمير، وتنفيذ أمره فيهم. والعامة تقول لأعلاهم «رأس نوبة النوب» وهو خطأ، لأن المقصود علوّ صاحب النوبة لا النوبة نفسها. والصواب فيه أن يقال: رأس رؤوس النوب. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٥).

(٢) الضمير عائد على الناصر أحمد.

(٣) زيادة عن السلوك.

وفي يوم السبت أوّل صفر قَدِم من غزّة الأمير قُماري أمير شِكار والأمير أبو بكر بن أَرْغون النائب والأمير مَلِكْتَمُر الحجازيّ وصحبتهم الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، ومقدّم المماليك الطّواشي عَنْبر السَّحَرْتي والمماليك السلطانية مفارقين الملك الناصر أحمد. وفيه خرج الأمير طُقُزْدَمُر الحموي من القاهرة لنيابة حلب. وفي يوم الإثنين ثالثه خَلَـع على الأمير سَنْجَر الجاولي نائب حماة خِلْعة السفر، وخلَـع فيه أيضاً على الأمير مسعود بن خطِير الحاجب خِلْعة السفر لنيابة غزّة، وخلـع على القاضي بدر[1] الدين محمد بن محيـي الدين يحيـى بن فضل الله، وآستقـر في كتابة السرّ بدِمَشق عوضاً عن أخيه شهاب الدين أحمد. ورَسَم بسفر مماليك قَوْصُون والأمير بَشْتك إلى البلاد الشامية متفرّقين، وكتَب إلى النوّاب بذلك[2]. وفيه آستقـرّ الأمير جَنْكَلي بن البابا في نظر البِيمَارِسْتان المنصوريّ ببين القصرين عوضاً عن سنجر الجاولي. وجلس الأمير آق سنقر السّلّاري بدار النيابة بعدما عَمّرها وفَتـح [بها] شُباكاً، ورُسِم له أن يُعطي الأجناد الإقطاعات من ثلاثمائة دينار إلى أربعمائة دينار ويُشاور فيما فوق ذلك وآستقـرّ المَكِين إبراهيم بن قَرَوِينَة في نظر الجيش. (وعيّن ابـن التاج إسحاق لنظر الخاصّ كلاهما عوضاً عن جَمال الكُفاة بحكم غَيْبته بالكَرَك عند الملك الناصر أحمد)[3]. وفيه أنعم السلطان على أخيه شعبان بإمرة طبلخاناه.

وفي يوم الإثنين رابـع عشرين صفر خلَـع السلطان على جميـع الأمراء كبيرِهم وصغيرِهم الخِلـع السنيّة. وفي يوم الثلاثاء خامس عشرينه قَدِم القاضي علاء الدين علي بن فضل الله كاتب السرّ وجمال الكُفاة ناظر الجيش والخاصّ من الكَرَك إلى الديار المصرية مفارقين الملك الناصر بحيلة دبرها جمال الكُفاة. و[كان] قد بَلغه عن الناصر أنه يُريد قتلهم خوفاً من حضورهم إلى مصر ونقلهم لما هو عليه من سوء

---

(١) سيأتي ذكر وفاته في حوادث سنة ٧٤٦هـ وانظر ص ١١٥ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) في السلوك: «وكتب للنواب بإقطاعهم الأخباز شيئاً فشيئاً».

(٣) هذه العبارة التي وضعناها بين هلالين من عندنا وردت في السلوك بأوضح مما هنا، وهي: «وعيّن ابن التاج إسحاق لنظر الخاص، عوضاً عن جمال الكفاة ناظر الجيش والخاص، لغيبته بالكرك؛ فقام الأمير جنكلي في إبقاء الخاص على جمال الكفاة حتى يحضر».

السيرة؛ فبذل جمال الكُفاة ليوسف [بن البصارة] البَازْدَار مالاً جزيلاً حتى مكّنهم من الخروج، فأقبل عليهم الأمراء والسلطان، وخلع عليهم بٱستمرارهم على وظائفهم.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرين ربيع الأوّل رَسَم السلطان للأمير أَلْطُنْبُغَا المارِدَانيّ الناصريّ بنيابة حماة عوضاً عن الأمير سَنجَر الجَاوْلي، وكتب بحضور سنجر الجاولي إلى نيابة غَزّة عوضاً عن أمير مسعود، ونقل أمير مسعود إلى إمرة طبلخاناه بدِمَشق.

وقَدِم الخبر من شَطِّي أمير العرب بأن الملك الناصر أحمد قَرّر مع بعض الكَرَكِيّين أنه يدخل إلى مصر ويقتُل السلطانَ، فتشوّش الأمراء لذلك، ووقع الاتفاق على تجريد العساكر لقتال الملك الناصر وأخذه من الكَرَك. وفي يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر توجّهت التجريدة إلى الكَرَك صحبة الأمير بَيْغَرا، وهذه أوّل التجاريد إلى الكَرَك لقتال الملك الناصر أحمد. وفي عقيب ذلك حَدَث للسلطان رُعاف مستمرّ فاتهمت أُمُّه أُمَّ السلطان الأشرف كُجُك خَوَنْد أرْدُو بأنّها سحرته، وهجَمت عليها، وأوقعت الحَوْطة على موجودها، وضرَبت عدّة من جواريها ليعترفْنَ عليها، فلم يكن غير قليل حتّى عُوفي السلطان، ورَسَم بزينة القاهرة؛ وحملَت أمّ السلطان إلى المَشْهد النفيسيّ قِنْديلَ ذهب، زنتُه رطلان وسبع أواق ونصف أوقية.

ثم قَدِم الخبر على يد إياز الساقي بموت الأمير أَيْدُغْمُش نائب الشام فجأة، فوقع الاختيار على ٱستقرار الأمير طُقُزْدَمُر الحمويّ نائب حلب مكانه في نيابة الشام، وٱستقر الأمير أَلْطُنْبُغا المَارِدانِيّ عوضاً عن طقزدمر في نيابة حلب؛ وٱستقر الأمير يَلْبُغا اليَحْيَاويّ في نيابة حماة عوضاً عن المارداني.

ثم أنعم السلطان على أَرْغُون العلائيّ بإقطاع الأمير قُماري بعد موته وكتَب السلطان لنائب صَفدَ وغزّة بالنَّجْدة للأمير بَيْغَرا لحِصار الملك الناصر بالكَرَك.

ثم قَدِم الخبر من [أمير العرب] شطيّ [بن عبيَّة] أنه ركب مع العسكر على مدينة الكرك وقاتلوا أهل الكرك وهزموهم إلى القلعة، وأنّ الملك الناصر أذعن وسأل

أن يُمْهَلَ حتّى يكتب إلى السلطان ليُرسِل من يتسلّم منه قلعة الكرك، فرجعوا عنه؛ فلم يكن غير قليل حتى آستعد الملك الناصر وقاتلهم.

وفي يوم الأربعاء رابع شهر رجب كانت فتنةُ الأمير رمضان أخي السلطان. وسببُ ذلك أنّ السلطان كان أنعم عليه بتقدمة ألف، فلمّا خرج السلطان إلى [سرحة] سِرْيَاقوس تأخّر رمضان عنه بالقلعة، وتحدّث مع طائفة من المماليك في إقامته سلطاناً وآتفقوا على ذلك. فلمّا مَرِض السلطان الملك الصالح هذا وآسترخى قَوِيَ أمره، وشاع ذلك بين الناس، وراسَل تُكَا الخُضَرِيّ ومَنْ خرج معه من الأمراء، وواعد من وافقه على الركوب بقُبّة النصر. فبلَغ ذلك السلطانَ ومدبِّر دولته الأمير أَرْغُون العلائي، فلم يعبأ بالخبر إلى أن أهلّ شهر رجب، جهّز الأميرُ رمضان خيولَه وهُجُنَه بناحية بركة الحَبَش، وواعد أصحابه على يوم الأربعاء. فبلغ الأمير آق سنقر أمير آخُور عند الغروب بما هو فيه من الحركة، فندَب عدّةً من العُرْبان ليأتوه بخبر القوم. فلمّا أتاه خبرُهم سار إليهم وأخذ جميع الخيل والهُجُن عن آخرهم من خلف القلعة وساقهم إلى الإسطبل السلطاني وعَرَّف السلطان والعلائي أَرْغون من باب السرّ بما فعله فطلباه إليهما فصَعِد بما ظَفر به من أسلحة القوم. فآتفقوا على طلب إخوة السلطان إلى عنده والاحتفاظ بهم. فلمّا طلع الفجر خرج أرغون العَلائي من بين يدي السلطان وطلب إخوة السلطان ووكّل بهم ووكّل ببيت رمضان جماعَةً حتى طلَعت الشمس. وصَعِد الأمراء الأكابر إلى القلعة باستدعاء وأعلموا بما وقع[1]، فطلبوا سيدي رمضان إليهم فآمتنع من الحضور وهم يُلِحُّون في طلبه إلى أن خرجت أُمُّه وصاحت عليهم، فعادوا عنه إلى أَرْغون العلائي. فبعث أرغون بِعِدةٍ من المماليك والخُدّام لإحضاره، فخرج [رمضان] في عشرين مملوكاً إلى باب القُلّة وسأل عن النائب، فقيل له [إنه] عند السلطان مع الأمراء، فمضى إلى باب القلعة وسيوفُ أصحابه مُصْلَتة، ورَكب على خيول الأمراء، ومَرّ بمن معه إلى سوق الخيل تحت القلعة فلم يجد أحداً من الأمراء، فتوجّه إلى

(١) عبارة الأصل: «وصعد الأمراء الأكابر إلى القلعة فاستدعى السلطان لهم وأعلموه بما وقع» وما أثبتناه عن السلوك.

جهة قُبّة النصر خارج القاهرة ووقف هناك ومعه الأمير تُكَا الخُضَرِي وقد آجتمع الناس عليهم. وبلغ السلطانَ والأمراءَ خبرُه فأُخرِج السلطانُ محمولاً بين أربعة لِما به من الاسترخاء، ورَكِب النائبُ وآق سنقر أمير آخور وقُمارِي أخو بَكْتَمُر الساقي وجماعةٌ أُخر. وأقام أكابرُ الأمراء عند السلطان وصُفَّت أطلابُهم تحت القلعة، وضربت الكوسات حربياً، ونزلت النقباء في طلب الأجناد. وتوجّه النائب إلى قُبّة النصر، ووقف بمن معه تُجاه رمضان، وقد كثُرَ جمْع رمضان من أجناد الحُسَيْنِيّة ومن مماليك تُكَا والعامّة؛ وبعث النائب يُخبِر السلطان بذلك؛ فمن شدّة ما آنزعج نهضت قوّته، وقام قائماً على قَدَمَيْه بعد ما كان يئس من نفسه من عِظَم آسترخاء أعضائه، وأراد الركوب فقام الأمراء وهنُّوه بالعافية وقبّلوا له الأرض وهوّنوا عليه أمر أخيه رمضان. ولا زالوا به حتّى جلس مكانه؛ فأقام إلى بعد الظهر، والنائب يُراسل رمضان ويَعِده بالجميل ويُخّوفه العاقبة، وهو لا يلتفت إلى قوله. فعزم النائب على الحملة عليه هو ومن معه، ودَقّ طبلَه، فلم يثبُت العامّة المجتمعة على رمضان، وآنفلُّوا عنه، وآنهزم هو وتُكَا الخُضَرِي في عِدّة من المماليك إلى البريّة، والأمراءُ في طلبه، فعاد النائب إلى السلطان. فلمّا كان بعد العِشاء الآخرة من ليلة الخميس أُحضِر رمضان وتُكا الخُضَرِي، وقد أدركوهما بعد المغرب [عند البويب][1]، ورموا تُكا بالنُّشاب، حتى ألقوه عن فرسه، وقد وقف فرسُ رمضان من شدّة السَّوْق. فوُكِّل برمضان مَن يحفظه، وأُذِن للأمراء بنزولهم إلى بيوتهم، وطلَعوا من بكرة يوم الخميس إلى الخِدمة على العادة. وجلس السلطان وطلَب مماليك رمضان، فأُحضِروا. فأمر بحبسهم فحُبِسوا أياماً؛ ثم فرّقهم السلطان على الأمراء، ثم خلَع السلطان على الأمراء وفرّق عليهم الأموال.

وفي يوم الاثنين سادس عشره وصل قاصدُ الأمير بَيْغَرَا المتوجّه إلى الكَرَك بمن معه من العساكر بعد ما حاربوا الملك الناصر أحمد بالكرك وقاتلوه قتالاً شديداً، وجُرِح منهم جماعة وقلّت أزوادُهم. فكتب السلطان بإحضارهم إلى الديار

(١) زيادة عن السلوك. والبويب: مكان غير بعيد عن القاهرة. وفي معجم البلدان أنه مدخل أهل الحجاز إلى مصر.

المصريّة. وفيه خلع السلطان على طُرُنْطاي البَشْمَقْدَار بنيابة غزّة عوضاً عن الأمير عَلَم الدين سَنْجَر الجَاْولي، وكتب بقدوم الجاولي إلى مصر. وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه وَسَّط السلطان تُكَا الخُضَري بسوق الخيل تحت القلعة ووسَّط معه مملوكين من المماليك السلطانية. وفي هذا الشهر وقف السلطان الملك الصالح صاحب الترجمة ثلثي ناحية سَنْدَبِيس[١] من القليوبيّة على ستة عشر خادماً لخدمة الضريح الشريف النبويّ عليه الصلاة والسلام، فتمّت عِدّة خُدّام الضريح الشريف النبوي بذلك أربعين خادماً.

قلت لله درُّه فيما فعل! وعلى هذا تحسد الملوك لا على غيره.

ثم آتفق الأمراء مع السلطان على إخراج تجريدة ثانية لقتال الملك الناصر بالكرك. فلمّا كان عاشر شعبان خرج الأمير بيبَرْس الأحمدي والأمير كُوكاي في ألفي فارس تجريدة للكرك. وكتَب السلطان أيضاً بخروج تجريدة من الشام مضافاً إلى من خرج من الأمراء والعساكر من الديار المصريّة؛ وتوجّه الجميع، ونُصِبت المناجيق[٢] على الكرك وجَدُّوا في حِصارها.

وأما الملك الصالح فإنّه بعد خروج التجريدة خلَع على جمال الكُفاة، بعدما عُزل وصُودر، بآسْتقراره مشيرَ[٣] الدولة بسؤال وزير بغداد [نجم الدين محمود][٤] في ذلك بعد أن أعيد إلى الوزارة، ونزلا معاً [بتشاريفهما][٥].

وفي ذي القعدة رتّب السلطان دروساً للمذاهب الأربعة بالقُبة المنصوريّة

---

(١) من القرى المصرية القديمة. وهي اليوم إحدى قرى مركز قليوب بمديرية القليوبية بمصر. (محمد رمزي).
(٢) ويقال أيضاً مجانيق ومنجنيقات.
(٣) مشير الدولة ــ وقبله مشير السلطنة ــ من ألقاب الوزراء ومن في معناهم. (صبح الأعشى: ٦/٧٠) ويبدو أنها في هذه الفترة التي يؤرخ لها الكاتب كانت من المستحدثات التي أريد بها إنشاء وظيفة موازية لوظيفة مدبر الدولة ليملأها الأمير الذي تخطئه هذه الوظيفة الثانية، أو أنها نوع من التقنين لوظيفة رأس المشورة. (السلوك: ٢/٣/٦٤٣، حاشية: ٤).
(٤) زيادة عن السلوك. وهو نجم الدين محمود بن علي بن شروان. كان وزيراً في بغداد، ثم لجأ هو وجماعة معه إلى القاهرة في أيام الناصر محمد بن قلاوون في صفر سنة ٧٣٨هـ (السلوك: ٢/٢/٤٣٧).
(٥) زيادة عن السلوك.

ووقَف عليهم وعلى قُرّاء وخُدّام وغير ذلك ناحيةَ دهمشا[١] بالشرقيّة، فآستمرّ ذلك وعُرِف بوقف الصالح.

ثم في يوم الأربعاء عاشر المحرّم سنة أربع وأربعين وسبعمائة قبَض السلطان على أربعة أمراء، وهم الأمير آق سنقر السّلّاري نائب السلطنة والأمير بَيْغَرا أمير جاندار صِهْر آق سُنْقُر المذكور والأمير قَراجَا الحاجب وأخيه أولَاجا، وقُيِّدوا ورَسَم بحبسهم في الإسكندرية.

وخرج الأمير بُلَك على البريد إلى المجرَّدين إلى الكرك فأدركهم على السَّعيدية، وطيّب خواطرهم وأعلمهم بالقبض على الأمراء، وعاد سريعاً؛ فقدِم قلعة الجبل طلوع الشمس من يوم الخميس حادي عشره، وبعد وصوله قبض السلطان على طَيْبُغا الدَّوادار الصغير. وكان سبب قبض السلطان على هؤلاء الأمراء أن الأمير آق سُنْقر كان في نيابته لا يردّ قاصداً ولا قِصّة تُرفع إليه؛ فقصده الناس من الأقطار وسألوه الرِّزَق والأراضي التي أَنْهَوْا أنّها لم تكن بيد أحد، وكذلك نيابة القِلاع والأعمال والرواتب وإقطاعات الحَلْقة، فلم يردّ أحداً سأله شيئاً من ذلك، سواء أكان ما أنهاه صحيحاً أم باطلاً، فإذا قيل له: هذا الذي سأله يحتاج أن يكشف عنه تغيرّ وجهُه وقال: «ليش تُقطع رِزَقُ الناس»؛ وكان إذا كتَب الإقطاع لأحد فحضر صاحبه من سفره أو تَعَافَى من مرضه وسأله في إعادة إقطاعه قال له: «هذا أخذ إقطاعك ونحن نُعوِّضك». ففسدت الأحوال لا سيّما البلاد الشاميّة، فكتَب النوّاب بذلك للسلطان، فكلّمه السلطان فلم يَرْجع وقال: «كلّ من طلَب مني شيئاً أعطيتُه، وما أردّ قلمي عن أحد»، بحيث إنه كان تُقدَّم إليه القصّة وهو يأكل فيترك أكله، ويكتب عليها من غير أن يَعْلَم ما فيها؛ فأغلظ له بسبب ذلك الأمير شمس الدين آق سُنْقر الناصريّ أمير آخور؛ وآتفق مع ذلك أنّه وُشِيَ به أنّه مباطن مع الملك الناصر أحمد، وأنّ كُتُبه تَصِل إليه، فقرّر أَرْغُون العلائيّ مسكَه مع السلطان، فأُمسك هو وحاشيته، هذا ما كان من أمره.

(١) دهمشا: من القرى المصرية القديمة. وهي اليوم إحدى قرى مركز بلبيس بمديرية الشرقية. (محمد رمزي).

وفي يوم الجمعة ثاني عشر المحرم من سنة أربع وأربعين المذكورة خلَع السلطان على الأمير الحاجّ آل ملك، وٱستقرّ في نيابة السلطنة عوضاً عن آق سُنْقر السّلّارِي المذكور.

ثم في ثاني عشر صفر قَدِم الخبر بوفاة الأمير أَلْطُنْبُغا المارِدانيّ الناصريّ نائب حلب، فرسَم السلطان للأمير يَلْبُغَا اليَحْيَاوِيّ نائب حَمَاة بٱستقراره في نيابة حلب عوضه. وٱستقر في نيابة حماة الأمير طُقْتَمُر الأحمدي نائب صفد، وٱستقر بلَك الجمدار في نيابة صفد. وتوجه الأمير أرغون شاه بتقليد يلبغا اليحياوي، وتوجه الأمير ألطنبغا البُرْناق بتقليد نائب حماة.

وفي يوم السبت خامس عشرين صفر قَدِم الأمير بيبَرْس الأحمدي والأمير كُوكاي بمن معهما من المجرّدين إلى الكَرَك، فركِب الأمراء إلى لقائهم؛ وٱستمرّ الأمير أَصْلَم على حِصار الكرك، وهي التجريدة الثانية للكرك. وعرّفوا الأمراء السلطان أنّه لا بدّ من خروج تجريدة ثالثة سريعاً تقويةً لأصلم لئلّا يتنفّس الناصر و[حتى] يدوم الحصار عليه. فعَيّن السلطان جماعة من أعيان الأمراء وتجهّزوا وخرجوا في يوم الإثنين رابع شهر ربيع الآخر، وهم الأمير جَنْكَلي بن البابا والأمير آق سُنْقُر الناصريّ الأمير آخور مَلِكْتَمُر السَّرْجَوَانِيّ والأمير عمر بن أَرْغُون النائب في أربعة آلاف فارس تقويةً لأصلم، وهذه التجريدة الثالثة[1] إلى الكرك. وتوجّه صحبتهم عِدّةُ حجّارين ونجّارين ونقّابين ونفْطيّة، وخرج السلطان أيضاً في يوم سفرهم إلى سِرْياقوس على العادة كالمودِّع لهم.

وفي هذه الأيام ٱشتدّ نائب السلطنة الحاجّ آل مَلَك على والي القاهرة ومصر في بيع الخمور وغيره من المحرّمات، وعاقَب جماعة كثيرة على ذلك؛ وكان هذا دَأْب النائب من يوم أخرب خِزَانة[2] البنود في العام الماضي وأراق خمورها وبناها

(١) في السلوك: «التجريدة الرابعة».

(٢) خزانة البنود: كانت هذه الخزانة من منشآت الدولة الفاطمية، بناها الخليفة الظاهر بين قصر الشوك وباب العيد لخزن أنواع البنود من الرايات والأعلام عدا أنواع السلاح والآلات الحربية. وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع، وبها مدرسة لتعليم مماليك الدولة أنواع العلوم وفنون الحرب =

مسجداً، وحَكّرها للناس فعمروها دوراً. وكان الذي يُفْعل في خِزانة[1] البُنُود من المعاصي والفِسْق يُسْتَحَى من ذكره، فعفّ الناس في أيام نيابة آل ملك المذكور عن كثير من المعاصي خوفاً منه. وآستمرّ على ما هوعليه من تتبّع الفواحش والخواطىء وغير ذلك حتّى إنه نَادَى: «من أحضر سكراناً واحداً معه جَرّة خمر خُلع عليه» فقعد العامّة لشَرَبَة الخمر بكلّ طريق؛ وأتوه مرّة بجنديّ قد سَكِرَ فضربه وقطع خبزَه وخَلَع على من قَبَض عليه. ووقع له أمور مع بيعة الخمر يطول الشرح في ذكرها.

وكان يجلس في شُبّاك النيابة طول النهار لا يَمَلُّ من الحُكْم ولا يسأم، وتروح أصحابُ الوظائف ولا يبقي عنده إلّا النقباء البطّالة حتى لا يفوته أحد، وصار له مهابةٌ عظيمة وحُرْمةٌ كَفّت الناس عن أشياء كثيرة حتى أعيان الأمراء، حتى قال فيه بعضُ شعراء عصره: [السريع]

أَلْ مَلَك الحجُّ غدا سَعْدُه ... يملأُ ظهرَ الأرض مهما سَلَكْ

فالأمرا من دونه سُوقةٌ ... والمَلِك الظاهر هُو المَلَك

= وصنوف حيلها من الرماية والمطاعنة والمسابقة. ثم احترقت تلك الخزانة بما فيها من أنواع المتاع سنة ٤٦١هـ وجعلت بعد هذا الحريق حبساً للأمراء والوزراء والأعيان إلى أن زالت الدولة الفاطمية؛ ثم اتخذها ملوك بني أيوب أيضاً سجناً تعتقل فيه الأمراء والمماليك، ثم جعلوها منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية. واستمرت مخصصة لذلك الغرض زمن دولة المماليك حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون. (صبح الأعشي: ٣٥٤/٣؛ وخطط المقريزي: ٤٢٣/١) وقد أشار القلقشندي (المرجع السابق) إلى أن أرض هذه الخزانة احتكرت فيها بعد وجعلت آدراً للسكن. وفي كلام المقريزي (سلوك: ٦٢٢/٣/٢) على إخراب خزانة البنود في العام الماضي، أي سنة ٧٤٣هـ أشار إلى أنه كان يوجد على هذه الأرض سوق يسمى سوق خزانة البنود، وقد هجمه العامة ونهبوا حوانيته كلها. على أنه في نفس الخبر يشير إلى أن قسماً مما تبقى من خزانة البنود القديمة كان لا يزال يستعمل سجناً للأسرى من الفرنج. ومما ذكره القلقشندي والمقريزي يستفاد أن تلك الخزانة كانت تقع على مساحة واسعة من الأرض، وبالتالي فإن الجامع الذي أقامه نائب السلطنة يكون قد شيّد على جزء من أرض الخزانة وليس على كامل أرضها كما يفهم من ظاهر سياق الخبر.

(١) المراد ما كان يفعل في تلك المنطقة.

وفي يوم الثلاثاء[١] سابع عشر جُمادَى الأولى قَدِم الأمير أَصْلَم و[أبو بكر][٢] بن أَرْغُون النائب وأُرُنْبُغا من تجريدة الكَرَك بغير إذن، وآعتذروا بضعف أبدانهم وكثرة الجراحات في أصحابهم وقلّة الزاد عندهم؛ فقَبِل السلطان عُذْرَهم، ورَسَم بسفر طُقْتَمُر الصلاحيّ وتَمُر الموساويّ في عشرين مقدَّماً من الحَلْقة وألفي فارس نجدةً لمن بَقي من الأمراء على حِصار الكرك، فساروا في سَلْخه. وهذه التجريدة الرابعة بل الخامسة؛ فإنّه تكرر رواح الأمراء في تلك التجريدة مرّتين.

ثم بعد مدّة رَسَم السلطان بتجهيز الأمير علم الدين سَنْجر الجاوليّ والأمير أَرُقْطاي والأمير قُماري الأستادار وعشرين أمير طبلخاناه وثلاثين مقدّم حلقة، فساروا يوم الثلاثاء خامس عشر شوال في أَلْفَيْ فارس إلى الكرك، وهي التجريدة السادسة؛ وتوجّه معهم أيضاً عِدّةُ حجّارين ونقّابين ونفْطية وغير ذلك.

وفي مستهلّ شهر رمضان فَرَغَت عمارة السلطان الملك الصالح إسماعيل صاحب الترجمة من القاعة التي أنشأها المعروفة الآن بالدهيشة[٣] الملاصقة للدور السلطانية المُطِلّة على الحوش، وفُرِشَت بأنواع البُسُط والمقاعد الزَّرْكَش.

قلت: هي الآن مجازٌ لأوباش الرعيّة لمن له حاجة عند السلطان من التُّركمان والأعراب والأوغاد والأتباع. ولله درّ القائل: [الكامل]

وإذا تأمّلتَ البِقاعَ وجدتَها تَشْقَى كما تَشْقَى الرجالُ وتَسْعَدُ

وجلس السلطان الملك الصالح فيها، وبين يديه جواريه وخدمُه وحُرَمُه، وأكثرَ السلطان في ذلك اليوم من الخِلَع والعطاء؛ وكان السلطان قد آختصّ بِبَيْبُغَا الصالحيّ وأَمَّره وخَوَّله في النِّعَم وزوّجه بآبنة الأمير أَرغُون العلائيّ مدبِّر مملكة السلطان وزَوْج أمّه؛ والبِنت المذكورة أخت السلطان لأمّه.

(١) في السلوك: «في يوم الأحد سابع عشرين جمادى الأولى».
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) انظر خطط المقريزي: ٢١٢/٢. وفيه أن بناءها كان في سنة ٧٤٥هـ

وكَثُر في هذه الأيام اسْتيـلاء الجواري والخُدّام على الدولة، وعارضوا النائب في أمور كثيرة حتّى صار النائب يقول لمن يسأله شيئاً: «رُوح إلى الطواشي فلان فينقضِي شُغلُك». وآستمرّ السلطان يُكْثر من الجلوس في الدهيشة بأُبَّهة عظيمة إلى الغاية.

ثم رَسَم السلطان بإحضار المجرَّدين إلى الكَرَك وعيَّن عِوضَهم تجريدةً أخرى إلى الكرك، وهي التجريدة السابعة، فيها الأمير بيبَرْس الأحمديّ والأمير كُوكاي وعشرون أمير طبلخاناه وستة عشر أمير عشرة؛ وكتب بخروج عسكر أيضاً من دِمَشق ومعهم المَنْجَنيق والزحَّافات. وحَمَل إلى الأحمدي مبلَـغ ألفي دينار، وكذلك[1] لكُوكاي، ولكلّ أمير طبلخاناه خمسمائة[2] دينار، ولكل أمير عشرة مائتي دينار؛ وأرسل أيضاً مـع الأحمدي أربعة آلاف دينار لمن عساه ينزل إليه من قلعة الكرك طائعاً، وجهّز معه تشاريف كثيرة، وعُيِّنت لهم الإقامات؛ وكان الوقت شتاء، فقاسوا من الأمطار مشقّات كثيرة، وأقاموا نحو شهرين، وخرج معهم ستة آلاف رأس من البقر و[نحو] مائتي رأس جاموس ونحو ألفي راجل؛ فآستعـدّ لهم الملك الناصر، وجَمَـع الرجال وأنفق فيهم مالاً كثيراً، وفرّق فيهم الأسلحة المُرْصَدة بقلعة الكرك. وركَّب المَنْجنيق الذي بها، ووقـع بينهم القتال والحِصار إلى ما سيأتي ذكره.

ثم رَسَم السلطان بالقبض على الأمير آقْبُغَا عبد الواحد، فقُبِض عليه بدِمَشق في عِدّة من أمرائها وسُجِنُوا بها لميلهم للملك الناصر أحمد. وآشتـدّ الحِصار على الملك الناصر بالكَرَك وضاقت عليه هو ومن معه لقلّة القوت . وتخلّى عنه أهلُ الكرك، وضَجِروا من طول الحِصار، ووَعَدوا الأمراء بالمساعدة عليه، فحُمِلت إليهم الخِلَـعُ ومَبلـغ ثمانين ألف درهم.

هذا وقد آستهـمَّ السلطان في أوّل سنة خمس وأربعين وسبعمائة بتجريدة ثامنة إلى الكَرَك، وعيَّن فيها الأمير مَنْكَلِي بُغَا الفخريّ والأمير قُمارِي والأمير طَشْتَمُر

---

(١) في السلوك: «ولكوكاي ألف دينار».

(٢) في السلوك: «أربعمائة دينار».

طَلَليه؛ ولم يجد السلطان في بيت المال ما يُنفقه عليهم، فأخذ مالاً من تُجّار العجم ومن بنت الأمير بَكْتَمُر الساقي على سبيل القَرْض وأنفق فيهم. وخرج المجرَّدون في يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وهؤلاء نجدة لمن توجّه قبلهم خوفاً أن يَمَلّ من كان توجّه من القتال، فيجد الناصر فَرَجاً بعودهم عنه. وقُطِعت المِيرَة عن الملك الناصر، ونَفِدت أموالُه من كثرة نفقاته، فوقع الطمع فيه. وأخذ بالغٌ ــ وكان أجلّ ثقاته ــ في العمل عليه، وكاتب الأمراء ووعدهم بأنّه يُسلِّم إليهم الكرك، وسأل الأمان. فكُتِب إليه من السلطان أمانٌ وقَدِم إلى القاهرة ومعه مسعود وآبن أبي الليث، وهما أعيان مشايخ الكرك؛ فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وكتب لهم مناشيرَ بجميع ما طلبوه من الإقطاعات والأراضي؛ وكان من جملة ما طلبه بالغٌ وحدَه [نحو] أربعمائة وخمسين ألف درهم في السنة، وكذلك أصحابه. [ثم أعيدوا إلى الكرك بعدما حلفوا](١) ثم ركب العسكر للحرب، وخرج الكركيّون فلم يكن غير ساعة حتّى آنهزموا منهم إلى داخل المدينة، فدخل العسكر أفواجاً وآستوطنوها، وجدّوا في قتال أهل القلعة عِدّة أيام، والناس تنزل إليهم منها شيئاً بعد شيء حتّى لم يبق عند الملك الناصر أحمد بقلعة الكرك سوى عشرة أنفس، فأقام يَرْمِي بهم على العسكر وهو يُجدّ في القتال ويَرْمي بنفسه، وكان قويّ الرّمي شجاعاً، إلى أن جُرِح في ثلاثة مواضع. وتَمكّنت النقّابة من البُرْج وعلقوه وأضرموا النار تحته، حتّى وقع. وكان الأمير سَنْجَر الجاولي قد بالغ أشدّ مبالغة في الحِصار وبذَل فيه مالاً كثيراً.

ثم هجم العسكر على القلعة في يوم الإثنين ثاني عشرين صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة فوجدوا الناصر قد خرج من موضع وعليه زردية، وقد تنكّب قوسه وشَهَر سيفه. فوقفوا وسلّموا عليه، فردّ عليهم وهو مُتَجَهّم، وفي وجهه جُرْح وكتفه أيضاً يسيل دماً. فتقدّم إليه الأمير أَرْقطاي والأمير قُماري في آخرين، وأخذوه ومضَوْا به إلى دِهليز الموضِع الذي كان به وأجلسوه، وطيّبوا قلبه وهو ساكت لا يحييهم؛ فقيّدوه ووكّلوا به جماعة، ورتّبوا له طعاماً، فأقام يومه وليلته. ومن باكر الغد يُقَدَّم

(١) زيادة عن السلوك.

إليه الطعامُ فلا يتناول منه شيئاً إلى أن سألوه أن يأكل، فأبى أن يأكل حتّى يأتوه بشابٍّ يقال له عثمان، كان يهواه، فأتوه به فأكل عند ذلك. وخرج الأمير آبن بَيْبُغَا حارس طَيْر بالبِشارة إلى السلطان الملك الصالح، وعلى يده كُتُب الأمراء، فقَدِم قلعة الجبل في يوم السبت ثامن عشرين صفر، فدقَّت البشائر سبعة أيام.

وأخرج السلطان مَنْجَك اليُوسفيّ الناصريّ السلاح دار ليلاً من القاهرة على البُخْت لقتل الملك الناصر أحمد من غير مشاورة الأمراء في ذلك؛ فوصل إلى الكرك وأدخل [على الملك الناصر][1] من أخرج الشاب من عنده، ثم خنقه في ليلة رابع شهر ربيع الأول، وقطع رأسه، وسار من ليلته ولم يُعلِم الأمراء ولا العسكر بشيء من ذلك، حتى أصبحوا وقد قَطعَ مَنْجَك مسافة بعيدة. وقَدِم [منجك] بعد ثلاثة أيام قلعة الجبل ليلاً، وقَدَّم الرأس بين يدي السلطان ـ وكان ضخماً مهولاً، له شعر طويل ـ فآقشعر السلطان عند رؤيته وبات مرجوفاً؛ وطلب الأمير قُبْلاَي الحاجب، ورَسَم له أن يتوجّه لحفظ الكَرَك إلى أن يأتيه نائب لها. وكتب السلطان بعود الأمراء والعساكر المجرّدين إلى الكرك، فكانت مدّة حِصار الملك الناصر بالكرك سنتين وشهراً وثلاثة[2] أيام. ثم قَدِم الأمراء المجردون إلى الكرك فخلَع السلطان على الجميع وشكرهم وأكثر من الثناء عليهم. ثم خلع على الأمير مَلِكْتَمُر السَّرْجَوَانِيّ بآستقراره في نيابة الكرك على ما كان عليه قديماً، وجهَّز معه عدّة صناع لعمارة ما تهدّم من قلعة الكرك وإعادة البُرج على ما كان عليه. ورَسَم بأن يَخرُجَ مائة مملوك معه من مماليك قَوْصُون وبَشْتَك الذين كان الملك الناصر قد أسكنهم بالقلعة، ورَتَّب لهم الرواتب، و[أن] يخرج منهم مائتان إلى دِمَشق وحماة وحِمْص وطرابُلُس وصَفَد وحلب. فأُخْرِجوا جميعاً في يوم واحد، ونساؤُهم وأولادُهم في بكاء وعويل؛ وسخَّروا لهم خيول الطواحين ليركبوا عليها.

ثم وقعت الوحشة بين الأمير أَرْغُون العَلاَئي والأمير مَلِكْتَمُر الحجازيّ وبين الحاج آل ملك نائب السلطنة، وصار الحجازي والعلائي معاً على آل ملك النائب.

(١) في الأصل: «عليه». والتعديل للتوضيح.

(٢) في السلوك: «وثمانية أيام».

ووقع بين آل ملك والحجازي أمور يطول شرحها؛ وكان الحجازي مُولَعاً بالخمر وآل الملك يَنْهى عن شُربها، فكان كلّما ظفِر بأحد من حواشي الحجازي مَثَّل به فتقوم قِيامةُ الحجازيّ لذلك؛ وتفاوضا غيرَ مرَّة بسبب هذا في مجلس السلطان، وأَرْغُون العلائي يَميل مع الحجازي لِما في نفسه من آل ملك، وداما على ذلك مدّة.

وأما السلطان فإنه بعد مدّة نزل إلى سِرْياقوس بتجمُّل زائد على العادة في كل سنة. ثم عاد إلى القلعة بعد أيام، فورد عليه قُصَّاد صاحب الروم وقصاد صاحب الغرب.

ثم بدا للسلطان الحجّ، فتهيّأ لذلك وأرسل يطلب العُرْبان وأعطاهم الأموال بسبب كِرَاء الجمال. فتغيَّر مِزاجُه في مستهّل شهر ربيع الأول ولَزِم الفراش ولم يخرج إلى الخدمة أياماً. وكثرت القالة بسبب ضعفه، وتحسّنت الأسعار. ثم أرجِف بموت السلطان في بعض الأيام، فأُغلقت الأسواق حتّى رَكِب الوالي والمُحتِسب وضربوا جماعة وشهَّروهم. ثم آجتمعوا الأمراء ودخلوا على السلطان وتلطَّفوا به حتّى أبطل حركة الحجّ، وكتب بعَوْد طُقْتَمُر من الشام، وآستعادة الأموال من العُرْبان. وما زال السلطان يتعلَّل إلى أن تحرك أخوه شعبان وآتفق مع عِدّة مماليك، وقد آنقطع خبرُ السلطان عن الأمراء. وكَتَب السلطان بالإفراج عن المسجونين من الأمراء وغيرهم بالأعمال، وفُرِّقت صدقات كثيرة، ورُتِّبت جماعة لقراءة «صحيح البخاري». فقَوِي أمرُ شعبان، وعَزَم أن يَقْبِض على النائب فآحترز النائب منه. وأخذ أكابر الأمراء في توزيع أموالهم وحُرَمِهم في الأماكن، ودخلوا على السلطان وسألوه أن يَعْهَد لأحد من إخوته. فطلب [السلطان] النائبَ وبقيَّةَ الأمراء فلم يحضُر إليه أحد منهم. وقد آتفق الأمير أَرْغُون العلائي مع جماعة على إقامة شعبان في الملك، وفرّق فيهم مالاً كبيراً، فإنه كان أيضاً آبن زوجته وشقيق الملك الصالح إسماعيل لأبيه وأمه. وقام مع أَرْغُون [من الأمراء] غُرْلُو وتَمُر الموساوي؛ وآمتنع النائب من إقامته[1] وصاروا حزبين، فقام النائب آل مَلَك في الإنكار على سلطنة شعبان، وقد آجتمع مع الأمراء بباب القلّة، وقبض على غُرْلُو

(١) أي إقامة شعبان.

وسجنه، وتحالف هو وأرغون العلائي وبقيّة الأمراء على عمل مصالح المسلمين.

ومات السلطان الملك الصالح إسماعيل في ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، وقد بلَغ من العمر نحو عشرين سنة، فكُتِمَ موتُه. وقام شعبان إلى أُمّه ومَنع من إشاعة موت أخيه، وخرج إلى أصحابه وقرّر معهم أمره. فخرج طَشْتَمُر ورَسْلان بَصَل إلى مَنْكَلي بُغَا ليستعطفوا الأمير أَرُقْطَاي والأمير أَصْلَم. وكان النائب والأمراء عَلِموا من العَصر أن السلطان في النزع، وآتفقوا على النزول من القلعة إلى بيوتهم بالقاهرة. فدخل الجماعة على أرقطاي ليستميلوه لشعبان فوعدهم بذلك. ثم دخلوا على أصلم فأجابهم، وعادوا إلى شعبان، وقد ظنوا أنّ أمرهم تمّ. فلمّا أصبحوا نهار الخميس خرج الأمير أَرْغُون العلائي والأمير مَلِكْتَمُر الحجازي وتَمُر الموساوي وطَشْتَمُر طَلَليه ومَنْكَلي بُغا الفخري وأَسنْدمر وجلسوا بباب القُلّة، فأتاهم الأمير أرقطاي والأمير أصلم والوزير نجم الدين محمود والأمير قُماري الأستادار وطلبوا النائب فلم يحضر إليهم؛ فمضوا كلُّهم إلى عنده، وآستدعوا الأمير جَنْكَلي بن البابا، وآشتوروا فيمن يولوه السلطنة؛ فأشار جنكلي أن يرسل إلى المماليك السلطانية ويسألهم من يختاروه «فإنَّ مَنْ آختاروه رضيناه سلطاناً»، فعاد جوابهم مع الحاجب أنهم رضوا بشعبان سلطاناً؛ فقاموا جميعاً ومعهم النائب إلى داخل باب القُلَّة. وكان شعبان تخيَّل من دخولهم عليه وجَمَع المماليك وقال: «مَنْ دخل عليّ وجلس على الكُرْسيّ قتلُته بسيفي هذا! وأنا أجلس على الكرسي حتى أبصُرَ من يُقيمني عنه». فسيِّر أرغون العلائي [إليه][1] وبشَّره وطيَّب خاطرَه، ودخل الأمراء إليه وسلطنوه ولُقِّب بالملك الكامل سيف الدين شعبان حسب ما يأتي ذكره في أوّل ترجمته. ولنرجع إلى بقية ترجمة الملك الصالح إسماعيل.

وكان الملك الصالح سلطاناً ساكناً عاقلاً قليل الشَّرّ كثير الخير، هيِّناً ليِّناً بَشُوشاً؛ وكان شَكلاً حسناً حُلْو الوجه أبيضَ بصُفْرة وعلى خدّه شامةٌ. ولم يكن في أولاد الملك الناصر خيرٌ منه. رتَّب دروساً بمدرسة جَدّه المنصور قلاوون، وجدَّد

---

(١) زيادة عن السلوك.

جماعةً من الخُدَّام بالحَرَم النَّبويّ، حسب ما ذكرناه في وقته. وله مآثرُ كثيرة بمكّة، وآسمه مكتوب على رِباط[1] السِّدْرة بحرَم مكّة. ولم يزل مثابراً على فعل الخير حتّى تُوُفِّي. ولما مات رثاه الشيخ صلاح الدين الصفديّ بقوله: [الطويل]

مَضَى الصالحُ المرجُوُّ للبأس والنَّدى   ومَنْ لم يَزَلْ يَلْقَى المُنَى بالمنائِحِ
فيا مُلْك مصر كيف حالُك بعده   إذا نحن أثنينا عليك بصالحِ

وكان الملك الصالح محبَّباً للرعية على مشقّة كانت في أيامه من كثرة التجاريد إلى قتال أخيه الملك الناصر أحمد بالكرك، وكانت السُّبُل مُخِيفَة. وشغف مع ذلك بالجواري السُّود، وأفرط في محبة «اتفاق»[2] العوَّادة وفي العطاء لها؛ وقرَّب أرباب الملاهي، وأعرض عن تدبير المُلك بإقباله على النساء والمُطرِبين، حتّى كان إذا ركب إلى سَرْحة سرياقوس أو سَرْحة الأهرام رَكِبتْ أُمُّه في مائتي امرأة الأكاديشَ، بثياب الأطلس الملوّن، وعلى رؤوسهن الطراطير الجِلْد البُرْغالِي المرصَّعة بالجوهر واللآلىء، وبين أيديهنّ الخُدَّام الطواشية، من القلعة إلى السَّرْحة. ثم تَرْكب حظاياه الخيولَ العربية ويتسابَقْنَ؛ ويركَبْنَ تارةً بالكامليّات الحرير ويَلْعَبْنَ بالكُرة؛ وكانت لهنّ في المواسم والأعياد وأوقات النُّزهة أمورٌ من هذا النَّمُوذَج. وآستولى الخُدّام والطواشيّة في أيامه على أحوال الدولة، وعَظُم أمرُهم بتحكُّم كبيرهم عَنْبَر السَّحَرْتي لالاة[3] السلطان؛ وآقتنى عَنْبَر السحرتي البُزَاةَ والسناقرَ، وصار يركب إلى المَطْعَم، ويتصيّد بثياب الحرير المُزرْكَشَة؛ وآتخذ له كَفّاً للصيد مُرصَّعاً بالجوهر. وعَمِل له خاصكيّة وخُدّاماً ومماليك تركب في خدمته، حتى ثَقُل أمرُه على أكابر أمراء الدولة، فإنه أكثر من شراء الأملاك والتجارة في البضائع، كلُّ ذلك لكونه لالا السلطان. وأفرد له ميداناً يلعب فيه بالكرة؛ وتَصدَّى لقضاء الأشغال وقصده الناس فصارت الإقطاعات والرِّزق والوظائف لا تُقْضَى إلا بالخُدَّام والنساء.

---

(١) رباط السُّدرة بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل إلى المسجد الحرام من باب بني شيبة. (نجوم: ٩٦/١٠، حاشية: ٢، طبعة دار الكتب).

(٢) لها ترجمة طويلة في الدرر الكامنة: ٨٠/١.

(٣) اللالا أو اللالاة: فارسية معناها المربـي الأول أو كبير المربين.

وكان متحصّل الدولة في أيام الملك الصالـح قليلاً ومصروفُ العمارة كثيراً. وكان مُغْرماً بالجلوس بقاعة الدهيشة، لا سيّما لمّا ولَدَت منه «اتِّفاق» العوّادة ولداً ذكراً، عَمِل لها فيه مُهِمّاً بلـغ الغاية التي لا توصف؛ ومـع هذا كانت حياته منغّصة وعيشته منكّدة لم يتمّ سرورُه بالدهيشة سوى ساعة واحدة.

ثم قَدِم عليه مَنْجَك السلاح دار برأس أخيه الملك الناصر أحمد من الكَرَك، فلمّا قدم بين يديه ورآه بعد غسله آهتـزّ وتغيَّر لونُه وذُعِر، حتّى إنه بات تلك الليلة يراه في نومه ويفْزع فزعاً شديداً. وتعلَّل من رؤيته، وما بَرِح يعتريه الأرق ورؤية الأحلام المُزْعِجة؛ وتمادَى مرضُه وكثر إرجافه، حتى آعتـراه القُولَنْـج، وقوِي عليه حتّى مات منه في يوم الخميس المذكور، ودُفِنَ عند أبيه وجدّه الملك المنصور قلاوون بالقُبَّة المنصورية في ليلة الجمعة خامس شهر ربيـع الآخر، فكانت مدّة ملكه بالديار المصرية ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوماً. وقال الصفدي: ثلاث سنين وشهراً وثمانية عشر يوماً. وتسلطن من بعده أخوه شقيقه شعبان ولُقِّب بالكامل. وعُمِل للملك الصالـح العزاء بالديار المصرية أياماً كثيرة، ودارت الجواري بالملاهي يضرِبْن بالدفوف، والمخدَّرات حواسر يَبْكِينَ ويَلْطُمْنَ، وكَثُر حُزن الناس عليـه ووجدوا عليه وجْداً عظيماً.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالـح إسماعيل على مصر

وهي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّيَ الشيـخ الإمام بُرْهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السَّفَاقُسِيّ المالكيّ في ذي الحجّة. وكان إماماً فقيهاً بارعاً أفتى ودرّس سنين، وله مصنّفات مفيدة، منها: «إعراب القرآن» و«شرح آبـن الحاجب في الفقه» وغير ذلك. وكان معدوداً من علماء المالكية.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أُرُنْبُغا بن عبد الله الناصري ناظر طرابُلُس بها. وكان

من أجلّ أمراء الدولة ومن أعيان مماليك الناصر محمد وخاصكيّته، وتنقّل في عدّة ولايات. وكان معدوداً من الشُّجْعان.

وتُوُفِّي الأمير الكبير علاء الدين أَيْدُغْمُش بن عبد الله الناصريّ الأمير آخور، ثم نائب حلب ثم نائب الشام، فجأة في بكرة يوم الأربعاء رابع جُمَادَى الآخرة، ودُفِنَ في آخر مَيْدَان الحصى في تربة عُمِّرَت له هناك. وكانت مدّة نيابته بحلب والشام نصف سنة؛ وكانت مَوْتَتُه غريبة وهو أنه رَكِبَ في بُكرة ثالث جُمادَى الآخرة وخرج ظاهر دِمَشق وأطعم طيور الصيد وعاد إلى دار السعادة وقُرِئت عليه قِصصٌ يسيرة، ثم أكل السِّماط. ثم عَرَض طُلْبَه والمضافين إليه، وقدّم جماعةً وأخّر جماعة، ثم دخل إليه [ناظر] ديوانه وقرأ عليه مخازيمَ(1) وحسابَ ومصروف ديوانه. ثم قال أيدغمش: هؤلاء الذين تزوّجوا من مماليكي آقطعوا مرتَّبهم. ثم أكل الطَّارِي(2)، وقعد هو وآبن جَمَّاز يتحدّثان فسَمِع حِسَّ جماعة من جواريه يتخاصَمْنَ، فقام وأخذ عصاه ودخل إليهن وضرب واحدة منهن ضربتين وسقط ميتاً لم يتنفّس؛ فتحيّر الناس في أمره، فأمهلوه إلى بكرة يوم الأربعاء فلم يتحرك، فغسَّلوه وكفَّنوه ودفنوه.

وكان أصل أَيْدُغْمُش هذا من مماليك الأمير بَلبَان الطَّبّاخي، ثم آتّصل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون فجعله من جملة خاصكيّته. ثم رقّاه حتى جعله أمير آخور كبير بعد بيبرس الحاجب، فدام في وظيفة الأمير آخورية نحو عشرين سنة. وقد آستوعبنا من حاله مع قَوْصُون وغيره قطعة جيدة في ترجمة الملك الناصر أحمد وغيره. وكان أميراً جليلاً عاقلاً مُهاباً شجاعاً مدبِّراً مِقداماً كريماً، قَلَّ من دخلَ إليه للسلام إلا وأعطاه شيئاً. وكان مكيناً عند أستاذه الملك الناصر، على أنه أنعم

(1) المراد بالمخازيم هنا سجل القيد اليومي. وهي عبارة عن أوراق تجمع إلى بعضها البعض بواسطة دبوس أو بواسطة سير دقيق يسمى الخزامة. وقد أطلق مجمع اللغة العربية بدمشق اسم الخزامة أو الخلال على الدبّوس الذي تربط به الأوراق. (انظر معجم متن اللغة: خزم).

(2) عرّفه المقريزي في خططه (٢/٢١٠) في كلامه على الأسمطة السلطانية بقوله: «وكانت العادة أن يمدّ بالقصر في طرفي النهار من كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء. فبكرة يمدّ سماط أول لا يأكل منه السلطان؛ ثم ثان بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل؛ ثم ثالث بعده يسمى الطاري ومنه مأكول السلطان».

على أولاده الثلاثة بإمرة، وهم أمير حاج ملك وأمير أحمد وأمير علي. وكان أيدغمش يميل إلى فعل الخير، وله مآثرُ حميدة. وهو صاحب الحمّام[١] والخوخة خارج بابي زويلة، رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير ركن الدين بيبَرْس بن عبد الله الناصريّ الحاجب بدِمَشق في شهر رجب؛ وهو أيضاً من المماليك الناصرية. رقّاه أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون حتى صار أمير مائة ومقدّم ألف، ثم ولّاه أمير آخور مدّة سنتين، ثم عزلَه بالأمير أَيْدُغْمُش المقدّم ذكره، وولّاه الحجوبيّة. ثم جرّده إلى اليمن فبلغه عنه أنه أخذ بِرْطِيلَ[٢] صاحب اليمن وتراخى في أمر السلطان، فلمّا عاد قبَض عليه وحبَسه تسع سنين وثمانية أشهر إلى أن أَفْرج عنه في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وأخرجه إلى حلب أميراً بها. ثم نُقِل إلى إمرة بدِمَشق، فما زال بها حتّى مات في التاريخ المذكور. وكان له ثروةٌ كبيرة وأملاك كثيرة وله دار عند باب الزُّهومة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قُمارِي بن عبد الله الناصريّ أمير شِكار في يوم الأحد خامس جُمادى الأولى. وكان خَصِيصاً عند أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو أحد من زوَّجه الملك الناصر بإحدى بناته، بعدما أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وجعله أميرَ شِكار.

وتُوُفِّي سيف الدين طَشْتَمُر بن عبد الله الساقيّ الناصريّ المعروف بحمص أخضر مقتولاً بسيف الملك الناصر أحمد بالكَرَك. وكان أيضاً أحدَ مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخواصّه. رقّاه وأمَّره وولَّاه نيابة صَفَد، وهو الذي توجّه من صفد وقَبَض على تَنْكِز نائب الشام حسب ما تقدّم ذكره. ثم نقلَه إلى نيابة حلب عوضاً عن طُوغَان الناصري في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، فدام بحلب حتى خرج منها إلى الروم ــ وقد مرّ ذكرُ ذلك كلّه ــ إلى أن قَدِم الديار المصرية صحبةَ

---

(١) هو حمام أيدغمش أو حمام الدرب الأحمر. (انظر خطط المقريزي: ٢/١٤٥؛ وخطط علي مبارك: ٢/٢٨١).

(٢) البرطيل: الرشوة، وتجمع على براطيل. واللفظ مولّد؛ والعامة تفتح الباء. (معجم متن اللغة).

الأمراء الشاميّين، وولّاه الملك الناصر أحمد نيابة السلطنة. ثم قَبض عليه بعد أن باشر النيابة خمسة وثلاثين يوماً وأخرجه معه إلى الكَرَك، فقتله هناك وقتلَ الأمير قُطلُوبُغا الفخري الآتي ذكرُه. ولمّا قُتِل طَشْتَمُر قال فيه الصلاح الصفدي: [السريع]

طَوَى الرَّدَى طَشْتَمُراً بعدما بالغَ في دَفْع الأذى واحترَسْ
عَهْدِي به كان شديدَ القُوَى أشجَع من يركبُ ظهرَ الفَرَسْ
ألم يقولوا حُمّصاً أخضَرَا فاعجبْ له يا صاح كيف اندرَسْ

قلت: وهو صاحب الدار العظيمة والربع الذي بجانبها بجِدْرة البقر خارج القاهرة والجامع بالصحراء والمئذنة الْحَلزُون والجامعين بالزريبة والربع الذي بالحَرِيرِيّين داخل القاهرة. وكان شجاعاً كريماً كثيرَ الإنعام والصدقات.

وتُوُفِّي الأمير سليمان بن مُهَنّا بن عيسى بن مهنا ملك العرب وأمير آل فضل بظاهر سَلَمْية؛ وكان من أجلّ ملوك العرب.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طَيْنَال بن عبد الله الناصريّ نائب غَزة ونائب صَفَد ثم نائب طرابُلُس؛ ومات وهو على نيابة صفد في يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول. وكان من أعيان الأمراء الناصريّة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله الفخريّ الساقي الناصريّ نائب الشام مقتولاً بسيف الملك الناصر أحمد بالكَرَك. وكان من أكابر مماليك الناصر محمد بن قلاوون من طبقة أَرْغُون الدَّوَادَار. قال الصفديّ: لم يكن لأحد من الخاصكيّة ولا غيرهم إدْلالُه على الملك الناصر محمد ولا من يُكَلِّمه بكلامه، وكان يُفحِش في كلامه له ويردّ عليه الأجوبة الحادّة المُرّة وهو يحتمله؛ ولم يزل عند السلطان أثيراً إلى أن أمسكه في نَوْبة إخراج أَرْغُون إلى حلب نائباً؛ فلمّا دخل تَنْكِز عقيب ذلك إلى القاهرة أخرجه السلطان معه إلى الشام. اِنتهى.

قلت: وقد سُقنا من ذكره في ترجمة الملك الناصر أحمد وغيره ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانياً.

ولمّا أُمسك وقُتِل قال الأديب البارع خليل بن أيبك الصفديّ شعراً: [الطويل]

سَمَتْ هِمّةُ الفخريِّ حتّى ترفّعتْ على هامَة الجوزاء والنَّسْرِ بالنَّصرِ
وكان به للمُلك فخرٌ فخانه الـ ـزّمان فأضحى مُلْك مصر بلا فَخْرِ

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَهادرُ بن عبد الله الجُوبَانِيّ رأس نَوْبة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بُكا الخِضْرِيّ الناصري موسَّطاً بسوق الخيل في رابع شهر رجب؛ وقد مرّ من ذكره نبذةٌ في ترجمة الملك الصالح إسماعيل.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد اليَمانِيّ المخزوميّ الشافعي الأديب الكاتب بالقُدس الشريف في هذه السنة عن ثلاث وستين سنة.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام الخطيب محيي الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهّاب بن علي بن أحمد، أبو المعالي السّلَمِيّ الشافعيّ خطيب بَعْلَبَكّ في ليلة الأربعاء تاسع شهر رمضان. ومولده في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة. وكان فاضلاً عالماً خطيباً فصيحاً؛ وكتَبَ الخطَّ المنسوب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة سبع[1] عشرة ذراعاً سواء. والله تعالى أعلم.

* * *

(١) في السلوك أنه في هذه السنة انتهت زيادة النيل إلى ثمانية عشر ذراعاً وتسع أصابع.

السنة الثانية من سلطنة الملك الصالح إسماعيل على مصر

وهي سنة أربع وأربعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي قاضي القضاة برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن عبد الحقّ، قاضي القضاة الحنفيّة بالديار المصريّة وهو مقيم بدِمَشْق. وكان إماماً عالماً بارعاً. أفتى ودرَّس سنين وناب في الحكم، ثم آستقلَّ بقضاء القُضاة بالديار المصرية وحَسُنَتْ سِيرتُه.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين، وقيل شمس الدين، آق سُنْقُر بن عبد الله السَّلَّاري نائب السلطنة بالديار المصريّة قتيلاً بثغر الإسكندرية في السجن. وكان أصله من مماليك الأمير سَلَّار، وآتصل بعده بخدمة الملك الناصر محمد بن قلاوون فرقّاه إلى أن ولَّاه نيابة غَزّة ثم صَفَد. ثم ولي بعد موت الملك الناصر نيابة السلطنة بالديار المصرية. وقد تقدَّم ذكرُه في ترجمة الملك الصالح هذا والتعريف بأحواله وكرمه إلى أن قُبِض عليه وسُجِنَ، ثم قُتِلَ. وكان من الكُرماء الشُّجعان.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغَا بن عبد الله المَارداني الناصريّ الساقيّ نائب حلب بها. وكان ألطنبغا أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخاصّكيّته وأحد من شُغِف بمحبته ورقّاه في مدّة يسيرة، حتّى جعله أميرَ مائة ومُقدَّم ألف، وزوّجه بآبنته. ثم وقع له أمور بعد موته ذكرناها في تراجم: المنصور والأشرف والناصر والصالح أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن وَلِي نيابة حماة، ثم حلب بعد الأمير طُقُزْدَمُر، فباشر نيابة حلب نصف سنة. وتُوُفِّي ولم يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة. وكان أميراً شابّاً لطيف الذات، حسن الشكل، كريم الأخلاق مشهوراً بالشجاعة والكرم. وهو صاحب الجامع المعروف به خارج باب زويلة. وقد تقدّم ذكر بنائه في ترجمة أستاذه الملك الناصر محمد.

وتُوُفِّي الأمير الأديب الشاعر علاء الدين أَلْطُنْبُغَا بن عبد الله الجَاولي. أصله من مماليك ابن باخل. ثم صار إلى الأمير علَم الدين سَنْجَر الجاولي فجعله دَوَادَارَه لمّا

كان نائب غَزّة فعُرِف به؛ ثم تنقّلت به الأحوال حتى صار من جملة أمراء دِمَشْق، إلى أن مات بها في شهر ربيع الأول.

قلت: وهو أحد فحول الشعراءِ من الأتراك لا أعلم أحداً من أبناء جنسه في رتبته في نظم القَرِيض، اللّهم إلا إن كان أَيْدَمُر[1] المُحْيَوِي فيمكن. ومن شعر أَلْطُنْبُغَا المذكور: [الخفيف]

رِدْفُـه زادَ في الثَّقالـة حتَّى ... أقعد الخَصْرَ والقـوام سـوِيّاً
نَهض الخَصْرُ والقوام وقـامَا ... وضـعيفـان يغـلبـان قَـوِيّـاً

وله: [المجتث]

وبـارِدِ الـثَّـغْـرِ حُـلْو ... بـمـرْشَـفٍ فـيـه حُـوَّه
وخَـصْـرُه فـي انـتـحـالٍ ... يُبْـدي مـن الـضـعـف قُـوَّه

وله: [الوافر]

وِصـالُـك والثـريَّـا في قِـرَانِ ... وهجـرُك والجَفَا فَـرَسَـا رِهـانِ
فديتُك ما حفِظْتُ لشُـؤم بَخْتِي ... مـن القـرآن إلاَّ لَـنْ تَـرَانِي

وله: [السريـع]

يقـول لي العـاذلُ في لَـوْمِـه ... وقـولُـهُ زورٌ وبُـهْـتـانُ
مـا وجـهُ من أحببتَـه قِبْلَةٌ ... قـلتُ ولا قـولُـك قُـرْآنُ

وقد سُقْنا من شعره قطعةً جَيِّدة في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي».

وتُوُفِّي القاضي شرف الدين أبو بكر بن محمد ابن الشهاب محمود كاتب سرّ مصر ثم دِمَشْق في شهر ربيع الأوّل. وكان فاضلاً بارعاً في صناعته، وهو من بيت

(١) نشأ أيدمر المحيوي هذا في عصر الدولة الأيوبية في منتصف القرن السابع الهجري وعاصر الصاحب بهاء الدين زهيراً وجمال الدين بن مطروح. وله ديوان شعر نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١م تحت اسم: مختار ديوان علم الدين أيدمر المحيوي.

علم وفضل ورياسة وإنشاء. وكان فاضلاً مترسّلاً رئيساً نَبيلاً، وله نظم رائق ونثر فائق. ومن شعره: [الطويل]

بَعَثْتُ رسولاً للحبيب لعلّه يُبرهِنُ عن وجدي له ويُتَرْجِمُ
فلمّا رآه حارَ من فَرْط حُسْنِه وما عاد إلّا وهو فيه مُتَيَّمُ

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طُرْغَاي الجَاشْنَكِير الناصريّ نائب حلب وطرابُلُس في شهر رمضان. وكان من أعيان مماليك الملك الناصر وأمرائه. وكان شجاعاً مقْداماً سَيُوساً. ولي الولايات والأعمال الجليلة.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين آقْبُغا عبد الواحد الناصريّ بحبسه بثغر الإسكندرية، وقد تكرّر ذكره في ترجمة أستاذه الملك الناصر في مواطن كثيرة، وفي أوّل ترجمة الملك المنصور أبي بكر أيضاً، وكيف كان القبض عليه، وما وقع له من المصادرة وغير ذلك إلى أن وَلِي نيابة حِمْص ثم عُزِل وقُبِض عليه وحُبِس إلى أن مات.

وكان أصله من مماليك الناصر محمد وأخا زوجته خَوَنْد طُغَاي؛ وتَوَلَّى في أيام أستاذه عِدَّةَ وظائف وولايات، منها أنه كان من جملة مقدّمي الألوف ثم أُستاداراً ثم مقدَّم المماليك السلطانية، وشادّ العمائر. وكان يَنْدبُهُ لكلّ أمر مُهمّ فيه العَجلَة لمعرفته بشدّة بأسه وقساوة قلبه، وكثرة ظلمه. وكان من أقبح المماليك الناصرية سِيرة. وهو صاحب المدرسة على يسار الداخل إلى الجامع الأزهر والدار بالقرب من الجامع المذكور.

وتُوُفِّي الشيخ حسن بن تمرتاش بن جُوبان متملّك تِبْرِيز والعراق في شهر رجب. وكان من أعظم الملوك، وكان داهيةً صاحب حِيَل ومَكْر وخديعة. وكان كثير العساكر من التُرك وغيرها.

وتُوُفِّي القاضي زين الدين إبراهيم بن عرفات بن صالح ابن أبي المُنَى القِنَائِيّ الشافعي قاضي قِنَا، كان فقيهاً رئيساً كثير الأموال. كان يتصدّق في كلّ سنة بألف دينار في يوم واحد مع مكارم وإنعام.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن علي بن أيبك السَّرُوجِيّ. مولده بمصر في ذي الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة، ومات بحلب في الثامن من شهر ربيع الأوّل.

وتُوُفِّي المحدّث شهاب الدين أحمد ابن أبي الفرج الحلبي بمصر بعد أن حدَّث عن النَّجِيب والأَبْرقوهِيّ والرَّشيد بن عَلّان وغيرهم. ومولده في شهر رمضان سنة خمسين وستمائة.

وتُوُفِّي القاضي عَلَم الدين سليمان بن إبراهيم بن سليمان المعروف بابن المستوْفي المصري ناظر الخاصّ بدِمَشْق في جُمادى الآخرة. وله فضيلة وشعر جيّد؛ وكان يُعرف بكاتب قَرَاسُنْقُر، فإنه كان بخدمته. وباشر عِدَّة وظائف بدمشق: نظر البيوت ثم نظر الخاصّ ثم صحابة الديوان. وكان بارعاً في صناعة الحساب ويكتب الخط المليح. وله يَدٌ في النظم وقدرةٌ على الارتجال، وكان يتكلَّم فصيحاً باللغة التركية. ومن شعره: [الوافر]

غَرامي فيكَ قد أضحى غَرِيمي ... وهجرُك والتَّجَنِّي مُسْتَطابُ
وبَلْوَايَ مَلالُك لا لذنبٍ ... وقولُك ساعةَ التسليم طَابوا

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح إسماعيل على مصر

وهي سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي قاضي القضاة العلّامة جلال الدين [أحمد][(١)] آبن القاضي حسام الدين أبي الفضائل حسن بن أحمد بن الحسن بن أَنُوشَرْوان الأَنْكُورِيّ الحنفي قاضي قضاة دِمَشق وعالمها في يوم الجمعة تاسع عشر رجب؛ ومولده بمدينة أَنْكُورِية[(٢)] ببلاد الروم في سنة إحدى وخمسين وستمائة. وكان إماماً عالماً دَيِّناً عارفاً بالمذهب وأصوله، محقِّقاً إماماً في العلوم العقليّة، وأفتى ودرّس وتصدَّر للإقراء في حياة والده. ووَلِي قضاء خَرْتَبِرْت[(٣)] وعمره سبع عشرة سنة، وحُمِدت سِيرتُه. ثم آنتقل إلى البلاد الشامية حتى كان من أمره ما كان.

وتُوُفِّي الأمير علم الدين سَنْجَر الجَاولي، أحد أعيان أمراء بالديار المصرية في يوم الخميس ثامن شهر رمضان، ودُفِن بمدرسته فوق جبل الكَبْش. وكان أصله من مماليك جاول أحد أمراء الملك الظاهر بِيبَرْس. ثم آتصل بعده إلى بيت السلطان، وأُخْرِج أيام الأشرف خليل بن قلاوون إلى الكَرَك، وآستقرّ في جملة بحريّتها[(٤)]. ثم قَدِم في أيام العادل كَتْبُغَا إلى مصر بحال زَرِيّ، فقدَّمه الأمير سَلَّار ونوَّه بذكره إلى أن وَلِي نيابة غَزّة، ثم عِدة ولايات بعد ذلك بمصر والبلاد الشامية. وطالت أيامه في السعادة وعُمِّر. وقد مرّ من ذكره أشياء فيما تقدّم. وهو صاحب الجامع بغَزَّة والخليل عليه السلام وخان بَيْسَان وخان قَاقُون. وكان فاضلاً فقيهاً، وله مصنَّفات في الفقه وغيره.

---

(١) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

(٢) هي مدينة أنقرة عاصمة تركيا اليوم. والترك تسميها أنكورية. (دائرة المعارف الإسلامية: ٩٧/٥).

(٣) ويقال أيضاً: خرت برت، وخربرت. واسمها الأرمني: خربوت. وسماها العرب حصن زياد. وهي مدينة في وسط تركيا إلى الشرق. (معجم البلدان: ٢٦٤/٢؛ وبلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩).

(٤) البحرية: طائفة من الأجناد السلطانية؛ وكان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس. وأول من رتب هذه الطائفة من الجند وسماها بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. والظاهر أن مدلول هذه التسمية اتسع ليشمل الأجناد الموإلجين بحماية القلاع، مثل قلعة الكرك هنا. (انظر صبح الأعشى: ١٦/٤).

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طَقْصُبا بن عبد الله الظاهريّ، وقد أناف على مائة [وعشرين][1] سنة. وكان أصلُه من مماليك الظاهر بِيْبَرْس البُنْدُقْداريّ.

وتُوُفِّي جمال الكُفاة الرئيس جمال الدين، ناظر الخاصّ ثم الجيش ثم المشدّ، تحت العقوبة في ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول. وكان آبن خالة النّشْو ناظر الخاصّ؛ وهو الذي آستسلمه وآستخدمه مستوفياً في الدولة، ثم عند بَشْتَك، ثم وقع بينهما المُعاداة الصعبة على سوء ظنّ من النّشو؛ ولم يزالا على ذلك حتّى مات النشو تحت العقوبة، وولي جمال الكُفاة هذا مكانه، وطالت أيامه ونالته السعادة. قال الصفدي: وكان شكلاً حسناً ظريفاً مليحاً يكتُب خَطّاً قويّاً جيداً، ويتحدث بالتّركي؛ وفيه ذَوْقٌ للمعاني الأدبية ومحبة للفضلاء ولطف عِشْرة وكرم أخلاق ومُروءة. وكان أوّلاً عند الأمير طَيْبُغَا القاسميّ. ومدّة مباشرته الخاصّ ست سنين تقريباً. اِنتهى كلام الصفديّ بآختصار. وقال غيره: وكان أوّلاً يباشر في بعض البساتين على بيع ثمرته، وتنقّل في خدمة آبن هلال الدولة، ثم خَدَم بَيْدَمُر البَدْرِيّ وهو خَاصَّكِيّ خبزه[2] بمحلّة مَنُوف، فكَتَب على بابه إلى أن تأمّر. ثم آنتقل بعد ذلك حتى كان من أمره ما ذكرناه. ولمّا صُودِر أُخِذ منه أموال كثيرة.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العلاّمة فريد عصره أَثِيرُ الدِّين أبو حَيَّان محمد بن يوسف آبْن عليّ [بن يوسف][3] بن حَيّان الغِرْناطيّ المغربيّ المالكيّ ثم الشافعيّ. مولده بغِرْناطة في أُخرَيات شوّال سنة أربع وخمسين وستمائة. وقرأ القرآن بالروايات، وآشتغل وسَمِع الحديث بالأَنْدَلُس وإفْرِيقية وإسكندرية والقاهرة والحجاز، وحصّل الإجازات من الشام والعراق، وآجتهد في طلب العلم، حتى بَرَع في النحو والتصريف وصار فيهما إمامَ عصره، وشارك في علوم كثيرة. وكان له اليدُ الطُّولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وتواريخهم خصوصاً المغاربة؛ وهو الذي جَسَّرَ الناس على مصنَّفات آبن مالك، ورغَّبهم في قراءتها،

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الخبز هو الإقطاع.

(٣) زيادة عن الدرر الكامنة ونفح الطيب.

وشرَح لهم غوامضها؛ وقد سُقْنا من أخباره وسماعاته ومشايخه ومصنّفاته وشعره في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» ما يطول الشرحُ في ذكره هنا؛ ومن أراد ذلك فلينظُرْه هناك. ولنذكُر هنا من شعره نبذةً يسيرة بسندنا إليه: أنشدنا القاضي عبد الرحيم بن الفُرَات إجازةً، أنشدنا الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصفديّ إجازة، قال: أنشدني العلَّامة أَثِير الدين أبو حَيَّان من لفظه لنفسه: [الخفيف]

سبق الدمعُ بالمَسير المَطَايا إذْ نَوَى مَنْ أُحِبُّ عَنِّيَ نُقْلَه
وأجادَ السّطورَ[1] في صَفحة الخـ ـد ولِمْ لا يُجِيدُ وهو ٱبنُ مُقْلَه

وله بالسند: [السريع]

راضَ حبيبي عارضٌ قد بَدَا يا حُسْنَه من عارضٍ رائضِ
فظنّ قومٌ أنّ قلبي سلا والأصل لا يُعْتَدُّ بالعَارضِ

وله موشّحة، أوّلُها:

إن كان لَيْلٌ دَاجْ، وخانَنا الإصْبَاحْ، فنُورها الوهّاجْ، يُغْنِي عن الصباح[2]

سُلافَةٌ تَبْدُو كالكَوْكب الأزْهَرْ
مِزَاجُها شَهْدُ وعَرْفُها عَنْبَرْ
يا حبَّذَا الوِرْدُ منها وإن أَسكَرْ

قَلْبي بها قد هَاجْ، فما ترانِي صَاحْ، عن ذلك المنْهاجْ، وعن هوىً يا صَاحْ

وبي رَشَا أهيَفْ قدْ لَجَّ في بُعْدِي
بَدْرٌ فلا يُخْسَفْ منه سنا الخَدِّ
بِلَحْظِهِ المُرْهَفْ يَسْطُو على الأسد

كسَطوة الحَجَّاجْ، في الناس والسَّفّاحْ، فَما تَرى من نلجْ، من لَحْظه السَّفَّاح

عَلَّلَ بالمسك قَلْبِي[3] رَشاً أَحْوَرْ

(١) في نفح الطيب للمقري: «وأجاد الخطوط».
(٢) في نفح الطيب: «المصباح».
(٣) في نفح الطيب: «قلب رشاً أحور».

مُـنَـعَّـمُ الـمَـسْـكِ ذو مَـبْـسِـم أَعْـطَرْ
رَيَّـاه كـالـمِـسْـكِ وريـقُـه كَـوْثَـرْ
غُصنٌ على رَجْرَاجْ، طاعتْ له الأرواحْ، فحَبَّذَا الآراجْ، إن هَبَّتِ الأرْوَاحْ
مَـهْـلاً أبـا الـقـاسِـمْ عـلى أبي حَـيَّـانْ
مـا إنْ لـه عَـاصِـمْ مـن لـحـظك الـفَـتَّـانْ
وهَـجْـرك الـدائـمْ قـد طـال بـالـهـيـمـانْ
فـدمعـه أمـواجْ، وسـرُّه قـدلاح[1] لكنّـه مـا عـاجْ، ولا أطـاعَ الـلّاحْ
يـا رُبَّ ذِي بُـهـتـانْ يـعـذل فـي الـرَّاحِ
وفـي هَـوى الـغِـزْلَانْ دافـعـتُ بـالـرَّاحِ
وقُـلْـتُ لا سُـلْوَانْ عـن ذاكَ يـا لاحِـي
سبـعُ[2] الوجوه والتَّاجْ، هي مُنْيَةُ الأفراح، فاَختـر لي يا زجَّاج، قُمْصالْ وزُوجْ آقدَاحْ.

قلتُ: ومذهبـي في أبـي حيّان أنّه عالم لا شاعر.

ولم أذكر هذه الموشَّحة هنا لحسنها؛ بل قصدتُ التعريف بنظمه بذكر هذه الموشَّحة، لأنّه أفحل شعـراء المغاربـة في هذا الشـأن؛ وأما الشـاعر العـالم هو الأرَّجانِيّ وأبو العَلاء المَعَرّي واَبـن سَنَاء المُلك. اِنتهى. وكانت وفاته بالقاهرة في ثامن عشرين صفر.

وتُوُفِّي الأمير صلاح الدين يوسف بن أسعد الدّوَادَار الناصري بَطرَابُلُس. وكان من أكابر الأمراء. ولِي الدواداريّة الكبرى في أيام الناصر محمد، ثم ولي نيابة الإسكندريّة، ثم أُخْرِج إلى البلاد الشامية إلى أن مات بطرابلس. وكان كاتباً شاعراً.

---

(١) في نفح الطيب: «وسرّه قد باح».

(٢) ذكرها المقريزي في خططه: ٤٨١/١ باسم «منظرة الخمس وجوه». وهي من المناظر التي كانت الخلفاء تنزل إليها للتنزّه. والعامة تقول «التاج والسبع وجوه». وحدد محمد رمزي مكانها اليوم على الشاطىء الغربـي للخليج المصري في المسافة ما بين كوبري غمرة وشارع الملكة نازلي.

(٣) في الأصل: «ممصال». والتصحيح عن نفح الطيب وفوات الوفيات. والقمصال: آنية خزفية تستعمل للشرب. والجمع قماصل. (ملحق دوزي).

وتُوفِّي الأمير عَلَم الدين سَنْجَر بن عبد الله البَشْمَقْدَار المنصوريّ . كان من مماليك المنصور قلاوون.

وتُوفي الأمير سيف الدين طُرُنطَاي المنصوريّ المحمَّديّ بدِمَشْق. وكان من جملة مَنْ وافق على قتل الأشرف خليل، فسجَنه الملك الناصر سبعاً وعشرين سنة، ثم أفرجَ عنه وأخرجه إلى طرابلس أمير عشرة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَلَبَان المنصوريّ الشمسيّ بمدينة حلب. وكان الناصر أيضاً حبَسه سنين ثم أخرجه إلى حلب.

وتُوُفّي سيف الدين كُنْدُغْدِي بن عبد الله المنصوريّ بحلب أيضاً. وهو رأس المَيْسرة ومقدَّم العساكر المجرّدة إلى سِيس. وكان من كبار الأمراء بالديار المصريّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وثماني أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً.

ذكر سلطنة الملك الكامل شعبان[1] على مصر

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان آبن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد آبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النَّجْمِي. والكامل هذا هو السابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. جلس على تخت الملك بعد موت أخيه وشقيقه الملك الصالح إسماعيل في يوم الخميس الرابع[2] من شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، ولُقِّب بالملك الكامل. وفيه يقول الأديب البارع جَمَال الدين بن نبَاتة. رحمه الله تعالى: [مخلع البسيط]

جَبِينُ[3] سلطانِنَا المُرَجَّى مُبَارِكُ الطالعِ البديعِ
يا بَهْجَة الدهر إذ تَبَدَّى هِلالُ شعبان في ربيعِ

وكان سبب سلطنة الملك الكامل هذا أنه لمّا آشتدّ مرض أخيه الملك الصالح إسماعيل دخَل عليه زَوْجُ أمّه ومدبِّر مملكته الأمير أَرْغُون العَلائيّ في عِدّة من الأمراء ليَعْهدَ الملك الصالح إسماعيل بالمُلك لأحد من إخوته ــ وكان أَرْغون العلائي المذكور غرضه عند شعبان كونه أيضاً ربيبه آبن زوجته ــ فعارضه في

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢/٣/٦٨٠؛ والجوهر الثمين: ٢/١٨٥؛ وبدائع الزهور: ١/١/٥٠٦؛ والبداية والنهاية: ١٤/٢٢٧ وما بعدها؛ وشذرات الذهب: ٦/١٥١.

(٢) في بدائع الزهور: «يوم الخميس حادي عشرين ربيع الأول» وفي الجوهر الثمين: «في شهر ربيع الأول».

(٣) رواية بدائع الزهور لهذين البيتين:

طلعة سلطاننا تبدّت بكامل السعد في الطلوع
واعجب لنا منه كيف أبدت هلال شعبان في ربيع

شعبان الأمير آل ملك نائب السلطنة، حسب ما ذكرنا طَرَفاً من ذلك في مرض الملك الصالح المذكور. ثم وَقَع ما ذكرناه إلى أن آتَّفق المماليك والأمراء على توليته، وحضروا إلى باب القُلَّة وآستَدْعَوْا شعبان المذكور، وألبسوه أُبَّهَة السلطنة وأركبوه بشعار المُلك ومشت الأمراء بخدمته، والجاوشيّة تصيح بين يديه على العادة، حتى قربَ من الإيوان لَعِب الفرسُ تحته وجَفَل من صياح الناس، فنزل عنه ومَشَى خطوات بسرعة إلى أن طَلَع إلى الإيوان، فتفاءل الناس بنزوله عن فَرَسه أنَّه لا يُقيم في السلطنة إلّا يسيراً. ولمّا طَلَع إلى الإيوان وجلَس على الكرسيّ وباسوا الأمراءُ له الأرض وأحضروا المصحف ليَحْلِفُوا له، فحلَف هو أوّلاً أنَّه لا يُؤذيهم، ثم حَلَفُوا له بعد ذلك على العادة. ودقّت البشائر بسلطنته بمصر والقاهرة، وخُطِب له من الغد على منابر مصر والقاهرة، وكُتِب بسلطنته إلى الأقطار.

ثم في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الآخر المذكور جلَس الملك الكامل بدار العدل، وجُدِّد له العهد من الخليفة بحضرة القضاة والأمراء. وخَلَع على الخليفة وعلى القضاة والأمراء. و[فيه] كتب بطلب الأمير آق سُنْقُر الناصريّ من طرابُلُس فسأل الأميرُ قُماري الأستادار أن يستقرّ عوضَه في نيابة طرابلس، وتشفَّع قُماري المذكور بأَرْغُون العلائي ومَلِكْتَمُر الحِجازِيّ فأُجيب إلى ذلك؛ ثم تغيَّر ذلك[1] وخَلَع عليه في يوم الخميس حادي عشره بنيابة طرابلس، فخرج من فَوْره على البريد. و[فيه] خلع على الأمير أَرُقْطَاي وآستقرَّ في نيابة حلب عوضاً عن يَلْبُغَا اليَحْيَاوي، وخرج أيضاً على البريد؛ وكَتَب [السلطان] يطلب اليحياوي ثم طلب الأميرُ آل ملك نائبُ السلطنة الإعفاء من النيابة وقَبَّل الأرضَ، وسأل في نيابة الشام عوضاً عن طُقُزْدَمُر الحَمَويّ وأن ينتقل طقزدمر إلى مصر فأجيب إلى ذلك؛ وكَتَب [السلطان] بعزل طقزدمر عن نيابة الشام وإحضاره إلى الديار المصريّة.

وفي يوم السبت ثالث عشره خلَع السلطان الملك الكامل على الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة بآستقراره في نيابة الشام عوضاً عن طقزدمر، وأُخْرِج من يومه

---

(١) عبارة: «ثم تغيرّ ذلك» يأباها السياق. وهي غير واردة في السلوك.

على البريد، فلم يدخل مدينة غَزّة[١] حتى لحقه البريد بتقليده نيابة صفد، وأن يكون ولده وابن أخيه الفارس بحلب. وسببُ ذلك أنّ أَرغون العلائي لمّا قام في أمر الملك الكامل شعبان هذا وفي سلطنته قال له الحاج آل ملك: «بشرط ألّا يلعبَ بالحَمَام»، فلمّا بلـغ ذلك شعبانَ نَقَم عليه؛ فلمّا ولي دِمَشق آستكثـرها عليه وحوَّله إلى نيابة صَفَد. ورَسَم للأمير يَلْبُغَا اليَحْيَاوي نائب حلب كان، بـآستقراره في نيابة الشام. ثم أخذ السلطانُ الملك الكامل في تدبير مملكته والنظر في أمور الدولة فأنعم بإقطاع أَرُقْطَاي على الأمير أَرْغُون شاه، وآستقر أستاداراً عوضاً عن قُمارِي المستقرّ في نيابة طرابُلُس. وأخرج السلطانُ الأميرَ أحمد شادّ الشرابخاناه هو وإخوته [إلى صفد][٢] من أجل أنهم كانوا ممّن قام مع الأمير آل ملك هم وقُماري الأستادار في منـع سلطنة الملك الكامل هذا. ثم خَلَـع السلطان على عَلَم الدين عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن زُنْبُور باستقراره ناظر الخواصّ عوضاً عن المُوَفَّق عبد الله بن إبراهيم، وعُنِيَ الأمير أَرْغُون العلائي بالمُوَفَّق حتّى نزل إلى داره بغير مصادرة.

ثم قَدِم الأمير آق سُنْقُر الناصريّ المعزول عن نيابة طرابُلُس فخلَـعَ السلطان عليه؛ وسأله [السلطان] بنيابة السلطنة بالديار المصرية فآمتنـع أشـدَّ آمتناع، وحَلَـف أيماناً مغلَّظة أنه لا يليها، فأعفاه السلطان في ذلك اليوم.

ثم بدا للسلطان أن يخطُب بنت بَكْتَمُر الساقي فـآمتنعت أمُّها من إجابته وآحتجـت عليه بأنّ آبنتهـا تحته، ولا يجْمَـع بين أُختين، وأنه بتقدير أن يفارق أُخْتَها، فإنّه أيضاً قد شُغِف باتّفاق العوَّادة جارية أخيه الملك الصالـح شَغَفاً زائداً؛ ثم قالت: «ومـع ذلك فقد ضَعُف حال المخطوبة من شدّة الحزن؛ فإنه أوّل من أَعْرَسَ عليها آنوك آبْـن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان لها ذلك المُهِمّ العظيم، ومات آنوك عنها وهي بِكْـر؛ فتزوّجها من بعده أخوه الملك المنصورُ أبو بكر، فقُتِل؛ فتزوّجها بعد الملك المنصـور أخوه السلطانُ الملك الصـالـح

(١) عبارة الأصل: «فلم يدخل مدينة غزة لسرعة توجهه، وبينما هو سائر إلى دمشق لحقه البريد بتقليده نيابة صفد». وما أثبتناه عبارة السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك.

إسماعيل ومات عنها أيضاً؛ فحصل لها حُزْنٌ شديدٌ من كونه تَغَيّر عليها عِدَّةُ أزواج في هذه المدّة اليسيرة» فلم يلتفت الملك الكامل إلى كلامها وطَلّق أختها، وأخرج جَميع قُماشها من عنده في ليلته، ثم عَقَد عليها ودَخَل بها.

ثم أنعم السلطان على آبن طَشْتَمُر حُمّص أخضر بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصريّة، وعلى آبن أصْلَم بإمرة طبلخاناه.

ثم في مستهّل جُمَادَى الأولى خَلَع السلطان الملك الكامل على جميع الأمراء المقدَّمين والطبلخانات، وأنعم على ستين مملوكاً بستين قَبَاء بطَرْززَرْكَش وستين حِياصةَ ذهب، وفرّق الخيول على الأمراء برَسْم نزول المَيْدان.

ثم رَسَم السلطان أن يتوفّر إقطاعُ النيابة للخاصّ. وخَلَع على الأمير بَيْغَرَا وآستقرّ حاجباً كبيراً. ثم نزل السلطان إلى المَيْدَان على العادة، فكان لنزوله يومٌ مشهودٌ. وخلع على الشريف عَجْلانَ بن رُمَيْثَةَ ابن أبي نُمَيّ الحَسَنِيّ بآستقراره أميرَ مكّة. ثم عاد السلطان إلى القلعة.

وفي يوم السبت خامس عشرين جُمَادَى الأولى قَدِم الأمير طُقُزْدمر من الشام إلى القاهرة مريضاً في مَحِفَّة بعد أن خرج الأمير أَرْغُون العلائي وصحبته الأمراء إلى لقائه، فوجدوه غيرَ واعٍ؛ ودَخَل عليه الأمراءُ وقد أَشْفَى على الموت. ولمّا دخل طُقُزْدَمُر إلى القاهرة على تلك الحالة أخذ أولادُه في تجهيز تَقْدِمة جليلة للسلطان تشتمل على خيول وتُحَف وجواهرَ فقَبِلها السلطان منهم ووعدهم بكلّ خير.

وفيه أنعم السلطان على الأمير أَرْغُون الصالحيّ بتقدّمة ألف، ورَسَم أن يُقال له: أرغون الكاملي، ووهب له في أُسبوع ثلاثمائة ألف درهم وعشرة آلاف إرْدَبّ من الأهْرَاء؛ ورَسَم له بدار أحمد شادّ الشَّرَبْخاناه، وأن يُعَمَّرَ له بجواره من مال السلطان قَصْرٌ على بركة الفيل، ويُطِلّ على الشارع فعمِل له ذلك.

قلت: والبيت المذكور هو الذي كان يسكنه الملك الظاهر جقْمَق وتسلطن منه، ثم سكنه الملك الأشرف إينال وتسلطن منه وهو تُجاه الكَبْش. اِنتهى.

وفي يوم الخميس مستهّل جُمَادَى الآخرة رَكِب السلطان الملك الكامل لسَرْحَة

سِرْياقوس ومعه عساكره على العادة وأخذ حريمَه صحبتَه، فنصب لهنّ أحسنَ الخِيَم في البساتين.

ثم في يوم الجمعة قَدِم أولاد طُقُزْدَمُر على السلطان بسِرْياقوس بخبر وفاة أبيهم طقزدمر، فلم يُمَكِّن السلطانُ الأمراءَ من العَوْد إلى القاهرة للصلاة عليه، ورَسَم بإخراجه فأُخْرِج ودُفِن بخانقاته بالقرافة؛ وأُخِذت خيلُه وجِمالُه وهُجُنُه إلى الإسطبل السلطانيّ.

ثم خلَع السلطان على الأمير أَرْسلان بَصَل، وآستقرّ حاجباً ثانياً مع بَيْغَرَا، ورَسَم له أن يَحْكُم بين الناس؛ ولم تكن العادة جرت بذلك أن يحكم الحُجَّاب بين الناس غير حاجب الحُجّاب[1].

قلت: كان الحُجّاب يوم ذاك كهيئة رؤوس النُّوَب الصِّغار الآن. إنتهى.

وخلَع على الأمير مَلِكْتَمُر السَّرجَوَانِيّ بآستقراره في نيابة الكَرَك، وأنعم بتقدمته[2] على الأمير طَشْتَمُر طَلَلْيْه، وأنعم بطبلخاناه[3] طشتمر طلليه على الأمير قُبْلَاي.

ثم قَدِم على السلطان الخبرُ بموت أخيه الملك الأشرف كُجُك آبن الملك

---

(١) حاجب الحجاب هو كبير الحجّاب. وكان حكم الحاجب في الدولة التركية، منذ بدايتها إلى أيام الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون، لا يتعدى النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك. ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم في شيء من الأمور الشرعية كتداعي الزوجين وأرباب الديون، وإنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع. وابتداء من حكم الكامل شعبان أخذ الحجاب يتدخلون في أمور الناس ويتعدّون على صلاحيات قضاة الشرع. وقد عدّ المقريزي ذلك من فساد أحوال الحكم والسياسة. وذكر أن الناس كانوا يميزون بين نوعين من الأحكام: الأحكام السياسية والأحكام الشرعية. أما الأحكام السياسية فهي تلك الأحكام التي كان ينفذها الحجاب بين المماليك، وهي تستند إلى شريعة «الياسة» المغولية، إذ كان المماليك فيما بينهم معجبين أشدّ الإعجاب بشريعة جنكزخان ويطبقونها فيما شجر بينهم من مخاصمات. أما الأحكام الشرعية فهي التي تستند إلى الشريعة الإسلامية وكانت تطبق على سائر الناس من غير المماليك. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٩ ــ ٢٢٢).

(٢) في السلوك: «وأنعم بإقطاعه» وهي أوضح في المقام.

(٣) في السلوك: «وأنعم بإقطاع طشتمر».

الناصر محمد بن قلاوون عن آثنتي عشرة سنة. وآتهم السلطانُ أنّه بعث من سِرْياقوس مَنْ قتله في مَضْجَعِهِ على يد أربعة خدّام طواشيَّة، فعَظُم ذلك على الناس قاطبةً.

ثم عاد السلطان من سِرْياقوس إلى القلعة بعد ما تهتَّكت المماليك السلطانية من شرب الخمور والإعلان بالفواحش، ورَكِبوا في الليل وقطعوا الطريق على المسافرين، واغتصبوا حريم الناس.

ثم أخذ السلطان الملك الكامل في تجديد المظالم والمصادرات.

ثم قَدِم البريد على السلطان بأنّ الشيخ حسناً صاحبَ بغداد واقع سلطانَ شاه وأولاد تِمِرْدَاش، وآنتصر الشيخ حسن، وحَصَر سلطان شاه بمَارِدِين وأخذ ضياعها.

ثم إن السلطان الملك الكامل بدا له أن يُنْشِيء مدرسته موضع خان[١] الزكاة، ونزل الأمير أَرْغُون العلائي والوزير لنظره. وكان أبوه الملك الناصر محمد قد وَقَفَه فلم يوافق القضاةُ على حلِّه.

وفي مستهّل شعبان عَمِل السلطانُ مُهمَّه على بنت الأمير طُقُزْدَمُر الحَمَوِي سبعة أيام.

وفي مستهّل شوّال رَسَم السلطان للأمير أَرْغُون الكامليّ بزيارة القُدْس وأنعم عليه بمائة ألف درهم. وكتَبَ إلى نُوّاب الشام بالركوب لخدمته، وحَمْل التقادم وتجهيز الإقامات له في المنازل إلى حين عَوْده. ورَسَم له أن يُنادَي بمدينة بِلْبيس وأعمالها أنّه مَنْ قال عنه: أَرْغُون الصغير شُنِق، وألاّ يقال له إلاّ أَرْغون الكامِلي، فشُهر النِّداء بذلك في الأعمال.

وفي هذه الأيام كَثُرَ لعب الناس بالحَمَام وكثُر جَرْي السُّعاة، وتزايد شُلَّاق[٢] الزُّعْر، وتسلّط عَبِيدُ الطواشيّة على الناس، وصاروا كلّ يوم يقفون للضراب فتُسفك

(١) خان الزكاة: كان فندقاً يعرف بهذا الاسم. (انظر خطط المقريزي: ٣٧٣/١).

(٢) المراد جماعة الأراذل الذين يتعرضون للمارة بالضرب ويدخلون الخوف في قلوب الناس.

بينهم دماءٌ كثيرة، وتُنهب الحوانيت بالصَّلِيبة خارج القاهرة. وإذا رَكِب إليهم الوالي لا يعبؤون به، وإن قَبض على أحد منهم أُخِذ من يده سريعاً، فاشتد قَلَقُ الناس من ذلك.

ثم آخترع السلطان شيئاً لم يُسْبَق إليه، وهو أنّه أعرس السلطان بعضَ الطواشيّة ببعض سَرَارِيه بعد عَقْده عليها، وعَمِل له السلطان مُهمّاً حضره جميعُ جواري بيت السلطان، وجُلِيَت العَرُوس على الطواشي، ونَثَر السلطَانُ عليها وقت الجلاء الذهب بيده، فكانت هذه الحادثة من أشنع ما يكون، وعَظُم ذلك على سائر أعيان الدولة.

وفي ذي الحجّة كثُرت الإشاعة بآتفاق الأمير آل ملك نائب صفد مع الأمير يَلْبُغا اليحياوي نائب الشام [على المخامرة. فجهزّ آل ملك محضراً ثابتاً على قاضي صفد بالبراءة مما رمي به، فأنكر السلطان عليه هذا. واتفق قدوم][1] بعض مماليك آل ملك هارباً منه كونه شَرِب الخمر وأشاع هذا الخبر، فَرسم السلطان بإخراج مَنْجَك اليُوسفي السلاح دار على البريد لكشف الخبر؛ فلمّا توجه منجك إلى الشام حلَف له نائب الشام أنه بريء ممّا قيل عنه، وأنعم على منجك بألفي دينار سوى الخيل والقماش.

ثم نُودِي بالقاهرة بألاّ يُعارض أحد من لُعّاب الحَمَام وأرباب الملاعيب والسعاة، فتزايد الفساد وشَنُع الأمر، كلّ ذلك لمحبّة السلطان في هذه الأمور.

ثم نَدَب السلطان الأميرَ طُقْتَمُر الصالحيّ للتوجُّه إلى الشام على البريد ليوقع الحَوْطَة على جميع أرباب المعاملات[2]، وأصحاب الرِّزَق[3] والرواتب بالبلاد

(١) زيادة عن السلوك. وهي ضرورية لتوضيح الرواية.

(٢) المعاملات هي الأشغال التجارية الخاصة بالسلطان أو هي النقود السلطانية الجارية الاستعمال في عهده. (السلوك: ٢/١/١١٦، والحاشية: ٣ في نفس الصفحة). والمعاملات أيضاً هي المكوس والضرائب المستحدثة، وكانت تسمى الحقوق. (نهاية الأرب: ٩١/٣٠). وكان يطلق اسم المعاملات على ما يتعامل به من فضة وذهب وموازين ومكاييل. (صبح الأعشى: ٤٨٣/١، طبعة دار الكتب العلمية).

(٣) الرزقة: قطعة أرض يمنحها السلطان ويمكن لصاحبها أن يحبسها على أعمال البرّ على أن ينتفع بها في حياته ثم ذرّيته من بعده. وهكذا يضعها في مأمن من استرجاع الدولة لها. (انظر الأرض والفلاح في مصر: ٢٣٤).

الشامية من الفرات إلى غَزّة، وألاَّ يَصْرف لأحد منهم شيئاً، وأن يَسْتَخْرِج منهم ومن الأوقاف وأرباب الجَوامك ألف ألف درهم برسم سفر السلطان إلى الحجاز، ويَشْتَرِي بذلك الجِمال ونحوها. فكَثُر الدعاء على السلطان من أجل ذلك، وتغيَّرت الخواطر.

وفي هذه الأيام كَتَب [السلطان] بإحضار الأمير آل ملك نائب صَفَد إلى القاهرة لِيَسْتَقِرّ على إقطاع الأمير جَنْكَلِي بن البابا بعد موته، وتَوَجَّه لإحضاره الأمير مَنجَك السلاح دار. ثم في يوم السبت تاسع عشرين ذي الحجة أُمْسك أَيْنَبك أخو قُمارِي ثم عُفِي عنه من يومه. ثم كَتَب باستقرار الأمير أُرَاق الفَتَّاح نائب غَزّة في نيابة صفد بعد عزل آل ملك. وأمّا الأمير منجك فإنّه وصل إلى صفد في أوّل المحرم من سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وآستدعى آلَ ملك فخرج معه إلى غَزّة، فقَبَض عليه بها في اليوم المذكور، وقيل بل في سادس عشرين ذي الحجة من سنة ست وأربعين. إنتهى.

ثم في أول المحرّم المذكور قَدِم إلى جهة القاهرة الأمير مَلِكْتَمُر السَّرْجَوَانِيّ من نيابة الكرك فمات بمسجد التِّبْن خارج القاهرة ودُفِن بتربته. ثم قَدِم إلى القاهرة الأمير أحمد بن آل ملك فقُبِض عليه وسُجِن من ساعته. وخَلَع السلطان على الأمير أَسَنْدَمُر العُمَرِيّ باستقراره في نيابة طرابُلُس عوضاً عن الأمير قُمارِي.

وفي يوم الإثنين سادس المحرّم [من سنة سبع وأربعين وسبعمائة][1] قَدِم الأمير آل ملك والأمير قُماري نائب طرابلس مقيَّدين إلى قَلْيوب، ورَكبا النيل إلى الإسكندريّة فاعتُقِلا بها. وكان الأمير طُقْتَمُر الصَّلاحيّ قَبَض على قُمارِي لمّا توجّه للحوطة على أملاك الشام، وقيّده وبعثه على البريد. ثم نَدب السلطان الأمير مُغْلَطاي الأستادارِ لإيقاع الحَوْطة على موجود آل ملك، ونَدَب الطواشي مُقْبِلاً التَّقَوِيّ لإيقاع الحَوْطة على موجود قُمارِي نائب طرابلس، وألزم مباشريهما بحَمْل جميع أموالهما؛ فوجد لآل ملك قريب ثلاثين ألف إردب غَلّة، وألزم ولده بمائة

(١) زيادة عن السلوك.

ألف درهم، وأخذ لزوجته خَبِيَّة فيها أشياء جليلة، وأخذ أيضاً لزوجة قُمارِي صندوقاً فيه مالٌ جليل.

ثم خَلَع[١] السلطان على الأمير أرسلان بَصَل الحاجب الثاني في نيابة حَمَاة عوضاً عن أَرُقْطاي، وكَتَبَ بقدوم أرقطاي، فقدم أرقطاي إلى القاهرة فأنعم عليه السلطان بإقطاع جَنكَلِي بن البابا بعد وفاته، وآستقرّ رأس الميمنة مكان جنكلي.

ثم خَلَع السلطان على زوج أمّه الأمير أَرْغُون العلائي وآستقرّ في نظر البِيمَارِسْتان المنصوريّ عوضاً عن الأمير جنكلي بن البابا فنزل إليه أَرْغُون العَلائي وأصلَح أموره، وأنشأ بجوار باب البيمارستان المذكور سبيل ماء ومكتب سبيل لقراءة الأيتام، ووقف عليه وقفاً [بناحية من الضواحي][٢].

ثم خَلَع السلطان على الأمير نجم الدين محمود بن شَرْوين وزير بغداد وأعِيد إلى الوزارة بالديار المصريّة، وكان لها مدّة شاغرة. وخَلع على علم الدين عبد الله آبن زُنْبُور وآستقرّ ناظر الدولة عوضاً عن آبن مراجل.

وفي هذه الأيام آنتهت عمارة قصر[٣] الأمير أَرْغُون الكامليّ [وإصطبله][٤] بالجسر الأعظم تجاه الكَبْش، بعد أن صرف عليه مالاً عظيماً، وأخَذ فيه من بِرْكة الفيل نحو العشرين ذراعاً؛ فلمّا عزم أرغون على النزول إليه مَرِض، فقلِق السلطان لمرضه، وبعث إليه بفَرَس وثلاثين ألف درهم تصدّق بها عنه. وأفْرَج عن أهل السجون، ورَكِب السلطان لعيادته بالمَيْدَان.

(١) هذا الخبر ورد في السلوك على نحو مختلف. قال: «وفيه استقرّ الأمير رسلان بصل في نيابة حماة عوضاً عن طقتمر الصلاحي، ونقل طقتمر من نيابة حماة إلى نيابة حلب عوضاً عن الأمير أرقطاي. وكتب بقدوم أرقطاي، وتوجه في ذلك الأمير قطلوبغا الكركي ومعه التقاليد؛ فأنعم عليه أرقطاي بمائة ألف درهم، وأنعم عليه طقتمر بألف وخمسمائة دينار وعشرة الآف درهم، ومائة قطعة قماش، وعشرة أرؤس من الخيل، وخلعة السلطان، وخمسمائة أردب غلّة من مصر قيمتها مائة ألف درهم» ــ انظر السلوك: ٧٠٠/٣/٢.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) ذكره المقريزي باسم قصر أرغون الكاملي. انظر خطط المقريزي: ٧٣/٢.

(٤) زيادة عن السلوك.

ثم أهتم السلطان بسفره إلى الحجاز وأخَذ في تجهيز أحواله.

وفي يوم الجمعة رابع عشر صفر وُلِد للسلطان ولدٌ ذَكَرٌ من بنت الأمير بَكْتَمُر الساقي.

ثم في يوم السبت ثاني عشرين صفر أَفْرَج السلطانُ عن الأمير أحمد بن آل ملك وعن أخيه[1] قُماري وأمرهما بلزوم بيتهما.

وفي أوّل شهر ربيع الأوّل توجّه السلطان إلى سِرْياقوس وأحضر الأوباش فلَعِبُوا قدّامه باللَّبْخَة[2] وهي عصِيٌّ كِبار، حَدَث اللعب بها في هذه الأيام، ولمّا لَعِبوا بها بين يديه قَتَلَ رجلٌ رفيقَه، فخَلَع السلطان على بعضهم وأنعم على كبيرهم بخُبز في الحَلْقة. وآستمرّ السلطانُ يَلْعَب بالكُرَة في كلّ يوم وأعرض عن تدبير الأمور. فتمرّدت المماليك، وأخذوا حُرَم الناس، وقطعوا الطريق، وفَسَدت عِدّةٌ من الجواري. وكَثُرت الفِتن حتّى بلغ السلطان فلم يَعْبأ بما قيل له، بل قال: «خَلُّوا كلَّ أحد يعمل ما يُريد». فلمّا فَحُشَ الأمر قام الأمير أَرْغُون العلائي فيه مع السلطان حتّى عاد إلى القلعة. وقد تظاهر الناس بكلّ قبيح ونَصَبُوا أخصاصاً بالجزيرة الوسطانيّة[3] وجزيرة بولاق [التي] سَمَّوْها حَلِيمَة[4]، بلغ مصروفُ كلِّ خُصٍّ منها

(١) في الأصل: «أخي قماري». وما أثبتناه رواية السلوك.

(٢) اللَّبخة: هي لعبة التحطيب أو النبوت في مصر حتى العصر الحاضر. وكانت عصيّ هذه اللعبة في العصر المملوكي تتخذ من شجر اللبخ، وهو شجر من الفصيلة القرنية ينبت في البلاد الحارة. واللبخة شجرة عظيمة كالدلب، ثمرها أخضر يشبه التمر، وتتخذ منها ألواح للسفن. وقد وصف الشعراني في (الطبقات الكبرى: ٢/١٠٦ ـ ١٠٧) هذه اللعبة في ترجمة عثمان الحطاب الذي اشتهر بالمهارة في هذه اللعبة. قال: «وكان شجاعاً يلعب اللبخة، فيخرج له عشرة من الشطار، ويهجمون عليه بالضرب، فيمسك عصاه من وسطها، ويردّ الجميع فلا تصيبه واحدة».

(٣) هي نفسها جزيرة بولاق التي كانت تسمى جزيرة أروى.

(٤) جزيرة حليمة: ذكر المقريزي أن هذه الجزيرة ظهرت في مجرى النيل في سنة ٧٤٧هـ بين بولاق والجزيرة الوسطى سمتها العامة حليمة (خطط: ٢/١٨٦). وذكر الاستاذ محمد رمزي أن هذه الجزيرة اتصلت بالجزيرة الوسطى بواسطة طرح البحر وأصبحت الجزيرتان جزيرة واحدة هي الجزيرة الكبيرة الواقعة الآن تجاه بولاق.

من ألفين إلى ثلاثة آلاف درهم، وكان هذا المبلغ يوم ذاك بحقّ ملْك هائل. وعُمِل في الأخصاص الرُّخام والدِّهان البديع، وزُرِع حوله المقاثىء والرياحين، وأقام بالأخصاص المذكورة معظمُ الناس من الباعة والتُّجّار وغيرهم، وكشفوا سِتْر الحياء، وما كَفُّوا في التهتُّك في حَلِيمَة والطمية[١] وتنافسوا في أرضها، حتّى كان كلُّ قصبة قياس تُـؤَجَّر بعشرين درهماً، فبلـغ أجرة الفدّان الواحد ثمانيةَ آلاف درهم؛ فأقاموا على ذلك ستة أشهر، حتى زاد الماء وغَرِقت الجزيرة. وقبل مجيء الماء بقليل قام الأمير أَرْغُون العَلاَئي في هدمها قياماً عظيماً، وحَرَق الأخصاص على حين غفلة، وضَرَب جماعة وشهَّرهم، فتلِف بها مالٌ عظيم جداً.

وفي هذه الأيام قلّ ماء النيل حتى صار ما بين المقياس ومصر يُخاض، وصار من بولاق إلى منشأة المِهْرَانِيّ طريقاً يُمْشَى فيه، ومن بولاق إلى جزيرة الفيل وإلى المُنْيَة طريقاً واحداً. وبَعُدَ الماء على السقَّايين وصاروا يأخذون الماء من تُجاه قرية مُنْبَابة[٢]، وبَلَغت راويةُ الماء إلى درهمين بعدما كانت بنصف درهم وربـع درهم. فشكا الناس ذلك إلى أَرْغُون العلائي، فبلّـغ السلطانَ غلاءَ الماء بالمدينة وآنكشـافَ ما تحت بيوت البحر، فركِب السلطان ومعه الأمراء وكثيرٌ من أرباب الهندسة، حتّى كُشِفَ ذلك، فوجدوا الوقت فيه قد فات لزيادة النيل، وآقتضـى الرأي أن يُنْقَل التراب والشقاف من مطابـخ السُّكّر بمدينة مصر وتُرْمَى من بَرّ الجيزة إلى المقياس[٣] حتى يصيرَ[٤] جسراً يُعْمَل عليه العمل، حتى يدفـعَ الماءَ إلى الجهة التي يَحْسِر

(١) جزيرة الطمية أو جزيرة الصابوني: ما تزال موجودة إلى اليوم باسم جزيرة دير الطين، لأن معظم أراضيها واقعة تجاه أراضي ناحية دير الطين. (محمد رمزي).

(٢) منبابة أو إمبابة ــ راجـع فهرس الأماكن.

(٣) كان هذا المقياس يقـع في الطرف الجنوبي من جزيرة الروضة تجاه مصر القديمة. وقد سبق الكلام عليه. ــ راجـع فهرس الأماكن.

(٤) في مدة التحاريق كان النيل يجف ماؤه تحت شاطىء القاهرة في المسافة الواقعة بين مصر القديمة وبولاق، وبذلك يصبح الماء تحت شاطىء الجيزة بعيداً عن سكان القاهرة فيصعب عليهم نقله من تحت برّ الجيزة؛ لذلك كان الملوك السابقون يقيمون في مدة التحاريق في مجرى النيل الحالي جسراً مؤقتاً من التراب بدعائم من خشب. وكان ذلك الجسر يمتد في النيل ما بين سكن مدينة الجيزة والطرف الجنوبي لجزيرة الروضة عند المقياس لفرض تحويل ماء النيل من الغرب إلى الشرق، وبذلك تتوفر المياه تحت مصر =

عنها. فنُقِلَت الأتربة في المراكب وأُلْقِيت هناك إلى أن بَقِي جسراً ظاهراً، وتراجع الماء قليلاً إلى بَرّ مصر؛ فلما قَوِيت الزيادةُ علا الماء على هذا الجسر وأخذه ومحا أثره.

وفي هذه الأيام لَعِب السلطان الكُرَةَ مع الأمراء في المَيْدَان من القلعة فاصطدم الأمير يَلْبُغا[١] الصالحي مع آخر سقطا معاً عن فرَسَيهما إلى الأرض، ووقع فرس يلبغا على صدره فانقطع نُخاعه ومات لوقته، فأنعم السلطان بإقطاعه على قُطْلُوبَغا الكَركيّ.

ثم في هذه الأيام اشتدّت المطالبة على أهل النواحي بالجمال والشعير والأعدال والأخراج [والعبي][٢] لسبب سفر السلطان إلى الحجاز؛ وكَثُرَت مغارمُهم إلى الوُلاة[٣]، وشكا أرباب الإقطاعات ضرَرهم للسلطان، فلم يلتفت لهم. فقام في ذلك الأمير أَرْغُون شاه الأستادار مع الأمير أَرْغُون العلائي في التحدُّث مع السلطان في إبطال حركة السفر فلم يُصْغِ لقولهم، وكتب استعجال العُرْبان بالجِمَال، واستحثاث طَقْتَمُر الصّلاحِيّ فيما هو فيه بصدد السفر.

ثم أوقع السلطان الحَوْطَة على أموال الطَّوَاشِي عَرَفات، وأخرج عرفات إلى الشام منفِيّاً. ثم قصد السلطانُ أخذَ أموال الطواشي كافور الهِنْديّ، فشَفَعَتْ فيه خَوَنْد طُغاي زوجة الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وكان كافور المذكور من خواصّ خدّام الملك الناصر محمد بن قلاوون فأُخرِج كافور إلى القُدْس. وكافور المذكور هو صاحب التُّرْبة بقرافة مصر. ثم نفى السلطان أيضاً ياقوتاً الكبيرَ الخادِمَ، وكافوراً المحرم، وسروراً الدَّمَامِينيّ، ثم نَفَى ديناراً الصوّاف ومُخْتَصّاً الخطائي.

= القديمة وبولاق وتصبح قريبة من القاهرة، فيأخذ منها الناس ما يلزم لشربهم ومصالحهم مدة التحاريق. وبعد ذلك يزول الجسر بقوة اندفاع ماء النيل أثناء الفيضان، ثم يتجدد عند الحاجة إليه. (عن تعليقات محمد رمزي).

(١) في السلوك: «بيبغا الصالحي».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «إلى الولاة والرقاصين». وجاء في معجم دوزي أن الرقاص هو البريدي الذي يحمل الرسائل، والمرشد الذي يصحب المسافرين.

ثم في أوّل شهر ربيع الآخر مات وَلَدُ السلطان من بنت[١] بَكْتَمُر الساقي وَوُلِد له من اتِّفاق العَوّادة حَظِيّة أخيه وَلَدٌ سَمّاه شَاهِنْشَاه، وسُرَّ به سروراً عظيماً زائداً، وعَمِل مُهِمّاً عظيماً مدة سبعة أيام. ثم مات أخوه يوسف آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون واتُّهِمَ السلطان أيضاً بقتله.

ثم قَدِم طُقْتَمُر الصلاحِيّ من الشام بالقُماش المستعمل برسم الحجاز[٢]. ثم قَدِم كتابُ يَلْبُغا اليَحْياوِيّ نائب الشام يتضمّن خراب بلاد الشام مما آتفق بها من أخذ الأموال وآنقطاع الجالب إليها، وأنّ الرأي تأخيرُ سفر السلطان إلى الحجاز الشريف في هذه السنة. فقام الأمير أَرْغُون العلائي ومَلِكْتَمُر الحِجازِيّ في تصويب رأي نائب الشام، وذكر للسلطان أيضاً ما حَدَث ببلاد مصر من نِفَاق العُرْبان وضَرَر الزروع وكثرة مغارم البلاد. وما زالا به حتى رجعَ عن سفر الحجاز في هذه السنة، وكتب إلى نائب الشام بقبول رأيه [في ذلك]، وكتب للأعمال باسترجاع ما قَبَضَتْه العَرَبُ من كِرَاء الأحمال[٣] وغير ذلك؛ فلم يُوافق هذا غَرَضَ نساء السلطان ووالدته، وأخذت [والدته] في تقوية عزمه على السفر للحجاز حتى مال إليهم[٤]؛ وكتَبَ لنائب الشام وحلب وغيرهما أنَّه لا بُدَّ من سفر السلطان إلى الحجاز في هذه السنة، وأَمَرَهم بحمل ما يَحْتَاج إليه. ووَقَع الاهتمامُ، وتجدّد الطَّلَبُ على الناس وغَلاَءُ الأسعار، وتَوَقَّفَت الأحوال وقَلّ الواصل من كل شيء. وأخذ الأمراء في أُهْبَة السفر صُحْبَة السلطان إلى الحجاز، وقَلِقوا لذلك، وسألوا أَرْغُون العلائي ومَلِكْتَمُر الحِجازيّ في الكلام مع السلطان في إبطال السفر وتعريفه[٥] رِقَّة حالهم من حين تجاريدهم إلى الكَرَك في نَوْبة الملك الناصر أحمد. فَكَلَّمَا السلطان في ذلك،

---

(١) في السلوك: «من ابنة الأمير تنكز».

(٢) عبارة السلوك: «وقدم الأمير طقتمر الصلاحي من الشام ومعه مبلغ ألف ألف درهم، لتتمة جملة ما حمل من الشام ألف ألف وستمائة ألف درهم، مما توفر من المرتبات التي اقطعت، وجيء من الأعمال بالعسف، وذلك سوى الأصناف المستعملة برسم السفر».

(٣) في السلوك: «من كري الجمال ورمي البشماط الذي عمل على الباعة».

(٤) كذا بالأصل. وصوابه: إليهنّ.

(٥) في الأصل: «ومعرفته». وما أثبتناه عن السلوك.

فٱشتدّ غضبُه، وأطلق لسانَه؛ فما زالا به حتى سَكَن غَضَبُه. ورَسَم من الغد لجميع الأمراء بالسفر، ومَنْ عَجزَ عن السفر يُقِيم بالقاهرة. فاشتدّ الأمر على الناس بمصر والشام من كثرة السُّخَر، وكَثُرَ دعاؤهم على السلطان، وتَنَكَّرت قلوبُ الأمراء، وكَثُرَت الإشاعة بتنكُّر السلطان على نائب الشام، وأنَّه يُريد مسكَه حتّى بلَغَه ذلك، فاحترز على نفسه. وبلغ(١) الأمير يلبغا اليحياوي قتلُ يوسف آبن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقُوَّةُ عزم السلطان على سفر الحجاز موافقة لأغراض نسائه؛ فجمع أمراء دِمَشْق، وحلَّفهم على القيام معه، وبَرَزَ إلى ظاهر دِمَشْق في نصف جُمَادَى الأولى وأقام هناك. وحضر إليه الأمير طُرُنْطَاي البَشْمَقْدَار نائب حِمْص والأمير أُرَاق الفَتَّاح نائب صَفَد والأمير أَسَنْدَمُر نائب حَمَاة والأمير بَيْدَمُر البَدْرِي نائب طرابُلُس، فٱجتمعوا جميعاً بظاهر دِمَشق مع عسكر دِمَشق لخَلْع الملك الكامل شعبان هذا، وظاهروا بالخروج عن طاعته. وكتب الأميرُ يَلْبُغَا اليَحْياوي نائبُ الشام إلى السلطان: «إني أحد الأوصياء عليك، وإنّ مما قاله السلطان السعيد الشهيد، رحِمه الله تعالى، (يَعني عن الملك الناصر) لي وللأمراء في وصيَّته: إذا أقمتُم أحداً من أولادي ولم ترضوا بسيرته جُرُّوا برجله وأخرجوه وأقيموا غيرَه. وأنتَ أفسدتَ المملكةَ وأفقرت الأمَراء والأجنادَ، وقتلتَ أخاك، وقبضتَ على أكابر أمراء السلطان، وٱشتغلت عن المُلْك وٱلتَهَيْتَ بالنساء وشُرْب الخمر، وصِرتَ تبيع أخبازَ الأجناد بالفِضَّة» وذكرَ له أموراً فاحشةً عَمِلها، فقَدِم كتابه إلى القاهرة في يوم الجمعة العشرين من جُمادَى الأولى. فلما قرأه السلطانُ تغيّر تغيُّراً كبيراً، وأوقف أَرْغُون العَلائي عليه بمفرده، فقال له أرغون العلائي: «والله لقد كنت أحسب هذا! وقلتُ لك فلم تَسمع قولي» وأشار عليه بكتمان هذا. وكتب [السلطان] الجواب يتضمّن التلطُّف في القول، وأخرج الأمير مَنْجَك اليُوسفي على البريد إلى الأمير يلبغا اليحياوي في ثاني عشرينه، ليُرْجِعَه عما عزَمَ عليه، ويكشف أحوال الأمراء. وكتب السلطانُ إلى أعمال مصر بإبطال السلطان سفَرَ الحجاز. فكثُرت القالةُ بين الناس بخروج نائب الشام عن الطاعة، حتى بلغ ذلك الأمراءَ والمماليكَ، فأشار أَرْغُون

(١) في الأصل: «وبلغه». وحذف الضمير وإثبات العائد للتوضيح.

العلائي على السلطان بإعلام الأمراء الخبر؛ فطُلِبوا إلى القلعة، وأُخِذ رأيُهم فوقع الاتفاق على خروج العسكر إلى الشام مع الأمير أَرُقْطاي، ومعه من الأمراء [مَنْكَلِي بُغا](١) الفَخْرِي أمير جاندار وآق سُنْقُر الناصريّ وطَيْبُغا المَجْدِيّ وأَرْغُون الكاملي وأميرُ عليّ بن طغريل الطُّوغانيّ وآبْـن طُقُزْدَمُر وآبْـن طَشْتَمُر وأربعون أمير طبلخاناه، وأربعون أمير عشرة وأربعون مقدّم حلقة. وحُمِلت النفقة إليهم لكلّ مقدّم ألفُ(٢) دينار، ما عدا ثلاثة مقدّمين، لكل مقدّم ثلاثةُ آلاف دينار. وكَتَب بإحضار الأجناد من البلاد. فقدِم كتاب مَنْجَك من الغَوْر(٣) بموافقة النوّاب(٤) لنائب الشام وأن التجريدة إليه لا تُفيد، فإنّه يقول: إن أمراء مصر معه.

ثم قَدِم كتاب نائب الشام ثانياً، وفيه خَطُّ الأمير مسعود بن خَطِير وأمير عليّ بن قـراسُنْقُر وقلاوون وحُسام الدين البَشْمَقْدَار، يتضمّن: «إنّك لا تصلُـح للملك، وإنما أخذتَه بالغَلَبَة من غير رضا الأمراء ــ ثم عدَّد ما فعله ــ ونحن ما بَقينا نصْغي(٥) لك وأنت ما تصْغي لنا، والمصلحة أن تَعزِل نفسك من المُلك ليتولّى غيرُك». فلمّا سَمِـع السلطان ذلك آستـدْعى الأمراء وحلفهم على طاعته ثم أمرهم بالسفر، فخرجوا من الغد وخرج طُلْبُ مَنْكَلي بُغا وبعده أرغون الكامليّ. فعندما وصـل طُلْب أَرْغُون إلى تحت القلعة خَرجَت ريحٌ شديدة ألقتْ شاليشَ(٦) أَرْغُونِ الكامليّ على الأرض، فصاحت العامّة: «راحت عليكم يا كـامليَّة» وتـطيَّروا بـأنّهم غيرُ

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «ألف ألف». وما أثبتناه يرجحه سائر العبارة.

(٣) المراد غور نهر الأردن.

(٤) عبارة الأصل: «بموافقة نواب الشام إلى نائب الشام». وما أثبتناه عبارة السلوك.

(٥) عبارة السلوك: «ونحن ما بقينا نصلـح لك، وأنت ما تصلـح لنا».

(٦) الشاليش أو الجاليش في الفارسية بمعنى الحرب والمعركة. والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل. وكان من تقاليد الدولة المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يوماً قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخانة. واستعمل أيضاً لفظ الجاليش بمعنى طليعة الجند.

(تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٥٧ ــ ٥٨).

منصورين. ثم أخذ الأمراء المجرَّدون في الخروج شيئاً بعد شيء. وقَدِم حلاوة الأوجاقي يُخبِر بأنّ مَنْجَك ساعةَ وصوله إلى دمَشْق قَبضَ عليه الأميرُ يَلْبُغَا نائب الشام وسَجنه بقلعة دمشق. فبعث السلطان بالطواشي سرور الزَّيْنَبِيّ لإحضار أَخَوَي السلطان، وهما أميرُ حاجّ[١] وأميرُ حسين فـآعتذرا بوَعْكهما، وبعثتْ أمهاتُهما إلى العَلاَئِيّ والحجازيّ تسألانهما في التلطُّف مـع السلطان في أمرهما. وبَلَّغت العلائيَّ بعضُ جواري زوجته أمِّ السلطان بأنها سَمِعت السلطانَ وقد سَكِر وكَشَف رأسَه وهو يقول: «يا إلهي أعطيتَني المُلْكَ وملَّكتني آلَ ملك وقُمارِي، وبَقِي من أعدائي أَرْغُون العلائي ومَلِكْتَمُر الحجازي، فمكِّنِّي منهما حتى أبلـغَ غَرضي منهما»، فأقلق أرغون العلائي هذا الكلام. ثم دخل على السلطان في خَلْوة فإذا هو متغيِّر الوجه مُفَكِّر، فبدَره [السلطان] بأن قال له: «من جاءك من جهة إخوتي، أنت والحجازي» فعرَّفه أن النساء دخَلْنَ عليهما [وطَلَبْن] أن يكون السلطان طيِّب الخاطر على أخويه[٢] ويُـؤَمِّنهما، فإنّهما خائِفان[٣]. فرد عليه السلطان جواباً جافياً، ووضـع يده في السيف ليضربَه به، فقام أَرْغُون عنه لينجُو بنَفسه. وعَرَّف الحجازيَّ ما جرى له مـع السلطان وشكا من فساد السلطنة. فتوحَّش خاطرهُما، وآنقطـع أرغـون العلائي عن الخدمة وتعلَّل. وأخذت المماليك أيضاً في التنكُّر على السلطان، وكاتب بعضُهم نائبَ الشام، وآتفقـوا بأجمعهم، حتى آشتهـر أمرُهم، وتحدّث به العامّة. وأَلَـحَّ السلطان في طلب أخويه، وبَعث قُطلُوبُغَا الكَرَكِيّ في جماعة حتى هجموا عليهما ليـلاً، فقامت النساء وَمَنَعْنَهم منهما؛ فهمَّ أن يقوم بنفسه حتى يأخذَهما، فجيء بهما إلى وقت الظهر من يوم السبت تاسـع عشرين جُمادَى الأولى، فأدخلهما إلى موضـع ووكَّل بهما. وقام العَزاءُ في الدور السلطاني عليهما، وآجتمعـت جواري الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده؛ فلما سَمِـع المماليك صياحَهُنّ هموا بالثورة والركوب للحرب وتعبُّوا.

---

(١) في السلوك: «حاجي» وهي التسمية الأكثر استعمالاً في المراجـع.

(٢) في الأصل: «عليهما». والتعديل للتوضيـح.

(٣) قارن ببدائـع الزهور: ٥٠٨/١/١ ـ ٥٠٩ حيث توسّـع ابن إياس في وصف خوف أخوي السلطان شعبان.

فلمّا كان يوم الإثنين مستهلّ جُمَادَى الآخرة خرج طُلْبُ أَرُقْطاي مقدّم العساكر المجرَّدين إلى الشام حتّى وصل إلى باب زويلة، ووقف هو مع الأمراء في المَوْكِب تحت القلعة، وإذا بالناس قد آضطربوا. ونزل الحجازي سائقاً يريد إسطبله [وتبعه الأمير أرغون شاه أيضاً إلى جهة إسطبله][1]. وسبب ذلك أنّ السلطان الملك الكامل جَلَس بالإيوان على العادة، وقد بيَّت مع ثِقاته القبضَ على الحِجازي وأَرْغُون شاه إذا دخلا، وكانا جالسين ينتظران الإذن على العادة. فخرج طُغَيْتَمُر الدوَّادار في الإذن لهما فأشار لهما بعينه أن آذهبا. وكانا قد بلغهما أنّ السلطان قد تنكَّر عليهما، فقاما من فورهما ونزلا إلى إسطبلهما، ولَبِسا بمماليكهما وحواشيهما، ورَكِبا وتوجَّها إلى قُبَّة النصر. وبعث الحِجازيُّ يستدعي آق سُنْقُر من سِرْياقوس، فما تَضَحَّى النهارُ حتى آجتمعت أطلابُ الأمراء بقُبّة النصر فطلب السلطان عند ذلك أَرْغُون العلائي وآستشارة فيما يَعْمَل، فأشار عليه بأن يركب بنفسه إليهم؛ فرَكِب السلطان بمماليكه وخاصَّكِيَّته ومعه زَوْجُ أمّه الأميرُ أَرْغُون العلائي المذكور وتَمُر المُوساوِيّ وعِدَّة أُخَر من الأمراء، والقلوب متَغيِّرة. ودقّت الكوسات حربياً، ودارت النقباءُ على أجناد الحَلْقة والمماليك ليركبوا فرَكِب بعضهم وتخاذل بعضُهمْ؛ وسار السلطان في جَمْع كبير من العامّة وهو يسألهم الدعاء، فأسمعوه ما لا يَلِيق، ودَعَوْا عليه. وسار في نحو ألف فارس لا غير حتى قابل مَلِكْتَمُر الحجازيَّ وأصحابَه من الأمراء والمماليك؛ فعند المواجهة آنسلَّ عن السلطان أصحابُه، وبَقِي في أربعمائة فارس. فبرز له آق سنقر، وساق حتى قارب السلطان، وتحدّث معه وأشار عليه بأن يَنْخَلِعَ من السلطنة، فأجابه إلى ذلك وبَكَى. فتركه آق سنقر وعاد إلى الأمراء وعرَّفهم بأنه أجاب أن يخلَع نفسَه؛ فلم يَرْضَ أرغون شاه، وبَدَر ومعه الأميرُ قَرابُغا والأميرُ صَمْغار والأميرُ بُزْلَار والأمير غُرْلُو في أصحابهم حتى وصلوا إلى السلطان؛ وسيَّرُوا إلى أَرْغُون العلائي ليأتيَهم ليأخذوه إلى عند الأمراء؛ فلم يُوافق العلائي على ذلك، فهجموا عليه ومزّقوا[2] مَنْ كان معه من مماليكه وأصحابه. ثم ضَرَب واحدٌ منهم

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) في السلوك: «وفرّقوا».

أرغون العلائي بدُبُّوس حتى أرماه عن فرسه إلى الأرض، فضَربه الأميرُ بَيْبُغا[١] أُرُوس بسيف قطع خَدَّه، فانهزم عند ذلك عسكرُ السلطان، وفرّ الملكُ الكامل شعبان إلى القلعة وآختفى عند أمه زوجة الأمير أرغون العلائي. فسار الأمراء إلى القلعة في جمع هائل وأخرجوا أمير حاجي[٢] وأمير حسين من سجنهما، وقبّلوا يد أمير حاجي وخاطبوه بالسلطنة. ثم طلبوا الملك الكامل شعبان من عند أُمّه فلم يجدوه، فحرَّضُوا في طلبه حتى وجدوه مُخْتَفِياً بين الأزيار، وقد آتّسخت ثيابُه من وَسَخ الأزيار؛ فأخرجوه بهيئته إلى الرَّحْبة ثم أدخلوه إلى الدهيشة فقيَّدوه وسجنوه حيث كان أخواه مسجونين، ووكّل به قَرَابُغا القاسِمِيّ والأمير صَمْغَار.

ومن غريب الاتفاق أنه كان عَمِل طعاماً لأخويه أمير حاجي وحسين حتى يكون غَدَاءَهما في السجن، وعُمِل سماط السلطان على العادة. فوَقَعت الضجّة، وقد مُدّ السِّماط، فرَكِب السلطان من غير أكل؛ فلمّا آنهزم وقُبِض عليه، وأُقيم بدله أخوه أمير حاجي مُدّ السِّماط [بعينه له][٣] فأكل منه؛ وأُدْخِل بطعامه وطعام أخيه أمير حسين إلى الملك الكامل فأكله في السجن. وآستمرّ الملك الكامل المذكور في السجن إلى يوم الأربعاء ثالث جُمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة، قُتِل وقت الظهر ودُفِن[٤] عند أخيه يوسف ليلة الخميس. فكانت مدّة سلطنته على مصر سنةً واحدةً وثمانية وخمسين يوماً؛ وقال الصَّفَديّ: سنة وسبعة عشر يوماً[٥].

وكان من أشرّ الملوك ظلماً وعسْفاً وفِسْقاً. وفي أيامه ــ مع قِصَر مدّته ــ خرِبت بلاد كثيرة لشَغَفه باللّهو وعُكوفه على معاقرة الخمور، وسماع الأغاني وبيع

(١) في السلوك: «يلبغا أروس».
(٢) في الأصل: «أمير حاج».
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) في بعض المصادر أنه دفن مع والده وجده المنصور قلاوون في القبة التي بشارع المعز لدين الله. وبذلك يكون أخوه يوسف دفن هناك أيضاً. ــ انظر بدائع الزهور: ١/١/٥١٢.
(٥) في بدائع الزهور: «فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنة وشهرين ونصفاً.

الإقطاعات بالبذل[١]، وكذلك الولايات، حتى إنّ الإقطاع كان يخرج عن صاحبه وهو حيّ بمال لآخر، فإذا وقف مَنْ خَرَج إقطاعه قيل له: نُعَوِّض عليك قد أخرجناه لفلان الفلاني. وكان مع هذا كله سَفّاكاً للدماء، ولو طالت يدُه لأتلف خلائق كثيرة؛ وكان سيّىء التدبير، يُمَكِّن النساءَ والطواشيّة من التصرُّف في المملكة والتهتُّك في النُّزه والصيد ولعب الكُرة بالهيئات الجميلة وركوب الخيول المسوّمة، مع عدم الاحتشام من غير حجاب من الأمير آخورية والغِلمان، ويُعجبه ذلك من تهتُّكهنّ على الرجال؛ فشُغِف لذلك جماعةٌ كثيرة من الجند بحُرَمه بما يفعلْنَ من ركوب الخيول وغيرها. وكان حريمُه إذا نزلْنَ إلى نزهة بلغَت الجَرّة الخمر إلى ثلاثين درهماً، وهذا كلُّه مع شَرَهِهِ وشَرَهِ حواشيه ونسائه إلى ما في أيدي الناس من البساتين والرِّزَق والدواليب[٢] ونحوها؛ فأخذت أُمُّه معصرة وزير بغداد ومنظرَته على بركة الفيل، وأشياء غير ذلك. وحدَثَ في أيامه أخذُ خَرَاج الرِّزَق، وزيادة القانون، ونقْص الأجاير؛ وأُعيدت في أيامه ضمَانُ أرباب الملاعيب وعِدّة مُكُوس. وكان يحب لعب الحَمام، فلما تسلطن تغالَى في ذلك وقرّب مَنْ يكون من أرباب هذا الشأن. ومع هذا الظلم والطمع لم يُوجد له من المال سوى مبلغ ثمانين ألف دينار وخمسمائة ألف درهم؛ إلا أنه كان مُهاباً شُجاعاً سَيُوساً[٣] مُتَفَقِّداً لأحوال مملكته،

---

(١) في بعض الروايات: «بالبدل» بالدال المهملة. وهي رواية تشير إلى أسلوب تفشى في عهد الكامل شعبان، إذ ظهرت المقايضات والتنازل عن الإقطاعات؛ فكان الجندي يتخلى عن إقطاعه لقاء مبلغ من المال، فاشترى السوقة والأراذل ــ على حد تعبير المقريزي ــ الإقطاعات حتى أصبح أكثر أجناد الحلقة من أصحاب الحرف والصناعات حباً بالظهور والتباهي بلبس الكلفتاة وركوب الخيل، فخربت بذلك أكثر الإقطاعات. وقد استحدثت الحكومة نفسها ديواناً جديداً لهذه الغاية سمي «ديوان البدل». ثم ظهرت طائفة جديدة من الموظفين عرفوا باسم «المهيسين» بلغ عددهم ثلاثمائة مهيس كانوا يطوفون على الأجناد ويزينون لهم التنازل عن إقطاعهم، إذ أن المهيس كان يتقاضى ١٠ ٪ من ثمن الإقطاع المتنازل عنه. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٩؛ وصبح الأعشى: ٤/١٦؛ وزبدة كشف الممالك: ١٠٩).

(٢) الدواليب: جمع دولاب، ومعناها هنا معاصر قصب السكر وأشباهها من الصناعات التي تحتاج إلى الأدوات العجلية، كمصانع غزل الحرير والسواقي المائية. (ملحق دوزي).

(٣) قال السلطان الكامل شعبان عن نفسه. «أنا ثعبان لا شعبان». (المختصر في أخبار البشر: ٢/١٥٠).

لا يشغله لهوُه عن الجلوس في المواكب والحكم بين الناس. ولما أمْسِك وقُتِل قال فيه الصفدي: [السريع]

بيتُ قلاوونَ سعاداتُهُ في عاجل كانت وفي آجل[1]
حَلَّ على أملاكه للرَّدَى دَيْنٌ قدِ استوفاه بالكامل

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الكامل شعبان على مصر

وهي سنة ستّ وأربعين وسبعمائة. على أن أخاه الملك الصالح إسماعيل حكَم منها إلى رابع شهر ربيع الآخر، ثم حَكَمَ الملك الكامل هذا في باقيها وفي أشهر من سنة سبع كما سيأتي ذكرُه.

فيها (أعني سنة ست وأربعين) تُوُفِّي السلطان الملك الصالح إسماعيل آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما تَقدّم ذكرُه في ترجمته. وفيها أيضاً تُوُفِّي السلطان الملك الأشرف كُجُك آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد خلعه من السلطنة بسنين، وقد تقدّم ذكر سلطنته أيضاً ووفاته في ترجمته.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طُقُزْدَمُر بن عبد الله الحَمَوِيّ الناصِريّ الساقي بالقاهرة في مُسْتهل جُمادى الآخرة. وكان أصله من مماليك الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل الأيُّوبي صاحب حَمَاة، ثم انتقل إلى مِلْك الملك الناصر محمد بن قلاوون وحَظِيَ عنده وجعله ساقياً، ثم رقَّاه حتى صار أميرَ مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية، ثم جعله أميرَ مجلس وزوّجه بإحدى بناته؛ وصار من عظماء أمرائه إلى أن مات. و[لَمّا] تسلطن آبنه الملك المنصور أبو بكر آستقرّ طُقُزْدَمُر هذا نائب السلطنة بديار مصر، ووَقَع له أمور حكيناها في تراجم السلاطين من بني الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن أُخْرِج إلى نيابة حَمَاة. ثم نُقِل إلى نيابة حلب، ثم إلى نيابة الشام، ثم طُلِب إلى القاهرة في سلطنة الملك الكامل هذا فحضَر إليها

(١) في السلوك: «بلا آجل».

مريضاً في مِحَفَّة ومات بعد أيام حسب ما تقدّم . وكان من أجلّ الأمراء وأحسنهم سيرةً. كان عاقلاً ديِّناً سَيُوساً، عارفاً؛ وهو صاحب الخانقاه بالقرافة والقنطرة خارج القاهرة على الخليج وغير ذلك مما هو مشهور به.

وتُوُفِّي القاضي بدر الدين محمد ٱبن القاضي محيي الدين [يحيى] بن فضل الله العُمَري الدِّمَشقيّ، كاتب سِرّ دِمَشق، في سادس عشرين شهر رجب بدِمَشق. وكان كاتباً فاضلاً من بيت[1] فضل ورياسة، وقد تَقدّم ذكر جماعة من آبائه وأقاربه، ويأتي ذكرُ جماعة أُخَر من أقاربه في محلهم من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير ركن الدين بِيبرس بن عبد الله الأحمديّ المنصوريّ أمير جَانْدار في يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم، وهو في عشر الثمانين. وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، وأحد أعيان أمراء الديار المصرية. وهو الذي قوّى عزم قَوْصُون على سلطنة الملك المنصور أبي بكر. وكان جَارَكْسِيَّ الجنس؛ تنقَّل إلى أن صار من أعيان الأمراء بمصر، ثم ولي نيابة صَفَد وطرابُلُس؛ ثم قَدِم القاهرة وتولَّى أمير جانْدَار. وكان كريماً شجاعاً ديِّناً قَوِيَّ النفس، لم يَرْكَب قطُّ إلَّا فحلاً، ولم يركب حِجْرَةً ولا إكْدِيشاً في عُمُره. وكانَ له ثَرْوَةٌ كبيرةٌ، وطالت أيّامه في السعادة، وخلَّف أملاكاً كثيرةً، أذهبَ غالبَها جماعةٌ من أوباش ذرِّيته بالاستبدال والبيع إلى يومنا هذا.

---

(١) آل فضل الله العمري أسرة ذات عراقة أدبية، تولى عدد من أفرادها وظيفة صاحب ديوان الإنشاء لأكثر من قرن من الزمان. وهؤلاء هم: القاضي محيي الدين يحيى بن فضل الله المتوفي سنة ٧٣٨هـ، والقاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله (ت ٧١٧هـ)، والقاضي بدر الدين محمد بن فضل الله (ت ٧٠٦هـ)، والقاضي بدر الدين محمد بن محيي الدين صاحب الترجمة هنا، والقاضي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ)، والقاضي علاء الدين علي بن محيي الدين بن فضل الله (ت ٧٦٩هـ)، والقاضي بدر الدين محمد بن علاء الدين علي (ت ٧٩٦هـ)، وهو آخر من ولي من بني فضل الله كتابة السّر ببلاد مصر. وإلى هذا الأخير يرجع الفضل في إدخال القلقشندي إلى ديوان الإنشاء وفي توجيهه لكتابة مؤلفه الجليل: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ـ انظر مقدمتنا لكتاب التعريف بالمصطلح الشريف، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

وتُوُفِّي الأميرُ بدر الدين جَنْكَلي [بن محمد بن البابا بن جَنْكَلِي][1] بن خليل بن عبد الله المعروف بابن البابا العِجْليّ أتَابَك العساكر بالديار المصريّة في عصر يوم الإثنين سابع [عشر][2] ذي الحجّة. وكان أصله من بلاد الروم، طَلَبه الملك الأشرف خليلُ بن قلاوون وكَتَبَ له منشوراً بالإقطاع الذي عيَّنه إليه، فلم يَتَّفِق حضورُه إلاّ في أيّام الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة أربع وسبعمائة، فأمَّرَه وأكرمه؛ ولا زال يُرَقِّيه حتى صار يجلس ثاني آقوش نائب الكَرَك. ثم بعد آقوش جلس جَنْكَلِي هذا رأسَ المَيْمَنَة.

قال الشيخ صلاح الدين: وهو من الحِشْمَة والدِّين والوَقار وعِفَّة الفَرْج في المَحَلّ الأقصى؛ ولم يزل معظَّماً من حين وَرَد إلى أن مات. وكان ركناً من أركان المسلمين ينفَع العلماءَ والصلحاءَ والفقراءَ بماله وجاهه؛ وكان يتفقَّه، ويحفظ رُبْعَ العبادات. ويقال: إنّ نَسَبَه يتَّصِل بإبراهيم بن أَدْهَم رضي الله عنه. قال: وقلت فيه ولم أكتُبْ به إليه: [السريع]

لا تَنْس لي يا قاتِلي في الهَوَى ... حُشَاشَةً من حُرَقي تَنْسَلي
لا تُرْسَ لي أَلْقَى به في الهَوَى ... سِهام عينيك مَتَى تُرْسَلِ
لا تَخْتَ لي يَشْرُفُ قَدْري به ... إلاّ إذا ما كنتَ بي تختَلي
لا جَنْكَ[3] لي تُضْرَبُ أوتارُه ... إلاّ ثَناً يُمْلَى على جَنْكَلِي

وتُوُفِّي رُمَيْثة وآسمه مُنْجِد بن أبي نُمَيّ محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قَتَادَة بن أبي غرير إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله المَحْض بن موسى [بن عبد الله] بن الحسن بن الحسن بن عليّ آبن أبي طالب الحَسَنيّ المَكّي أمير مكة بها في يوم الجمعة ثامن ذي القعدة.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.
(٢) زيادة عن الدرر الكامنة وخطط المقريزي: ١٣٥/٢.
(٣) الجنك: آلة يضرب بها كالعود. ويطلق أيضاً على الدفّ. (معجم متن اللغة).

وتُوُفِّي الشيخ الإمام فخر الدين أحمد بن الحسن الجَارَبَرْدِي شارح «البَيْضَاوِيّ»[(١)].

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العلاَّمة تاج الدين أبو الحسن على بن عبد الله [آبن أبي الحسن][(٢)] آبن أبي بكر الأَرْدَبِيليّ الشافعي، مدرِّس مدرسة[(٣)] الأمير حُسَام الدين طُرُنْطَاي المنصوري بالقاهرة. كان فقيهاً عالماً بارعاً أفتى ودرّس سنين.

وتُوُفِّي الشيخ المُقرِىء تقيّ الدين محمد [بن محمد بن علي] بن هُمَام بن راجي الشافعي، إمام جامع[(٤)] الصالح خارج باب زَوِيلةَ، ومُصنِّف «كتاب سلاح المؤمن». رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وست عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وخمس عشرة إصبعاً.

(١) هو منهاج الوصول إلى علم الأصول لناصر الدين البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥هـ

(٢) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٣) هي المدرسة الحسامية. (انظر خطط المقريزي: ٢/٣٨٦) وللأستاذ محمد رمزي تعليق قيّم على ما ورد حول هذه المدرسة في خطط المقريزي وخطط علي مبارك، فلينظر في النجوم الزاهرة، الجزء العاشر، ص ١٤٥، حاشية(٤) طبعة دار الكتب المصرية.

(٤) هذا الجامع من المساجد الكبيرة في القاهرة، وهو آخر مسجد أنشىء في عهد الدولة الفاطمية بمصر. أنشأه الصالح طلائع بن رزّيك سنة ٥٥٥هـ خارج باب زويلة. (محمد رمزي).

ذكر سلطنة الملك المظفر حاجِّي[١] على مصر

السلطان الملك المظّفر زين الدين حاجِّي المعروف بأمير حاج آبـن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وهو السلطان الثامن عشر من ملوك الترك بالديار المصريّة والسادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. جلَس على سَرير الملك بعد خلْـع أخيه الملك الكامل شعبان والقبض عليه في يوم الإثنين مستَهّل جُمادَى الآخرة سنة سبـع وأربعين وسبعمائة. وكان سَجَنه أخوه الملك الكامل شعبان كما تقدّم ذكره. فلمّا آنهـزم الملك الكامل من الأمراء بقُبّة النصر ساق في أربعة مماليك إلى باب السّر من القلعة، فوجده مغلَقاً والمماليك بأعلاه، فتلطّف بهم حتّى فتحوه له، ودخل إلى القلعة لقتل أخويه حاجِّي هذا ومعه حسين، لأنهما كانا حُبِسا معاً؛ فلم يفتـح له الخُدّام الباب، فمضى إلى أمّه فـآختفى عندها. وصَعِد الأمراءُ في أثره إلى القلعة بعد أن قبضوا على الأمير أَرْغُون العَلائيّ وعلى الطواشي جَوْهَر السَّحَرْتِـي اللالاَ وأَسَنْدَمُر الكامليّ وقُطْلُوبُغَا الكَرَكيّ وجماعة أُخر؛ ودخل بُزْلار وَصمغار راكبَيْن إلى باب[٢] الستارة وطَلبَا أمير حاج المذكور، فأدخلهما الخُدّام إلى الدهيشة حتى أخرجوه وأخاه من سجنهما، وخاطبا أميرَ حاجّ في الوقت بالملك المظفّر. ثم دخل إليه الأمير أرْغُون شاه، وقبّل له الأرض وقال له: «بسم الله، أُخرج أنت سلطاننا» وسار به وبأخيه حسين إلى الرحبة وأجلسوه على باب الستارة.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢/ ٣ ٧١٣؛ والجوهر الثمين: ١٩١/٢؛ وبدائع الزهور: ٥١٣/١/١؛ والبداية والنهاية: ٢٣٠/١٤ ـ ٢٣٩؛ وشذرات الذهب: ١٥٢/٦.

(٢) باب الستارة: كان من أبواب القصور المخصصة لسكن الملك وحرمه. وقد زال هذا الباب بزوال القصور وحل مكانها السراي الكبرى التي أنشأها محمد علي باشا الكبير في سنة ١٢٤٣هـ لسكناه هو وحرمه. (محمد رمزي).

ثم طُلِب شعبان حتّى وُجِد بين الأزيار، وحبسوه حيث كان أخواه. وطلبوا الخليفة والقضاة، (١)وخلعوا على حاجي الخلعة الخليفتي؛ وَرِكب من باب الستارة بأبّهة السلطنة وشِعار المُلك إلى الإيـوان، وجلس على تخت الملك. وحَمَل المماليك أخاه أميرَ حسين على أكتافهم إلى الإيوان. ولُقِّب بالملك المظفّر؛ وقَبّل الأمراءُ الأرض بين يديه، وحَلَف لهم [أولًا](٢) أنه لا يؤذي أحداً منهم؛ ثم حَلَفُوا له على طاعته. وَرِكب الأمير بَيْغَرا البريدَ وخرج إلى الشام ليُبَشّر الأمير يَلْبُغَا اليَحْيَاويّ نائب الشام ويُحَلِّفه ويُحَلِّف أيضاً أمراء الشام للملك المظفّر.

ثم كتب إلى ولاة الأعمال بإعفاء النواحي من المغارم ورماية الشعير والبرسيم. ثم حُمِل الأمير أَرْغُون العلائي إلى الإسكندرية. وفي يوم الأربعاء ثالثه قُتِل الملك الكامل شعبان وقُبِض على الشيخ عليّ الدوادار وعلى عشرة من الخدّام الكامليّة، وسُلّموا إلى شادّ الدواوين. وسُلِّم أيضاً جَوْهر السَّحَرْتي وقُطْلُوبُغَا الكَرَكِيّ، وأُلزِموا بحمل الأموال التي أخذوها من الناس؛ فعُذِّبوا بأنواع العذاب، ووقعت الحَوْطة على موجودهم. ثم قُبِض على الأمير تَمُر الموساوي، وأُخْرِج إلى الشام. وأمر بأمّ الملك الكامل وزوجاته، فأُنْزِلْن من القلعة إلى القاهرة. وعُرِضت جَواري دار السلطان فبلغت عِدَّتُهن خمسمائة جارية فَفُرّقن على الأمراء. وأُحيط بموجود حَظِيّة الملك الكامل التي كانت أولًا حظيّة أخيه الملك الصالـح إسماعيل المدعوّة اتفاق وأُنزلت من القلعة. وكانت جارية سوداء حالكة السواد، إشترتْها ضامنة المغاني بدون الأربعمائة درهم من ضامنة المغاني بمدينة بلبيس، وعلّمتها الضربَ بالعُود على الأستاذ عَبْدِ عليّ العَوّاد، فَمَهَرَت فيه. وكانت حسنةَ الصوت جيّـدة الغِناء، فقـدّمتها لبيت السلطان، فـآشتهرت فيه حتى شُغِف بها الملك الصالـح إسماعيل ـ فإنه كان يَهْوَى الجواري السودان ـ وتزوّج بها. ثم لما تسلطن أخوه الملك الكامل شعبان باتت

(١) عبارة الأصل: «وفوّض عليه الخلعة الخليفتي، وركب من باب الستارة بأبهة السلطنة وشعار الملك من باب الستارة إلى الإيوان» والتعديل يقتضيه التوضيح وحسن العبارة.

(٢) زيادة عن السلوك.

عنده من ليلته، لما كان في نفسه منها أيام أخيه. ونالت عندهما من الحظّ والسعادة ما لا عُرف في زمانها لامرأة [غيرها]، حتّى إن الكامل عَمِل لها دائر بيت طوله آثنتان وأربعون ذراعاً وعرضه ست أذرع، دخل فيه خمسة وتسعون ألف دينار مصرية، وذلك خارج عن البَشْخَاناه[١] والمخادّ والمساند. وكان لها أربعون بَذْلة ثياب مرصَّعة بالجواهر، وستة عشر مَقْعَد[٢] زَرْكَش، وثمانون مقنعة، فيها ما قيمتُه عشرون ألف درهم وأشياء غير ذلك، إستولوا على الجميع. ثم آسترجع السلطان جميعَ الأملاك التي أخذتْها حريم الكامل لأربابها. ثم نودِي بالقاهرة ومصر برفع الظلامات، ومنع أرباب الملاعيب جميعهم.

وخَلع السلطان على علم الدين عبد الله بن زُنْبور بآنتقاله من وظيفة نظر الدولة[٣] إلى نظر الخاصّ[٤] عوضاً عن فخر الدين بن السعيد. [وفيه] قبَضَ على آبن السعيد و[فيه] خلع على موّفق الدين عبد الله بن إبراهيم بآستقراره ناظر الدولة عوضاً عن آبن زنبور. وخلع على سعد الدين حربا[٥]، وآستقر في آستيفاء الدولة عوضاً عن ابن الرِّيشة.

ثم قَدِم الأمير بَيْغَرا من دِمَشق بعد أن لَقِي يَلْبُغَا اليحياوي نائب الشام، وقد برز إلى ظاهر دِمشق يريد السير إلى مصر بالعساكر لقتال الملك الكامل شعبان. فلما

---

(١) البشخاناه: والجمع بشاخين، لفظ فارسي معرب، ومعناه حسبما ذكر دوزي في معجمه الناموسية أو ما يشبهها من حلية حول السرير أو الغرفة كلها. ومن معانيها أيضاً السرير، أو الغرفة التي بها ناموسية.

(٢) في السلوك: «وست عشرة بذلة حرير ثياب بدائر زركش».

(٣) نظر الدولة أو نظر الدواوين: وصاحب هذه الوظيفة يسمى ناظر الدولة أو ناظر الدواوين، وهو الذي يشارك الوزير في التصرف والنظر في الأمور المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة. ويسمى أحياناً ناظر النظار أو الصاحب الشريف، ومقرّه ديوان النظر. (صبح الأعشى: ٤٦٥/٥).

(٤) نظر الخاص: وظيفة أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل الوزارة. وموضوعها النظر في خاص أموال السلطان. وأحدث الناصر لذلك أيضاً خزانة سميت خزانة الخاص. (صبح الأعشى: ٤٦٥/٥ و٤٥٢/٣؛ ومسالك الأبصار: ١١٥/٢، ١١٩، ١٢١).

(٥) في السلوك: «سعد الدين بن جرباش».

بلغه ما وقع سُرّ [اليحياوي][(١)] سروراً عظيماً زائداً بزوال دولة الملك الكامل، وإقامة أخيه المظفّر حاجّي في الملك. وعاد يلبغا إلى دِمشق وحلَف للملك المظفر وحَلَّف الأمراء على العادة، وأقام له الخطبة بدمشق، وضَرب السَّكة باسمه، وسير إلى السلطان دنانير ودراهم [منها]، وكتَب يُهنّىء السلطان بجلوسه على تخت الملك. وشكا [الأمير يلبغا اليحياوي] من نائب حلب ونائب غزة ونائب[(٢)] قلعة دِمشق مُغْلَطَاي [المرتيني][(١)] ومن نائب قلعة صفد قُرْمُجِي، من أجل أنهم لم يُوافقوه على خروجه عن طاعة الملك الكامل شعبان. فرسَم السلطان بعَزْل الأمير طُقْتَمُر الأحمدي نائب حلب وقدومه إلى مصر، وكتَب بٱستقرار الأمير بَيْدَمُر البَدْري نائب طرابُلُس عوضه في نيابة حلب، وٱستقر الأمير أَسَنْدَمُر العُمَرِيّ نائب حماة في نيابة طرابلس ــ وهذا أوّل نائب ٱنتقل من حماة إلى طرابلس، وكانت قديماً حماة أكبر من طرابلس، فلما ٱتّسع أعمالها صارت أكبرَ من حماة.

ثم كتب السلطان بالقبض على الأمير مُغلَطاي [المرتيني] نائب قلعة دِمشق وعلى قُرْمُجي نائب قلعة صفد. ثم كتَب بعزل نائب غزّة.

وكان الأمير يَلْبُغا اليَحيَاوِيّ لما عاد إلى دَمِشق بغير قتال، عَمّر ــ موضع كانت خيمته عند مسجد القدم ــ قبّة سمّاها قُبّة النصر التي تُعرف الآن بقُبّة يلبغا.

ثم خلع السلطان على الطواشي عَنْبَر السَّحَرتي باستقراره مقدّمَ المماليك السلطانية، كما كان أوّلاً في دولة الملك الصالح، عوضاً عن محسن الشّهابي.

وخلع على مختصّ الرسولي باستقراره زِمَام[(٣)] دار، وأنعم عليه بإمرة

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) نائب القلعة: هو الذي يشرف على القلعة. وكان نائب القلعة في مرتبة أقلّ من مرتبة النيابة ــ أي نيابة السلطنة ــ وكان إذا تولى منصبه حلف يمين الطاعة للسلطان والدفاع عن قلعته وأنه لا يسلمها إلا للسلطان أو بمرسومه الشريف. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٤٥).

(٣) الزمام دار (الزنان دار): لقب على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان من الخدام الخصيان. وهو مركب من لفظين فارسيين: «زنان» بفتح الزاي ومعناه النساء، والثاني «دار» ومعناه ممسك. والمعنى عامة أنه الموكل بحفظ الحريم. إلا أن العامة والخاصة قد قلبوا النونين فيه بميمين فعبروا عنه بالزمام دار ظناً أن الدار على معناها العربي، والزمام بمعنى القائد أخذاً من زمام البعير الذي يقادبه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٧٣).

طبلخاناه. ثم أنعم السلطان بإقطاع الأمير أَرْغُون العلائي على الأمير أَرْغُون شاه. وأنعم على كلّ من أَصْلم وأَرُقْطاي بزيادة على إقطاعه. وأنعم على آبـن تَنْكِز بإمرة طبلخاناه، وعلى أخيه الصغير بإمرة عشرة.

ثم في يومِ الاثنين خامس [عشر][1] جُمَادَى الآخرة أَمَّر السلطان ثمانية عشر أميراً ونزلوا إلى قُبَّة المنصوريّة ولبِسوا الخِلَـع، وشقّوا القاهرة حتى طلعوا إلى القلعة فكان لهم بالقاهرة يوم مشهود[2].

ثم في يوم الخميس ثالث شهر رجب خلَـع السلطان على الأمير أَرُقْطَاي باستقراره نائب السلطنة بديار مصر بآتفاق الأمراء على ذلك بعد ما آمتنـع مـن ذلك تمنعاً زائداً، حتى قام الحِجازي بنفسه وأخذ السيف، وأخذ أَرْغُون شَاه الخِلْعة، ودارت الأمراء حوله، وألبسوه الخِلْعة على كُرْه منه. فخرج في موكب عظيم، حتى جلس في شُبّاك دار النيابة، وحكَم بين الناس؛ وأنعم السلطان عليه ــ بزيادة على إقطاعه ــ ناحيتي المطريّة والخصوص، لأجل سِماط النيابة.

ثم رَكب السلطان بعد ذلك ونزل إلى سِرْياقوس على العادة كلّ سنة. وخلـع على الأمير تَمُرْبُغا العقيلي بـآستقراره في نيابة الكَرَك عوضاً عن الأمير قُبْلَاي. ثم عاد السلطان إلى القلعة.

وبعد عوده في أوّل شهر رمضان مَرِض السلطان عِدّة أيام.

ثم في يوم الإثنين خامس عشرين شهر رمضان خرج الأمير أَرْغُون شـاه الأستادار على البريد إلى نيابة صفد. وسبب ذلك تكبُّره على السلطان، وتعاظمه عليه وتحكُّمه في الدولة، ومعارضته السلطان فيما يرسُم به، وفُحشه في مخاطبة

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) أورد المقريزي (خطط: ٢/٣٨٠) وصفاً لما جرت به العادة من الاحتفال عند تأمير السلطان مملوكاً من المماليك، وأشار إلى اليمين الذي يقسمه المملوك للدلالة على إمرته وتعبيراً عن الولاء والإخلاص للسلطان. وقد أورد القلقشندي (صبح الأعشى: ١٢/٢١٦ ــ ٢٢١) وابن فضل الله العمري (التعريف بالمصطلح الشريف: ١٨٦ ــ ١٨٨) نصوصاً كانت تعتمد لتحليف الأمراء المماليك في مثل هذه المناسبة.

السلطان والأمراء، حتّى كرهته النفوس. وعزَم السلطان على مسكه، فتلطّف به النائب [أرقطاي] حتّى تركه، وخلعَ عليه بـآستقراره في نيابة صفد، وأخرجه من وقته خشيةً من فتنة يُثيرها، فإنّه كان قد آتفـق مـع عِدّة من المماليك على المخامرة. وأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير مَلِكْتَمُر الحِجازِي وأُعطي ناحية بُوتيـج[1] زيادة عليه.

ثم في يوم الأحد أوّل شوّال تزوّج السلطان ببنت الأمير تَنْكِز زوجة أخيه الكامل.

وفي آخر شوّال طُلِبت اتفاق العوّادة إلى القلعة، فطَلعتْ بجـواريها مـع الخدّام، وتزوّجها السلطان خفية؛ وعَقَد له عليها شهاب الدين أحمد بن يحيـى الجَوْجَري شاهد[2] الخِزانة. وبَنَى عليها [السلطان] من ليلته، بعد ما جُليت عليه، وفُرِش تحت رجليها ستون شُقّة أطلس، ونُثِر عليها الذهب. ثم ضَربت بُعودها وغنّت، فأنعم السلطان عليها بأربعة فصوص وستّ لؤلؤات، ثمنها أربعة آلاف[3] دينار.

قلت: وهذا ثالث سلطان من أولاد آبـن قلاوون تزوّج بهذه الجارية السوداء، وحَظِيت عنده، فهذا من الغرائب. على أنها كانت سوداء حالكة لا مولدّة؛ فإن كان من أجل ضربها بالعود وغنائها فيمكن من تكون أعلى منها رتبة في ذلك وتكون بارعة الجمال بالنسبة إلى هذه[4]. فسبحان المسخِّر.

---

(١) بوتيـج: من المدن المصرية القديمة في صعيد مصر، تعرف باسم «أبو تيـج». واسمها المصري القديم «باشنا» ومعناها المخزن أو الشون لأنها كانت في العهد القديم شونة لجمع الغلال التي تجمع من بلاد الصعيد وتنقل إلى الإسكندرية ثم تصدر إلى روما. (محمد رمزي).

(٢) عمل شاهد الخزانة ضبط الأموال الديوانية وكتابة الحسابات. (صبح الأعشى: ١١/٤٥٤). والشاهد هو أحد الموظفين الذين جمعهم القلقشندي تحت باب كتاب الأموال. (صبح الأعشى: ٥/٤٦٦).

(٣) في السلوك: «أربعمائة ألف درهم».

(٤) يلاحظ في هذه الفقرة سقم أسلوب الكاتب وضعف عبارته. وقد أثبتناها دون تعديل لأن المراد منها واضح، وللإشارة إلى مستوى التعبير لدى المؤرخ.

وفي ثامن[١] شوّال أنعم السلطان على الأمير طَنْيَرَق مملوك أخيه يوسف بتقدمة ألف بالديار المصريّة دفعةً واحدة، نقلَه من الجنديّة إلى التقدمة لجمال صورته، وكثُر كلام المماليك بسبب ذلك.

ثم رَسمَ السلطان بإعادة ما كان أُخرج عن اتّفاق العوّادة من خُدّامها وجواريها، وغير ذلك من الرواتب. وطلَب السلطان عبدَ عليّ العَوَّاد المغنّي معلِّم اتفاق إلى القلعة، وغَنّى للسلطان فأنعم عليه بإقطاع في الحَلْقة زيادة على ما كان بيده، وأعطاه مائتي دينار وكامليّة حرير بفرو سمّور.

وآنهمك أيضاً الملك المظفّر في اللذات، وشُغِف باتفاق حتى شَغلْته عن غيرها وملكت قلبَه، وأفرط في حبهّا. فشقّ ذلك على الأمراء والمماليك وأكثروا من الكلام، حتّى بلغ السلطانَ، وعزم على مسك جماعة منهم؛ فما زال به النائب حتى رجَع عن ذلك.

ثم خَلع السلطان على قُطْلِيجَا الحمويّ وآستقر في نيابة حماة عوضاً عن طَيْبُغَا المجدي. وخَلع أيضاً على أَيْتَمُشْ عبد الغني وآستقر في نيابة غَزّة، وخرجا من وقتهما على البريد. وكتب بإحضار المجدي، فقَدِم بعد ذلك إلى القاهرة، وخلع عليه بآستقراره أستاداراً عوضاً عن أَرْغُون شاه المنتقِل إلى نيابة صَفَد.

وفي يوم [الثلاثاء][٢] أوّل محرم سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة رَكِب السلطان في أمرائه الخاصَّكِيّة ونزل إلى الميدان ولَعِب بالكُرة فغلب الأميرَ مَلِكْتَمُر الحجازيّ في الكرة، فلَزِم الحجازيّ يعمل وليمة فعملها في سِرْيَاقُوس، ذبح فيها خمسمائة رأس من الغنم وعشرة أفراس، وعَمِل أحواضاً مملوءة بالسكر المُذاب، وجمَع سائر أرباب الملاهي. وحضرها السلطانُ والأمراءُ، فكان يوماً مشهوداً. ثم رَكِب السلطان وعاد؛ وبعد عوده قَدِم كتاب الأمير أَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس يسأل الإعفاء فأُعْفِي. وخلع على الأمير مَنْكَلِي بُغا أمير جاندار وآستقر في نيابة طرابلس.

(١) في الأصل: «ثاني ذي القعدة». وما أثبتناه عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك.

وفي هذا الشهر شكا الناس للسلطان من بُعد الماء عن بَرّ مصر والقاهرة، حتى غلت روايا الماء. فرسم السلطان بنزول المهندسين لكشف ذلك، فكُتِبَ تقديرُ ما يُصْرَف على الجسر مبلغ مائة وعشرين ألف درهم، جُبِيَت من أرباب الأملاك المطلّة على النيل، حساباً عن كل ذراع خمسة عشر درهماً، فبلغ قياسها سبعة آلاف ذراع وستمائة ذراع. وقام بآستخراج ذلك وقياسه محتَسِبُ القاهرة ضياء الدين [يوسف ابن أبي بكر محمد الشهيربا](1) بن خطيب بيت الآبار(2).

وفي هذه الأيام توقّفت أحوالُ الدولة من كثرة رواتب الخدّام والعجائز والجواري، وأخذهم الرِّزَق بأرض بَهْتِيم(3) من الضواحي وبأراضي الجيزة وغيرها، بحيث إنه أخذ مُقْبِلٌ الرومي عشرة آلاف فدان.

وفي هذه الأيام رَسَم السلطان للطواشي مُقبل الرومي أن يُخْرج اتفَّاق العوّادة وسَلْمَى والكَرَكِيّة حظايا السلطان من القلعة بما عليهن من الثياب، من غير أن يحمِلْن شَيئاً من الجوهر والزَّرْكَش، وأن تُقْلَع عصبةُ إتفاق عن رأسها ويدَعَها عنده. وكانت هذه العصبة قد آشتهرت عند الأمراء، وشَنُعت قالتها، فإنه قام بعملها ثلاثة ملوك الإخوة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون: الملكُ الصالحُ إسماعيل والملك الكاملُ شعبانُ والملك المظفَّر حاجّي هذا، وتنافسوا فيها وآعتنوا بجواهرها حتّى بَلغت قيمتها زيادة على مائة ألف دينار مصريّة.

وسبب إخراج اتّفاق وهؤلاء من الدور السلطانيّة أن الأمراء الخاصّكيّة: قَرَابُغا وصَمْغَار وغيرهما بلغهما إنكار الأمراء الكِبار والمماليك السلطانية شِدّة شغف السلطان بالنسوة الثلاث المذكورات وآنهماكه على اللهو بهنّ، وآنقطاعه إليهن بقاعة الدهيشة عن الأمراء، وإتلافه الأموال العظيمة في العطاء لهنّ ولأمثالهن،

---

(١) زيادة عما سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٧٦١هـ وهي السنة التي توفي فيها محتسب القاهرة هذا.

(٢) من قرى غوطة دمشق (معجم البلدان).

(٣) اسمها المصري القديم «حتب حيم» والقبطي «بهتيت». وأطلق عليها اسم «بهتين» ثم حرف بعد ذلك إلى «بهتيم» وهو اسمها الحالي. وهي الآن قرية زراعية من قرى ضواحي القاهرة. (محمد رمزي).

وإعراضه عن تدبير الملك. [فعرّفا السلطان إنكار الأمراء][١] وخوَّفوه عاقبة ذلك، فتلطّف بهم وصوّب ما أشاروا به عليه من الإقلاع عن اللهو بالنساء. وأخرجهنّ السلطان وفي نفسه حَزَازات لفراقهنّ، تمنعه من الهدوء والصبر عنهنّ؛ فأحب أن يتعوض عنهن بما يُلهيه ويُسَليه، فآختار صنف الحَمَام، وأنشأ حَضِيراً على الدهيشة ركّبه على صواري وأخشاب عالية، وملأه بأنواع الحَمَام، فبلـغ مصروف الحضير خاصّةً سبعة[٢] آلاف درهم، وبينا السلطان في ذلك قَدِم جماعة من أعيان الحلبيين وشكوا من الأمير بَيْدَمر البدري نائب حلب، فعزله السلطان بأَرْغُون شاه نائب صفد، ورَسم ألاّ يكون لنائب الشام عليه حُكم، وأن تكون مكاتباته للسلطان، وحَمَل إليه التقليد الأمير طَنْيَرَق.

ثم ورَدَ الخبرُ باختلال مراكز البريد بطريق الشام، فأُخِذ من كل أمير مقدّم ألف أربعةُ أفراس، ومن كل طبلخاناه فرسان، ومن كلّ أمير عشرة فرس واحد، وكُشِف عن البلاد المُرْصدَة للبريد فوُجِد ثلاثُ بلاد منها وقف الملك الصالح إسماعيل، وقف بعضَها وأخرج باقيها إقطاعات. فأخرج السلطان عن عيسى بن حسن الهجّان بلداً تعمل في كل سنة عشرين ألف درهم، وثلاثة آلاف إردب غَلّة، وجعلها مرصدة لمراكز البريد.

وآستمـر خاطـر السلطان موغَـراً على الجماعـة من الأمراء بسبب اتفـاق وغيرها، إلى أن كان يوم الأحد تاسـع عشر شهر ربيـع الأول من سنـة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة، كانت الفتنة العظيمة التي قُتِل فيها مَلِكْتَمُر الحِجازِيّ وآق سنقر وأُمسِك بزُلْار وصمْغَار وأَيْتَمُش عبد الغني؛ وسبب ذلك أن السلطان لما أَخْرج اتّفاق وغيرها، وتشاغل بلعب الحَمَام، صار يُحضـر إلى الدهيشـة الأوباش، ويلعب بالعصا[٣] لعب صَبَاح، ويُحضِر الشيـخ علي بن الكسيـح مـع حظاياه، يَسْخَر له، وينقل إليه أخبار الناس. فشَقَّ ذلك على الأمراء وحدّثوا أُلْجيبغا وطَنْيَرَق ــ [وكانا

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «فبلـغ مصروف الحضير خاصة سبعين ألف درهم».

(٣) لعلها لعبة اللبخة التي تقدم الكلام عليها في الصفحة ١٠٤ من هذا الجزء، حاشية(٢).

عمدة السلطان وخاصكيته][١] بأن الحال قد فسد. فعرَّفا السلطان ذلك، فاشتدّ حَنَقُه، وأطلق لسانه، وقام إلى السطح وذَبَح الحمام بيده بحضرتهما، وقال لهما: «والله لأذبحنَّكم كما ذبحت هذه الطيور»، وأغلق باب الدهيشة؛ وأقام غضبان يومَه وليلته. وكان الأمير غُرْلُو قد تمكَّن من السلطان فأعلمه السلطان بما وقع، فنال غُرْلُو من الأمراء وهوّن أمرهم عليه، وجسَّره على الفتك بهم والقبض على آق سُنْقر. فأخذ السلطان في تدبير ما يفعله، وقرّر ذلك مع غرلو. ثم بعث طَنْيَرَق في يوم الأربعاء خامس عشر شهر ربيع الآخر إلى النائب يُعرّفه أن قَرَابُغَا القاسِميّ وصَمْغَار وبُزْلار وأَيْتَمُش عبد الغني قد آتفقوا على عمل فتنة، «وعزمي أن أقبض عليهم قبل ذلك»، فوعده النائب بردّ الجواب غداً على السلطان في الخدمة، فلما آجتمع النائب بالسلطان أشار عليه النائب بالتثبُّت في أمرهم حتّى يَصِحَّ له ما قيل عنهم. ثم أصبح فعرّفه السلطان في يوم الجمعة بأنه صح عنده ما قيل بإخبار بَيْبُغَا أُرُس[٢] أنهم تحالفوا على قتله؛ فأشار عليه النائب أن يجمع بينهم وبين بيبغا أُرُس، حتى يُحاققهم بحضرة الأمراء يوم الأحد. وكان الأمر على خلاف هذا، فإنّ السلطان كان آتفق مع غُرْلُو وعَنْبَر السَّحرتي مقدَّم المماليك على مسك آق سُنْقر ومَلِكتمر الحجازي في يوم الأحد.

فلمّا كان يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر المذكور حضر الأمراء والنائب إلى الخدمة على العادة بعد العصر ومُدَّ السماط؛ وإذا بالقصر قد مُلِىء بالسيوف المسلّلة من خلف آق سنقر والحِجازي، وأحيط بهما وبقَرابُغا، وأُخِذوا إلى قاعة هناك. فضُرِب مِلِكْتَمُر الحِجازِيّ بالسيوف وقُطِّع هو وآق سُنْقُر قطعاً. وهَرَب صَمْغَار وأَيْتَمُش عبد الغني، فركب صمغار فرسه من باب القلعة، وفرّ إلى القاهرة، وآختفى أيتمش عند زوجته. وخرجت الخيل وراء صمغار حتى أدركوه خارج القاهرة؛ وأُخِذ أيتمش من داره، فارتجت القاهرة وغُلِّقت الأسواق وأبواب القلعة. وكَثُر الإرجاف

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك والجوهر الثمين: «بيبغاروس».

إلى أن خرج النائب [أرقطاي][1] والوزير [نجم الدين محمود بن شروين][2] قريب المغرب، وطَلَبَا الوالي وَنُودِي بالقاهرة، فاشتهر ما جرى بين الناس، وخاف كلُّ أحد من الأمراء على نفسه.

ثمَّ رسم السلطان بالقَبْض على مرزة عليّ، وعلى محمد بن بَكْتَمُر الحاجب وأخيه، وعلى أولاد أَيْدُغْمُش، وأولاد قُماري. وأُخْرِجُوا الجميع إلى الإسكندرية هم وبُزْلَار وأَيْتَمُش وصمغار، لأنهم كانوا من ألزام الحجازي ومعاشريه، فسُجِنوا بها. وأُخْرِج آق سُنْقر ومَلِكتمر الحجازي في ليلة الإثنين العشرين من شهر ربيع الآخر على جَنَوِيّات[3] فدُفِنا بالقرافة. وأصبح الأمير شُجاع الدين غُرْلُو و[قد] جلس في دَسْت عظيم، ثم رَكِب وأوقع الحَوْطة على بيوت الأمراء المقتولين والممسوكين وعلى أموالهم، وطَلَع بجميع خيولهم إلى الإسطبل السلطانيّ. وضرب [غرلو] عبدَ العزيز الجَوْهَري صاحب آق سُنْقر وعبد المؤمن أُستاداره بالمقارع، وأخذ منهما مالاً جزيلاً؛ فَخَلع السلطان على الأمير غُرْلُو قَبَاء من ملابسه[4] بَطْرزرَزْكَش عريض، وأركبه فرساً من خاصّ خيل الحجازي بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش.

ثم خلا به يأخذ رأيه فيما يفعل، فأشار عليه بأن يَكْتب إلى نُوَّاب الشام بما جَرَى، ويُعَدِّد لهم ذنوباً كثيرة، [على الأمراء الذين][5] قَبَض عليهم. فكتب إلى الأمير يَلْبُغا اليَحْيَاويّ نائب الشام على يد الأمير آق سُنْقر المُظَفّري أمير جَانْدَار؛ فلما بلغ يلبغا الخبر كتبَ الجواب يستصوب [رأي السلطان في] ما فعله في الظاهر، وهو في الباطن غير ذلك. وعَظُم عليه قتلُ الحجازي وآق سُنْقر إلى الغاية. ثم جَمع

(١ ـ ٢) زيادة عن البداية والنهاية.

(٣) الجنوية: هي النقالة التي تستخدم لنقل الجرحى والموتى. (ملحق دوزي). ولعل هذه التسمية نسبة إلى أصلها الجنوي بإيطاليا. وقد أطلقت نفس التسمية على السفن الكبيرة الجنوية. (صبح الأعشى: ١٣٧/٧).

(٤) أي من ملابس آقسنقر، كما ورد في السلوك.

(٥) في الأصل: «ذنوباً كثيرة حتى قبض عليهم» والتعديل والزيادة عن السلوك.

يلبغا أمراء دِمَشق بعد يومين بدار السعادة وأعلمهم الخبر. وكتب إلى النُّواب بذلك، وبعث الأمير ملك آص إلى حِمْص وحَمَاة وحلب، وبعث الأمير طَيْبُغَا القاسِميّ إلى طَرابُلُس. ثم آنتقـل في يوم الجمعة مستهلّ جمادى الأولى إلى القَصْر بالميدان فنزل به، ونزل ألزامه حوله بالميدان، وشرع في الاستعداد للخروج عن طاعة الملك المظفر هذا.

وأما السلطان الملك المظَفَّر فإنّه أخذ بعد ذلك يَستمِيل المماليك السلطانيّة بتفرقة المال فيهم، وأَمَّر منهم جماعةً؛ وأنعم على غُرْلُو بإقطاع أَيْتَمُش عبد الغني، وأصبـح غُرْلُو هو المشار إليه في المملكة، فعظُمت نفسه إلى الغاية.

ثم أخرج السلطانُ آبـن طُقُزْدَمُر على إمْرة طبلخاناه بحلب، وأنعم بتقدمته على الأمير طَاز.

وتولّى غُرْلُو بيـع قماش الأمراء وخيولهم.

وصار السلطان يتخوّف من النوّاب بالبلاد الشامية إلى أن حَضَرت أجوبتُهم بتصويب ما فعله، فلم يطمَئنّ بذلك. ورَسَم بخروج تجريدة إلى البلاد الشامية، فرَسَم في عاشر جمادى الأولى بسفر سبعة أمراء من المقدَّمين بالديار المصريّة، وهم الأمير طَيْبُغَا المَجْدِيّ وبُلَك الجَمْدار والوزير نجم الدين محمود بن شَرْوِين وطَنْغَرا وأَيْتَمُش الناصري الحاجب وكُوكَاي والزَّرّاق ومعهم مضافوهم من الأجناد، وطلب الأجناد من النواحي، وكان وقت إدراك المُغلّ، فصعُب ذلك على الأمراء، وآرتجّـت القاهرة بأسرها لطلب السلاح وآلات السفر.

ثم كَتَب السلطان إلى أمراء دِمَشق ملطّفات على أيـدي النَّجّابـة بالتيقُّظ بحركات الأمير يَلْبُغَا اليَحْيَاوِيّ نائب الشام. ثم أشار النائب على السلطان بطلب يلبغا ليكون بمصر نائباً أو رأس مشورة، فإن أجاب وإلاّ أُعْلِمَ بأنه قد عُزِل عن نيابة الشام بأَرْغُون شاه نائب حلب. فكتَب السلطان في الحال يطلبه على يد أُرَاي أمير آخور؛ وعند سفر أُرَاي قَدِمت كُتُب نائب طرابُلُس ونائب حَمَاة ونائب صَفَد على السلطان بأنّ يلبغا دعاهم للقيام معه على السلطان لقتله الأمراء، وبعثوا بكُتُبه إليه. فكتب السلطان لأرْغُون شاه نائب حلب أن يتقدّم لعَرَب آل مُهَنّا بمَسْك الطرقات

على يَلْبُغا، وأعلمه أنّه ولّاه نيابة الشام عوضه؛ فقام أرغون شاه في ذلك أتمَّ قيام، وأظهر ليلبغا أنه معه. ولما وصل إلى يلبغا أُرَاي أمير آخور في يوم الأربعاء سادس جُمَادَى الأولى ودعاه إلى مصر ليكون رأس أمراء المشورة، وأن نيابة الشام أنعم بها السلطان على الأمير أرغون شاه نائب حلب، ظنّ يلبغا أن استدعاءه حقيقةً، وقرأ كتاب السلطان فأجاب بالسمع والطاعة، وأنّه إذا وصل أَرْغُون شاه إلى دِمَشق توجّه هو إلى مصر، وكتب الجواب بذلك، وأعاده سريعاً. فتحلَّلت عند ذلك عزائم أمراء دِمَشق وغيرها عن يَلْبُغا، وتجهَّز يلبغا وخرج إلى الكُسْوة[1] ظاهر دِمَشق في خامس عشره. وكانت ملطّفات السلطان قد وردت إلى أمراء دِمَشق بإمساكه، فركبوا على حين غفلة وقصدوه، ففرّ منهم بمماليكه وأهله وهم في أثره إلى خلف ضُمَيْر[2]. ثم سار في البرّيّة يريد أولاد تَمُرْدَاش ببلاد الشرق، حتى نزل على حَمَاة بعد أربعة أيام وخمس ليال؛ فرَكِب الأمير قُطلِيجا نائب حَمَاة بعسكره فتلقّاه ودخل به إلى المدينة، وقَبَض عليه وعلى من كان معه من الأمراء، وهم الأمير قلاوون والأمير سيفة والأمير محمد بك بن جُمَق وأعيان مماليكه، وكتب للسلطان بذلك؛ فقَدِم الخبر بذلك على السلطان في جُمادَى الأولى أيضاً، فسُرَّ سروراً زائداً، ورَسَم في الوقت بإبطال التجريدة. ثم كتب بحمل يَلْبُغَا اليحياوي المذكور إلى مصر.

ثم بدا للسلطان غيرُ ذلك وهو أنه أخرج الأمير مَنْجَك اليُوسفيّ السِّلاح دار بقتله، فسار مَنْجَك حتى لَقِي آقْجُبَا [الحموي] ومعه يَلْبُغَا اليَحْيَاوِي وأبوه بقَاقُون. فَنزلَ منجك بقاقون، وصَعِد بيلبغا اليحياوي إلى قلعة قاقون وقتله بها في يوم الجمعة عشرين جمادى الأولى، وحَزَّ رأسه وحَمَله إلى السلطان. قال الشيخ صلاح الدين الصفدي: «وكان يلبغا حَسَن الوجه مَلِيحَ الثغر أبيضَ اللَّون، طويلَ القامة من أحسن الأشكال، قلّ أن ترى العيونُ مثلَه. كان ساقياً، وكانت الإنعامات التي تَصِل إليه من السلطان لم يَفْرَح بها أحدٌ قبله. كان يُطْلِق له الخيلَ بسروجها وعُدَدها وآلاتها الزَّرْكَش والذهب المصوغ خمسة عشر فرساً والأكاديش ما بين مائتي

---

(١) في السلوك: «الجسورة».

(٢) ضمير ـ بالتصغير ـ موضع قرب دمشق (معجم البلدان).

رأس فيُنْعِم بها عليه، وتُجهّز إليه الخِلَع والحَوَائص وغير ذلك من التشاريف التي يَرْسُم له بها خارجةً عن الحدّ. وبنى له الإسطبل الذي في سوق الخيل تُجاه القلعة».

قلت: والإسطبل المذكور كان مكان مدرسة السلطان حسن الآن، اِشتراه السلطان حسن وهدمه وبنى مكان مدرسته المعروفة به. وقد سُقنا ترجمته أي يلبغا اليَحْيَاوِيّ بأوسع من هذا في تاريخنا «المنهل الصافي» إذ هو كتاب تراجم. اِنتهى.

وفي يوم الأحد خامس عشرين جُمَادَى الأولى المذكور أَخْرَج السلطانُ الوزير نجم الدين محموداً والأمير بَيْدَمُر البَدْرِي نائب حلب كان، والأمير طُغَيْتَمُر النجمي الدوادار إلى الشام؛ وسببه أن الأمير شُجاع الدين غُرْلُو لمّا كان شادّ الدواوين قبل تاريخه حَقَد على الوزير نجم الدين المذكور وعلى طُغَيْتَمُر الدوادار، فحسَّن للسلطان أخذ أموالهما. فقال السلطان للنائب [أرقطاي] عنهما وعن بَيْدَمُر أنهم كانوا يكاتبون يَلْبُغَا، فأشار عليه النائب بإبعادهم، وأن يكون الوزير نجم الدين نائبَ غَزَّة وبَيْدَمُر نائبَ حِمْص وطُغَيْتَمُر نائب طرابُلُس؛ فأخرجهم السلطان على البريد، فلم يُعجِب غُرْلُو ذلك، وأكثر عند السلطان من الوقيعة في الأمير أرقطاي النائب حتى غير السلطان عليه وما زال به حتى بعث السلطان بأرغون الإسماعيلي إلى نائب غَزّة بقتلهم. فدخل أَرْغُون معهم إلى غزّة بعد العصر وعَرَّف النائب ما جاء بسببه، فقبض عليهم نائبُ غزّة وقتلهم في ليلته. وعاد أَرْغُون وعرَّف السلطان الخبرَ، فتغيّر قلب الأمراء ونفر خواطرهم في الباطن من السلطان ومَيْله إلى غُرْلُو.

وتمكّن غرلو من السلطان، وأَخَذ أموالَ من قُتِل، وتزايد أمرُه وآشتـدت وطأته، وكثُرُ إنعام السلطان عليه حتّى إنه لم يكن يوم إلا ويُنْعِم عليه فيه بشيء. ثم أخذ غُرْلُو في العمل على علم الدين عبد الله بن زُنْبُور ناظر الخاصّ، وعلى القاضي علاء الدين عليّ بن فضل الله العُمَرِي كاتب السّر، وصار يُحَسِّن للسلطان القبضَ عليهما وأخذ أموالهما؛ فتلطّف النائبُ بالسلطان في أمرهما حتى كَفّ عنهما. فلم يبقَ بعد ذلك أحدٌ من أهل الدولة حتّى خاف من غُرْلُو وصار يُصانعه بالمال حتى يسترضيه. ثم حسَّن غرلو للسلطان قتل الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، فتوجّه

الطواشي مُقْبل الرومي بقتلهم، فَقتَل الأمير أَرْغُون العلائي وقَرَابُغَا القاسمي وتَمُر المُوساوِيّ وصَمْغَار وأَيْتَمُش عبد الغني، وأفرج عن أولاد قُمارِي وأولاد أَيْدُغْمُش وأُخرِجوا إلى الشام.

وآستمرّ السلطان على الانهماك في لهوه، فصار يلعب في الميدان تحت القلعة بالكُرة في يومي الأحد والثلاثاء، ويَركَب إلى الميدان الذي على النيل في يوم السبت. فلمّا كان آخرُ ركوبه إلى الميدان رَسَم السلطان بركوب الأمراء المقدَّمين بمضافيهم، ووقوفهم صفَّين من الصَّلِيبة إلى فوق القلعة ليرى السلطانُ عسكرَهَ. فضاق الموضع، فوقف كلُّ مقدّم بخمسة من مُضافيه. وجُمِعت أربابُ الملاهي، ورُتِّبت في عدّة أماكن من القلعة إلى الميدان. ثم رَكِبَت أمُّ السلطان في جمعها، وأقبل الناس من كلّ جهة. فبَلغ كِراءُ كلّ طبقة مائة درهم، وكلّ بيت كبير لنساء الأمراء مائتي درهم، وكلّ حانوت خمسين درهماً، وكلّ موضع إنسان بدرهمين. فكان يوماً لم يعهد في ركوب الميدان مثله.

ثم في يوم الخميس[1] خامس عشره قبضَ السلطان الملك المظفَّر هذا على أعظم أمرائه ومُدَبِّر مملكته الأمير شُجاع الدين غُرْلُو وقتله، وسبب ذلك أمور: منها شدّة كراهية الأمراء له لسوء سيرته، فإنه كان يخلو بالسلطان، ويُشِير عليه بما يشتهيه، فما كان السلطان يخالفه في شيء؛ وكان عَمِله أمير سلاح فخرج عن الحدّ في التعاظم، وجسَّر السلطان على قتل الأمراء، وقام في حقّ النائب أَرُقْطاي يريد القبضَ عليه وقتله، وآستمال المماليك الناصريَّة والصالحيّة والمظفَّريّة بكمالهم، وأخذ يُقَرِّر مع السلطان، أن يُفَوِّض إليه أمور المملكة بأسرها ليقوم عنه بتدبيرها، ويتوفَّر السلطان على لَذّاته.

ثم لم يكفِه ذلك، حتّى أخذ يُغْرِي السلطان بأَلْجِيبُغَا وطَنْيَرَق، وكانا أخصّ الناس بالسلطان، ولا زال يُمْعِن في ذلك حتى تغيَّر السلطان عليهما، وبلغ ذلك أُلجيبغا، وتناقلته المماليك، فتعصَّبُوا عليه وأرسلوا إلى الأمراء الكبار حتى حدّثوا

(١) في السلوك: «يوم الجمعة».

السلطان في أمره، وخوّفوه عاقبته. فلم يَعْبَأ السلطان بقولهم، فتنكّروا بأجمعهم على السلطان بسبب غُرْلُو إلى أن بلغه ذلك عنهم من بعض ثِقاته، فآستشار النائب في أمر غُرْلُو المذكور، فلم يُشر عليه في أمره بشيء، وقال للسلطان: «لعلّ الرجلَ قد كَثُرت حُسَّادُه على تقريب السلطان له، والمصلحة التثبُّت في أمره». وكان أَرُقْطاي النائب عاقلاً سَيُوساً، يَخْشَى من معارضته غرض السلطان فيه. فآجتهد أُلْجيبُغا وعدّة من الخاصَّكِيّة في التدبير على[1] غرلو وتخويف السلطان منه ومن سوء عاقبته، حتى أثر قولُهم في نفس السلطان. وأقاموا الأميرَ أحمد شادّ الشرابخاناه، وكان مَزّاحاً، للوقيعة فيه؛ فأخذ أحمد شادّ الشرابخاناه في خَلْوَته مع السلطان يذكر كراهية الأمراء لغُرْلُو وموافقة المماليك له، وأنه يريد أن يدبِّر المملكة ويكون نائب السلطنة ليتوثّب بذلك على المملكة ويصير سلطاناً، ويخرج له قوله هذا في صورة السخرية[2] والضحك. وصار أحمد المذكور يُبَالِغ في ذلك على عِدة فنون من الهَزْل، إلى أن قال السلطان: «أنا الساعة أخرِجه وأعمله أمير آخُور»؛ فمضى أحمد شادّ الشربخاناه إلى النائب وعرَّفه بما وقع في السّر، وأنه جسَّر السلطان على الوقيعة في غُرْلُو. فبعث السلطان وراء النائب أَرُقْطاي وآستشاره في أمر غُرْلُو ثانياً فأثنى عليه النائب وشكره؛ فعرف السلطان كثرة وقيعة الخاصّكيّة فيه، وأنه قصد أن يعمله أمير آخور، فقال النائب: «غُرْلُو رجل شجاع جَسُور لا يليق أن يعمل أمير آخور». فكأنّه أيقظ السلطان من رقْدته بحسن عبارة وألطف إشارة، فأخذ السلطان في الكلام معه بعد ذلك فيما يوليه! فأشار عليه النائب بتوليته نيابةَ غَزّة، فقبِل السلطان ذلك، وقام عنه النائب. فأصبح السلطان بكرة يوم الجمعة، وبعث الأمير طَنْيَرق إلى النائب أن يُخرِج غُرْلُو إلى نيابة غَزّة. فلم يكن غير قليل حتى طلع غُرْلُو على عادته إلى القلعة وجلس على باب القُلّة، فبعث النائب يطلبه، فقال: «مالي عند النائب شغل وما لأحد معي حديث غير أُستاذي». فأرسل النائب يُعَرِّف السلطان جواب غرلو فأمر السلطان مُغْلَطاي أمير شِكار وجماعة من الأمراء أن يُعَرِّفوا غُرْلُو عن السلطان أن يتوجَّه إلى غَزّة، وإن آمتنع يمسكوه؛ فلما صار غُرْلُو بداخل القصر لم يُحدّثوه

---

[1] في الأصل: «عليه». وحذف الضمير وإثبات العائد للتوضيح.

[2] في الأصل: «في وجه المسخرية والضحك». وما أثبتناه عن السلوك.

بشيء، وقبضوا عليه وقيّدوه وسلّموه لألجيبُغَا فأدخله إلى بيته بالأشرفية. فلمّا خرج السلطان لصلاة الجمعة على العادة قتلوا غُرْلُو وهو في الصلاة. وأخذ السلطان بعد عوده من الصلاة يسأل عنه، فنقلوا عنه أنه قال: «أنا ما أروح مكاناً» وأراد سَلّ سيفه وضرب الأمراء به، فتكاثروا عليه، فما سلمّ نفسه حتى قُتِل. فعزّ قتله على السلطان، وحقد عليهم لأجل قتله، ولم يُظْهِر لهم ذلك. ورَسَم بإيقاع الحَوْطة على حواصله. وكان لموته يوم مشهود.

ثم أخْرِج بغُرْلُو المذكور ودُفِن بباب القرافة، فأصبح وقد خرجتْ يدهُ من القبر، فأتاه الناس أفواجاً ليروه ونبشوا عليه وجرُّوه بحبل في رجله إلى تحت القلعة، وأتوا بنار ليحرقوه، وصار لهم ضجيج عظيم. فبعث السلطان عِدّةً من الأوجاقية قبضوا على كثير من العامة، فضربهم الوالي بالمقارع وأخذ منهم غُرْلُو المذكور ودفنه. ولم يظهر لغرلو المذكور كثير مال.

قلت: ومن الناس من يُسَمِّيه «أَغِزْلُو» بألف مهموزة وبعدها غين معجمة مكسورة وزاي ساكنة ولام مضمومة وواو ساكنة. ومعنى أَغِزْلُو باللغة التركية: «له فم»؛ وقد ذكرناه نحن أيضاً في المنهل الصافي في حرف الهمزة، غير أن جماعة كثيرة ذكروه «غُرْلُو» فاقتدينا بهم هنا وخالفناهم هناك، وكلاهما اسم باللغة التركية. إنتهى.

وكان غُرْلُو هذا أصله من مماليك الحاجّ بهادُر العِزّي، وخدَم بعده عند بَكْتَمُر السَّاقي وصار أميرَ آخوره؛ ثم خدَم بعد بكتمر عند بَشْتَك، وصار أميرَ آخوره أيضاً؛ ثم وَلِي بعد ذلك ناحية أشْمُون؛ ثم ولي نيابةَ الشَّوْبَك؛ ثم ولي القاهرة، وأظهر العِفَّةَ والأمانة، وحسُنت سِيرتُه؛ ثم تقرّب عند الملك الكامل شعبان، وفتح له باب الأخذ في الولايات والإقطاعات، وعَمِل لذلك ديواناً قائم الذات، سُمِّي ديوان البدل[1]. فلما تَوَلّى الصاحب تقيّ الدين بن مَراجِل الوزر شاححه في الجلوس والعَلَامة، فترجّح الصاحب تقي الدين وعُزِل غُرْلُو هذا عن شدّ الدواوين؛ ودام على

(١) راجع ص١١٣ من هذا الجزء، حاشية (١).

ذلك إلى أن كانت نوبة السلطان الملك المظفّر كان غُرْلُو هذا ممن قام معه، لِمَا كان في نفسه من الكامل من عَزله عن شد الدواوين، وضَرَب في الوقعة أَرْغُون العلائي بالسيف في وجهه، وتقرّب من يوم ذاك إلى الملك المظفّر، حتى كان من أمره ما حكيناه.

ثم خرج السلطان الملك المظفّر بعد قتله إلى سِرْياقُوس على العادة وأقام بها أياماً. ثم عاد وخلَع على الأمير مَنْجَك اليوسفي السلاح دار بآستقراره حاجباً بدِمَشق عوضاً عن أمير علي بن طُغْرِبل. وأنعم السلطان على آثني عشر من المماليك السلطانية بإمريات ما بين طبلخاناه وعشرة، وأنعم بتقدمة الأمير مَنْجَك السِّلاح دار على بعض خواصّه.

وفي يوم مستهلّ شعبان خرج الأمير طَيْبُغَا المَجْدِي والأمير أَسَنْدَمُر العُمَرِيّ والأمير بَيْغرَا والأمير أَرْغُون الكاملي والأمير بَيْبُغا أُرس والأمير بَيْبُغَا طَطَر إلى الصيد؛ ثم خرج الأمير أَرُقْطَاي النائب بعدهم إلى الوجه القبليّ بطيور السلطان. ورَسَم السلطان لهم ألّا يحضروا إلى العشر الأخير من شهر رمضان. فخلا الجو للسلطان، وأعاد حَضِير الحَمَام وأعاد أرباب الملاعيب من الصِّراع، والثقاف، والشباك، وجَرْي السُّعاة، ونِطَاح الكِبَاش، ومُناقَرَة الدُّيُوك، والقِمار[1]، وغير ذلك من أنواع الفساد. ونُودِي بإطلاق اللعب بذلك بالقاهرة [ومصر][2] وصار للسلطان آجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف من الفراشين والبابية[3] ومُطَيِّري الحَمَام؛ فكان السلطان يقف معهم ويُراهن على الطير الفلاني والطيرة الفلانية. وبينما هوذات يوم معهم عند حَضِير الحَمَام، وقد سيبَّها، إذ أذّن العصر بالقلعة والقرافة فجَفَلَت الحمام عن مقاصيرها وتطايرت، فغَضِب وبعث إلى المؤذِّنين يأمرهم أنهم إذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم. و[كان السلطان] يلعب مع العَوَامّ بالعصيّ، وكان إذا لَعِب مع الأوباش

(١) في السلوك: «والقماري».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) البابية: جمع بابا، وهو لقب كان يطلق على جميع رجال الطشت خاناه ممن يقوم بالغسل والصقل وغير ذلك. (صبح الأعشى: ٥/ ٤٧٠، ٤٧٣).

يتعرّى ويَلْبَس تُبَّان(٢) جِلد، ويُصارِع معهم ويلعب بالرُّمح والكُرة؛ فيظَلّ نهارَه مع الغِلْمان والعبيد في الدهيشة، وصار يتجاهر بما لا يليق به أن يفعله.

ثم أخذ مع ذلك كلّه في التدبير على قتل أخيه حسين، وأرصد له عِدَّة خُدّام ليهجموا عليه عند إمكان الفرصة ويغتالوه؛ فبلَغ حسيناً ذلك، فتمارض وآحترس على نفسه، فلم يجدوا منه غَفْلة.

ثم في سابع عشر شعبان تُوُفِّي الخليفة أبو الربيع سليمان، وبُويع بالخلافة آبنه أبو بكر ولُقِّب بالمعتصم بالله أبي الفتح.

وفي آخر شعبان قَدِم الأمراء من الصيد شيئاً بعد شيء، وقد بلَغهم ما فعله السلطان في غيبتهم.

وقَدِم آبن الحرّاني من دِمَشق بمال يَلْبُغَا اليَحْيَاوِي فتسلّمه الخدّام. وأنعم السلطان من ليلته على حَظِيَّته «كيدا» من المال بعشرين ألف دينار، سوى الجواهر واللآليء، ونَثَر الذهب على الخُدّام والجواري، فاختطفوه وهو يضحك. وفرّق على لُعّاب الحمام والفراشين والعبيد الذهب واللؤلؤ، وهو يَحْذِفُه عليهم وهم يترامون عليه ويأخذوه بحيث إنه لم يَدَع من مال يلبغا سوى القُماش؛ فكان جملة التي فرّقها ثلاثين ألف دينار وثلاثمائة ألف درهم، وجواهر وحُلِيّاً ولؤلؤاً وزَرْكَشاً ومَصاغاً، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار.

فعظُم ذلك على الأمراء، وأخذ أُلْجيبُغَا وطَنْيَرَق يُعرِّفان السلطان ما يُنْكِره عليه الأمراء من لَعب الحَمَام وتقريب الأوباش، وخوّفاه فساد الأمر؛ فغَضب وأمر آقجبا شاد العمائر بخراب حَضِير الحمام، ثم أحضر الحَمَام وذبحهم واحداً بعد واحد بيده وقال لألْجيبُغَا وطَنْيَرَق: «والله لأذبحنّكم كُلّكُم كما ذبحتُ هذا الحَمَام» وتركهم وقام. وفرق جماعةً من خُشْدَاشِيّة أُلْجيبُغَا وطَنْيَرَق في البلاد الشامية، وآستمر على إعراضه عن الجميع؛ ثم قال لحظاياه وعنده معهن الشيخ علي بن الكسيح: «والله

(١) في الأصل: «ثياب جلد». والتصحيح عن السلوك. والتبّان: سروال صغير مقدار شبر يستر العورة، يكون للملاحين والمصارعين. (لسان العرب).

ما بَقِي يَهْنَأُ لي عيش وهذان الكَذّابان بالحياة (يعني بذلك عن ألجيبغا وطنيرق) فقد أفسدا عليّ جميع ما كان لي فيه سرور، وآتفقا عليّ، ولا بُدّ لي من ذبحهما» فنقَل ذلك آبن الكسيح لألجيبغا، فإن ألجيبغا هو الذي أوصله إلى السلطان، وقال: «مع ذلك خذ لنفسك، فوالله لا يرجع عنك وعن طنيرق» فطلب ألجيبغا طنيرق وعرّفه ذلك، فأخذا في التدبير عليه في الباطن [وأخذ في التدبير عليهما](١).

وخرج الأمير بَيْبُغَا أُرس للصيد بالعبّاسة، فإنه كان صديقاً لألجيبغا؛ وتنمّر السلطان على طنيرق وآشتد عليه وبالغ في تهديده. فبعث طنيرق وألجيبغا إلى الأمير طَشْتَمُر طَلَلَيْه، وما زالا به حتّى وافقهما. ودارا على الأمراء، وما منهم إلا من نَفَرت نفسه من السلطان الملك المظفّر، وتوقّع به أنه يَفْتِك به، فصاروا معهما يداً واحدة لِما في نفوسهم. ثم كلّموا النائب في موافقتهم وأعلموه أنه يريد القبض عليه، وكان عنده أيضاً حِسٌّ من ذلك، وأكثروا من تشجيعه، حتى وافقهم وأجابهم. وتواعدوا جميعاً في يوم الخميس تاسع شهر رمضان على الركوب على السلطان في يوم الأحد ثاني عشر شهر رمضان.

فبعث السلطان في يوم السبت يطلب بيبغا أُرُس من العبّاسة، وقد قرّر مع الطواشي عَنْبَر مقدّم المماليك أن يعرّف المماليك السلاح دارّية أن يقفوا خلفه، فإذا دخل بَيْبُغا أُرُس، وقبَّل الأرض، ضربوه بالسيوف وقطعوه قطعاً. فَعلِم بذلك أُلْجيبُغَا، وبعث إليه يُعلِمه بما دبّره السلطان عليه من قتله، ويعرّفه بما وقع آتفاق الأمراء عليه، وأنه يُوافيهم بكرة يوم الأحد على قُبّة النصر. فآستعدوا ليلتهم، ونزل ألجيبغا من القلعة، وتلاه بقيّة الأمراء، حتى كان آخرهم ركوباً الأمير أَرُقْطاي نائب السلطنة. وتوافوا بأجمعهم عند مطعم الطير، وإذا ببيبغا أُرُس قد وصل إليهم، فعبّوا أطلابَهم ومماليكهم ميمنة وميسرةً، وبعثوا في طلب بقية الأمراء، فما آرتفع النهار حتى وقفوا بأجمعهم ملبسين(٢) عند قُبّة النصر. وبلغ السلطانَ ذلك، فأمر بضرب الكوسات فدُقّت؛ وبعث الأوجاقية في طلب الأمراء فجاءه طَنْيَرق وشيخون وأَرْغُون

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) عبارة السلوك: «وقفوا بأجمعهم لابسين آلة الحرب» وهي أوضح.

الكاملي وطاز ونحوهم من الأمراء الخاصِّكِيّة. ثم بعث المقدّمين في طلب أجناد الحَلْقة فحضروا.

ثم أرسل السلطان يعتب النائب [أرقطاي] على ركوبه، فردّ جوابه بأن «مملوكك الذي رَبَّيْتَه رَكِب عليك (يعني عن ألجيبغا) وأعلَمنا فساد نيّتك لنا؛ وقد قتلتَ مماليك أبيك وأخذت أموالهم، وهتكتَ حريمهم بغير موجب، وعزمتَ على الفتك بمن بَقِي. وأنت أوّل من حلَف أنك لا تخون الأمراء ولا تخرّب بيت أحد»، فردّ [السلطان] الرسول إليه يَسْتَخْبِره عمّا يريده الأمراء من السلطان حتّى يفعله لهم، فعاد جوابهم أنه لا بدّ أن يسلطنوا غيره، فقال: «ما أموت إلّا على ظهر فَرَسِي»، فقبضوا على رسوله وهمُّوا بالزَّحْف عليه، فمنعهم النائبُ أَرُقْطاي من ذلك حتى يكون القتال أوّلاً من السلطان. فبادر السلطان بالركوب إليهم، وأقام أَرْغُون الكاملي وشَيْخون في المَيْمَنة، ثم أقام عدّة أمراء أُخر في الميسرة، وسار بمماليكه حتّى وصل إلى قريب قُبّة النصر؛ فكان أولَ من تركه ومضى إلى القوم الأميرُ طاز ثم الأمير أرغون الكاملي ثم الأمير مَلِكْتَمُر السعدي ثم الأمير شيخون وٱنضافوا الجميع إلى النائب أَرُقطاي والأمراء، وتلاهم بقيّتهم حتى جاء الأمير طَنْيَرق والأمير لاجين أمير جاندار صهر السلطان آخرهم. وبقي السلطان في نحو عشرين فارساً، فبرز له الأمير بيبغا أُرُس والأمير أُلْجيبُغَا فولّى السلطان فرسه وٱنهزم عنهم، فتبعوه وأدركوه وأحاطوا به؛ فتقدّم إليه بيبغا أُرُس فضربه السلطان بالطَّبر، فأخذ بيبغا الضربة بُتْرسه. ثم حمل عليه بالرُّمح، وتكاثروا عليه حتى قلعوه من سَرْجه، وضربه طَنْيَرق بالسيف فجرح وجهه وأصابعه. ثم ساروا به على فرس غير فرسه محتفظين به إلى تُرْبة آق سنقر الرومي تحت الجبل وذبحوه من ساعته قبيل عصر يوم الأحد ثاني عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ودُفِن بتربة أمّه. ولما أنزلوه وأرادوا ذبحه قال لهم: «بالله لا تستعجلوا عليّ، خلوني ساعة» فقالوا: «كيف ٱستعجلت أنت على قتل الناس! لو صبرت عليهم صبرنا عليك» فذبحوه.

وقيل: إنّهم لما أنزلوه عن فرسه كتّفوه وأحضروه بين يدي النائب أَرُقْطاي ليقتله، فلما رآه النائب نَزَل عن فرسه وترجّل ورَمَى عليه قباءَه وقال: «أعوذ بالله،

هذا سلطان آبن سلطان ما أقتله»! فأخذوه ومضوا إلى الموضع الذي ذبحوه فيه. وفيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدي: [الخفيف]

أيها العاقلُ اللبيبُ تَفَكّرْ في المليكِ المظفَّر الضِّرغامِ
كم تمادى في البَغْي والغيّ حتى كان لِعْبُ الحَمَام جِدّ الحِمامِ

وفيه يقول: [المجتث]

حان الرَّدَى للمظفَّر وفي التراب تعفَّر
كَمْ قد أباد أميراً على المعالي توفَّرْ
وقاتلُ النفسِ ظلماً ذُنُوبُه ما تُكَفَّرْ

ثم صَعِد الأمراء القلعة من يومهم، ونادوا في القاهرة بالأمان والاطمئنان؛ وباتوا بالقلعة ليلة الإثنين، وقد آتّفقوا على مكاتبة نائب الشام الأمير أَرْغُون شاه بما وقع، وأن يأخذوا رأيه فيمن يقيموه سلطاناً. فأصبحوا وقد آجتمع المماليك على إقامة حُسَيْن آبن الملك الناصر محمد عوضاً عن أخيه المظفَّر في السلطنة، ووقعت بين حسين وبينهم مراسلات. فقام المماليك في أمره، فقبضوا الأمراء على عِدّة منهم ووكّلوا الأمير طاز بباب حسين، حتّى لا يجتمع به أحدٌ من جهة المماليك، وأغلقوا باب القلعة، وآستمرّوا بآلة الحرب يومهم وليلة الثلاثاء. وقصد المماليك إقامة الفتنة، فخاف الأمراء تأخير السلطنة حتى يستشيروا نائب الشام أن يقع من المماليك ما لا يُدرك فارطُه، فوقع آتفاقهم عند ذلك على حسن فسلطنوه فتمّ أمره.

وكانت مدّة سلطنة الملك المظفّر هذا على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وأربعة[1] عشر يوماً. وكان المظفّر أهوجَ سريعَ الحركة، عديمَ المداراة، سيِّىءَ التدبير، يُؤثِر صحبة الأوباش على أرباب الفضائل والأعيان. وكان فيه ظلمٌ وجَبرُوت وسَفْك للدماء. قَتل في مدة سلطنته مع قصرها خلائق كثيرة من الأمراء وغيرهم.

---

(١) في السلوك: «واثني عشر يوماً». وفي بدائع الزهور: «وثمانية عشر يوماً». وفي الجوهر الثمين: «وكانت مدة ملكه ستة شهور وثمانية عشر يوماً».

وكان مُسْرِفاً على نفسه، يُحِبّ لعب الحَمَام وغيره، ويُحسِن فنوناً كثيرة من الملاعيب، كالرمح والكرة والصِّراع والثِّقاف وضرب السيف، مع شجاعة وإقدام من غير تثبُّت في أموره.

قلت: وبالجملة هو أسوأ سِيرة من جميع إخوته ممّن تسلطن قبله من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، على أن الجميع غير نجباء وحالهم كقول القائل: «عجيب نجيب من نجيب»؛ اللهم إن كان السلطان حسن الآتي ذكره، فهو لا بأس به. إنتهى.

* * *

السنة التي حكم في أوّلها الملك الكامل شعبان إلى سلخ جمادى الأولى، ثم حكم في باقيها الملك المظفَّر حاجي صاحب الترجمة

وهي سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

فيها توفي الأمير بهاء الدين أصلم بن عبد الله الناصري أحد أمراء الألوف بالديار المصرية في يوم السبت عاشر شعبان؛ وإليه يُنْسَب جامع أَصْلم خارج[1] القاهرة بسُوق الغنم. وكان أصله من مماليك الملك المنصور[2] قلاوون، وكان من خواصّ الملك الناصر محمد وقَبض عليه وحبسه سنين، ثم أطلقه. وكان من أعيان الأمراء، وتولّى عِدّة ولايات بالبلاد الشامية وغيرها حسب ما تقدّم ذكرُه فيما مضى. طالت أيامه في السعادة والإمرة حتى صار من أمراء المشورة.

وتُوُفّي الأمير الكبير سيف الدين الحاج آل ملك الجُوكندار، ثم نائب السلطنة بالديار المصرية، مقتولاً بالإسكندرية في أيام الملك الكامل شعبان. وأُحْضر ميتاً

(١) ذكر الاستاذ محمد رمزي أنه عاين هذا الجامع فوجده واقعاً داخل الباب المحروق، أي داخل القاهرة وليس خارجها كما ذكر المؤلف هنا وكما ذكر علي مبارك في خططه.

(٢) في الأصل: «من مماليك الناصر محمد بن قلاوون». والتصحيح عن السلوك وخطط المقريزي وخطط علي مبارك.

إلى القاهرة في يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة. وأصله من كسب الأَبُلُسْتَيْن في الأيام الظاهريّة بِيبَرْس في سنة ست وسبعين وستمائة، وآشتراه قلاوون وهو أمير ومعه سَلّار النائب، فأنعم بِسلار على ولده عليّ، وأنعم بآل ملك هذا على ولده الآخر. وقيل قدّمه لصِهْره الملك السعيد بركَةَ خان آبن الملك الظاهر بِيبَرْس، فأعطاه الملك السعيد لكَوْنْدُك وقيل غير ذلك. وتَرَقّى آل ملك في الخِدم إلى أن صار من جملة أمراء الديار المصريّة. وتردّد للملك الناصر محمد بن قلاوون في الرسليّة لمّا كان بالكَرَك من جهة الملك المُظَفّر بِيبَرْس الجَاشْنَكِير، فأعجب الملكَ الناصرَ عقلُه وكلامه. فلمّا أن عاد الملك الناصر إلى مُلكه رقّاه وولّاه الأعمال الجليلة إلى أن وُلّي نيابة السلطنة بديار مصر في دولة الملك الصالح إسماعيل. فلمّا ولي الملك الكامل شعبان أخرجه لنيابة صَفَد، ثم طلبه وقبضَ عليه وقتله بالإسكندرية؛ وقد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة في عدّة تراجم فلا حاجة لتكرار ذلك، إذ ليس هذا المحلّ محلّ الإطناب إلا في تراجم ملوك مصر فقط، ومن عداهم يكون على سبيل الاختصار. وآل ملك هذا هو صاحب الدار العظيمة بالقرب من باب مشهد الحسين ـ رضي الله عنه ـ وله هناك مدرسة[1] أيضاً تعرف به، وهو صاحب الجامع بالحسينية. وكان خيراً ديّناً عفيفاً مُثْرِياً. كان يقول: «كلّ أمير لا يقيم رمحه ويَسْكُب الذهب حتى يُساوِي السِّنان ما هو أمير».

وتُوُفّي الأمير سيف الدين قُمارِي بن عبد الله الناصري أخو بَكْتَمُر الساقي مقتولاً. وقد ولي نيابة طرابُلُس والأستادارية بديار مصر؛ وكان من أعيان الأمراء الناصرية، مشهوراً بالشجاعة والإقدام؛ وهو غير قمارِي أمير شِكار، وكلاهما من المماليك الناصرية.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين مَلِكْتَمُر بن عبد الله السَّرْجَوانِيّ نائب الكَرَك في يوم الإثنين مستهَل المحرّم خارج القاهرة، وقد قَدِمها من الكرك مريضاً. وكان من أعيان

---

(١) هي المدرسة الملكية بخط المشهد الحسيني في القاهرة (خطط المقريزي: ٣٩٢/٢). ولا تزال إلى اليوم باسم جامع آل ملك الجوكندار بشارع أم الغلام بالقاهرة. وقد أنشئت سنة ٧١٩هـ. والعامة تسميها بزاوية حالومة، وهو رجل مغربي طالت خدمته لهذا المسجد فعرف به. (محمد رمزي).

الأمراء، وتولّى عدّة ولايات، لا سيما نيابة الكرك، فإنّه وليها غير مرّة.

قلت: وغالب هؤلاء الأمراء ذكرنا من أحوالهم في عِدّة مواطن من تراجم ملوك مصر ما يُسْتَغْنَى عن ذكره ثانياً هنا.

وتُوُفّي مَلِك تُونُس من بلاد الغرب أبو بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيي بن عبد الواحد في ليلة الأربعاء ثامن شهر رجب، بعد ما ملك تونس نحواً من ثلاثين سنة. وتَوَلّى بعده آبنه أبو حفص عمر. وكان أبو بكر هذا من أجلّ ملوك الغرب، وطالت أيامه في السلطنة، وله مواقف مع العدوّ مشهودة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي القاضي تاج الدين محمد بن الخَضِر بن عبد الرحمن بن سليمان المصري كاتب سرّ دِمَشق في ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر. وكان كاتباً فاضلاً باشر عدّة وظائف.

وتُوفي الأمير سيف الدين طُقْتَمُر بن عبد الله الصلاحيّ نائب حِمْص بها. وكان من أعيان أمراء مصر. وقد مرّ ذكرُه أيضاً في تراجم أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وتُوفي الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد [بن نمير] بن السراج بن نمير بن السراج في شعبان؛ وكان كاتباً فاضلاً مقرئاً، وعنده مشاركة في فنون.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وخمس أصابع. والله أعلم.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المظفّر حاجّي على مصر

وهي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. على أنه قُتِل في شهر رمضان منها، وحكم في باقيها أخوه السلطان الملك الناصر حسن.

فيها تُوفي الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبد الله الناصري مقتولاً بقلعة الجبل. وقد تقدّم ذكر قتله [وهو] أن الملك المظفّر حاجيّاً أمر بالقبض على آق سنقر وعلى الحجازي بالقصر، ثم قُتلا من ساعتهما تهبيراً بالسيوف في يوم الأحد تاسع عشر شهر ربيع الآخر. وكان آق سنقر هذا آختصّ به أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون وزوّجه إحدى بناته وجعله أمير شِكار، ثم أمير آخور، ثم نائب غزّة؛ وأُعيد بعد موت الناصر في أيام الملك الصالح إسماعيل ثانياً وآستقر أمير آخور على عادته؛ ثم ولي نيابة طرابلس مدّة؛ ثم أُحضر إلى مصر في أيام الملك الكامل شعبان، وعَظُم قدره، ودبّر الدولة في أيام الملك المظفّر حاجيّ. ثم ثقل عليه وعلى حواشيه فوشَوْا به وبملِكْتَمُر حتى قبضَ عليهما وقتلهما في يوم واحد. وكان آق سُنْقُر أميراً جليلاً كريماً شجاعاً عارفاً مدبّراً. وإليه يُنسب جامع[1] آق سنقر بخُط التبّانة خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير[2].

وتُوُفّي الأمير سيف الدين بَيْدَمُر البدري مقتولاً بغزة في أوّل جمادي الآخرة؛ وهو أيضاً أحد المماليك الناصرية، وترقى إلى أن ولي نيابة حلب. وقد تقدّم ذكر مقتله في ترجمة الملك المظفر حاجّي. وإليه تُنسب المدرسة[3] البيدَمرية قريباً من مشهد الحسين رضي الله عنه.

---

(١) جامع آق سنقر (خطط المقريزي: ٣٠٩/٢) وهذا الجامع يعرف اليوم باسم جامع إبراهيم آغا مستحفظان بشارع باب الوزير بالقاهرة (محمد رمزي). وقد صحح الأستاذ محمد رمزي جملة أخطاء تاريخية خاصة بهذا الجامع وردت في خطط المقريزي وخطط علي مبارك. (انظر النجوم: ١٧٩/١٠، حاشية: ١، طبعة دار الكتب المصرية).

(٢) باب الوزير: هو أحد أبواب القاهرة في سورها الشرقي. وهو منسوب إلى الوزير نجم الدين محمود بن علي بن شروين المعروف بوزير بغداد والذي كان وزيراً للملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون.

(٣) ذكرها المقريزي باسم المدرسة البيدرية (خطط: ٣٩١/٢).

وتُوُفّي قاضي القضاة عماد الدين عليّ بن محيي الدين أحمد بن عبد الواحد بن عبد المنعم بن عبد الصمد الطَّرَسُوسيّ الحنفي الدمشقي قاضي قضاة دِمَشق بها، عن تسع وسبعين سنة تقريباً، بعد ما ترك القضاء لولده وآنقطع بداره للعبادة، إلى أن مات في يوم الإثنين ثامن عشرين ذي الحجة. وكان منشؤه بدِمَشق، وقرأ الخلاف على الشيخ بهاء الدين بن النّحاس[١]، والفرائض على أبي العلاء[٢]، وتفقّه على جماعة من علماء عصره، وبرع في عدّة علوم، وأفتى ودرّس بعِدّة مدارس. وكان كثير التلاوة سريع القراءة. قيل إنه كان يقرأ القرآن في التروايح كاملاً في أقلّ من ثلاث ساعات بحضور جماعة من القُرّاء. وتولّى قضاء دِمَشق بعد قاضي القضاة صدر الدين علي الحنفيّ في سنة سبع وعشرين وسبعمائة وحُمِدت سيرته. وكان أوّلاً ينوب عنه في الحكم. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي قاضي قضاة المالكية وشيخ الشيوخ بدمشق شرف الدين محمد بن أبي بكر ابن ظافر بن عبد الوهاب الهَمْذَانيّ في ثالث المحرّم عن ثلاث وسبعين سنة. وكان فقيهاً عالماً صوفيّاً.

وتُوُفّي الشيخ الإمام الحافظ المؤرّخ صاحب التصانيف المفيدة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز [بن عبد الله التُّرْكمانيّ الأصل الفارقيّ][٣] الذهبيّ الشافعيّ ــ رحمه الله تعالى ــ أحد الحفّاظ المشهورة في ثالث ذي القعدة. ومولده في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة؛ وسَمِع الكثير ورَحَل البلاد، وكتب وألّف وصنّف وأرّخ وصحّح وبرع في الحديث وعلومه، وحصّل الأصول وآنتقى، وقرأ القراءات السبع على جماعة من مشايخ القراءات. استوعبنا مشايخه ومصنّفاته في تاريخنا «المنهل الصافي» مستوفاة. ومن مصنفاته: «تاريخ الإسلام» وهو أجل كتاب نقلت عنه في هذا التاريخ. وقال الشيخ صلاح الدين الصفديّ ــ بعد ما أثنى عليه ــ قال: «وأخذتُ عنه وقرأتُ عليه كثيراً

---

(١) تقدمت وفاته سنة ٦٩٨هـ.

(٢) تقدمت وفاته سنة ٧٠٠هـ.

(٣) زيادة عن الدرر الكامنة.

من تصانيفه، ولم أجد عنده جُمودة المحدّثين، ولا كَوْدَنة[١] النَّقَلَة، بل هو فقيه النظر، له دُرْبة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات. وأعجبَني منه ما يعنيه في تصانيفه؛ ثم إنه لا يتعدّى حديثاً يُورده حتى يبيّن ما فيه من ضعف مَتْن، أو ظلام إسناد، أو طعن في روايته، وهذا لم أرَ غيره يُراعي هذه الفائدة».
وأنشدني من لفظة لنفسه مضمّناً، وهو تخيّل جيِّد إلى الغاية: [الوافر]

إذا قـرأ الحـديثَ عليَّ شخصٌ وأخلى مَـوْضعـاً لـوفـاة مِثْلي
فـمـا جـازَى بـإحسْـانٍ لأنّـي أريـدُ حَيـاتَـه ويـريـدُ قَتْـلي

وتوفي الأمير الوزير نجم الدين محمود [بن علي] بن شَرْوِين المعروف بوزير بغداد مقتولاً بغزّة مع الأمير بَيْدَمُر البدريّ في جمادى الآخرة. وكان قَدِم من بغداد إلى القاهرة في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فلمّا سلّم على السلطان وقبّل الأرض ثم قبّل يده حطّ في يد السلطان حجر بَلخش[٢]، زنته أربعون درهماً، قُوّم بمائتي ألف درهم، فأمّره السلطان وأعطاه تَقدِمة ألف بديار مصر. ثم ولي الوزر غير مرّة إلى أن أخرجه الملك المظفّر حاجّيّ إلى غزّة، وقتله بها هو وبيدمر البدريّ وطُغَيْتَمُر الدوادار. وكان ــ رحمه الله ــ عاقلاً سَيوساً كريماً محسناً مدبّراً، محمودَ الاسم والسيرة في ولاياته؛ وهو ممّن ولي الوَزَر شرقاً[٣] وغرباً؛ وهو صاحب الخانقاه بالقرافة بجوار تربة كافور الهنديّ.

وتوفي الشيخ الإمام البارع المفتنّ قوام الدين مسعود بن محمد بن محمد بن سهل الكِرْمَاني الحنفي بدِمَشق، وقد جاوز الثمانين سنة. وكان إماماً بارعاً في الفقه والنحو والأصلين واللغة، وله شعر وتصانيف، وسماه الحافظ عبد القادر في الطبقات مسعود بن إبراهيم.

---

(١) كودن في مشيه: أبطأ وثقل. والكودن: الفرس الهجين (الكديش عند العامة) مأخوذ من الكوذان وهو الضخم السمين لبلادة طبعه. والكودنة أيضاً: البلادة. (معجم متن اللغة).

(٢) البلخش: نوع من الياقوت الأحمر، منسوب إلى نواحي بلخشان أو بذخشان من بلاد الترك تتاخم الصين. (صبح الأعشى: ٢/١١١).

(٣) أي في بغداد ومصر.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين مَلِكْتَمُر بن عبد الله الحجازيّ الناصريّ قتيلاً في تاسع عشر شهر ربيع الآخر مع الأمير آق سُنْقُر المقدّم ذكره. وكان أصل الحجازي من مماليك شمس الدين أحمد بن يحيى بن محمد بن عمر الشَّهْرَزُورِيّ البغدادي، فبَذَل فيه الملك الناصر محمد زيادة على مائة ألف درهم، حتى ابتاعه له منه المجد السلاميّ بمكة لمّا حجّ الشهرزوريّ، وقَدِم به على الناصر؛ فلم يُرَ بمصر أحسن منه ولا أظرف، فعُرِف بالحجازي. وحَظِي عند الملك الناصر، حتى جعله من أكابر الأمراء، وزوّجه بإحدى[1] بناته. وكان فيه كلّ الخِصال الحسنة، غير أنه كان مُسرفاً على نفسه، مُنهمكاً في اللذّات، مدمِناً على شرب الخمر؛ فكان مرتّبه منه في كل يوم خمسين رطلاً. ولم يسمع منه في سُكره وصَحْوه كلمةُ فُحش، ولا توسّط بسوء أبداً، هذا مع سماحة النفس والتواضع والشجاعة والكرم المفْرط، والتجمّل في ملبسه ومركبه وحواشيه. وقد تقدّم كيفية قتله في ترجمة الملك المظفّر هذا.

وتوفي الأمير طُغَيْتَمُر بن عبد الله النجمي الدوادار، صاحب الخانقاة النجمية[2] خارج باب المحروق من القاهرة، مقتولاً بغزّة مع بَيْدَمُر البدريّ ووزير بغداد المقدّم ذكرهما. وكان طُغَيْتَمُر من أجل أمراء مصر، وكان عارفاً عاقلاً كاتباً، وعنده فضيلة ومشاركة. وكان مليح الشكل.

وتوفي الأمير سيف الدين يَلْبُغَا اليَحْياوِيّ الناصريّ نائب الشام مقتولاً بقلعة قاقون. تقدّم ذكر قتله في ترجمة الملك المظفّر هذا. وكان يلبغا هذا أحد من شُغِف به أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعمّر له الدار العظيمة التي موضعها الآن مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة. ثم جعله أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية. ثم ولي بعد موت الملك الناصر حماة وحلب والشام. وعمّر بالشام الجامع المعروف بجامع يلبغا بسوق الخيل، ولم يكمّله، فكُمِّل بعد موته. وكان حسن الشكالة، شجاعاً كريماً. بلغ إنعامه في كلّ سنة على مماليكه فقط مائة

(١) هي خوند تتر الحجازية. وإليها تنسب المدرسة الحجازية وقصر الحجازية. (خطط المقريزي: ٢/٧١).
(٢) انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٥.

وعشرين فرساً وثمانين حِياصة ذهب. وعاش أبوه بعده، وكان تركيّ الجنس، وتقلب في هذه السعادة، ومات وسنه نَيّف على عشرين سنة.

وتوفي الأمير أرْغُون بن عبد الله العلائيّ قتيلًا بالإسكندرية. وكان أرغون أحد المماليك الناصرية، رقّاه الملك الناصر محمد في خدمته، وزوّجه أمّ ولـديه: إسماعيل الصالـح وشعبان الكامل، وعمله لالا لأولاده، فدبّر الدولة في أيام ربيبه الملك الصالـح إسماعيل أحسن تدبير. ثم قام بتدبير ربيبه أيضاً الملك الكامل شعبان حتى قُتل شعبان لسوء سِيرته وأرْغُون ملازمه، فقبِض على أرغون المذكور بعد الهزيمة، وسُجن بالإسكندرية إلى أن قتله الملك المظفّر حاجّي فيمن قُتل؛ وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه مفصّلًا في وقته. وأرغون هذا هو صاحب الخانقاه بالقرافة. وكان عاقلًا عارفاً مدبِّراً سَيُوساً كريماً، يُنْعِم في كل سنة بمائتين وثلاثين فرساً، ومبلـغ أربعين ألف دينار. قال الشيـخ صلاح الدين الصَّفَدِي: وعظُمت حرمته لما دبّر المملكة، وكثرت أرزاقه وأملاكه، وصار أكبرَ من النوّاب بالديار المصرية، وهو باقٍ على وظيفته رأس نَوْبة الجَمدَارِية، وجنديته إلى آخر وقت.

قلت: وهذا الذي ذكره صلاح الدين من العجب: كونه يكون مدبّر مملكتي الصالـح والكامل، وهو غير أمير. اِنتهى.

وتُوُفِّي جماعة من الأمراء بسيف السلطان الملك المظفّر حاجّيّ، منهم: الأمير أيْتَمش عبد الغنيّ والأمير تَمُر الموساوي الساقي والأمير قَرَابُغَا والأمير صمغار، الجميـع بسجن الإسكندريّة؛ وهم من المماليك الناصرية محمد بن قلاوون. وقُتل أيضاً بقلعة الجبل الأمير غُرْلُو في خامس عشرين جُمادى الآخرة، وقد تقدّم التعريف بحاله عند قتله في ترجمة الملك المظفّر حاجّيّ. وكان جَرْكَسِيّ الجنس، ولهذا كان جَمَـع الجراكسة على الملك المظفر حاجّيّ، لأنهم من جنسه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وست أصابـع. مبلغُ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وثماني أصابـع.

ذكر سلطنة الملك الناصر حسن[١] الأولى على مصر

السلطان الملك الناصر بدر الدين، وقيل ناصر الدين، أبو المعالي[٢] حسن ــ واللّقب الثاني أصحّ، لأنه أخذ كُنْية أبيه، ولَقَبَه وشُهْرَته ــ ابن السلطان الملك الناصر محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون. وأمّه أمّ ولد ماتت عنه وهو صغير، فتولّى تربيته خَوَنْد أردو، وكان أوّلاً يُدْعى قُمارِي، وآستمرّ بالدور السلطانيّة إلى أن كان من أمر أخيه الملك المظفّر حاجّيّ ما كان. وطَلبتْ المماليك أخاه حَسَنْاً للسلطنة، فقام الأمراء بسلطنة حسن هذا، وأجلسوه على تخت الملك بالإيوان في يوم الثلاثاء، رابع عشر شهر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة؛ وركب بشِعار السلطنة وأُبَّهة الملك. ولمّا جلس على تخت الملك لقّبوه بالملك الناصر سيف الدين قُماري، فقال السلطان حسن للنائب أرُقْطاي: «يا أبت ما آسمي قُماريّ، إنما آسمي حسن»؛ فآستلطفه الناس لِصِغَر سِنّه ولذكائه، فقال له النائب: «يا خَوَنْد ــ والله ــ إن هذا آسم حسن، على خيرة الله تعالى». فصاحت الجاووشيّة في الحال بآسمه وشهرته وتمّ أمره؛ وحلَف له الأمراء على العادة، وعمرُه يوم سلطنته إحدى عشرة سنة. وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصريّة، والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وفي يوم الأربعاء خامس عشره اِجتمع الأمراء بالقلعة، وأخرجَ لهم الطواشي

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ٧٤٥/٣/٢؛ وبدائع الزهور: ٥١٩/١/١؛ والجوهر الثمين: ١٩٥/٢؛ والبداية والنهاية: ٢٣٦/١٤ ــ ٢٥١؛ وشذرات الذهب: ١٩٦/٦.

(٢) في بدائع الزهور: «أبو المحاسن».

دينار الشِّبليّ المال من الخِزانة. ثم طلب الأمراء خدّام الملك المظفّر وعبيده، ومن كان يُعاشره مِن الفرّاشين ولُعاب الحَمَام، وسُلّموا لشادّ الدواوين على حَمْل ما أخذوه من الملك المظفّر من الأموال [فأقرَّ الخدّام أن الذي خصّ «كيدا» في مدة شهرين نحو خمسة وثلاثين ألف دينار ومائتين وعشرين ألف درهم؛ وخصّ عبد عليّ العوّاد نحو ستين ألف درهم؛ وخص الإسكندر بن كتيلة الجنكي نحو الأربعين ألف درهم؛ وخصَّ العبيد والفرّاشين ومطيّري الحمام نحو مائة ألف درهم][(١)] وأظهر بعضُ الخُدّام حاصلاً تحت يده من الجوهر واللؤلؤ، ما قيمته زيادة على مائة ألف دينار، وتفاصيل حرير، وبذلات زَرْكش بمائة ألف دينار أخرى.

وفي يوم الخميس قُبض على الأمير أيْدَمُر الزرّاق والأمير قُطُز أمير آخور والأمير بُلُك الجَمَدَار، وأخرج قُطُز لنيابة صَفَد. وقُطعت أخبازُ عشرين خادماً وخُبْزُ عبد عليّ العوّاد المغني وخبزُ إسكندر بن بدر الدين كُتيلة الجَنْكيّ.

ثم قُبِض يوم الأحد[(٢)] على الطواشي عَنْبَر السَّحَرْتي مقدّم المماليك، وعلى الأمير آق سُنْقُر أمير جَنْدَار. ثم عَرِضت المماليكُ أربابُ الوظائف وأخرج منهم جماعةٌ. وأحيط بمال «كيدا» حظيّة الملك المظفَر التي أخذها بعد «اتّفاق» السوداء العوّادة وأموال بقية الحظايا وأُنْزِلن من القلعة. و[فيه] كُتِبت أوراق بمرتبات الخُدّام والعبيد والجواري فقُطِعت كلّها.

وكان أمرُ المشورة في الدولة والتدبير لتسعة أمراء: بَيْبُغا أُرُس القاسميّ، وألْجيبغا المظفّري، وشيخون العُمَريّ، وطاز الناصريّ، وأحمد شادّ الشراب خاناه، وَأرْغُون الإسماعيليّ، وثلاثة[(٣)] أُخَر.

وآستقـر الأمير شيخون رأس نوبة كبيراً وشارك في تدبير المملكة. وآستقـر الأميرُ مُغْلَطاي أمير آخور عِوَضاً عن الأمير قُطُز. ثم رسم بالإفراج عن الأمير بُزْلار من

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «ثم قبض أيضاً». والتعديل عن السلوك.

(٣) وهم، على ما جاء في السلوك: منكلي بغا الفخري، وطشتمر طلليه، وأرقطاي النائب.

سجن الإسكندرية. ثمّ جُهّزت التشاريف لنوّاب البلاد الشامية، وكُتِب لهم بما وقع من أمر الملك المظفّر وقتله، وسلطنة الملك الناصر حسن وجلوسه على تخت الملك.

ثمّ آتفقوا الأمراء على تخفيف الكُلَف السلطانيّة، وتقليل المصروف بسائر الجهات، وكُتِبت أوراق بما على الدولة من الكُلَف.

وأخذ الأمراء في بيع طائفة الجَرَاكسة من المماليك السلطانية، وقد كان الملك المظفّر حاجّيّ قرّبهم إليه بواسطة غُرْلو وجَلَبَهم من كلّ مكان، وأراد أنّ يُنشئهم على الأتراك، وأدناهم إليه حتى عُرفوا بين الأمراء بكِبَر عمائمهم، وقَوِي أمرهم، وعملوا كلَفْتَات خارجة عن الحدّ في الكبر. فطُلبوا الجميع وأخرجوهم منفيّين خروجاً فاحشاً وقالوا: هؤلاء جيعة النفوس كثيرو الفتن.

ثم قَدِم كتابُ نائب الشام الأمير أرْغُون شاه يتضمن موافقته للأمراء ورضاءه بما وقع، وغضّ من الأمير فخر الدين إياس نائب حلب. وكان الأمير أَرُقطاي النائب قد طلب من الأمراء أن يُعفوه من النيابة ويُولّوه بلداً من البلاد فلم يُوافقوه الأمراء على ذلك؛ فلمّا ورد كتاب نائب الشام يذكر فيه أنّ إياس يَصْغُر عن نيابة حلب[1]، فإنّه لا يصلح لها إلّا رجلٌ شيخ كبير القَدْر، له ذكر بين الناس وشُهرة، فعند ذلك طلب الأمير أرقطاي النائب نيابة حلب، فخُلِع عليه بنيابة حلب في يوم الخميس خامس شوّال، وآستقرّ عوضه في نيابة السلطنة بالديار المصرية الأمير بَيْبُغا أُرُس أمير مجلس، وخُلِع عليهما معاً. وجلس بيبغا أرس في دَسْت النيابة وجلس أرقطاي دونه بعد ما كان قبل ذلك أرقطاي في دست النيابة وبيبغا دونه.

وفي يوم السبت سابعه قَدِم الأمير مَنْجَك اليوسفيّ السلاح دار حاجب دِمَشْق وأخو بيبغا أرس من الشام، فرُسم له بتقدّمه ألف بديار مصر، وخلع عليه، وآستقرّ وزيراً وأُستاداراً؛ وخرج في مَوْكِب عظيم والأمراء بين يديه؛ فصار حكم مصر للأخوين: بيبغا أرس ومنجك السلاح دار.

(١) ذكر ابن إياس أن نيابة حلب يومئذ كانت أكبر من نيابة دمشق. (بدائع الزهور: ١/١/٥٢٠).

ثمّ في يوم الثلاثاء عاشر شوّال خرج الأمير أرُقطاي إلى نيابة حلب، وصحبته الأمير كشلي الإدريسيّ مسفّراً.

ثم إنّ الأمير مَنْجك اشتدّ على الدواوين(١)، وتكّلم فيهم حتى خافوه بأسرهم، وقاموا له بتقادم هائلة؛ فلم يمض شهر حتّى آنِس بهم، وآعتمد عليهم في أموره كلّها. وتحدّث منجك في جميع أقاليم مصر ومهد أمورها.

ثم قَدِم سَيْفُ الأمير فخر الدين إياس نائب حلب بعد القبض عليه، فخرج مقيّداً، وحُبس بالإسكندرية.

ثم تراسل المماليك الجراكسة مع الأمير حسين آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون على أن يُقيموه سلطاناً فقُبض على أربعين منهم، وأُخرجوا على الهُجُن مفرّقين إلى البلاد الشاميّة. ثم قُبِض على ستّة منهم، وضُرِبوا تُجاه الإيوان من القلعة ضرباً مبرّحاً، وقُيّدوا وحُبسوا بخزانة شمائل.

ثم عُملت الخدمة بالإيوان، وآتفقوا على أنّ الأمراء إذا انفضّوا من خدمة الإيوان، دخل أمراء المشورة والتدبير إلى القصر دون غيرهم من بقيّة الأمراء، ونفذوا الأمور على آختيارهم من غير أن يشاركهم أحد من الأمراء في ذلك. فكانوا إذا حضروا الخدمة بالإيوان خرج الأمير مَنْكلي بُغَا الفخريّ والأمير بَيْغرا والأمير بَيْبُغا طَطَر والأمير طَيْبُغَا المجديّ والأمير أرْلان وسائر الأمراء، فيمضوا على حالهم، إلا أمراء المشورة وهم: الأمير بَيْبُغا أرُس النائب، والأمير شيخون العُمَريّ رأس نوبة النُّوَب، والأمير طاز، والأمير الوزير مَنْجَك اليوسفيّ السلاح دار، والأمير ألْجيبُغا المُظَفّري، والأمير طَنْيَرق، فإنهم يدخلون القصر، وينفّذون أحوال المملكة بين يدي السلطان بمقتضى علمهم وحسب آختيارهم.

وفي هذه السنة آستجدّ بمدينة حلب قاضٍ مالكيّ وقاضٍ حنبليّ؛ فولي قضاء المالكية بها شهاب الدين أحمد بن ياسين الرُّباحِيّ، وتولى قضاء الحنابلة بها

(١) المراد بهذا اللفظ عادة أرباب الدواوين أو عمال الدواوين خاصة الكتّاب منهم.

شرف الدين أبو البركات موسى بن فيّاض؛ ولم يكن قبل ذلك مالكيّ ولا حنبليّ، وذلك في سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة.

وفي يوم الثلاثاء أوّل المحرّم سنة تسع وأربعين وسبعمائة، قُبِض على الشيخ عليّ الكسيح نديم الملك المظفّر حاجّيّ، وضُرِب بالمقارع والكَسّارات ضرباً عظيماً، وقُلعت أسنانُه وأضراسُه شيئاً بعد شيء في عدّة أيام، ونُوّع له العذاب أنواعاً حتى هلك. وكان بَشِع المنظر، له حَدَبَة في ظهره وحَدَبَة في صدره، كَسِيحاً لا يستطيع القيام، وإنما يُحمل على ظهر غلامه. وكان يلوذ بألْجيبُغا المظفّري، فعرّف به ألجيبغا الملك المظفّر حاجّيّاً فصار يُضَحِّكُه. وأخرج المظفرُ حُرَمه عليه، وعاقره الشَّراب، فوهبْته الحظايا شيئاً كثيراً. ثم زوّجه الملك المظفر بإحدى حظاياه، وصار يسأله عن الناس فينقل له أخبارَهم على ما يُريد، وداخله في قضاء الأشغال. فخافه الأمراء وغيرهم خشيةَ لسانه، وصانعوه بالمال حتى كثرت أموالُه، بحيث إنه كان إذا دخل خِزانة الخاصّ، لا بدّ أن يُعطيه ناظرُ الخاصّ منها شيئاً له قَدْر، ويدخل عليه ناظر الخاصّ حتى يَقْبَله منه. وإنه إذا دخل إلى النائب أرُقْطاي استعاذ أرقطاي من شرّه، ثمّ قام له وترّحب به وسقاه مشروباً، وقضى شغله الذي جاء بسببه، وأعطاه ألف درهم من يده وآعتذر له، فيقول النائب: «هأنا داخل إلى إبني السلطان وأعرّفه إحسانك إليّ». فلما دالت دولة الملك المظفّر عُنِي به ألْجيبُغا، إلى أن شكاه عبد العزيز العجميّ ــ أحد أصحاب الأمير آق سُنْقُر ــ على مال أخذه منه لمّا قَبَض عليه غُرْلُو بعد قتل آق سنقر حتى خلّصه منه. فتذكّره أهل الدولة وسلّموه إلى الوالي، فعاقبه وآشتد عليه الوزير مَنْجَك حتى أهلكه.

وفي المحرّم هذا وقعت الوحشة ما بين النائب بيبغا أرُس وبين شيخون، ثمّ دخل بينهما مَنْجَك الوزير حتى أصلح ما بينهما.

ثمّ في يوم الإثنين ثالث شهر ربيع الأوّل عُزِل الأمير مَنْجَك عن الوزارة. وسببه أنّ [علم الدين عبد الله] بن زنبور [ناظر الخاص] قَدِم من الإسكندرية بالحِمْل على العادة، فوقع الاتّفاق على تفرقته على الأمراء، فحُمِل إلى النائب منه ثلاثة آلاف دينار، وإلى شَيْخُون ثلاثة آلاف دينار، وللجماعة من الأمراء كلُّ واحد ألفا

دينار، وهم بقيّة أمراء المشورة، ولجماعة الأمراء المقدّمين كلّ واحد ألفُ دينار. فامتنـع شيخون من الاخذ وقال: «أنا ما يَحِلّ لي أن آخذ من هذا شيئاً». ثم قَدِم حِمْلُ قَطْيا وهو مبلـغ سبعين ألف درهم، وكانت قطيا قد أُرْصِدَت لنفقة المماليك؛ فأخذ الوزير مَنْجَك منها أربعين ألف درهم، وزَعم أنّها كانت له قَرْضاً في نفقة المماليك. فَوَقَفت المماليك إلى الأمير شيخون وشكوا الوزيرَ بسببها؛ فَحدّثَ [الأمير شيخون][(1)] الوزيرَ في ردّ ما أخذه فلم يفعل، وأخذ في الحطّ على آبـن زُنْبور ناظر الخواصّ، وأنه يأكل المال جميعَه، وطلب إضافة نظر الخاصّ له مـع الوزارة والأستادارية. وألـحّ في ذلك عدّة أيّام، فمنعه شَيْخون من ذلك، وشدّ من [أَزْر][(1)] آبـن زنبور وقام بالمحاققة عنه، وغَضِب [منجك][(1)] بحضرة الأمراء في الخدمة. فمنـع النائب [بيبغا أروس الوزير][(1)] منجك من التحدّث في الخاصّ. وآنفـضّ المجلس، وقد تنكرّ كُلٌّ منهما [على الآخر]. وكَثُرت القالةُ بالركوب على النائب ومنجك حتى بلغهما ذلك، فطلب النائب الإعفاء من النيابة وإخراج أخيه منجك من الوزارة، وأَبْدَأَ وأعادَ حتى كثُر الكلام. ووقـع الاتفاق على عزل مَنْجَك من الوزارة، وآستقـراره أُستاداراً على حاله وشادّاً على عمل الجسور في النيل. وطُلِب أسْنْدَمُر العمريّ المعروف بَرْسلان بَصَل من كشف الجسور ليتوَلّى الوزارة، فحضر وخُلـع عليه في يوم الاثنين رابـع عشرينه.

[وفيه أُخرج][(1)] الأمير أحمد شادّ الشراب خاناه إلى نيابة صفد وسبب ذلك أنه كان كَبُرَ في نفسه وقام مـع المماليك على الملك المظفّر حاجّيّ حتى قتل. ثم أخذ في تحريك الفتنة وآتفـق مـع ألجيبُغا وطَنْيَرق على الركوب. فبلـغ بيبغا أُرُس النائبَ الخبرُ، فطَلب الإعفاء [من النيابة]، وذكر ما بلغه وقال: «إنّ أحمد صاحب فِتَن ولا بدّ من إخراجه من بيننا» فطُلب أحمد وخُلِـع عليه وأُخْرِج من يومه.

ثمّ في يوم الأربعاء سادس عشرين ربيـع الأوّل أنعم على الأمير مَنْجَك اليوسفيّ بتقدمة أحمد شادّ الشراب خاناه. ثمّ في الغد يوم الخميس آمتنـع النائـب

(1) زيادة عن السلوك.

من الركوب في الموكب وأجاب بأنه ترك النيابة؛ فطُلِب إلى الخدمة وسُئِل عن سبب ذلك، فذَكَر أنّ الأمراء المظفّرية تريد إقامة الفتنة وتُبيِّتُ خيولهم في كل ليلة مشدودة، وقد آتفقوا على مسكه، وأشار لألْجيبُغا وطَنْيَرق. فأنكرا ما ذكر النائب عنهما، فحاققهما الأمير أرغون الكامليّ أنّ ألجيبغا واعده بالأمس على الركوب في غد وقت المَوْكب، ومَسْكِ النائب ومَنْجك. فعتَب عليهما الأمراء، فاعتذرا بعذر غير مقبول، وظهر صدقُ ما نقله النائب؛ فخُلـع على ألجيبغا بنيابة طرابُلُس وعلى طنيرق بإمرة في دِمَشْق وأُخرجا من يومهما. فقام في أمر طنيرق صهره الأمير طَشْتَمُر طَلَليه حتى أُعْفِي من السفر؛ وتوجّه ألجيبغا إلى طرابُلُس في ثامن[1] شهر ربيـع الآخر من السنة بعد ما أُمْهل أياماً. وآستمـر منجك معزولاً إلى أن أُعيد إلى الوزر في يوم الإثنين خامس عشر شهر ربيـع الآخر باستعفاء أَسَنْدَمُر العُمَري لتوقّف أحـوال الوزارة.

وفيه أيضاً أُخرج من الأمراء المظفّرية لاجين العلائيّ وطَيْبُغَا المظفّريّ ومَنْكلي بُغَا المظفّريّ وفرّقوا ببلاد الشام.

ثم قَدِمت تقدمة الأمير أَرْغُون شاه نائب الشام زيادةً عما جرت به العادة، وهي مائة وأربعون فرساً بُعبـي تَدْمُرية فوقها أجِلّةُ[2] أطلس، ومقاودُ سلاسلها فضة، ولواوِين[3] بحلق فضّة، وأربعةُ قُطُر هُجُن بمقاود حرير، وسلاسل فضّة وذهب، وأكوارُها[4] مغشّاةٌ بذهب، وأربعةُ كنابيش[5] ذهب عليها ألقاب السلطان، وتعابـي قماش مبقّجة من كلّ صنف؛ ولم يَدَع أحداً من الأمراء المقدّمين ولا من أرباب الوظائف، حتى الفرّاش ومقدّم الإسطبل ومقدّم الطبلخاناه والطبّاخ، حتى بعث إليهم هديّة. فخُلـع على مملوكه عِدّة خِلَـع، وكتب إليه بزيادة على إقطاعه، ورَسم له بتفويض حكم الشام جميعه إليه، يَعزِل ويُولّي من يختار.

---

(١) في السلوك: «في ثاني ربيـع الآخر».

(٢) جمـع جلّ، وهو ما يغطى به ظهر الفرس قبل وضـع السرج والبرذعة.

(٣) شرح دوزي هذا اللفظ بأنه جمع ليوان، وأصله إيوان، وهو مقدّم اللجام.

(٤) جمع كور، وهو الرحل.

(٥) الكنبوش هو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس.

وفيه أنعم علي خليل بن قَوْصُون بإمرة طبلخاناه؛ وأنعم أيضاً على آبن المَجْدِي بإمرة طبلخاناه؛ وأنعم على أحد أولاد مَنْجَك الوزير بإمرة مائة وتقدمة ألف.

ثم في ثالث ذي الحجة أخرج طَشْبُغَا الدّوادار إلى الشام. وسببه مفاوضةٌ جَرَت بينه وبين القاضي علاء الدين عليّ بن فضل الله كاتب السرّ، أفضت به إلى أن أخذ طشبغا بأطواق كاتب السرّ ودخلا على الأمير شَيْخُون كذلك؛ فأنكر شيخون على طشبغا، وَرَسم بإخراجه، وعَمِل مكانه قُطْلِيجَا الأرْغُونيّ دواداراً. ثم رَسَم للأمير بَيْغَرا أمير جانْدارَ أن يجلس رأس ميسرة، وآستقرّ الأمير أيْتَمُش الناصري حاجب الحجاب أمير جاندار عِوضَه، وآستقرّ الأمير قُبلاي حاجب الحجّاب عوضاً عن أيتمش.

وكانت هذه السنة (أعني سنة تسع وأربعين وسبعمائة) كثيرة الوباء والفساد بمصر والشام، من كثرة قَطْع الطريق، وولاية الأمير مَنْجَك جميع أعمال المملكة بالمال، وآنفراده وأخيه بَيْبَغا أُرُس بتدبير المملكة.

ومع هذا كان فيها أيضاً الوباء لم يَقع مثلُه في سالف الأعصار، فإنه كان آبتدأ بأرض مصر آخرَ أيام التخضير في فصل الخريف في أثناء سنة ثمانٍ وأربعين. فما أهلّ المحرّم سنة تسع وأربعين حتى آشتهر وآشتدّ بديار مصر في شعبان ورمضان وشوّال، وآرتفع في نصف ذي القعدة. فكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نفس [إلى عشرين ألف نفس][1] في كل يوم. وعَمِلت الناس التوابيت والدِّكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وحُمِل أكثرُ الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحُفِرت الحفائرُ وأُلْقِيت فيها الموتى؛ فكانت الحفيرةُ يُدْفَن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر. وكان الموت بالطاعون، يَبْصُق الإنسان دماً ثمّ يَصيح ويموت؛ ومع هذا عمّ الغلاءُ الدنيا

(١) تكملة عن السلوك.

جميعَها. ولم يكن هذا الوباءُ كما عُهد في إقليم دون إقليم، بل عمّ أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشَمالاً وجنوباً جميع أجناس بني آدم وغيرهم، حتى حِيتان البحر وطير السماء ووحش البرّ.

وكان أوّل ٱبتدائه من بلاد الْقَان الكبير حيث الإقليم الأوّل، وبُعدُها من تِبْريز إلى آخرها ستّة أشهر، وهي بلاد الخِطا[1] والمُغل وأهلها يعبدون النار والشمس والقمر، وتزيد عدّتهم على ثلاثمائة جنس. فهلكوا بأجمعهم من غير علّة، في مشاتيهم ومصايفهم وعلى ظهور خيلهم؛ وماتت خيولُهم، وصاروا جِيفة مرمية فوق الأرض؛ وكان ذلك في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. ثم حَمَلت الريحُ نتنهم إلى البلاد، فما مرّت على بلد إلاّ وساعة شمّها إنسانٌ أوحيوانٌ مات لوقته؛ فهلك من أجناد القان خلائقُ لا يُحصيها إلا الله تعالى. ثمّ هلك القان وأولاده الستّة ولم يبق بذلك الإقليم من يحكمه.

ثم اتّصل الوباء ببلاد الشرق جميعها: بلاد أزبَك[2] وبلاد إسطنبول وقَيْصَرِية الروم؛ ثم دخل أنطاكية حتى أفنى مَنْ بها. وخرج جماعةٌ من بلاد[3] أنطاكية فارّين من الموت فماتوا بأجمعهم في طريقهم؛ ثم عمّ [الوباء] جبال ٱبـن قَرمان وقَيْصَرية، ففَنِي أهلُها ودوابُّهم ومواشيهم. فرَحلت الأكرادُ خوفاً من الموت، فلم يجدوا أرضاً إلا وفيها الموت، فعادوا إلى أرضهم وماتوا جميعاً. ثم وقـع ذلك ببلاد سِيس فمات لصاحبها تَكْفُور في يوم واحد بموضـع مائة وثمانون نفساً وخلت سِيس. ثمّ وقـع في بلاد الخِطا مطرٌ عظيمٌ لم يُعهد مثلُه في غير أوانه، فماتت دوابُّهم ومواشيهم عَقيب ذلك المطر حتى فَنِيت. ثمّ مات الناس والوحوش والطيور حتى خلت بلاد الخِطا؛

---

(١) ويطلق اسم الخطا على بلاد الصين جميعها في القرون الوسطى. وتحديدها من البلاد التي كانت تسمى بما وراء النهر جنوباً إلى منابع نهري إرتش وأوبي من أنهار سيبريا الحالية شمالاً.

(٢) كانت تطلق بلاد أزبك على ما كان يسمى ببلاد القفجاق، وهي أرض القبائل الذهبية من المغول التي كانت تمتد شمالي البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الفولغا.

(٣) في السلوك: «من جبال أنطاكية».

وهلك ستّة عشر مَلِكاً في مدّة ثلاث أشهر. وأفني أهل الصِّين حتى لم يبق منهم إلا القليل، وكذلك[١] بالهند.

ثمّ وَقع ببغداد أيضاً، فكان الإنسان يُصبح وقد وَجَد بوجهه طلُوعاً[٢]، فما هو إلا أن يَمُدّ يده على موضع الطلوع فيموت في الوقت. وكان أولاد دمرادش قد حَصَروا الشيخ حسناً صاحبَ بغداد، فَفَجأهم الموتُ في عسكرهم من وقت المغرب إلى باكر النهار إلى الغد، فمات منهم عدد كثيرٌ نحو الألف ومائتي رجل وستة أمراء ودوابّ كثيرة؛ فكتب الشيخ [حسن] صاحب بغداد بذلك إلى سلطان مصر.

ثمّ في أوّل جُمادى الأولى ابتدأ الوباء بمدينة حلب، ثمّ بالبلاد الشاميّة كلِّها، وبلاد مَارِدِين وجبالها، وجميع ديار بكر، وأفنى بلاد صفَدَ والقُدْس والكَرَك ونابُلُس والسواحل وعُربان البوادي حتى إنه لم يُبْقِ ببلد جِينين غير عجوز واحدة خرجت منها فارّة. وكذلك وقع بالرّملة وغيرها؛ وصارت الخانات ملآنة بجِيف الموتى. ولم يدخل الوباء مَعَرّة النُّعمان من بلاد الشام ولا بَلَد شَيْزَر ولا حارم.

وأول ما بدأ بدِمَشق؛ كان يخرُج خلف أُذن الإنسان بثرةٌ فيخرّ صريعاً. ثمّ صار يخرج للإنسان كُبَّةٌ[٣] [تحت إبطه] فيموت أيضاً سريعاً. ثمّ خرجت بالناس خِيارة فقتلت خَلْقاً كثيراً. ثم صار الآدميّ يبصق دماً ويموت من وقته؛ فآشتدّ الهول من كثرة الموت، حتّى إنه أكثر ما كان يعيشُ من يُصيبه ذلك خمسين ساعة. وبلغ عِدّةُ مَنْ يموت في كلّ يوم بمدينة حلب خمسمائة إنسان، ومات بمدينة غزّة في ثاني المحرم إلى رابع صفر ــ على ما ورد في كتاب نائبها ــ زيادة على آثنين وعشرين ألف إنسان، حتى غلقت أسواقها. وشَمِل الموت أهلَ الضِّياع بها، وكان آخر زمان

---

(١) في السلوك: وكان الفناء ببلاد الهند أقلّ منه ببلاد الصين».

(٢) الطلوع عند العامة خرّاج كبير في البدن أو في الوجه.

(٣) الكبة بالضم والتشديد: غدّة شبه الخرّاج، وأهل مصر يطلقونها على الطاعون (عن شرح القاموس).

الحرث. فكان الرجلُ يوجد ميتاً خلف مِحْراثه، ويُوجد آخرُ قد مات وفي يده ما يَبْذُره. ثمّ ماتت أبقارُهم؛ وخرج رجل بعشرين رأس بقر، لإصلاح أرضه فماتوا واحداً بعد واحد، وهو يراهم يتساقطون قُدّامه؛ فعاد إلى غزّة. ودخل ستّة نفر لسرقة دار بغزّة فأخذوا ما في الدار ليخرجوا به فماتوا بأجمعهم. وفرّ نائبها إلى ناحية بُدَّعَرْش، وترك غزّة خالية. ومات أهل قَطْيَا وصارت جُثثُهم تحت النخل وعلى الحوانيت، حتى لم يبقَ بها سوى الوالي وغلامين وجارية عجوز. وبعث [الوالي] يَستعفِي، فولّي [الوزير] عوضه مُبارك، أستادار طُغْجِي.

ثمّ عمّ الوباء بلاد الفرنج، وآبتدأ في الدوابّ ثمّ في الأطفال والشباب. فلمّا شَنع الموتُ فيهم جَمَع أهل قُبْرُس مَنْ في أيديهم من أسْرَى المسلمين وقتلوهم جميعاً من بَعْد العصر إلى المغرب، خوفاً من أن تَفْرغَ الفرنج فتملك المسلمون قُبْرُس. فلما كان بعد العشاء الأخيرة هبّت ريحٌ شديدة، وحدَثَت زلزلةٌ عظيمة، وآمتدّ البحر في المينة[1] نحو مائة قصبة، فَغرِق كثير من مراكبهم وتكسّرت. فظنّ أهلُ قُبْرُس أنّ الساعة قامت، فخرجوا حَيَارَى لا يَدْرُون ما يصنعون. ثمّ عادوا إلى منازلهم، فإذا أهاليهم قد ماتوا؛ وهلك لهم في هذا الوباء ثلاثة ملوك. وآستمرّ الوباء فيهم مدّة أسبوع، فَركِب منهم مِلكُهم الذي ملّكوه رابعاً، في جماعة في المراكب يُريدون جزيرةً بالقرب منهم، فلم يَمْضِ عليهم في البحر إلا يومٌ وليلةٌ ومات أكثرُهم في المراكب؛ ووصل باقيهم إلى الجزيرة فماتوا بها عن آخرهم. ووافى هذه الجزيرة بعد موتهم مَرْكبٌ فيها تجّار، فماتوا كلُّهم وبحّارتُهم إلا ثلاثة عشر رجلًا، فمرّوا إلى قُبْرُس فوصلوها، وقد بَقُوا أربعة نفر، فلم يجدوا بها أحداً؛ فساروا إلى طرابُلس، وحدّثوا بذلك، فلم تَطُلْ مدّتهم بها وماتوا.

وكانت المراكب إذا مرّت بجزائر الفرنج لا تجد رُكّابُها بها أحداً، و[إن صدفت][2] في بعضها جماعة [فإنهم] يَدْعونهم أن يأخذوا من أصناف البضائع ما أحبُّوا بغير ثمن. ولكثرة مَنْ كان يموت عندهم، صاروا يُلْقون الأمواتَ في البحر.

---

(١) أي الميناء.

(٢) زيادة عن السلوك. وهي ضرورية لاستقامة العبارة.

وكان سبب الموت عندهم ريحٌ تَمرّ على البحر فساعة يشمُّها الإنسانُ سَقط، ولا يزال يَضْرِب برأسه إلى الأرض حتى يموت.

وقدِمت مراكبُ إلى الإسكندرية، وكان فيها آثنـان وثلاثون تاجراً وثلاثمائة رجل ما بين بحّار وعبيد، فماتوا كلّهم ولم يصَل منهم غيرُ أربعة من التجّار وعبدُ واحد، ونحو أربعين من البحَّارة.

وعَمّ الموتُ جزيرةَ الأنْدَلُس بكمالها إلا مدينة غَرْنَاطة، فإنهم نَجَوْا، ومات مَنْ عداهم حتى إنه لم يَبق للفرنـج من يمنـع أموالهم؛ فأتتْهم العرب من إفريقية تريد أخذَ الأموال إلى أن صاروا على نصف يوم منها، فمرّتْ بهم ريـحٌ فمات منهم على ظهور الخيل جماعةٌ كثيرةٌ ودخلها باقيهم، فرأَوْا من الأموات ما هالهم، وأموالهم ليس لها مَنْ يحفظها؛ فأخذوا ما قَدَرُوا عليه، وهم يتساقطون مَوْتى. فنجا من بَقِيَ منهم بنفسه، وعادوا إلى بلادهم وقد هَلَك أكثرُهم، والموت قد فشا بأرضهم أيضاً بحيث إنه مات منهم في ليلة واحدة عددٌ كثير. [وعمَّ الموتان أرض إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموتى][1] وبَقِيت أموال العُرْبان سائبة لا تجد مَنْ يرعاها. ثمّ أصاب الغَنَم داءٌ، فكانت الشاةُ إذا ذُبِحت وُجِد لحَمْهُا مُنْتناً قد آسـودّ وتغيّر، وماتت المواشي بأسْرها.

ثم وقـع الوباء بأرض بَرْقَة إلى الإسكندرية، فصار يموت في كلّ يوم مائة. ثمّ صار يموت مائتان، وعَظُم عندهم حتى إنه صُلِّي في اليوم الواحد بالجامـع دفعة واحدة على سبعمائة جنازة. وصاروا يحملون الموتى على الجَنَويّات والألواح، وغُلِّقت دارُ الطِّراز لعدم الصُّنّاع، وغُلِّقت دارُ الوكالة[2] [لعدم الواصل إليها] وغُلِّقت الأسواق وأُريق ما بها من الخمور. وقَدِمها مَرْكبٌ فيه إفرنـج فأخبروا أنهم رَأَوْا بجزيرة طرابُلُس مَرْكباً عليه طيرٌ تحومُ في غاية الكثرة، فقصدوه فإذا جميـع مَنْ فيها ميِّت والطيرُ يأكلهم، وقد مات من الطير أيضاً شيء كثير؛ فتركوهم ومروا،

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) المقصود بدار الوكالة: فندق لنزول التجار وبضائعهم للبيـع والشراء. وبالقاهرة وغيرها من المدن المصرية التي اشتهرت بالتجارة في العصور الوسطى بقايا كثيرة من هذا النوع من الفنادق.

فما وصلوا إلى الإسكندرية حتى مات منهم زيادة على ثلثهم. ثمّ وَصَل إلى مدينة دمنهور وتَرُوجة والبحيرة كلها حتى عمّ أهلها؛ وماتت دوابهم ومواشيهم. وبطل من البحيرة[١] سائرُ الضمانات. وشَمِل الموت أهل البُرلس ونستراوة، وتعطل الصيد من البحيرة بموت الصيادين. فكانَ يخرُج في المَرْكَب عدّةُ صيادين فيموت أكثرُهم، ويعود من بَقِي منهم فيموت بعد عوده من يومه هو وأولاده وأهله. ووُجِد في حِيتان[٢] البطارخ شيءٌ منتن، وفيه على رأس البطارخة[٣] كُبّة[٤] منتنة قدر البُنْدقة قد آسودّت. ووُجد في جميع زراعات البُرُلس وبَلَحِها دُودٌ، وتَلِف أكثر تمر النَّخل عندهم. وصارت الأموات على الأرض في جميع الوجه البحريّ لا يوجد من يَدْفِنُها.

ثمّ عَظُم الوباءُ بالمحلّة حتى إنّ الوالي كان لا يجد من يشكو إليه؛ وكان القاضي إذا أتاه من يُريد الإشهاد على شخص لا يجد من العدول أحداً إلا بَعْد عناء لقلتّهم. وصارت الفنادق لا تجد من يحفظها. وماتت الفّلاحون بأسرهم إلا القليل، فلم يوجد من يضمّ الزرع. وزَهِد أربابُ الأموال في أموالهم وبذلوها للفقراء؛ فبَعث الوزير مَنْجَك إلى الغربية كريم الدين ابن الشيخ مستوفي الدولة ومحمد بن يوسف مقدّم الدولة، فدخلوا على سُنْبَاط وسَمَنُّود وبُوصِير وسَنْهُور [وأبشيه][٥] ونحوها من البلاد، وأخذوا مالاً كثيراً، لم يُحْضِروا منه سوى ستين ألفَ درهم.

وعجز أهلُ بلبيس وسائر الشرقية عن ضَمّ الزرع لكثرة موت الفلاّحين. وكان آبتداء الوباء عندهم من أوّل فصل الصيف الموافق لأثناء شهر ربيع الآخر من سنة تسع وأربعين وسبعمائة. فجافت الطُّرقَات بالموتَى، ومات سُكان بيوت الشَّعْر

(١) عبارة السلوك: «فبطل من الوجه البحري سائر الضمانات والموجبات السلطانية».

(٢) المقصود بالحوت هنا نوع من أنواع السمك. ببحيرة البرلس وساحل البحر الأبيض المتوسط، وهو مشهور بالبطارخ التي تستخرج منه. والبطرخ: بيض السمك.

(٣) في السلوك: «البطرخة».

(٤) راجع ص ١٥٧، حاشية (٣).

(٥) زيادة عن السلوك. والقرى المذكورة من مديرية الغربية.

ودوابُّهم ومواشيهم. وآمتـلأت مساجدُ بلبيس وفنادِقها وحوانيتُها بالمَوْتَى، ولم يبق مؤذّنٌ، وطُرِحت الموتى بجامعها، وصارت الكلاب فيه تأكل الموتى.

ثم[١] قَدِم الخبرُ من دِمَشْق أنّ الوباء كان بها أخفّ مما كان بطرابُلُس وحَماة وحلب، فلمّا دَخل شهر رجب والشمس في بُرْج المِيزَان أوائلَ فصل الخريف، هبّت في نصف اللّيل ريحٌ شديدة جدّاً، وآستمـرّت حتّى مَضَى من النهار قَدْرُ ساعتين، فآشتدت الظُّلمة حتى كان الرجل لا يَرَى من بجانبه؛ ثم آنجلتْ وقد عَلَتْ وجوه الناس صُفْرَةٌ ظاهرة في وادي دِمَشْق كلِّه. وأخذ فيهم الموتُ مدّةَ شهر رجب فبلَـغ في اليوم ألفاً ومائتي إنسان. وبَطَل إطلاق الموتى من الديوان، وصارت الأمواتُ مطروحةً في البساتين على الطُّرُقات. فقَدِمَ على قاضي القُضاة تَقيِّ الدين السُّبْكيّ قاضي دِمَشق رجلٌ من جبال الرُّوم، وأخبر أنّه لمّا وقَـع الوباء ببلاد الروم رَأَى في نومه رسولَ الله ﷺ، فشكا إليه ما نَزلَ بالناس من الفناء فَأَمَرهُ ﷺ أن يقول لهم: «إقرأوا سورة نُوح ثلاثةَ آلاف وثلاثمائة وستين مرّة، وآسألـوا الله في رفـع ما أنتم فيه»؛ فعرّفهم ذلك فآجتمـع الناس في المساجد، وفعلوا ما ذُكر لهم، وتضرّعوا إلى الله تعالى وتابوا إليه من ذنوبهم، وذَبحُوا أبقاراً وأغناماً كثيرة للفقراء مدّة سبعة أيام، والفناء يتناقص كلّ يوم حتى زال. فلمّا سمـع القاضي والنائب ذلك نُودِي بدِمَشْق بآجتمـاع الناس بالجامـع الأمويّ، فصاروا به جَمْعاً كبيراً وقرأوا «صحيـح البخاريّ» في ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم خَرَج الناس كافَّة بصبيانهم إلى المُصلَّى وكشفوا رؤوسهم وضَجُّوا بالدعاء؛ وما زالوا على ذلك ثلاثة أيام فتناقص الوباء حتّى ذهب بالجُملة.

وكان آبتـداؤه بالقاهرة ومصر في النساء والأطفال ثم بالباعة حتى كثرَ عددُ الأموات؛ فركِب السلطان إلى سِرْياقُوس، وأقام بها من أول شهر رجب إلى العشرين منه، وقصد العَوْدَ إلى القلعة فأشِير عليه بالإقامة في سِرْياقوس وصَوْمِ رمضان بها.

ثم قَدِم كتابُ نائب حلب بأنّ بعض أكابر الصلحاء رأى النبـيّ ﷺ في نومه، فشكا إليه ما نَزَل بالناس من الوباء، فأمره ﷺ بالتَّوْبة، والدعاء بهذا الدعاء المبارك

---

(١) قبل هذا وصف المقريزي أثر هذا الوباء في مدينة دمياط. ــ انظر السلوك: ٧٧٩/٣/٢.

وهو: «اللّهمّ سَكّن هَيْبَةَ صَدْمَةِ قَهْرمان الحروب بألطافك النازلةِ الواردِة من فَيَضان المَلَكُوت، حتى نَتَشَبَّثَ بأذيال لطفك، ونعتصِمَ بك عن إنزال قَهْرك، يا ذا القوّة والعظمة الشاملة، والقُدرة الكاملة، يا ذا الجلال والإكرام». وأنه كتب بها عِدّةَ نسـخ بعث بها إلى حَمَاة وطرابُلُس ودِمَشْق.

وفي شعبان تزايد الوباءُ بديار مصر، وعَظُم في شهر رمضان، وقد دَخَل فصلُ الشتاء، فَرُسم بالاجتماع في الجوامـع للدعاء. وفي يوم الجمعة سـادس شهر رمضان، نودِي أن يجتمـع الناس بالصنّاجِق الخليفتية والمصاحف عند قبّة النصر خارج القاهرة، فآجتمـع النـاس بعامّة جوامـع مصر والقاهرة، وخرج المصريّون إلى مُصَلّى خَوْلان بالقرافة، وآستمـرّت قراءة البُخاريّ بالجامـع الأزهر وغيره عدّة أيام، والناس يدعون إلى الله تعالى ويقْنِتُون في صَلَواتهم. ثم خرجوا إلى قبة النصر وفيهم الأمير شَيْخُون والوزير مَنْجَك اليُوسِفيّ والأمراء بملابسهم الفاخرة من الذهب وغيره، في يوم الأحد ثامن شهر رمضان.

ومات في ذلك اليوم الرجلُ الصالـح سيّدي عبد الله المَنُوفيّ، تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركاته، فَصَلّى عليه ذلك الجمـع العظيم، وعاد الأمراء إلى سِرْياقوس وآنفـضّ الجَمْـع. وآشتـدّ الوباء بعد ذلك حتى عَجَز الناس عن حَصْر المَوْتى.

فلما آنقضـى شهر رمضان حضَر السلطان من سِرْياقوس. وحَدَث في الناس في شوّال نَفَثُ الدّم، فكان الإنسان يحسّ في نفسه بحرارة ويجد غَثَيَاناً فيَبْصُق دماً ويموت عَقيبَه، ويتبعهُ أهلُ داره واحداً بعد واحد حتى يَفْنوا جميعـاً بعد ليلة أو ليلتين؛ فلم يبق أحد إلا وغلب على ظنه أنه يموت بهذا الداء. وآستعـدّ الناس جميعاً وأكثروا من الصَّدَقات، وتحالَلُوا وأقبلوا على العبادة. ولم يَحْتَـج أحدٌ في هذا الوباء إلى أشْرِبَة ولا أدْوِية ولا أطبّاء لسرعة الموت. فما انتصف شوّال إلا والطرقات والأسواق قد آمتلأت بالأموات، فانْتدِب جماعة لمواراتهم وآنْقطـع جماعةٌ للصلاة عليهم. وخرج الأمر عن الحدّ، ووقـع العجز عن العدد، وهلك أكثر أجناد الحَلْقة، وخلَت الطِّباق بالقلعة من المماليك السلطانية لموتهم.

فما أهلّ ذو القعدة إلا والقاهرة خاليةٌ مُقفرة، لا يُوجد بشوارعها مارٌّ، بحيث إنه يمرّ الإنسان من باب زَوِيلةَ إلى باب النصر فلا يرى من يُزاحمه، لاشتغال الناس بالمَوْتى. وعلَت الأتربةُ على الطُّرُقات، وتنكّرت وجوه الناس، وآمتلأت الأماكن بالصِّياح؛ فلا تجد بيتاً إلا وفيه صَيْحة، ولا تمرّ بشارع إلا وتَرى فيه عدّةَ أموات. وصُلِّي في يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات بالجامع الحاكمي، فصُفَّت التوابيتُ آثنيـن آثنيـن من باب مقصورة الخَطابة إلى باب الجامع، ووقف الإمام على العَتَبة والناسُ خلفه خارج الجامع. وخلت أزِقّةٌ كثيرةٌ وحاراتٌ عديدة من الناس، وصار بحارة[١] بَرْجَوان آثنتـان وأربعون داراً خالية. وبَقِيت الأزِقّة والدُّروب المتعدّدة خاليةً، وصارت أمتعةُ أهلها لا تَجِد مَن يأخذها، وإذا وَرِثَ إنسان شيئاً آنتقـل في يوم واحد [عنه][٢] لرابع وخامس.

وحُصِرت عِدّة من صُلِّي عليه بالمصلّيات التي خارج باب النصر وباب زَوِيلةَ وباب المحروق وتحت القلعة، ومصلّى قَتَّال[٣] السبع تُجاه باب جامع قَوْصُون، في يومين، فبلغت ثلاث عشرة ألفاً وثمـانمائـة، سوى مَنْ مـات في الأسواق والأحكار، وخارج باب البحر وعلى الدكاكين وفي الحسينية وجامع آبـن طولون، ومن يتأخر دفنه في البيوت.

ويقال: بلغت عِدّة الأموات في يوم واحد عشرين ألفاً، وحُصِرت الجنائز باالقاهرة فقط في مدّة شعبان ورمضان فكانت تسعمائة[٤] ألف، سوى من مات

(١) عبارة السلوك: «وصارت حارة برجوان اثنين وأربعين داراً خالية» وإذا اعتمدنا عبارة المقريزي نستدل منها على عدد بيوت هذه الحارة القاهرية الكبيرة في ذلك الوقت. والمراد بالحارة هنا مجموعة من البيوت القريبة من بعضها البعض والتي تشكل حياً من الأحياء أو خطاً من الأخطاط. وحارة برجوان تنسب إلى أبـي الفتوح برجوان مدبر مملكة الحاكم بأمر الله الفاطمي ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٣، ٩٥.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) هو الأمير جمال الدين آقوش المنصوري المعروف بقتال السبع الموصلي. ــ وعن جامع قوصون انظر خطط المقريزي: ٢/٣٠٧.

(٤) كذا أيضاً في السلوك. ــ وهذا العدد مبالـغ فيه كثيراً، ولعل المؤلف يقصد تسعين ألفاً، لأن عدد سكان القاهرة وضواحيها لم يزد في أية سنة من السنين السابقة للقرن الماضي عن خمسمائة ألف نفس على أكثر تقدير. (عن تعليقات محمد رمزي على النجوم).

بالأحكار والحسينية والصَّلِيبة وباقي الخطط خارج القاهرة وهم أضعاف ذلك. وعدمت النُّعوش، وكانت عدَّتُها ألفاً وأربعمـائة نَعْش، فحُمِلت الأمـوات على الأقفاص ودَرَاريب[1] الحوانيت؛ وصار يُحمل الاثنان والثلاثة في نعش واحد وعلى لوح واحد. وطُلبت القرّاء على الأموات، فأبطل كثير من الناس صناعاتهم، وآنْتُدِبُـوا للقراءة على الجنائز. وعَمِل جماعةٌ مُدَرَاءَ[2] وجماعةٌ غُسّالاً وجماعة تصدّوْا لحمل الأموات، فنالوا بذلك جُمَلاً[3] مستكثَرة، وصار المقرىء يأخذ عشرة دراهم، وإذا وصل [الميت] إلى المُصَلّاة تَركَه وآنصرف لآخر. [وصار] يأخذ الحمّال ستّة دراهم بعد الدُّخْلَة عليه، وصار الحفّار يأخذ أجرة حفر كلّ قبر خمسين درهماً، فلم يُمَتّـع أكثرهم بذلك وماتوا.

ودخلت آمـرأة غاسلة لتُغَسِّل آمـرأة، فلمّا جرّدَتها من ثيابها، ومرّت بيدها على موضـع الكُبّة، صاحت الغاسلة وسقطت ميتّة؛ فوجدوا في بعض أصابعها التي لمَسَتْ بها الكُبّة كُبّة قَدْر الفُولة. وصار الناس يبَيّتُون بموتاهم في التُّرَب لعجزهم عن تواريهم. وكان أهلُ البيت يموتون جميعاً وهم عشرات، فلا يوجد لهم سوَى نَعْش واحد يُنْقَلُون فيه شيئاً بعد شيء. وأخذَ كثير من الناس دُوراً وأموالاً بغير آستحقـاق، لموت مُسْتَحِقيها، فلم يتملَّ أكثُرهم بما أخذ، حتى مات بعدَهم بسرعة، ومَنْ عاش منهم استغنى [به]، وأخذ كثيرٌ من العامة إقطاعاتِ حلقة.

وقام الأمير شَيْخون العُمريّ والأمير مُغْلَطاي أمير آخور بتغسيل الأمـوات وتكفينهم ودفنهـمْ وبطَل الأذان من عِدّة مواضـع، وبَقِي في المواضـع المشهورة يُؤذّن واحد. وبَطَلت أكثر طَبْلخَاناة الأمراء، وصار في طبلخانة الأمير شيخون[4]

---

(١) الدراريب: جمع درابة، وهي أحد مصراعي الباب.
ولعله أصل «الدرفة» اللفظ الذي يطلقه العامة على أحد مصراعي الباب أو الشباك.

(٢) المدراء: جمع مادر، وهو الذي يتولى إصلاح داخل القبر بالمدر أي الطين اليابس (محيط المحيط).

(٣) عبارة السلوك: «فنالوا بذلك سعادة وافرة» والمراد في الحالتين أنهم حصلوا أموالاً كثيرة من عملهم هذا.

(٤) عبارة السلوك: «وصار في طبلخانة المقدم ثلاثة نفر بعدما كانوا خمسة عشر». والمراد الأمير المقدم، أي رتبة أمير مائة مقدم ألف، وهي أكبر مراتب الإمارة. والعبارة تشير إلى عدد فرقة الطبلخاناه (فرقة الطبول والموسيقى التي كانت ترافق الأمير) في الأوقات العادية.

ثلاثةُ نفر بعد خمسة عشر نفَرَاً. وغُلِّقت أكثُر المساجد والزوايا. وقيل إنه ما وُلِد لأحد في هذا الوباء إلا ومات الولد بعد يوم أو يومين ولَحِقَتْه أمّه.

ثمّ شَمِل في آخر السنة الوباءُ بلادَ الصعيد بأسْرها؛ ولم يدخل الوباءُ ثَغْرَ أسوان، ولم يمت به سوى أحد عشر إنساناً. ووجُدت طيور كثيرة ميِّتة في الزروع ما بين غِربان وحِدَأَة وغيرها من سائر أصناف الطيور. فكانت إذا نُتِفَتْ وُجِد فيها أثر الكُبة.

وتواترت الأخبار من الغَوْر وبَيسان وغير ذلك أنهم كانوا يجدون الأسود والذئاب وحُمُر الوحش، وغيرَها من الوحوش ميّتة وفيها أثرُ الكُبّة.

وكان آبتدأ الوباء أوّل[1] أيام التّخْضِير، فما جاء أوانُ الحَصَاد حتى فنوا الفّلاحون ولم يبق منهم إلا القليل؛ فخرج الأجناد بغِلْمانهم للحصاد ونَادوا: من يحصُد يأخذ نصف ما حصد. فلم يجدوا واحداً، ودَرَسُوا غِلالَهم على خيولهم وذرّوها بأيديهم، وعجزوا عن غالب الزرع فتركوه. وكان الإقطاع الواحد يصير من واحد إلى واحد حتى إلى السابع والثامن، فأخَذَ إقطاعاتِ الأجنادِ أربابُ الصنائع من الخياطين والأساكفة، ورِكبُوا الخيولَ ولبسوا الكَلْفتاه والقَبَاء. وكثيرٌ من الناس لم يتناول في هذه السنة من إقطاعه شيئاً. فلمّا جاء النيل ووقع أوانُ التخضير، تعذر وجودُ الرجال فلم يُخَضَّر إلا نصفُ الأراضي، ولم يوجد أحدٌ ليشتري القُرْط[2] الأخضر ولا من يَرْبط عليه خيولَه. وتُرِك ألفُ وخمسمائة فدان [براسيم][3] بناحية ناي وطَنَان[4]، وآنكسرت البلاد التي بالضواحي وخَرِبت. وخَلَت بلاد الصعيد مع

(١) في السلوك: «في آخر أيام التخضير».

(٢) القرط: هو النبات المعروف باسم البرسيم، وهو مخصص لغذاء الدواب. وما يجفف منه يسمى الدريس.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) طنان: اسمها المصري «تانتت» ثم حرف في عهد العرب إلى طنان. وناي اسمها المصري القديم «نانهاتي» ثم حرّف إلى ناي. وهما من القرى المصرية القديمة، ويتبعان اليوم لمركز قليوب بمديرية البحيرة. (محمد رمزي).

آتساع أرضها، بحيث كانت مكلفة مساحة أرض أسيوط تشتمل على ستة الآف نفر يؤخذ منها الخراجُ، فصارت في سنة الوباء هذه تشتمل على مائة وستة عشر نَفَراً.

ومع ذلك كان الرّخاء موجوداً وآنحط سِعْرُ القماش حتى أُبيع بخُمْس ثمنه وأقلّ، ولم يوجد مَنْ يشتريه. وصارت كُتُبُ العِلْمِ يُنَادَى عليها بالأحمال، فيباع الحْمِلُ منها بأرخص ثمن. وآنحطَّ قَدْرُ الذهب والفِضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهماً، بعد ما كان بعشرين. وعَدِمت جميع الصُّناعِ، فلم يوجد سَقاء ولا بَابَا[١] ولا غُلاَم. وبلغت جَامَكِيّة الغلام ثمانين درهماً، عنها خمس[٢] دنانير وثُلُث دينار، فُنودِي بالقاهرة: من كانت له صنعة فليرجع إلى صنعته، وضُرِب جماعة منهم. وبَلَغ ثمن راوية الماء ثمانية دراهم لقلّة الرجال والجمال؛ وبلغت أُجرة طحن الإردب القمح ديناراً[٣].

ويقال: إنّ هذا الوباء أقام يدور على أهل الأرض مدّة خمس عشرة سنة.

قلت: ورأيتُ أنا مَنْ رأى هذا الوباء، فكانوا يسمُّونه الفصل الكبير، ويسُّمونه أيضاً بسنة الفناء[٤]، ويتحاكَوْن عنه أضعاف ما حكيناه، يطول الشرح في ذكره.

وقد أكثر الناس ذكر هذا الوباء في أشعارهم فمّما قاله شاعر ذلك العصر الشيخ جمال الدين محمد بن نبَاتة: [الخفيف]

سِر بنا عن دِمَشْق يا طالبَ العَيْـ ـشِ فما في المُقام للمرء رَغْبَهْ
رَخُصت أنْفُس الخلائق بالطّا عونِ فيها فكُلُّ نفسٍ بحَبَّهْ

---

(١) البابا: غاسل الثياب.

(٢) المراد من هذه العبارة غير واضح. وعبارة السلوك: «وبلغت جامكية غلام الخيل ثمانين درهماً في كل شهر، بعد ثلاثين درهماً».

(٣) في السلوك: «خمسة عشر درهماً».

(٤) ذكر القلقشندي أنه جرى تحويل سنة ٧٤٩هـ الخراجية إلى سنة ٧٥٠هـ، وبذلك ألغيت سنة ٧٤٩هـ من الحساب الخراجي. وهذه العملية ــ أي تحويل السنين، للتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية من أجل شؤون الخراج كانت تتم كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية. وكان يقال في حينه أنه في تلك السنة (أي ٧٤٩هـ) مات كل شيء حتى السنة نفسها، وذلك إشارة إلى هول ما أحدثه ذلك الوباء. (انظر صبح الأعشى: ١٣/٦٢).

وقال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ وأكثر في هذا المعنى على عادة إكثاره؛ فمّما قاله في ذلك: [الوافر]

رَعَى الرحمنُ دهراً قد تولّى ... يُجازِي[١] بالسَّلامةِ كُلَّ شَرْطِ
وكان الناسُ في غَفَلاتِ أمْرٍ ... فَجَاطاعُونُهم من تَحْتِ إِبطْ

وقال أيضاً: [الكامل]

قد قُلت للطّاعون وهو بغَزَّةٍ ... قد جالَ من قَطْيَا إلى بَيْرُوتِ
أخليتَ أرض الشام من سُكّانِها ... وأتيتَ[٢] يا طاعونُ بالطاغوتِ

وقال الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب [الحلبي] في المعنى من قصيدة أولُها: [الخفيف]

إنّ هذا الطاعونَ يَفْتِكُ في العَا ... لَمِ فَتْك امرِىء ظَلومٍ حَسُودِ[٣]
ويطوفُ البلادَ شرقاً وغرباً ... ويسوقُ الخُلُوقَ[٤] نحو اللُّحُود

ولـ[زين الدين عمر][٥] بن الوَرْدِيّ في المعنى: [البسيط]

قالوا فسادُ الهواءِ يُرْدِي ... فقلتُ يُرْدِي هوى الفسادِ
كم سيِّئاتٍ وكم خَطَايَا ... نادَى عَلَيْكُمْ بها المنادِي

وقال أيضاً: [الرمل]

حَلَبٌ ـ واللهُ يكْفِي ... شَرَّها ـ أرضُ مَشَقَّهْ
أصبحتْ حَيَّةَ سُوءٍ ... تقتُل الناس ببَزْقَهْ

ولابن الوَرْدِيّ أيضاً: [الرجز]

---

(١) في السلوك: «يحاذي».
(٢) في السلوك: «وحكمت».
(٣) في السلوك: «حقود».
(٤) في السلوك: «ويسوق العباد».
(٥) زيادة عن السلوك.

إنّ الوَبَا قد غَلَبَا وقدْ بدا في حَلَبَا
قالوا له على الوَرَى كافٌ ورا قلتُ وَبَا

وقال أيضاً: [الكامل]

سُكّان سيسَ يسرُّهم ما ساءنا وكذا العوائدُ من عدوّ الدِّينِ
اللهُ يُنْفِذُه إليهم عاجلاً ليمزِّقَ الطاغوتَ بالطاعونِ

وقال الأديب جمال الدين إبراهيم المعمار في المعنى: [الرمل]

قبُح الطاعونُ داءً فقدت فيه الأحِبّهْ
بيعت الأنفس فيه كلُّ إنسانٍ[1] بحبَّهْ

وله أيضاً في المعنى: [السريع]

يا طالبَ الموت أَفِقْ وانْتَبِهْ هذا أوانُ الموتِ ما فاتا
قد رَخُصَ الموتُ على أهله ومات مَن لا عُمْرُه ماتا

ثم أخذ الوباء يتناقص في أوّل المحرّم من سنة خمسين وسبعمائة.

ثم في يوم الأربعاء ثاني عشر[2] المحرم المذكور، ورد الخبر بقتل الأمير سيف الدين أَرْغُون شاه نائب الشام، وأمره غريب؛ وهو أنه لما كان نصف ليلة الخميس ثالث عشرينه وهو بالقصر الأبلق بالميدان خارج مدينة دِمَشق ومعه عياله، وإذا بصوت قد وقع في الناس بدخول العسكر، فثاروا بأجمعهم؛ ودارت النُّقَباء على الأمراء بالركوب ليقفوا على مرسوم السلطان. فركبوا جميعاً إلى سوق الخيل تحت القلعة، فوجدوا الأمير أُلْجِيبُغَا المظفَّري نائب طرابُلُس، وإذا بالأمير أَرغون شاه نائب الشام [ماشٍ، وعليه بغلوطاق صدر وتخفيفة على رأسه وهو][3] مُكَتَّفٌ بين مماليك الأمير إياس؛ وخبر ذلك أن أُلجيبغا لما رَكِب من طرابُلُس سار حتى طَرَق

(١) في السلوك: «كل نفس بحُبَيْبَة».
(٢) في السلوك: «تاسع عشر من ربيع الأول».
(٣) زيادة عن السلوك.

دِمَشق على حين غَفْلة، وركب معه الأمير فخر الدين إياس السِّلاح دار. وأحاط إياس بالقصر الأبلق وطَرقَ بابه. وعَلِم الخدّام بأنه قد حَدَث أمر مهم، فأيقظوا الأمير أرغون شاه؛ فقام من فراشه وخرج إليهم، فقبضوا عليه، وقالوا له: «حضر مرسوم السلطان بالقَبْض عليك» والعسكر واقف. فلم يَجْسُر أحد أن يَدْفع عنه، وأخذه الأمير إياس وأتى به أُلْجيبُغا. فسلَّم أمراءُ دمشق على ألجيبغا، وسألوه الخبرَ، فذكر لهم أن مرسوم السلطان ورد عليه بركوبه إلى دِمَشق بعسكر طرابُلُس، والقبض على أَرْغون شاه المذكور وقتله، والحَوْطة على ماله وموجوده؛ وأخرج لهم كتابَ السلطان بذلك؛ فأجابوا بالسمع والطاعة، وعادوا إلى منازلهم؛ ونزل أُلجيبغا إلى الميدان. وأصبح يوم الخميس فأوقع الحوطة على موجود أَرْغُون شاه؛ وأصبح يوم الجمعة رابع عشرين ربيع الأوّل أرغون شاه المذكور مذبوحاً. فكتب أُلجيبغا محضراً أنه وجده مذبوحاً والسِّكين في يده، (يعني أنه ذَبح نفَسه) فأنكر عليه كونه لمّا قَبَض أموال أرغون شاه، لم يرفعها إلى قلعة دِمَشق على العادة، وآتّهموه فيما فعل. وركبوا جميعاً لقتاله في يوم الثلاثاء ثامن عشرينه، فقاتلهم أَلْجيبُغَا المذكور وجرح الأمير مسعود بن خطير، وقُطِعت يد الأمير ألجيبغا العادلي أحد أمراء دِمَشق، وقد جاوز تسعين سنة؛ فعند ذلك ولّى ألجيبغا المظفّري نائب طرابلس، ومعه خيولُ أرغون شاه وأموالُه، وتوجّه إلى نحو المِزَّة ومعه الأمير إياس نائب حلب كان، ومضى إلى طرابُلُس.

وسبب هذه الواقعة أنّ إياساً لما عُزل عن نيابة حلب وأُخِذت أمواله وسُجن، ثم أفْرِج عنه وآستقرّ في جملة أمراء دِمشق، وعَدوُّه أرغون شاه الذي كان سعى في عزله عن نيابة حلب نائبها، فصار أرغون شاه يُهِينُه ويخْرق به. وآتفق أيضاً إخراج أُلجيبغا من الديار المصرية إلى دِمشق أميراً بها، فترفّع عليه أيضاً أرغون شاه المذكور وأذلّه، فـآتّفق ألجيبغا وإياس على مكيدة. فأخذ ألجيبغا في السعي على خروجه من دِمَشق عند أمراء مصر، وبعث إلى الأمير بيبغا أُرُس نائب السلطنة بالديار المصرية، وإلى أخيه الأمير مَنْجَك الوزير هدّيةً سنيّة، فولّاه نيابة طرابُلُس؛ وأقام بها إلى أن كتب يعرّف السلطان والأمراء أن أكثر عسكر طرابلس مقيم بدمشق، وطلب

أنّ نائب الشام يَرُدُّهم إلى طرابلس، فكتب له بذلك. فشقّ على أرغون شاه نائب الشام كون ألجيبغا لم يكتب إليه [يسأله]، وأرسل كاتَبَ السلطانَ في ذلك، فكتب[١] إلى ألجيبغا بالإنكار عليه فيما فَعَل، وأغلظ له في القول، وحَمَل البَريدِيُّ إليه مشافهةً شنيعةً؛ فقامت قيامةُ ألجيبغا لّما سَمِعها، وفَعَل ما فعل، بعد أن أوسع الحِيلَة في ذلك، فآتفق مع إياس فوافقه إياس أيضاً، لِمَا كان في نفسه من أرغون شاه حتى وقع ما ذكرناه.

وأما أمراء الديار المصرية فإنهم لما سَمِعُوا بقتل الأمير أَرغُون شاه آرتاعوا، وآتهم بعضُهم بعضاً؛ فحلف كُلٌّ من شَيْخون والنائب بَيْبُغا أرسُ على البراءة من قتله، وكتبوا إلى أُلْجيبغا بأنَّه قَتل أرغون شاه بمرسوم مَنْ! وإعلامهم بمستنده في ذلك؛ وكتب إلى أمراء دِمَشق بالفحص عن هذه الواقعة. وكان ألجيبغا وإياس قد وصلا إلى طرابُلُس، وخيّما بظاهرها؛ فقَدِم في غد وصولهما كُتُبُ أمراء دِمَشق إلى أمراء طرابُلُس بالاحتراس على ألجيبغا حتى يَرِدَ مرسومُ السلطان، فإنه فعل فعلتَه بغير مرسوم السلطان، «ومشتْ حِيلتُه علينا». ثم كتبوا إلى نائب حَمَاة ونائب حَلَب وإلى العُرْبان بمَسْك الطُّرُقات عليه؛ فَرِكب عسكر طرابلس بالسلاح وأحاطوا به. ثم وافاهم كتابُ السلطان بمسكه، وقد سار عن طرابلس، وساروا خلفه إلى نهر الكلب عند بَيْرُوت [فإذا أمراء العربان وأهل بيروت واقفون في وجهه][٢] فوقَفَ قدّامَهم نهارَه، ثم كر راجعاً عليهم، فقاتله عسكر طرابلس، حتى قبضوا عليه، وفرّ إياس. ووقعت الحَوْطَة على مماليك أُلْجيبغا وأمواله، ومسك الذي كتَبَ الكتاب بقتل أَرغُون شاه، فآعتذر أنه مُكْرَه، وأنه غيَّر ألقاب أرغون شاه، وكَتَب أَوصْالَ الكُتُبِ مقلوبة حتى يُعْرف أنه زَوَّر. وحُمِل ألجيبغا المذكور مقيَّداً إلى دمَشق. ثم قَبَض نائب بَعْلَبَكّ على الأمير إياس، وقد حَلَق لحِيْتَه ورأسه، وآختفى عند بعض النصارى، وبعث به إلى دمشق، فَحُبِسا معاً بقلعتها، وكَتَبَ بذلك إلى

---

(١) السياق هنا يرجحّ أن فاعل «كتب» هو السلطان. وفي السلوك أن أرغون شاه هو الذي كتب إلى ألجيبغا بالإنكار عليه فيما فعل.. إلخ.

(٢) زيادة عن السلوك.

السلطان والأمراء؛ فندب الأمير قجا الساقي على البريد إلى دمشق بقتل ألجيبغا وإياس، فأخرجهما من حبس قلعة دمشق ووسَّطهما بسوق الخيل بدمشق، وعلّق إياس على خشب وقدّامه ألجيبغا على خشبة أُخرى، وذلك في يوم الخميس حادي عشرين شهر ربيع الآخر. وكان عُمُر ألجيبغا المذكور يوم قُتل نحو تسع عشرة سنة وهو ماطُرّ شاربُه.

ثمّ كَتَب السلطان بآستقرار الأمير أرقطاي نائب حلب في نِيابة الشام عوضاً عن أَرْغُون شاه المذكور. وآستقرّ الأمير قُطْلِيجَا الحمويّ نائب حَمَاة في نيابة حلب عوضاً عن أرقطاي. وآستقرّ أمير مسعود بن خَطِير في نيابة طرابلُس عوضاً عن أَلْجُيبَغا المظفَّري المقدّم ذكره. ثمّ قَدِم إلى مصر طُلْبُ أرغون شاه ومماليكُه وأموالُه وموجودُ ألجيبغا أيضاً، فتصرّف الوزير منجَك في الجميع.

وبعد مدّة يسيرة ورد الخبر أيضاً بموت الأمير أرقطاي نائب دِمَشْق، فكتب بآستقرار قُطْلِيجا الحمويّ نائب حلب في نيابة دِمَشق، وتوجّه الأمير تلكتمر[١] المحمدي بتقليده بنيابة الشام؛ وسار حتى وصل إليه فوجده قد أَخْرج طُلْبَه إلى جهة دمشق وهو ملازم الفراش، فمات قطليجا أيضاً بعد أسبوع. ولما وصل الخبر إلى مصر بموت قطليجا، أراد النائب بَيْبُغا أُرُس والوزير منْجك إخراج طاز لنيابة الشام، والأمير مُغْلَطَاي أمير آخور إلى نيابة حلب، فلم يُوافِقَاهما على ذلك، وكادت الفتنةُ أن تقع. فخُلِع على الأمير أَيْتَمُش الناصريّ بنيابة الشام، وآستقرّ بعد مدّة الأمير أرغون الكاملّي في نيابة حلب.

وفي محّرم سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، آبتدأت الوحشة بين الأمير مُغْلَطاي أمير آخور وبين الوزير مَنْجَك اليوسفي، بسبب الفأر[٢] الضامن، وقد شكا

---

(١) في السلوك: «ملكتمر».

(٢) هو ناصر الدين الملقب بفأر السقوف. كان قد توصل بمساعدة الكركيين إلى أن يعينه السلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون إماماً خاصاً يصلي به. وفي أيام الناصر حسن صاحب الترجمة هنا أصبح بيد فأر السقوف ضمان جهات القاهرة ومصر بأجمعها، فأحدث حوادث قبيحة في دار البطيخ ودار السمك وسائر المعاملات، وزاد في ضرائب المكوس، وتمكن من الأمير منجك. (انظر السلوك: ٢/٣/٦٠٦، ٨٠٦، ٨١٤).

منه. فطلبه مُغْلَطاي من الوزير وقد آحتمى به، فلم يُمكِّنه منه. وكان مَنْجَك لما فرغ [من بناء][1] صِهرِيجه الذي عَمّره تُجاه القلعة عند باب الوزير، اِشترى له من بيت المال ناحية بُلْقِينة بالغربية بخمسة وعشرين ألف دينار، وأَنعم عليه بها، فوقفها مَنْجَك على صهريجه المذكور؛ فأَخذ مُغْلَطاي يعدّد لمنجك تصرّفه في المملكة، وسَكَن الأمر فيما بينهما.

ثم توجه السلطان إلى سَرْحة سِرْياقوس على العادة في كل سنة وأنعم على الأمير قطليجا[2] الذهبيّ بإقطاع الأمير لاجين أمير آخور بعد موته، وأنعم بإقطاع قطلوبغا وتقدمته على الأمير عُمَر بن أَرْغون النائب. ثمّ آستقر بكلمش أمير شِكار في نيابة طرابلس، عوضاً عن أمير مسعود بن خَطِير، وكتب بإحضار أمير مسعود إلى القاهرة. ثم عاد السلطان من سَرْحة سِرْياقوس، وكتب بعوْد أمير مسعود إلى دِمشق بَطَّالاً، حتى يَنْحَلّ له [من الإقطاع] ما يليق به. وخلع على الأمير فارس الدين ألبكي بآستقراره في نيابة غزّة بعد موت الأمير دِلَنْجي، ودلنجِي باللغة التركية هو المُكَدّي (وهو بكسر الدال المهملة وفتح اللام وسكون النون وكسر الجيم).

وفي هذه الأيام توجّه الأمير طاز إلى سَرْحة البُحَيْرة، وأنعم السلطان عليه بعشرة الآف إردبّ شعير وخمسين ألف درهم وناحية طمُّوه [من الجيزية][3] زيادة على إقطاعه.

وفي خامس عشر شوّال خرج أمير حاجّ المحمل الأمير بُزْلار أمير سلاح. ثم خرج بعده طُلْبُ الأمير بَيْبُغا أُرُس النائب بتجمُّل زائد، وفيه مائة وخمسون مملوكاً مُعَدّة بالسلاح. ثم خرج طُلْبُ الأمير طاز وفيه ستون فارساً، فرحَل بيبغا أرُس قبل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. والصهريج هو خزان للمياه. ـ انظر خطط المقريزي: ٢/٣٢٠ في كلامه على جامع منجك.

(٢) في السلوك: «وأنعم على الأمير قطلوبغا الذهبي بإقطاع الأمير لاجين أمير آخور بعد موته، وأنعم بإمرته وتقدمته على الأمير عمر بن أرغون النائب» وهو الصواب الذي يستقيم به المعنى.

(٣) زيادة عن السلوك.

طاز بيومين. ثمّ رحل طاز بعده. ثمّ رحل بزلار بالحاجّ رَكْباً ثالثاً في عشرين شوّال من البركة[١].

وفي يوم السبت رابع عشرينه عُزل الأمير مَنْجَك اليوسفيّ عن الوَزَر، وقُبِض عليه، وكان الأمير شَيْخون خرج إلى العبّاسة. وسبُب عزله أن السلطان بعد توجُّه شيخون طَلَب القضاة والأمراء، فلما آجتمعوا بالخدمة، قال لهم: «ياأمراء هل لأحد عليَّ ولاية حَجْر، أو أنا حاكم نفسي؟» فقال الجميع: «يا خَوَنْد، ما ثَمّ أحدٌ يَحْكم على مولانا السلطان، وهو مالك رقابنا» فقال: «إذا قلتُ لكم شيئاً ترجعوا إليه؟» قالوا جميعهم: «نحن تحت طاعة السلطان وممتثلون ما يَرْسُم به». فالتفت إلى الحاجب وقال له: «خُذ سيف هذا»، وأشار إلى مَنْجَك الوزير، فأخَذ سيفَه وأُخْرِج وقُيِّد؛ ونزلت الحَوْطَةُ على أمواله مع الأمير كشلي السلاح دار، فَوُجِد له خمسون حِمْل زَرَدْخاناه، ولم يُوجد له كبيرُ مال، فَرُسم بعقوبته؛ ثمّ أُخْرج إلى الإسكندرية فسجِن بها. وساعةَ القبض عليه رُسِمَ بإحضار الأمير شَيْخون من العباسة وإعلامه بمسْك مَنْجك الوزير. فقام الأمير مُغْلَطاي أمير آخور والأمير مَنْكَلي بُغَا في منعه من الحضور، وما زالا يُخَيِّلان السلطان منه حتى كُتِب له مرسومٌ بنيابة طرابُلُس، على يد طَيْنال الجاشْنَكير. فتوجّه إليه [طينال] فلَقِيَه قريب بلبيس، وقد عاد صحبةَ الجَمَدار الذي توجه بإحضاره من عند السلطان، وأوقفه على المرسوم، فأجاب بالسمع والطاعة. وبَعَثَ [شيخون] يسأل في الإقامة بدِمَشْق، فكَتَب له بخبز الأمير تُلَك بدمشق، وحضور تلك إلى مصر، فتوجّه شيخون إليها.

ثمّ قَبَض السلطان على الأمير عمر شاه الحاجب وأخرج إلى الإسكندرية. واستقرّ الأمير طَنْيَرَق رأس نَوْبة كبيراً عوضاً عن شيْخون. ثم قَبَض على حواشي مَنْجَك وعلى عبده عَنْبَر البابا وصُودِر. وكان عنبر قد أفحش في سيرته مع الناس، [وشَرِهَ][٢] في قطْع المصانعات[٣]، وتَرفَّع على الناس ترفُّعاً زائداً؛ فضُرِب ضرباً

(١) المقصود ناحية بركة الحاج أو بركة الجبّ، إحدى قرى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية بمصر في شمال القاهرة. (محمد رمزي).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) لعل المراد بذلك أموال الرشوة والمداراة

مُبَرحاً. ثمّ ضُرِب بَكْتَمُرشادّ الأَهْراء فاعترف للوزير منجك باثنى عشر ألف إردبّ غلّة، آشتراها من أرباب الرواتب.

وفي مستهلّ ذي القَعْدة قُبَض على ناظر الدولةِ والمستَوْفين، وأُلْزِموا بخمسمائة ألف دينار؛ فترفّق في أمرهم الأمير طَنْبَرَق، حتى آستقـرت خمسمائة ألف درهم، ووزَّعها الموفّق ناظرُ الدولة على جميـع [المباشرين من](١) الكُتّـاب [والشهود والشادّين ونحوهم] والتزمَ عَلَمُ الدين عبد الله بن زُنْبُور ناظر الخاصّ والجيش بتَكْفِيَة جميـع الأمراء المقدّمين بالخِلَـع من ماله، وقيمتها خمسمائة ألف درهم، وفَصَّلها وعَرَضَها على السلطان؛ فركبوا الأمراء بها المَوْكِب، وقبّلوا الأرض، وكان مَوّكِباً جليلاً.

وفي يوم السبت ثامن ذي القعدة خَلَـع السلطان على الأمير بَيْبغا طَطَر حارس طير، وآستقـرّ في السلطنة بالديار المصرية عوضاً عن بَيْبُغا أُرُس المتوجّه إلى الحجاز، بعد أن عُرِضت النيابة على أكابر الأمراء فلم يقَبلها أحد. وتمنـعّ بيبغا ططر أيضاً منها تمنُّعاً كبيراً، ثم قبِلها. وآستقرّ الأمير مُغْلَطاي أمير آخور رأس نَوْبة كبيراً، عوضاً عن طنيرق، الذي كان وليها عن شَيْخون. وأُطلق له التحدّث في أمر الدولة كلِّها عوضاً عن الأمير شيخون، مضافاً لِما بيده من الأميراخوريـة(٢). وآستقـرّ الأمير مَنْكَلي بُغَا الفخري رأسَ مَشورة وأتابَك العساكر، وأُنعِم على ولده بإمرة ودقّت الكُوسات وطبلخانات الأمراء بأجمعها، وزُيِّنت القاهرة ومصر، في يوم الأحد تاسـع ذي القعدة وآستمـرّت ثمانية أيام.

وأما شَيْخون فإنه لما وصل إلى دِمشق، قدم بعده الأمير أرْغُون التـاجي بإمساكه، فقَبَض عليه وقُيِّد وأُخرج من دِمشق في البحر وتوجه إلى الطِّينة(٣)، ثم أوصله إلى الإسكندرية فسُجن بها.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «مضافاً إلى ما بيده من التحدث في الإصطبل» وكلاهما يؤدي نفس المعنى.

(٣) في معجم البلدان أنها بليدة بين الفرما وتنيس من أرض مصر. ويرى الأستاذ محمد رمزي أنها لم تكن بليدة وإنما كانت نقطة عسكرية لحراسة الحدود، وكان بها قلعة لهذا الغرض. ولا تزال آثار قلعتها ظاهرة بالقرب من ساحل البحر المتوسط في الشمال الغربي لأطلال مدينة الفرما.

وخُلَع على طَشْبُغا الدَّوَادار على عادته دَوَاداراً، وتصالح هو والقاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السرّ ــ فإنه كان نُفي بسببه حسب ما تقدّم ذكُره ــ وأرسل كُلٌّ منهما إلى صاحبه هديّة.

وكان السلطان لمّا أمسك مَنْجَك، كتَب إلى الأمير طاز وإلى الأمير بُزلْار على يد قُرْدُم، وأخبرهما بما وقع، وأنهما يحترسان على النائب بَيْبُغا أُرُس، وقد نزل سطح العَقَبة. فلمّا قرأ بيبغا الكتاب وَجَم وقال: «كلُّنا مماليك السلطان»، وخَلَع عليه، وكَتَب أنه ماضٍ لقضاء الحج.

ثم إنّ السلطان عزل الأمير صَرْغتمش والأمير عَلِيًّا من وظيفتي الجَمَدارية، وكانا من جملة حاشية شَيْخون، ورَسَم لصَرْغَتُمش أن يدخل الخِدمة مع الأمراء؛ ثم أخرج أمير علي إلى الشام، وأخرج صرغتمش لكشف الجسور بالوجه القبلي وألزم [السلطان] أستادار بَيْبُغا أُرُس بكتب حواصل بيبغا، ونَدَب السلطان الأمير آقْجُبَا الحموي لبيع حواصل مَنْجَك. وأُخِذت جواري بيبغا أُرُس ومماليكُه، وجوارِي منجك ومماليكه، إلى القلعة؛ فطَلَع لمنجك خمسة وسبعون مملوكاً صِغاراً، وطلع لبيبغا أُرُس خمس وأربعون جارية؛ فلما وصَلْنَ تُجاه دار النيابة، صِحن صيحةً واحدة وبَكَيْنَ، فأبْكَين من كان هناك.

ثم قدم الخبرُ على السلطان بأنّ الأمير أحمد الساقي نائب صَفَد، خرج عن طاعة السلطان. وسببه أنه لما قَبَض على منجك، خرج الأمير قُمارِي الحمويّ وعلى يده ملطّفات لأمراء صَفَد بالقبض عليه، فبلغه ذلك من هَجّان جهّزه له أخوه. فنَدَب [الأمير أحمد] طائفة من مماليكه لتَلقِّي قُمارِي، وطلب نائب قلعة صفد وديوانه، وأمَرَه أن يقرأ عليه كم له بالقلعة من الغلّة، فأمر لمماليكه منها بشيء فرّقه عليهم إعانة لهم على ما حصل من المَحْل في البلاد، وبعثهم ليأخذوا ذلك؛ فعند ما طلعوا القلعة شهروا سيوفهَم وملَكوها من نائب قلعة صَفَد، وقبضوا على عِدّة من الأمراء. وطَلَع [الأمير أحمد] بحريمه إلى القلعة وحصَّنها، وأخذَ مماليكُه قُماري وأتَوْا به، فأخذ ما معه من الملطفات وحبسه. فلما بلغ السلطانَ ذلك كتبَ إلى نائب غَزّة ونائب الشام بتجريد العسكر إليه. هذا والأراجيفُ كثيرة بأنّ طاز تحالف هو وبيبغا أُرُس

بعَقَبة أيْلَة؛ فخرج الأمير فَيّاض والأمير عيسى بن حسن أمير العائِذ، فتفرّقا على عقبة أيلة بسبب بيبغا أُرُس. وكُتب لعرب شَطِّي وبني عقبة وبني مَهْدِي، بالقيام مع الأمير فضل، وكتب لنائب غزّة بإرسال السوقة إلى العقبة.

ثم خَلَع السلطان على الأمير شهاب الدين أحمد بن قزمان بنيابة الإسكندرية عوضاً عن بَكْتَمُر المؤمني.

ثم في يوم الأربعاء سادس عشرين ذي القعدة قَدِم سَيْفُ الأمير بيبغا أُرُس، وقد قبض عليه. وسبب ذلك أنه لمّا ورد عليه كتاب السلطان بمسك أخيه مَنْجك، اشتدّ خوفه وطلَع إلى العَقَبة ونزل إلى المنزلة[1]؛ فبلغه أنّ الأمير طاز والأمير بُزْلار رَكِبا للقبض عليه. فرَكِبَ بيبغا أُرُس بمن معه من الأمراء والمماليك بآلة الحرب. فقام الأمير عز الدين أزدَمُر الكاشف بملاطفته، وأشار عليه ألا يُعجِّل [وأن] يكشف الخبر [أولاً]. فبعث نجّاباً في الليل لذلك، فعاد وأخبر أنّ الأمير طاز مُقيم بركْبه، وأنه سار بهم وليس فيهم أحد مُلْبَس[2]. فقَلَع بيبغا السلاح هو ومن معه، وتَلَقى طاز وسأله عما تخوف منه، فأوْقفه على كتاب السلطان إليه، فلم ير فيه ما يكره. ثم رحل كُلٌّ منهما بركْبِه من العَقَبة. وأتت الأخبار للأمراء بمصر بآتفاق طاز وبَيْبُغا أُرُس، فكتب السلطان للأمير طاز وللأمير بُزْلَار عند ذلك القبض على بيبغا أُرُس قبل دخوله مكة، وتوجه إليهما بذلك طَيْنَال الجَاشْنَكِير، وقد رَسَم [له] أن يتوجه [مع] بيبغا إلى الكَرَك. فلما قَدِم طَيْنَال على طاز وبُزْلار، ركبا إلى أزدَمُر الكاشف فأعلماه بما رسم به إليهما من مَسْك بيبغا أرُس، ووكّدا عليه في استمالة الأمير فاضل[3]، والأمير محمد بن بَكْتَمُر الحاجب، وبقية من مع بيبغا أُرُس، فأخَذَ أزْدَمُر في ذلك. ثم كتب لبيبغا أرسُ أن يتأخر حتى يسمع مرسوم السلطان، [و] حتى يكونَ دخولُهم لمكة جميعاً؛ فأحسّ بيبغا بالشرّ، وهمّ أن يتوجه إلى الشام، فما زال أزْدُمر الكاشف

---

(١) هذه المنزلة هي بذاتها منزلة المويلحة التي سيذكرها المؤلف فيما بعد. وهي بلدة تعرف باسم المويلح واقعة على الشاطىء الشرقي للبحر الأحمر جنوبي بلدة العقبة. (محمد رمزي).

(٢) يستعمل المؤلف عادة هذه العبارة بمعنى «لابساً عدة الحرب».

(٣) في الأصل: «فضل». وما أثبتناه عن السلوك والدرر الكامنة، لأن الأمير فاضلاً هذا هو أخو بيبغا أرس.

به حتى رجّعه عن ذلك. وعند نزول بيبغا أُرُس إلى منزلة المويلحة(١)، قدم طاز وبُزْلار فتلقاهما، وأسلم نَفْسَه من غير ممانعة فأخذا سَيْفَه، وأرادا تسليمه لطَيْنَال حتى يَحمله إلى الكرك، فَرغب إلى طاز أن يحج معه، فأخذه طاز محتفظاً به، وكَتَب طاز بذلك إلى السلطان؛ فتوهّم مُغْلَطاي والسلطان أنّ طاز وبُزْلار قد مالا إلى بيبغا أُرُس، وتشوّشا تشويشاً زائداً. ثم أكّد ذلك ورودُ الخبر بعصيان أحمد الساقي نائب صَفَد، وظنُّوا أنه مباطن لبيبغا أُرُس؛ وأُخْرِج طيْنَالُ ليُقيم بالصفراء(٢) حتى يرد الحاجّ إليها، فيمضِي بيبغا أُرُس إلى الكرك.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين ذي القعدة خُلع على الأمير علم الدين عبد الله بن زُنْبُور خِلْعة الوزارة، مضافاً لما بيده من نظر الخاصّ ونَظَر الجيش، بعد ما امتنع وشَرَط شروطاً كثيرة.

وفيه أيضاً خَلَع السلطان على الأمير طَنْيَرَق باستقراره في نيابة حماة، عوضاً عن أَسَنْدَمُر العُمَريّ. ثمّ كتَبَ القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتبُ السرّ تقليدَ ابن زنبور الوزير، ونَعَتَه فيه بالجناب العالي ــ وكان جمال الكُفَاة سعى أن يُكتب له ذلك، فلم يَرْضَ كاتبُ السرّ، وشحّ عليه بذلك ــ فخرج الوزيرُ وتلَقّى كاتب السرّ، وبالغ في إكرامه، وبعث إليه بتقدمة سنية.

ثمّ قَدِم الخبرُ على السلطان بنزول عسكر الشام [وطرابلس](٣) على محاصرة أحمد نائب صَفَد، وزَحْفِهم على قلعة صفد عدّةَ أيام، جُرح فيها كثير من الناس والأجناد، ولم ينالوا من القلعة غرضاً، إلى أن بلغهم القبض على بيبغا أُرُس. وعَلم أحمد بذلك وانحلّ عزمه؛ فبعث إليه الأمير بَكْلَمُش نائب طرابُلُس يُرغّبه في الطاعة، ودَسّ على مَنْ معه بالقلعة، حتى خامروا عليه وهمُّوا بمسكه؛ فوافق على الطاعة، وحلف له نائبُ طرابلس، فنزل إليه بمن معه. فسُرّ السلطان بذلك، وكَتَب بإهانته وحَمْله إلى السجن.

(١) هي المذكورة سابقاً باسم المنزلة.
(٢) الصفراء: قرية بين المدينة وينبع (معجم البلدان).
(٣) زيادة عن السلوك.

وفي عاشر ذي الحجة كانت الواقعة بِمنًى، وقُبِض على الملك المجاهد صاحب اليمن، وآسمه عليّ بن داود بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن عليّ بن رَسُول. وكان من خبَرَه أنّ ثُقْبة[1] لمّا بلغه آستقرارُ أخيه عَجْلان عِوضه في إمرة مكة، توجه إلى اليمن، وأغْرَى صاحب اليمن بأخذ مكة وكُسْوة الكعبة، فتجهَّز الملك المجاهد صاحب اليمن، وسار يُريد الحج في حَفْل كبير بأولاده وأمّه، حتى قَرُب من مكة، وقد سبقه حاجّ مصر. فَلبِس عَجْلان آلة الحرب، وعرّف أمراء مصر ما عزم عليه صاحب اليمن، وحذرهم غائلته. فبعثوا إليه بأنّ «من يريد الحج إنما يدخل مكة بِذلة ومَسْكَنة، وقد آبتدعتَ من ركوبك بالسلاح بِدعةً، لا تُمكّنك أن تدخل بها، وآبعث إلينا ثُقْبَةَ ليكون عندنا، حتى تنقضي أيام الحج فنرسله إليك» فأجاب لذلك وبعث ثقبة رَهينة، فأكرمه الأمراء. وركبوا الأمراء في جماعة إلى لقاء الملك المجاهد، فتوجهوا إليه ومنعوا سلاح داريته بالمشي معه بالسلاح، ولم يمكِّنوه من حمل الغاشية. ودخلوا به مكة فطاف وسَعَى، وسلّم على الأمراء وآعتذر إليهم، ومضى إلى منزله. وصار كلٌّ منهم على حذَر حتى وقفوا بعرَفة، وعادوا إلى الخَيْف من مِنًى، وقد تقرّر الحال بين الأمير ثُقبة وبين الملك المجاهد على أنّ الأمير طاز إذا سار من مكة أوقعا بأمير الحاج ومن معه، وقَبَضا على عجلان، وتسلّم ثقبة مكة.

فآتفق أن الأمير بُزْلار رأى، وقد عاد من مكة إلى مِنًى، خادِمَ الملك المجاهد سائراً، فبعث يستدعيه فلم يأته، وضرب مملوكه، بعد مفاوضة جَرَت بينهما، وجَرَحه في كَتِفه. فماج الحاجّ، ورَكب الأمير بزلار وقت الظهر إلى الأمير طاز، فلم يصل إليه حتى أقبلت الناس جافلةً، تُخْبِر بركوب الملك المجاهد بعسكره للحرب، وظَهَرت لوامِعُ أسلحتهم، فَرِكب طاز وبُزْلار وأكثرُ العسكر المصري بمكة. فكان أوّلَ من صَدَم أهلَ اليمن بزلار وهو في ثلاثين فارساً، فأخذوه في صدرهم إلى أن أرمَوْه قريب خَيْمَتِه. ومضت فرقة إلى جهة طاز، فأوسع لهم طاز، ثمّ عاد عليهم. ورَكب الشريف عَجْلان والناس، فبعث الأمير طاز لعجلان أن

(١) هو ثقبة بن رميثة بن أبي نمي الحسني أمير مكة المتوفي سنة ٧٦٣هـ. (الأعلام: ٢/١٠٠).

«آحفظ الحاجّ ولا تَدْخُلْ بيننا في حرب، ودَعْنا مع غريمنا». وآستمرّ القتال بينهم إلى بعد العصر، فَرَكِبَ أهلَ اليمن مع كثرة عددهم وآستعدادهم الذّلّةُ، وآلتجأ الملك المجاهد إلى دِهليزه، وقد أحاط به العسكر وقطعوا أطنابه وألْقَوْه إلى الأرض. فمرّ الملك المجاهد على وجهه منهزماً، ومعه أولاده، فلم يجد طريقاً، فسلّم المجاهد ولَدَيْه لبعض الأعراب، وعاد بمن معه من عسكره، وهم في أقبح حال، يصيحون «الأمانَ يا مسلمون»! فأخذوا وزيرَه، وتمزّقت عساكره في تلك الجبال، وقُتِل منهم خَلْقٌ كثير، ونُهبت أموالُهم وخيولُهم عن آخرها، وآنفصل الحال عند غروب الشمس. وفرّ ثُقْبة بعبيده وعَربه، فأخذ عبيدُ عَجْلان جماعةً من الحاج فيما بين مكّة ومِنًى، وقَتلوا جماعة.

قلت: هذا شأنُ عرب مكة وعبيدها، وهذه فروسيّتُهم لا في لقاء العدوّ؛ وكان حقّهُم يوم ذاك خَفَر الحاجّ، كونَ التُّرك قاموا عنهم بدفع عدوّهم، وإلا كان المجاهد يَستولي عليهم، وعلى أموالهم وذَرَاريهم في أسرع وقت. اِنتهى.

ولما أراد طاز الرحيلَ من مِنًى، سلّم أمراءَ[1] المجاهد وحريمَه إلى الشريف عَجْلان، وأوصاه بهم. ورَكب الأمير طاز ومعه المجاهد محتفظاً به، وبالغ في إكرامه يريد الديار المصرية؛ وصَحِب معه أيضاً الأميرَ بيبغا أُرُس مقيّداً، وبعث بالأمير طُقْطَاي إلى السلطان يُبشّره بما وقع. ولمّا قَدِم الأمير طاز إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضلُ الصلاة والرحمة، قَبَض بها على الشريف طُفَيْل.

وأما الديار المصرية، فإنه في يوم الجمعة خامس المحرّم من سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة، قدِم الأمير أَرْغُون الكامليّ نائبُ حلب إلى الديار المصرية بغير إذن، فخُلِع عليه وأُنزِل بالقلعة؛ وسبب حضوره أنه أشيع عنه بحلب القبضُ عليه، ثمّ أشيع في مصر أنه خامَر، فَكَرِهَ تمكُّن موسى حاجب حلب منه، لِمَا كان بينهما من العداوة، ورأى وقوعَ المكروه به في غير حلب أخفّ عليه؛ فلما قَدم مصر فَرِح السلطانُ به، لما كان عنده من إشاعة عصْيانه.

(١) في السلوك: «وسلم أم المجاهد وحريمه».

ثم قَدِم الخبرُ على السلطان، بأنّ طَيْلان تسلّم بيبغا أُرُس من الأمير طاز، وتوجّه به إلى الكَرَك من بَدْر، فسُرّ السلطانُ أيضاً بذلك.

ثمّ في يوم السبت عشرين المحرّم قَدِم الأمير طاز بمن معه من الحجاز، وصحبته الملك المجاهد، والشريف طُفَيْل[1] أميرُ المدينة، فخرج الأمير مُغْلَطاي إلى لقائه إلى البِرْكة، ومعه الأمراء، ومَدّ له سِماطاً جليلاً، وقَبَض على من كان معه من الأمراء من أصحاب بيبغا أُرُس وقيّدهم وهم: الأمير فاضل أخو بيبغا أُرُس، وناصر الدين محمد بن بكتمر الحاجب.

وأما الأمير أزْدَمُر الكاشف فإنه أخرجَ السلطانُ إقطاعه ولَزِم داره.

ثمّ في يوم الإثنين ثاني عشرينه طلَع الأمير طاز بالملك المجاهد إلى نحو القلعة، حتى وصل إلى باب القُلّة قيّده؛ ومشى الملك المجاهد بقيده حتى وقف عند العمود ـ بالدّرْكاه تجاه الإيوان، والأمراء جلوس ـ وقوفاً طويلاً، إلى أن خَرَج أميرُ جاندار يطلب الأمراء على العادة، فدَخَل المجاهدُ على تلك الهيئة معهم. وخَلَع السلطانُ على الأمير طاز؛ ثمّ تَقدّم الملك المجاهدُ وقبّل الأرض ثلاث مرات. وطَلَب السلطانُ الأمير طاز وسأل عنه، فما زال طاز يشفع في المجاهد، إلى أن أمر السلطان بقَيْده فَفُكّ عنه، وأُنزل بالأشرفية من القلعة عند الأمير مُغْلَطاي، وأجرى له الرواتب السنية، وأقيم له مَنْ يخدُمه. ثم أنعم السلطان على الأمير طاز بمائتي ألف درهم. ثم خَلَع السلطان أيضاً على الأمير أرْغُون الكامليّ بآستمراره على نيابة حلب، وَرَسم أن يكون موسى حاجب حلب في نيابة قلعة الروم.

وفي يوم تاسع عشرين المحرّم حضر الملك المجاهد الخِدْمة، وأُجلس تحت الأمراء، بعد أن أُلزم بحمل أربعمائة ألف دينار يقْترِضها من تجّار الكارِم[2]، حتى يُنْعِم له السلطان بالسفر إلى بلاده.

---

(١) في السلوك: «الشريف أديّ أمير المدينة».

(٢) راجع الجزء التاسع، ص ٢٨٩، حاشية(٢).

ثم أُحضِر الأمير أحمد الساقي نائب صَفَد مقيّداً إلى بين يدي السلطان، فأُرسل إلى سجن الإسكندرية.

ثمّ في آخر المحرّم خَلَع السلطان على الأمراء المقدّمين، وعلى الملك المجاهد صاحب اليمن بالإيوان؛ وقبّل المجاهد الأرض غيرَ مرة. وكان الأميرُ طاز والأميرُ مُغْلَطاي تلطّفا في أمره، حتى أُعْفِي من أجل المال، وقرّبه السلطانُ، ووعده بالسفر إلى بلاده مُكَرَّماً؛ فقبّل الأرض وسُرّ بذلك، وأذِن له أن ينزل من القلعة إلى إسطبل الأمير مُغْلَطاي ويتجهز للسّفر. وأُفرج عن وزيره وخادمه وحواشيه، وأنعم عليه بمال. وبَعَث له الأمراءُ مالاً جزيلاً، وشرع في القَرْض من الكارم [تجار] اليمن ومصر، فبعثوا له عِدّة هدايا، وصار يركَب حيث يشاء.

ثمّ في يوم الخميس ثاني صفر، رَكِبَ الملك المجاهد في المَوكِب بسوق الخيل تحت القلعة، وطلعَ مع النائب بَيْبُغا طَطَر إلى القلعة، ودخل إلى الخدمة السلطانية بالإيوان مع الأمراء والنائب. وكان مَوْكِباً عظيماً، رَكِبَ فيه جماعةٌ من أجناد الحَلْقة مع مُقدّمِيهم وخُلِع على المقدّمين وطلعوا إلى القلعة. وآستمر المجاهدُ يركب في الخِدَم مع النائب بسوق الخيل، ويُطلع إلى القلعة ويحضُر الخِدْمة.

ثمّ خلع السلطان على الأمير صَرْغَتْمش، وآستقرّ رأسَ نَوْبة على ما كان عليه أوّلاً، بعناية الأمير طاز والأمير مُغُلْطَاي.

وفي يوم السبت ثامن عشر من صفر برَزَ المجاهد صاحبُ اليمن بثَقَله من القاهرة إلى الرَّيدانية متوجّهاً إلى بلاده، وصحبته الأمير قَشْتَمُر شادّ الدواوين. وكُتِب للشريف عجّلان أمير مكة بتجهيزه إلى بلاده، وكُتِب لبني شُعْبة وغيرهم من العُرْبان بالقيام في خِدْمته، وخُلِع عليه. وقرّر المجاهدُ على نفسه مالاً يَحْمله في كلّ سنة. وأسرّ السلطانُ إلى قَشْتَمُر [أنه] إن رأى منه ما يُريبه يمنعه من السفر، ويُطالع السلطان في أمره. فرَحَل المجاهد من الريدانية في يوم الخميس ثالث عشرينه، ومعه عِدّةُ مماليك آشتراها وكثيرٌ من الخيل والجِمال.

ثمّ في أوائل جُمادَى الآخرة توعَّك السلطانُ ولَزِم الفِراش أياماً؛ فبلغ طاز

ومَنْكَلي بُغَا ومُغْلَطَاي أنه أراد بإظهار توعُّكه القبضَ عليهم إذا دخلوا عليه، وأنه قد آتفق مع قشتمر وأَلْطُنْبُغا الزامر ومَلِكْتَمُر المارِدِيني وتَنْكِز بُغَا على ذلك، وأنه يُنْعِم عليهم بإقطاعاتهم وإمرياتهم. فواعدوا الأمراء أصحابَهم، وآتفقوا مع الأمير بَيْبُغا طَطَر النائب والأمير طَيْبُغا المجديّ والأمير رَسْلان بَصَل، وركبوا يوم الأحد سابع عشرين جُمادَي الآخرة بأطلابهم، ووقفوا عند قُبّة النصر خارج القاهرة. فخرج السلطان إلى القصر، وبعث يسألُهم عن سبب ركوبهم، فقالوا: «أنت آتفقت مع مماليكك على مَسْكنا، ولا بدّ من إرسالهم إلينا» فبعث تَنْكِز بُغَا وقَشْتَمُر وأَلْطُنْبُغا الزامر ومَلِكْتَمُر؛ فعندما وصلوا إليهم قيّدُوهم وبعثوهم إلى خِزانة شمائل، فسُجِنوا بها. فشقّ ذلك على السلطان، وبَكَى وقال: «قد نزلتُ عن السلطنة» وسيّر إليهم النِّمْجاة[1]، فسلموها للأمير طَيْبُغا المَجْدِيّ. وقام السلطان حسن إلى حريمه، فبعثوا الأمراء الأمير صَرْغَتمش ومعه الأمير قُطْلُوبُغَا الذَّهبيّ، ومعهم جماعة ليأخذوه ويَحْبِسوه؛ فطلعوا إلى القلعة راكبين إلى باب القَصْر الأبْلَق، ودخلوا إلى الملك الناصر حسن، وأخذوه من بين حرمه، فصَرَخ النساء صُراخاً عظيماً، وصاحت الستّ حدَق على صرغتمش صِياحاً مُنْكراً، وقالت له: «هذا جزاؤه منك»! وسبّتْه سبّاً فاحشاً. فلم يلتفت صرغتمش إلى كلامها، وأخرجه وقد غطّى وجهه إلى الرَّحبة، فلما رآه الخدّام والمماليك تباكوْا عليه بُكاءً كثيراً. وطلَع به [صرغتمش] إلى رِواق فوق الإيوان، ووكّل به من يحفظه، وعاد إلى الأمراء. فآتفق الأمراء على خَلْعه من السلطنة، وسلطنة أخيه الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، وتسلطن حسب ما يأتي ذكرُه.

ولمّا تسلطن الملك الصالح صالح، نَقَل أخاه الملَك الناصر حسناً هذا إلى حيث كان هو ساكناً، ورتّب في خدمته جماعةً، وأجرى عليه من الرواتب ما يَكْفِيه. ثم طلب الملك الصالح أخاه حسناً، ووعده أيضاً بزيادة على إقطاعه، وزاد راتبه. وزالت دولةُ الملك الناصر حسن.

---

(١) النمجاة: خنجر مقوس شبه السيف الصغير. وهو معرب اللفظ الفارسي «نيمجه» بالجيم المشربة ــ انظر أيضاً فهارس المصطلحات.

فكانت مدّة سلطنته هذه الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً، منها مدّة الحَجْر عليه ثلاث سنين، ومدّة آستبداده بالأمر نحو تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان القائم بدولته في أيام الحَجْر عليه الأمير شَيْخون العُمَريّ رأس نَوْبة النُّوب، وإليه كان أمر خِزانة الخاصّ، ومَرْجِعُه لعلم الدين بن زُنْبور ناظر الخاصّ. وكان الأمير مَنْجك اليوسفيّ الوزير والأستادار ومقدَّم المماليك، إليه التصرُّفُ في [أموال][1] الدولة. والأمير بَيْبُغا أُرُس نائب السلطنة وإليه حُكْم العسكر وتدبيرُه، والحكمُ بين الناس. وكان المتولّي لتربية السلطان حسن خَوَنْد طُغاي زوجةُ أبيه، رَبَّتْه وتبنّت به. وكانت الستُّ حَدَق الناصرية دَادَتَه. وكان الأمراء المذكورون رتّبوا له في أيام سلطنته، في كلّ يوم مائةَ درهم، يأخذها خادمُه من خزانة الخاصّ وليس يَنوبُه سِواها، وذلك خارج عن سِمَاطه وكُلْفة حَريمه؛ فكان ما يُنْعِم به السلطان حسن في أيام سلطنته ويتصدّق به من هذه المائة درهم لا غير، إلى أن ضَجِر من الحَجْر؛ وسافر النائب بَيْبُغا أُرُس والأمير طاز إلى الحجاز، وخرج شَيْخون، إلى العبَّاسة للصيد، وآتفق السلطان حسن مع مُغْلَطاي الأمير آخور وغيره على ترشيده، فترشَّد حسب ما ذكرناه. واستبدّ بالدار المصرية. ثم قَبَض على مَنْجك وشَيْخون وبَيْبُغا أُرس، إلى أن كان من أمره ما كان؛ على أنه سار في سلطنته بعد آستبداده بالأمور مع الأمراء أحسن سِيرة، فإنه آختصّ بالأمير طاز بعد حضوره من الحجاز، وبالغ في الإنعام عليه.

وكانت أيّامُه شديدة، كَثُرت فيها المغارمُ، بما أحدثه الوزير مَنْجك بالنواحي؛ وخرِبت عِدّةُ أملاك على النيل، وآحترقت مواضعُ كثيرة بالقاهرة ومصر، وخرجت عُرْبان العائد وثَعْلبة وعرب الشام وعرب الصعيد عن الطاعة، وآشتدّ فسادهم لاختلاف كلمة مدبِّري المملكة.

وكان في أيامه الفَنَاءُ العظيم المقدّم ذكرُه، الذي لم يُعهد في الإسلام مثله. وتَوَالَى في أيامه شَراقي البلاد وتلاف الجسور، وقيام آبن واصل الأَحْدب ببلاد الصعيد، فآختلت أرض مصر وبلاد الشام بسبب ذلك خللاً فاحشاً، كل ذلك من

(١) زيادة عن السلوك.

آضْطراب المملكة وآختلاف الكلمة، وظلم الأمير مَنْجَك وعَسْفه.

وأمّا الملك الناصر حسن المذكور [فإنه] كان في نفسه مُفْرط الذكاء عاقلاً، وفيه رِفْقٌ بالرعيّة، ضابطاً لما يدخل إليه وما يُصَرِّفه كلّ يوم، متديِّناً شهماً، لو وَجَد ناصراً أو مُعيناً، لكان أجلّ الملوك. يأتي بيانُ ذلك في سلطنته الثانية، إن شاء الله تعالى.

وأما سلطنته هذه المرّة فلم يكن له من السلطنة إلا مجرّد الاسم فقط، وذلك لصِغَر سنه وعدم من يُؤَيِّده. اِنتهى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر حسن آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر

وهي سنة تسع وأربعين وسبعمائة، على أنه حكم من الخالية من رابع عشر شهر رمضان.

فيها أعني (سنة تسع وأربعين) كان الوباءُ العظيم المقدّم ذكرُه في هذه الترجمة، وعَمَّ الدنيا حتى دخل إلى مكّة المشرّفة، ثم عمّ شرقَ الأرض وغربها، فمات بهذا الطاعون بمصر والشام وغيرهما خلائقُ لا تُحْصَى.

فممّن مات فيه من الأعيان الشيخ المحدِّث برهان الدين بن لاجين بن عبد الله الرشيديّ الشافعيّ في يوم الثلاثاء تاسع عشرين شوّال؛ ومَوْلده في سنة ثلاث وسبعين وستمائة. وكان أخذ القراءات عن التقيّ الصائغ، وسمِع من الأبَرْقُوهيّ وأخذ الفقه عن العَلَمَ العِراقيّ، وبَرَع في الفقه والأصول والنحو وغيره، ودرّس وأقرأ وخَطَب بجامع أمير حسين خارج القاهرة سنين.

وتُوُفِّي الشيخ الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن مسعد بن أحمد بن ممدود السِّنْهوريّ المادح الضرير. وكانت له قدرة زائدة على النظم؛ ومَدَح النبيّ

ﷺ بعدّة قصائد. وشعره كثير إلى الغاية، لا سيما قصائده النبوية وهي مشهورة في حِفْظ المدّاح.

وتُوُفِّي القاضي الإمام البارع الكاتب المؤرِّخ المُفتَنّ شهاب الدين أبو العباس أحمد آبن القاضي محيي الدين يحيى بن فضل الله بن المجلّى بن دَعْجان القرشيّ العدويّ العُمَريّ الدّمشقي الشافعيّ في تاسع ذي الحجة بدمشق. ومولده في ثالث شوّال سنة سبعمائة. وكان إماماً بارعاً وكاتباً فقيهاً. نَظَم كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطَّعات ودوبيت، وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع، وكتب في الإنشاء لمّا ولي والده كتابة سِرّ دِمَشْق؛ ثمّ لمّا ولي والده كتابة السرّ بمصر أيضاً، صار ولده أحمد هذا هو الذي يقرأ البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون، ويُنَفِّذ المهمّات؛ وآستمرّ كذلك في ولاية والده الأولى والثانية، حتى تغيّر السلطان عليه وصرفه في سنة ثمانٍ وثلاثين، وأقام أخاه علاء الدين عَليّاً، وكلاهما كانا يكتبان بحضرة والدهما ووجوده، نيابةً عنه لكِبَر سنِّه؛ وتوجه شهاب الدين إلى دِمَشق، حتى مات بها في التاريخ المذكور. وكان بارعاً في فنون، وله مصنّفات كثيرة، منها تاريخه «مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار» في أكثر من عشرين مجلداً، وكتاب «فواصل السَّمَر، في فضائل آل عمر» في أربع مجلدات، «والدعوة المستجابة»، «وصَبَابَة المُشْتَاق» في مجلّد، في مدح النَّبيّ صلّى الله عليه وسلم، [ودَمْعَة الباكي] ويَقَظة السّاهي[1]» و«نفحة الرَّوْض».

قال الشيخ صلاح الدين خليل الصَّفَديّ: وأنشدني القاضي شهاب الدين آبن فضل الله لنفسه، ونحن على العاصي هذين البيتين: [البسيط]

---

(١) في الأصل: «الساهر» والتصحيح والزيادة عن كشف الظنون. وقد فات المؤلف ذكر كتاب هام للعمري وهو «التعريف بالمصطلح الشريف» وهذا الكتاب أو الدستور يعتبر الأكثر نضجاً ودقة في تنظيم مصطلح الكتابة الديوانيه في عصر المماليك. وقد ظل معمولاً به طوال ذلك العصر، ومن جاء بعد العمري أخذ عنه في هذا المجال، حتى يمكننا القول إن القلقشندي ــ لشدّة إعجابه بهذا الكتاب ــ قد أورده بكامله في كتابه صبح الأعشى: (انظر مقدمتنا لكتاب التعريف بالمصطلح الشريف، طبعة دار الكتب العلمية. وقد أوردنا أسماء ١٧ كتاباً للعمري).

لقد نَزَلْنا على العاصي بمنزلةٍ زانت محاسنَ شَطَّيْه حدائِقُها
تَبْكِي نواعيرُها العَبْرَى بأدمُعِها لِكونه بعد لُقْياها يفارِقها

قال: فأنشدته لنفسي: [الطويل]

وناعورةٍ في جانِب النّهرِ قد غَدَتْ تُعَبِّر عن شوقِ الشَّجِيّ وتُعرِبُ
فَيَرْقصُ عِطْفُ الغُصنِ تِيهاً لأنَّها تُغنِّي له طولَ الزمانِ ويَشْرَبُ

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أطلمش[1] الجَمَدار؛ كان أوّلاً من أمراء مصر، ثم [ولي] حجوبية دِمَشق إلى أن مات، وكان مشكور السِّيرة.

وتُوُفِّي الأميرُ سيف الدين بُلَك بن عبد الله المظفَّريّ الجَمَدار، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية في يوم الخميس رابع عشرين شوّال. وكان من أعيان الأمراء، وقد تقدَّم ذكرهُ فيما مرّ.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بُرُلْغِي بن عبد الله الصغير، قريب السلطان الملك المنصور[2] قلاوون. قَدِم إلى القاهرة صحبةَ القازانيّة سنة أربع وسبعمائة، فأنعم عليه الملك الناصر بإمرة بديار مصر، وتزوّج بآبنة الأمير بيبرس الجَاشْنَكِير قبل سلطنته، وعَمل لهُ مهمّاً عظيماً، أشعل فيه ثلاثة آلاف شَمعة. ثم قَبَض عليه الملك الناصر بعد زوال دولة الملك المظفَّر، وآمتُحِن بسبب صِهره؛ وحَبَسه الملك الناصر عشرين سنة، ثمّ أفرجَ عنه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدِمة ألف، فدام على ذلك إلى أن مات. وبُرُلْغِي هذا يلتَبِس ببُرُلْغِي الأشرفيّ، كلاهما كانَ عَضُداً للملك المُظفَّر بيبرس الجَاشْنَكِير وكانا في عصر واحد.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَلَبان بن عبد الله الحسني[3] المنصوريّ أمير جَانْدَار، وقد أناف على ثمانين سنة، فإنه كان من مماليك الملك المنصور قلاوون.

---

(١) في السلوك: «إلمش».
(٢) تقدّم في الجزء التاسع، ص ٨٩، أنه قريب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.
(٣) في السلوك: «الحسيني».

وتُوفي الأمير سيف الدين بَكْتُوت بن عبد الله القَرَمَانيّ المنصوريّ، أحد المماليك المنصوريّة قلاوون أيضاً؛ وكان أحدَ البُرْجِيّة. ثمّ وَلِي شدَّ الدواوين بدمَشْق وحَبَسه الملك الناصر محمد بن قلاوون مدّةً، لأنه كان من أصحاب المظفّر بيبَرْس، ثمّ أطلقه وأنعم عليه بإمرة طَبْلَخاناه بمصر. وكانت به حَدَبةٌ فاحشةٌ وَوَلـعٌ بتتبّـع المطالب [وعمل](١) الكِيْمِيَـاء، وضاع عمرهُ في البَطّال(٢).

وتُوُفّي الأمير سيف الدين تَمُرْبُغَا بن عبدالله العُقَيْلِيّ نائب الكَرَك في جُمادَى الآخرة؛ وكان عاقلاً شجاعاً مشكور السيرة.

وتُوُفّي الشيخ الإمام كمـال الدين جعفـر [بن ثَعْلَب بن جعفر](٣) بن عليّ الأدْفُوِيّ الفقيه الأديب الشافعيّ. كان فقيهاً بارعاً أديباً مصنفاً؛ ومن مصنفاته تاريخ الصعيد المسمىّ «بالطالـع السعيد في تاريـخ الصعيد(٤)» وله مصنّفات أخر وشعر كثير.

وتُوُفي الأمير سيف الدين طَشْتَمُر بن عبد الله الناصريّ، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، المعروف بطَلَلَيْه في شوّال بالقاهرة؛ وقيل له: طَلَلَيْه، لأنه كان إذا تكلّم قال في آخر كلامه: طَلَلْيه. وهو من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخاصِّكِيته، وصار من بعده من أعيان الأمراء بالديار المصرية، وله تُرْبة بالصحراء معروفة به؛ وكان شجاعاً مقداماً.

وتُوُفِّيت خَوَنْد طُغاي أمّ آنوك زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتركتْ مالاً كثيراً جدّاً؛ من ذلك ألفُ جارية، وثمانون طواشياً أعتقت الجميـع. وهي صاحبة التُّرْبَة بالصحراء معروفةٌ بها. وهي التي تولّت تَربيةَ السلطان الملك

(١) زيادة عن السلوك. وعبارة الأصل: «.. وولـع ويتتبـع المطالب والكيمياء». والمراد بالمطالب في لغة ذلك العصر: الكنوز المدفونة في الأرض.

(٢) المراد أنه أضاع عمره فيها ليس منه طائل.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) في كشف الظنون: «الطالـع السعيد الجامـع لأسماء فضلاء الصعيد». وفي الأعلام: «الطالـع السعيد الجامـع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد» وهي التسمية الكاملة.

الناصر حسن بعد موت أمّه من أيام الملك الناصر محمد. وكانت من أعظم نساء وقتها وأحشمِهنّ وأسعدِهنّ.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام الأديب البارع صَفيّ الدين عبد العزيز بن سرايَا بن علي بن [أبي][١] القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي العزّ بن سَرَايا بن كيافا[٢] بن عبد الله السِّنْبِسِيّ الحِلّيّ الشاعر المشهور في سَلْخ ذي الحجة. ومولده في خامس شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وستمائة؛ وقَدِم القاهرة مرتين، ومدَح الملك المؤيّد صاحب حماة، ومدح ملوكَ مارِدِينَ بني أرتق، وله فيهم غُرَرُ القصائد، وتقدّم في نظم الشعر. ومَدَح النبيّ ﷺ بالقصيدة المعروفة بـ«البديعيّة» وله ديوان شعر كبير، وشعرُه سار شرقاً وغرباً. وهو أحد فحول الشعراء. وفيه يقول الشيخ جمال الدين محمد بن نُبَاته: [الكامل]

يا سَائلِي عن رتْبَةِ الحِلّيّ في ... نَظْمِ القريض راضِياً بِي أحْكُمُ
للشعر حِلِّيَانِ ذلِك راجحٌ ... ذهب الزمانُ به وهذا قَيِّمُ

ومن شعر الصفيّ الحِلِّيّ: [السريع]

أستطلِع الأخبار مِن نَحْوِكُم ... وأسألُ الأرواحَ حَمْلَ السّلامْ
وكلّما جاءَ غُلامٌ لكُمْ ... أقول يا بُشراي هذا غُلامْ

ومن شعره قصيدته التي أوّلُها: [الكامل]

كيف الضلالُ وصُبْحُ وجهك مُشْرِقُ ... وشَذَاك فِي الأكوانِ مِسْك يَعْبَقُ
يا من إذا سَفَرت محاسِنُ وجههِ ... ظلّت بهِ حَدَقُ الخلائق تحْدِقُ
أوضحتُ عُذْري في هواك بواضح ... ماءُ الحَيَا بأدِيمهِ يتَرَقْرَقُ
فإذا العَذُول رأى جَمَالك قال لي ... عجباً لِقَلبك كيف لا يتمزّقُ
يا آسِراً قلب المُحِبِّ فَدَمْعُهُ ... والنومُ مِنه مُطْلَقٌ ومُطَلَّقُ
أغْنيْتنِي بالفِكْرِ فيك عن الكَرَى ... يا آسِرِي فأنا الغنِيُّ المُمْلِقُ

---

(١) زيادة عن فوات الوفيات.

(٢) في السلوك: «باقبا». وفي طبعة دار الكتب المصرية: «باقي».

ومنها أيضاً:

لـم أنسَ لـيـلةَ زارنـي ورقِـيبُـه يُبْدِي الرِّضا وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ
حتى إذا عَبَث الكَـرَى بجفُـونـه كـان الوِسَـادةَ ساعِـدي والمِـرْفَقُ
عـانـقتُـه وضـمـمتُـه فـكـأنـه من سـاعِـدَيّ مُمَنْـطقٌ ومـطوّقُ
حتى بـدا فَلَقُ الصباح فَـراعَـهُ إنّ الصَّبـاح هـو العـدو الأزرقُ

وقد آستوعبنـا من شعره وأحواله قطعة جيّدة في تاريخنا «المنهل الصافي». رحمه الله تعالى إن كان مسيئاً.

وتُوُفِّي الشيـخ الصالـح المُعْتَقد عبد الله المَنُوفيّ الفقيه المالكيّ، في يوم الأحد ثامن شهر رمضان ودُفِن بالصحراء؛ وقبره بها معروف يُقصد للزيارة والتبُّرك.

وتُوُفِّي الإمام العلاّمة شيـخ الشيوخ بدِمَشْق علاءُ الدين عليّ بن محمود بن حَمِيد القُونَوِيّ الحنفيّ في رابـع شهر رمضان؛ وكان إماماً فقيهاً بارعاً صوفياً صالحاً. رحمه الله.

وتُـوُفِّي الشيـخ الإمام البـارع المُفْتَنُّ الأديب الفقيه، زَيْن الـدين عمر بن المظَفّر بن عمر بن محمد بن أبـي الفـوارس بن عليّ المَعَرّيّ الحلبـيّ الشـافعيّ المعروف بآبـن الوَرْدِيّ، ناظم «الحاوي في الفقه» رحمه الله، وقد جاوز الستين سنة بحلب، في سابـع عشرين ذي الحجة. وقد آستوعبنـا من شعره ومشايخه نُبْذَةً كبيرة في «المنهل الصافي» إذ هو كتاب تراجم، محلّه الإطناب في مثل هؤلاء. ومن شعره ما قاله في مقرىء. [الكامل]:

ووعدْتَ أمسِ بأن تَزُور فلم تَزُرْ فغـدَوْتُ مسلوبَ الفؤادِ مُشَتَّتَـا
لِي مُهْجـةٌ في النـازِعـات وعَبْـرةٌ في المُرْسَلَات وفِكْرةٌ في هل اتى

وله عفا الله عنه: [الوافر]

تَجَـادَلْنـا: أمـاء الـزَّهْـر أذكَى أم الـخـلاَّفُ أَمْ وردُ الـقِـطَافِ
وعُقْبَـى ذلك الجَدَلِ آصطلحنـا وقد حصل الوِفاقُ على الخِلافِ

وتُوُفِّي الأمير الطَّوَاشي عنبر السَّحَرْتِيّ لالاةُ السلطان الملك الكامل شعبان، ومقدم المماليك السلطانيّة مَنْفِيّاً في القُدْس، بعد أن آمْتُحِن وصُودِر. وكان رأى من العزّ والجاه والحُرْمة في أيام الكامل شعبان ما لا مزيد عليه، حسب ما ذكرنا منه نُبْذَة في ترجمة الملك الكامل المذكور.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين كُوكَاي بن عبد الله المنصوري السِّلاح دار، أحد أعيان أمراء الألوف بالديار المصريّة؛ وكان من أجلّ الأمراء وأسعدِهم، خلَّف أكثرَ من أربعمائة ألف دينار عَيْناً. وهو صاحب التُّربة والمِئْذَنة التي بالصحراء، على رأس الهدْفَة، تُجاه تربة الملك الظاهر بَرْقوق. وكان شجاعاً مِقْداماً. طالت أيامُه في السعادة.

وتُوفي الأمير سيف الدين قُطُز بن عبد الله الأمير آخور، ثم نائب صَفَد بدِمَشق، وهو أحد أمرائها، في يوم الثلاثاء رابع ذي القَعْدَة. وكان من أعيان أمراء مصر؛ ولِيَ عدّة ولايات جليلة.

وتُوُفِّي الأمير سَيفُ الدِّين نُكْبَاي بن عبد الله البريديّ المنصوريّ. كان أحد مماليك الملك المنصور قلاوون. ولِيَ قَطْيَا والاسكندرية؛ ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، واستقرّ مِهمنداراً. وإليه تُنسب دار نُكْبَاي خارج مدينة مصر على النيل، وعُنِي بعمارتها فلم يتمتع بها.

وتُوُفِّي الأمير شرف الدين محمود بن خَطِير أخو الأمير مسعود. وأظنه صاحب الجامع بالحُسيْنية خارج القاهرة.

وتُوُفِّي الشيخ المحدّث الواعظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن مَيْلَق الشاذليّ. كان يجلس ويُذَكِّر الناس ويَعظ، وكان لوعظه تأثيرٌ في النفوس.

وتُوُفِّي الشيخ المُعْتَقد زين الدين أبو بكر بن النُّشَاشِيبي. كان له قَدَم[1] وللناس فيه محبّة وآعتقاد. رحمه الله.

---

(١) العبارة هنا ناقصة، كأن يقول: كان له قدم في العلوم، أو في الأحوال، على عادته في ذكر وفيات المتصوفين.

وتُوُفِّي الرئيس شمس الدين أبو عبد الله بن إبراهيم بن عمر الأسْيوطيّ ناظر بيت المال. كان معدوداً من أعيان الديار المصرية، وله ثروةٌ. وإليه يُنسب جامع[1] الأسيوطيّ بخُطّ جزيرة الفيل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً. وحُوّلت[2] هذه السنة إلى سنة خمسين. والله أعلم.

* * *

السنة الثانية من سلطنةالسلطان الملك الناصر حسن الأولى على مصر

وهي سنة خمسين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي مَكين الدين إبراهيم بن قَرَوينة بطّالاً، بعدما وَلِي استيفاء الصُّحْبة، ونَظَر البيوت، ثم نَظَر الجيش مرتين، ثمّ تَعطّل إلى أن مات. وكان من أعيان الكُتّاب ورؤسائهم.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَرْغُون شاه بن عبد الله الناصريّ نائب الشام، مذبوحاً، في ليلة الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الأوّل. وكان من أعيان مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخواصّه؛ ربّاه وجعله أميرَ طبلخاناه رأس نَوْبة الجَمَدَارية. ثم آستقر بعد وفاته أستاداراً أميرَ مائة ومقدّم ألف بديار مصر، فتحكم على الملْك الكامل شعبان، حتى أخرجه لنيابة صَفَد؛ وولي بعدها نيابة حَلَب، ثم نيابة الشام. وكان خفيفاً[3] قويّ النفس شَرِس الأخلاق، مُهاباً جبّاراً في أحكامه، سَفّاكاً للدماء غليظاً فاحشاً، كثيرَ المال والحَشَم.

وكان أصله من بلاد الصِّين، حُمِل إلى بُوسعيد بن خَرْبَنْدا ملك التّتار، فأخذه

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/٣١٥.

(٢) راجع ص ١٦٦ من هذا الجزء، حاشية(٤)

(٣) في السلوك: «جفيفاً» بالجيم.

دِمَشق خَجَا بن جوبان، ثم آرتجعه بوسعيد بعد قتل [دِمَشق خَجَا بن][1] جوبان، وبعث به إلى الناصر هديّة ومعه مَلِكْتَمُر السَّعيديّ. وقد تقدّم من ذكر أَرْغُون شاه هذا نبذةٌ كبيرة في عِدّة تراجم من هذا الكتاب، من أوّل آبتـداء أمره حتى كيفية قَتْله، في ترجمة الملك الناصر حسن هذا، فلْيُنظر هناك.

وتُوُفِّي الأمير الكبير سيف الدين أَرُقْطاي بن عبد الله المنصوري، نائب السلطنة بالديار المصرية، ثم نائب حلب، ثم ولي نيابة دِمشق؛ فلما خرج منها متوجّهاً إلى دِمشق، مات بظاهرها عن نحو ثمانين سنة، في يوم الأربعاء خامس جُمادى الأولى.

وأصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، ربّاه الطواشي فاخر أحسن تربية، إلى أن توجّه الملك الناصر إلى الكَرَك توجه معه؛ فلما عاد الملك الناصر إلى مُلْكه جعله من جملة الأمراء، ثم سَيّرة صحبةَ الأمير تَنْكِز إلى الشام، وأوصى تَنْكِز ألا يخرج عن رأيه، فأقام عنده مدّة. ثم [تنكر عليه الناصر محمد بن قلاوون و] ولّاه نيابة حِمص سنتين ونصفاً، ثم نَقَله إلى نيابة صَفد، فأقام بها ثماني عشرة سنة. ثم قَدِم مصر، فأقام بها خمس سنين وجُرِّد إلى آياس. ثم وَلِي نيابة طرابُلُس، ومات الملك الناصر محمد، فقَدِم مصر بعد موته فقُبِض عليه. ثمّ أُفرِج عنه. وبعد مدّة ولِي نيابة حلب؛ ثمّ عُزل وطُلِب إلى مصر فصار يجلس رأسَ المَيْمَنَة. ثمّ ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية نحو سنتين. ثم أُخرِج لنيابة حلب ثانياً، بحسب سؤاله في ذلك. فأقام بها مدّة. ثم نُقِل إلى نيابة الشام بعد قتل أَرْغُون شاه، فمات خارج حلب قبل أن يباشر دِمَشْق، ودُفِن بحلب. وكان أميراً جليلاً عظيماً مُهاباً عاقلاً سَيُوساً، مشكور السِّيرة محبباً للرعية. وقد تقدّم من أخباره ما يُغْني عن الاعادة هنا.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين أُلْجِيبغا بن عبد الله المظفّري نائب طرابُلُسَ، مُوسّطاً بسوق خيل دِمَشق، في يوم الاثنين ثاني[3] شهر ربيـع الآخر، بمقتضى قتله الأمير

(١) زيادة عما تقدم في الجزء التاسع، ص ٢٧٣.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «في يوم الإثنين ثامن عشر ربيـع الآخر».

أَرْغُون شاه نائب الشام؛ وقد تقدّم كيفيّة قتله أَرغُون شاه في ترجمة السلطان حسن هذا، وأيضاً واقعة توسيطه مفصّلاً هناك. وكان ألجيبغا من مماليك المظفّر حاجّي آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن خواصّه. وقُتِل ألجيبغا وسِنُّه دون العشرين سنة، بعد أن صار أميرَ مائة ومقدَّم ألف بمصر والشام ونائبَ طرابُلُس، ووُسِّط معه إياس الآتي ذكره.

وتوفّي الأمير فخر الدين إياس بن عبد الله الناصري، موسَّطاً أيضاً بسوق خيل دمَشْق لموافقته ألجيبغا المقدّم ذكره على قتل أرغون شاه في التاريخ المذكور أعلاه.

وكان أصل إياس هذا من الأَرْمن، وأسلم على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون، فرقّاه حتى عَمِلَه شادّ العمائر. ثم أخرجه إلى الشام شادّ الدواوين. ثم صار حاجباً بدِمَشْق، ثم نائباً بصَفَد، ثم نائباً بحلب. ثم عُزِل بسعي أرغون شاه به، وقَدِم دِمَشْق أميراً في نيابة أَرْغُون شاه لدِمَشْق، فصار أرغون شاه يَهينه، وإياس يومئذ تحت حُكْمه؛ فحَقَد عليه، وآتفق مع ألجيبغا نائب طرابُلُس حتى قتلاه ذبحاً، حسب ما ذكرناه مفصلاً، في ترجمة السلطان الملك الناصر حسن.

وتُوُفِّي الإمام العَلامة قاضي القضاة علاء الدين عليّ آبن القاضي فخر الدين عثمان بن إبراهيم بن مصطفى المَارِدِينيّ الحنفيّ المعروف بالتُّرْكماني ــ رحمه الله تعالى ــ في يوم الثلاثاء عاشر المحرّم بالقاهرة. ومَوْلده في سنة ثلاث وثمانين وستّمائة؛ وهو أخو العَلامة تاج الدين أحمد، ووالد الإمامين العَالميْن: عزّ الدين عبد العزيز وجمال الدين عبد الله، وعمّ العَلامة محمد بن أحمد، يأتي ذكر كُلِ واحد من هؤلاء في محلّه إن شاء الله تعالى. وكان قاضي القضاة علاء الدين إماماً فقِيهاً بارعاً نحويّاً أصولياً لُغَوياً. أفتى ودرّس وأَشغَل وألف وصنّف، وكان له معرفة تامّة بالأدب وأنواعه، وله نظمٌ ونثْر. كان إمامَ عصره بلا مُدافعة، لا سيّما في العلوم العقلية والفقه أيضاً والحديث، وتصدّى للإقرار عدَّة سنين. وتولّى قضاء الحنفية بالديار المصرية في شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، عوضاً عن قاضي القضاة

زَيْن الدين البَسْطامِيّ، وحسُنت سِيرتُه، ودام قاضياً إلى أن مات. وتولّى عِوضه ولدُه جمال الدين عبد الله.

ومن مصنّفاته ــ رحمه الله ــ كتاب «بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب» و«المُنْتَخب في علوم الحديث» «والمُؤتَلف والمختلف» و«الضعفاء والمتروكون» و«الدرّ النَّقِيّ في الردّ على البَيْهقيّ» وهو جليل في معناه، يدلّ على علم غزير، وآطلاع كثير، و«مختصر المحُصّل في الكلام» و«مقدّمة في أصول الفقه» و«الكِفاية في مختصر الهداية» و«مختصر رسالة القُشَيْرِيّ» وغير ذلك.

وتُوُفّي قاضي القضاة تقّي الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بَدْرَان السَّعْدِيّ الأَخْنَائِيّ المالِكيُّ[١]، في ليلة الثالث من صفر. ومولده في شهر رجب سنة أربع وستّين وستّمائة. وكان فقيهاً فاضلاً محدّثاً بارعاً. وَلِي شهادة الخِزانة، ثم تَوَلّى قضاء الإسكندرية، ثم نُقِل لقضاء دِمَشْق بعد علاء الدين القُونَوِيّ. وحسُنت سِيرتُه. وتَولى بعده جمال الدّين يوسف [بن إبراهيم][٢] بن جُمْلَة.

وتُوُفِّيت خَوَنْد بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير طاز. وخَلَّفت أموالاً كثيرة. أُبيع موجودُها بباب القُلَّة من القلعة بخمسمائة ألف درهم، من جملة ذلك قُبْقَابٌ مرصَّع بأربعين ألف درهم، ثمنها يوم ذاك أَلْفَا دينار مصريّة.

وتُوُفِّي شيخ القُراء شهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسين المعروف بالهَكّاري، بالقاهرة في جُمَادى الأولى. وكان إماماً في القراءات، تَصدَّى للإقرار عِدّة سنين وآنتفع به الناس.

وتُوُفِّي الأمير طُقْتَمُر بن عبد الله الشَّرِيفيّ، بعد ما عَمِي ولَزِم داره؛ وكان من أعيان الأمراء.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام نجم الدين عبد الرحمن بن يوسف بن إبراهيم بن محمد

---

(١) في الأصل: «الشافعي» وهو خطأ. والتصحيح عن الأعلام: ٥٦/٦.

(٢) زيادة عما تقدم في وفيات سنة ٧٣٨هـ.

ابن إبراهيم بن عليّ القُرَشِيّ الأَصْفُوني الشافعي، بمِنىً، في ثالث عشر ذي الحجّة. وكان فقيهاً عالماً مصنّفاً، ومن مصنّفاته: «مختصر الروضة في الفقه».

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الناصر حسن الأولى على مصر

وهي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي الأمير سيف الدين دِلَنْجي بن عبد الله (ودلنجي هو المكدي باللغة التركيّة). كان أصله من الأتراك وقَدِم إلى الديار المصريّة سنة ثلاثين وسبعمائة، فأنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بإمرة عشرة، ثمّ إمْرة طَبْلَخاناه. ثمّ وَلِي نيابة غَزّة بعد الأمير تلجك، فأوقع بالمفسدين[1] ببلاد غَزّة وأبادهم، وقويَت حُرْمته. وكان شجاعاً مُهاباً.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العلاّمة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعِيّ الدِّمَشْقيّ الحنبليّ، المعروف بابن قَيّم الجوْزِيّة بدِمَشْق، في ثالث عشر شهر رجب. ومولده سنة إحدى وتسعين وستّمائة. وكان بارعاً في عدّة علوم، ما بين تفسير وفقه وعربيّة ونَحْوٍ وحديث وأصول وفروع. ولَزِم شيخ الإسلام تقّي الدين ابن تَيْميّة بعد عَوْده من القاهرة في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وأَخَذ منه علماً كثيراً، حتّى صار أحدَ أفراد زمانه. وتصدّى للإقراء والإفتاء سنين، وآنتفع بـه الناس قاطبةً، وصنّف وألّف وكَتَب. وقد آستوعبنا أحوالَه ومصنّفاته وبعضَ مشايخه في ترجمته في «المنهل الصافي» كما ذكرنا أمثاله.

وتُوُفّي الأمير حُسام الدين لاجين بن عبد الله العَلائيّ الناصريّ. أصله من

---

(١) في السلوك: «فأوقع بالعشير» والمراد عشائر العربان.

مماليك الناصر محمد، ثم صار أمير جاندار في دولة الملك المظفر حاجّيّ، فإنه كان زوجَ أُمّه. ثمّ ولي أمير آخور؛ فلمّا قُتل الملك المظفر في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، عُزِل وأُخْرِج إلى حلب، على إقطاع الأمير حسام الدين محمود بن داود الشّيبانِي، فدام بحلب إلى أن مات بها، وقيل بغيرها.

وتُوُفِّي الشيخ فخر الدين أبوعبد الله محمد بن عليّ بن إبراهيم بن عبد الكريم المصريّ، الفقيه الشافعيّ بدِمَشْق، في سادس عشرين ذي القعدة؛ ومولده سنة إحدى وتسعين وستمائة. وكان فقيهاً عالماً فاضلاً بارعاً في فنون.

وتُـوُفِّي آبن قَرَمَان صاحب جبال الروم بعد مرض طويل.

قلتُ: وبنو قَرَمان هؤلاء هم من ذريّة السلطان علاء الدين كَيْقُبَاد السَّلْجُوقِيّ، وهم ملوك تلك البلاد إلى يومنا هذا، وقد تقّدم من ذكرهم جماعةٌ كثيرة في هذا الكتاب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع ونصف، وقيل خمس أذرع وسبـع عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً. ونزل في خامس توت، وشرِقت البلاد.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر حسن الأولى على مصر

وهي سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة؛ وهي التي خُلِع فيها السلطان حسن المذكور في سابع وعشرين جُمادَى الآخرة، وحَكَم في باقيها أخوه الملك الصالح صالح آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

فيها تُوُفِّي السيّد الشريف أُدِّي أمير المدينة النبويّة، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، في السجن.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طَشْبغا بن عبد الله الناصريّ الدَّوَادَار. كان من جملة الأمراء في الديار المصريّة، فلمّا أُخْرِج الأمير جُرْجِي الدوادار من القاهرة، في

أوّل دولة الملك الناصر حسن، استقرّ طشبغا هذا دواداراً عِوضَه، في شهر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة، وآستمرّ على ذلك إلى أن تُوُفّي. وكان خيِّراً دَيِّناً فاضلاً عاقلاً.

وتُوُفّي قاضي القضاة الحنفيّة بحلب ناصر الدين محمد بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الحسن بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله [بن أحمد](1) بن يحيى بن أبي جَرَادة، المعروف بآبن العَدِيم الحلبي بحلب، عن ثلاث وستّين سنة. وقد تقدّم ذكرُ جماعة من آبائه وأقاربه في هذا الكتاب، وسيأتي ذكر جماعة أخر من أقاربه، كلٌّ واحد في محله. إن شاء الله تعالى.

وتُوُفِّي ملك الغرب أبو الحسن عليّ بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ بن محيو بن أبي بكر بن حَمَامة في ليلة الثلاثاء(2) السابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل، وقام في الملك من بعده آبنه أبو عنان فارس. وكانت مدّة مُلكه إحدى وعشرين سنة.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر المعروف بآبن القَيْسَراني، مُوَقِّع(3) الدّست وصاحب المدرسة(4) بسُوَيْقة الصاحب داخل القاهرة، وبها دُفِن؛ وكان معدوداً من الرؤساء الأماثل.

وتُوُفِّي الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير رُكْن الدين بيبرس الأحمديّ، أحد

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة والسلوك.

(٢) في الأصل: «في ثالث عشر شهر ربيع الآخر» وفي السلوك: «في ثالث عشرين ربيع الآخر». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب المصرية نقلاً عن الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

(٣) موقّع الدست: هو الذي يوقّع على القصص بمصر والشام. ومثله «صاحب كتب المظالم» في دولة الموحدين بالمغرب. (صبح الأعشى: ٥/١٤٠).

(٤) المدرسة القيسرانية (خطط المقريزي: ٢/٣٩٤) وانظر تعليقات محمد رمزي على ما كتبه كل من المقريزي وعلي مبارك حول هذه المدرسة (النجوم: ١٠/٢٥٢، حاشية(١)، طبعة دار الكتب المصرية).

أمراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وهو مجرّد ببلاد الصعيد، فحُمِل إلى القاهرة ميّتاً في يوم الأحد ثاني عشرين شهر رمضان.

وتُوُفّي الإمام تاج الدين أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن يوسف المَراكشِيّ الأصل الشافعيّ بدمشق في جمُادَى الآخرة. وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً معدوداً من فقهاء الشافعية.

وتُوُفيِّ القاضي علاء الدين عليّ بن محمد بن مُقاتل الحَرَّانيّ ثم الدِّمَشْقيّ ناظر دمشق بالقدس الشريف، في عاشر شهر رمضان.

قلتُ: لعلّ علاء الدين هذا غيرُ الأديب علاء الدين بن مُقاتل الزَّجّال الحَمَوِيّ، لأني أحفظ وفاة هاذاك، في سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهكذا أرّخناه في «المنهل الصافي والمُسْتَوفَى بعد الوافي».

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وخمس أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبع واحدة. والله أعلم.

ذكر سلطنة الملك الصالـح صالـح[1]

آبـن السلطان الملك الناصر محمد آبـن السلطان الملك المنصور قلاوون

هو العشرون من ملوك التُّرك بديار مصر، والثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وأمّه خَوَنْد قُطْلُو مَلَك بنت الأمير تَنْكِز الناصريّ نائب الشام. تسلطن بعد خلـع أخيه الملك الناصر حسن في يوم الاثنين ثامن[2] عشرين جُمادَى الآخرة سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة، بـآتفاق الأمراء على ذلك.

وأمره أنّ الأمراء لما حُمِلت لهم نِمْجَاة الملك، وأُخبروا بأن الناصر حسناً خَلـعَ نفسه، وهم وقوف بقُبَّة النصر خارج القاهرة، توجّهوا إلى بيوتهم، وباتوا تلك الليلة وهي ليلة الأثنين بإسطبلاتهم، وأصبحوا بكرة يوم الأثنين طلعوا إلى القلعة، واجتمعوا بالرَّحْبة داخل باب النحاس، وطلبوا الخليفة والقضاة وسائر الأمراء وأرباب الدولة، وآستدعـوا بالصالـح هذا من الدور السلطانية؛ فأخرِج لهم، فقاموا له وأجلسوه وبايعوه بالسلطنة، وألبسوه شِعار المُلك وأبّهَة السلطنة، وأركبوه فَرسَ النَّوْبة، من داخل باب السِّتارة، ورُفِعت الغاشية بين يديه ومشت الأمراء والأعيان بين يديه، والأمير طاز والأمير مَنْكَلي بُغَا آخذان بشَكِيمة فرسه، وسار على ذلك حتى نزل وجلس على تخت المُلك بالقصر. وقبّلت الأمراء الأرض بين يديه، وحَلَفوا له [وحلّفوه][3] على العادة، ولقّبوه بالملك الصالـح، ونُودي بسلطنته بمصر والقاهرة،

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢/٣/٨٤٣؛ والجوهر الثمين: ٢/١٩٩؛ وبدائع الزهور: ١/١/٥٣٨؛ والبداية والنهاية: ١٤/٢٥٢؛ والدرر الكامنة: ٢/٢٠٣.

(٢) كذا أيضاً في السلوك والجوهر الثمين. وفي بدائع الزهور: «ثامن عشر جمادى الآخرة».

(٣) زيادة عن السلوك.

ودُقَّت الكوسات، وزُيِّنَت القاهرة وسائر بيوت الأمراء. وقبل سلطنته كان النيل نقَص عند ما كُسِر عليه، فردّ نقصه ونُودِي عليه بزيادة ثلاث أصابع من سبع عشرة ذراعاً، فتباشر الناس بسلطنته.

ثم توجّه الأمير بُزْلار أمير سلاح إلى الشام، ومعه التشاريف والبِشارة بولاية السلطان الملك الصالح، وتحليف العساكر الشامية له على العادة. ثم طَلَب الأمير طاز والأمير مغْلَطَاي مفاتيحَ الذخيرة ليَعْتَبرا[1] ما فيها فوجدا شيئاً يسيراً. ثم رُسِم للصاحب عَلَم الدين عبد الله بن زُنْبور بتجهيز تشاريف الأمراء وأرباب الوظائف على العادة، فجهّزها في أسرع وقت. ووقف الأميرُ طاز وسأل السلطانَ والأمراءَ الإفراجَ عن الأمير شَيْخون العُمَري، فَرُسم بذلك؛ وكَتَب كُلٌّ من مُغْلَطاي وطاز كتاباً، وبعَث مغلطاي أخاه قُطْلِيجا[2] رأسَ نَوْبة، وبعث طاز الأمير طُقْطاي صِهْرَه، وجهزت له الحرَّاقة لإحضاره من الإسكندرية في يوم الثلاثاء تاسع عشرين جُمَادَى الآخرة من سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة المذكورة. وكان ذلك بغير آختيار الأمير مغلطاي؛ إلاّ أنّ الأمير طاز دَخَل عليه وأَلَحّ عليه في ذلك، حتى وافقه على مجيئه، بعد أن قال له: «أخشَى على نفسي من مجيء شَيْخون إلى مصر»، فحلَف له طاز أيماناً مغلّظة أنه معه على كلّ ما يريد، ولا يصيبه من شَيْخُون ما يكره، وأنّ شيخون إذا حضر لا يعارضه في شيء من أمر المملكة، «وإني ضامنٌ له في هذا»؛ وما زال به حتى أذعن، وكَتَب له مع أخيه. فشقّ ذلك على الأمير مَنْكَلي بُغَا الفَخْريّ، وعتَب مُغلَطاي على موافقة طاز، وعرّفه أنّ بحضور شيخون إلى مصر يزول عنهم ما هم فيه، فَتَقرّر في ذهن مغلطاي ذلك، ونَدِم على ما كان منه، إلى أن كان يوم الخميس أوّل شهر رجب، ورَكِب الأمراء في المَوْكِب على العادة، أَخَذ منكلي بغا يُعرّف النائب والأمراءَ بإنكار ما دار بينه وبين مغلطاي، وحذّرهم من حضور شيخون إلى أن وافقوه، وطلعوا إلى القلعة ودخلوا إلى الخدمة. فآبتدأ النائب بحضور[3] شيخون

---

(١) أي ليقوّما موجوداتها. والمراد بالذخيرة ممتلكات السلطان من المنقولات عامة. وهو لفظ جرى في اصطلاح العصر المملوكي.

(٢) في السلوك: «بعث أخاه قطلوبغا».

(٣) في السلوك: «بحديث».

وقال: «إنه رجل كبير ويحتاج إلى إقطاع كبير وكُلَف كثيرة». فتكلّم مغلطاي ومنكلي بغا والأمراء، وطاز ساكت قد آختبط لتغيّر مغلطاي ورجوعه على ما وافقه عليه. وأخذ طاز يتلطّف بهم، فصمّم مغلطاي على ما هو عليه وقال: «مالي وجهٌ أنظرُ به شيخون، وقد أخذتُ منصِبَه ووظيفتَه وسكنتُ في بيته»؛ فوافقه النائب، وقال لناظر الجيش: «اكتب له مِثالاً بنيابة حَمَاة»، فكتب ناظر الجيش ذلك في الوقت، وتوجه به أيْدَمُر الدوادار في الحال في حَرّاقة، وعُيِّن لسفر شيخون عشرون هَجِيناً ليركبها ويسيرَ عليها إلى حَمَاة.

وآنفضّوا وفي نفس طاز ما لا يعبّر عنه من القهر؛ ونزل وآتّفق هو والأمير صَرْغَتْمش ومَلِكْتَمُر وجماعة، وآتّفقوا جميعاً، وبعثوا إلى مغلطاي بأنّ «منكلي بغا رجل فِتَني، وما دام بيننا لا نتَّفق أبداً» فلم يصْغ مغلطاي إلى قولهم، وآحتج بأنه إن وافقهم لا يأمن على نفسه. فدخل عليه طاز ليلاً بالأشرفية من قلعة الجبل، حيث هي مسكن مُغْلَطاي، وخادعه حتى أجابه إلى إخراج مَنْكَلي بُغا، وتحالفا على ذلك؛ فما هو إلا أن خرج عنه طاز، أخذ دوادار مغلطاي يُقَبِّح على مغلطاي ما صدَر منه، ويُهوِّل عليه الأمر، بأنه متى أبعد منكلي بغا وحضر شيخون أخِذ لا محالة، فمال إليه.

وبَلَغ الخبرُ منكلي بغا بُكْرَة يوم الجمعة ثانيه، فواعد النائب والأمراءَ على الاجتماع في صلاة الجمعة، ليقع الاتفاق على ما يكون؛ فلم يَخْفَ عن طاز وصَرْغَتْمش رجوعُ مغلطاي عما تقرّر بينه وبين طاز ليلاً، فاستَعدّا للحرب، وواعدا الأمير مَلِكْتَمُر المحمديّ، والأمير قردم الحمويّ، ومن يَهْوى هواهم، واستمالوا مماليك بَيْبُغَا أُرُس ومماليك مَنْجَك حتى صاروا معهم رجاء لخلاص أستاذيهم. وشدّ الجميع خيولَهم. فلمّا دخل الأمراء لصلاة الجمعة، آجتمع منكلي بغا بالنائب وجماعته، وقرّر معهم أن يطلبوا طاز وصَرْغَتْمش إلى عندهم في دار النيابة، ويقبضوا عليهما. فلمّا أتاهما الرسولُ من النائب يطلبُهما، أحسّا بالشرّ وقاما ليتهيّئا للحضور وصرفا الرسول على أنهما يكونان في أثره، وبادَرا إلى باب الدور[1] ونحوه من

(١) المراد به باب دور الحريم.

الأبواب فأغلقاها؛ وآستدعوا مَنْ معهم من المماليك السلطانية وغيرها، ولبسوا السلاح. ونزل صَرْغَتْمش بمن معه من باب السرّ، ليمنع من يخرج من إسطبلات الأمراء. ودخل طاز على السلطان الملك الصالح، حتى يركبَ به للحرب؛ فَلَقِي الأمير صرغتمش في نزوله الأمير أَيْدُغْدي أمير آخور، فلم يُطِق منعه، وأخذ بعضَ الخيول من الاسطبل وخرج منه، فوجد خيلَه وخيلَ من معه في آنتظارهم. فركبوا إلى الطبلخاناه، فإذا طُلْبُ مَنْكَلي بُغَا مع ولده ومماليكه يريدون قُبّة النصر، فألقوا آبن منكلي بغا عن فرسه، وجَرَحُوه في وجهه، وقتلوا حامل الصَّنْجَق وشتّتوا شَمْل الجميع. فما استتم هذا، حتى ظهر طُلْب مُغْلَطاي مع مماليكه، ولم يكن لهم عِلْمٌ بما وقع على طُلْب منكلي بغا؛ فصدَمهم صرغتمش أيضاً بمن معه صدمةً بدّدتْهم، وجَرَحَ جماعة منهم وهَزَم بقيّتهم. ثم عاد صرغتمش ليُدرك الأمراء قبل نزولهم من القلعة، وكانت خيولُهم واقفة على باب السّلسلة تنتظرهم، فمال عليها صرغتمش ليأخذها. وامتدّت أيدي أصحابه إليها وقتلوا الغلمان، فعظُم الصيّاح وآنعقد الغُبار، وإذا بالنائب ومَنْكَلي بُغَا ومُغْلَطاي وبَيْغرا ومَنْ معهم قد نزلوا وركبوا خيولَهم؛ وكانوا لمّا أبطأ عليهم حضور طاز وصرغتمش بعثوا في استحثاثهم، فإذا الأبواب مُغْلَقة، والضجّة داخل باب القلعة، فقاموا من دار النيابة يريدون الركوب؛ فما توسطّوا بالقلعة حتى سمعوا ضجّة الغِلْمان وصياحَهم؛ فأسرعوا إليهم وركبوا، فشَهَر مغلطاي سيفَه وهجَمَ بمن معه على صَرْغَتْمش؛ ومرّ النائب وبيغرا ورسْلان بَصَل، يريد كلّ منهم إسطبله. فلم يكن غير ساعة حتى انكسر مغلطاي من صرغتمش كَسْرَةً قبيحةً، وجُرِح كثير من أصحابه، وفرّ إلى جهة قبّة النصر وهم في أثره، وانهزم منكلي بغا أيضاً.

وكان طاز لمّا دخل على السلطان عرّفه أن النائب والأمراء اتّفقوا على إعادة الملك الناصر حسن إلى السلطنة، فمال السلطان الملك الصالح إلى كلامه. وقام [السلطان] معه في مماليكه؛ ونزل إلى الإسطبل واستدعَى بالخيول ليركب، فقَعَد به أَيْدُغْدِي أمير آخور واحتجّ بقِلّة السُّروج، فإنه كان من حزب مُغْلَطَاي؛ فأخذوا المماليك ما وجدوه من الخيول وركبوا بالسلطان، ودُقت الكوساتُ فاجتمع إليه

الأمراء والمماليك والأجناد من كلّ جهة، حتى عظُم جمعُه، فلم تغربُ الشمس إلا والمدينةُ قد أُغلِقت، وآمتـلأت الرُّمَيْلة بالعامة. وسار طاز بالسلطان يريد قُبّة النصر، حتى يعرفَ خبرَ صرغتمش، فوافَى قُبّة النصر بعد المغرب، فوجد صرغتمش قد تمادَى في طلب مُغْلَطاي ومَنْكَلي بُغَا حتى أظلم الليل، فلم يشعرُ إلا بمملوك النائب قد أتاه برسالة النائب أن مغلطاي عنده في بيت آل ملك بالحُسينيّة، فبعث صرغتمش جماعة لأخذه. ومرّ صرغتمش في طلب منكلي بغا، فلَقِيه الأمير محمد بن بَكْتَمُر الحاجب وعرّفه أن منكلي بغا نزل قريباً من قناطر[1] الأميرية، ووقف يصلّي، وأنّ طُلْب الأمير مجد الدين موسى بن الهذبانيّ قد جاء من جهـة كوم[2] الـرّيش. ولحق[3] بالأمير منكلي بغا الأمير أرْغون أَلْبَكِي في جماعة، فقبض عليه وهو قائم يُصليّ، وكتّفوه بعمامته، وأركبوه بعد ما نكّلوا به. فلم يكن غيرُ قليل حتى أتَوْا به[4] وبمغلطاي فقُيِّدا وحُبِسا بخِزانة شمائل؛ ثم أُخرِجا إلى الإسكندرية، ومعهما آبنـا منكلي بغا فسُجِنوا بها.

وأمّا صَرْغَتْمش فإنه لمّا فَرغَ من أمر مُغْلَطاي ومنكلي بغا وقَبَض عليهما، أقبل على السلطان بمن معه بقبة النصر، وعرّفه بمسك الأميرين، فسرّ السلطان سروراً كبيراً، ونزل هو والأمراء وباتوا بقُبّة النصر.

وركب السلطان بُكرة يوم السبت ثالث شهر رجب إلى قلعة الجبل، وجلس بالإيوان وهنّأوه بالسلامة والظفَر. وفي الحال كُتِب بإحضار الأمير شَيْخون، وخرج جماعة من الأمراء بمماليكهم إلى لقائه. ونزَلت البشائر إلى بيت شيخون، وبيت بيبغا أُرُس وبيت مَنْجَك اليوسفيّ الوزير، فكان يوماً عظيماً؛ وبات الأمراء تلك الليلة على تخوّف.

---

(١) ذكرها المقريزي باسم قنطرة الأميرية (خطط: ١٤٨/٢) وقال إن هذه القنطرة هي آخر ما عمل على الخليـج الكبير من إنشاء الناصر محمد بن قلاوون.

(٢) انظر خطط المقريزي: ١٣٠/٢.

(٣) في الأصل: «ولحقه» والتعديل عن السلوك للتوضيح.

(٤) في الأصل: «بهما» وما أثبتناه عن السلوك.

وأمّا شيخون، لمّا ورد عليه الرسول بإطلاقه أوّلاً، [فإنه] خرج من الإسكندريّة وهو ضعيف، ورَكب الحَرّاقة، وفَرِح أهل الإسكندرية لخلاصه. وسافر، فوافاه كتابُ الأمير صَرْغَتْمش بأنه «إذا أتاك أيْدَمُر بنيابة حمَاة، لا ترجع وأقْبِل إلى القاهرة فأنا وطاز معك»؛ فلمّا قرأ شيخون الكتاب تغير وجهُه، وعَلِم أنه قد حدَث في أمره شيء. فلم يكن غيرُ ساعة[1]، حتى لاحت له حَرّاقة أيدمر، فمرّ شيخون وهو مُقْلِع، وأيدمر مُنْحَدِر إلى أن تجاوزه، وأيدمر يَصيح ويُشير بمنْديله إليه فلا يلتفتون إليه. فأمر أيدمر بأن تُجهَّز مَرْكبُه بالقِلْع، وترجع خلف شيخون؛ فما تجهّز قِلْع مَرْكب أيدمر حتى قَطَع شيخون بلاداً كثيرة، وصارت حرّاقتُه تسير وأيدمر في أثرهم، فلم يُدركوه إلا بُكرة يوم السبت. فعند ما طلع إليه أيدمر وعرّفه ما رُسم به، من عوده إلى حَمَاة، وقرأ المرسوم الذي على يد أيدمر برجوعه إلى نيابة حماة، وإذا بالخيل [على البرّ][2] يتبع بعضها بعضاً، والمراكب قد ملأت وجهَ الماء تُبادر لبِشارته وإعلامه بما وقَعَ من الركوب ومسك مُغْلَطاي ومَنْكَلي بُغا، فسرّ شيخون بذلك سروراً عظيماً، وسار إلى أن أرسى بساحل بولاق في يوم الأحد رابع شهر رجب، بعد أن مشت له الناس إلى مُنية الشيرج؛ فلما رأوه صاحوا ودعوا له وتلقّته المراكب، وخرج الناس إلى الفُرجة عليه، حتى بلغ كراءُ المركب إلى مائة درهم؛ وما وصلت الحَرّاقة إلا وحولها فوق ألف مركب. ورَكِبت الأمراء إلى لقائه، وزُيِّنت الصليبة، وأُشعلت الشموع، وخرجت مشايخ الصوفية بصوفيّتهم إلى لقائه؛ فسار [شيخون] في مَوْكب لم يُرَ مثله لأمير قبله. وسار حتى طلع القلعة وقبّل الأرض بين يدي السلطان الملك الصالح، فأقبل عليه السلطان وخلع عليه تشريفاً جليلاً، وقلع عنه ثياب السجن، وهي مَلُّوطة[3] طرح محرّر. ثم نزل إلى منزله والتهاني تتلقاه.

---

(١) في السلوك: «فلم يكن غير ساعتين».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الملّوطة: قباء واسع الكمين طويلهما. وهي عامية، والجمع ملاليط. (معجم متن اللغة وتاج العروس) وكانت الملّوطة لباساً قومياً في عصر المماليك تصنع من الحرير الخالص (المحرّر) تلبس فوق الشاية على البدن، وكانت قصيرة أشبه ما تكون بالنصف الأعلى من البيجامة المعروفة اليوم. وقد اختفت من =

ودام الأمر على ذلك إلى يوم الأربعاء سابع شهر رجب [حيث] رُسِم بإخراج الأمير بيْبُغا أُرُس حارس طير نائب السلطنة بالديار المصرية والأمير بَيْغَرا. فنزل الحاجب إلى بيت آل ملك بالحسينية، وبه كان سكن بيبغا المذكور، وأُخْرج منه ليسير من مصر إلى نيابة غَزّة. وأخْرِج بَيْغَرا من الحّمام إخراجاً عنيفاً ليتوجّه إلى حلب، فرَكِبا من فورهما وسارا. ثم رُسم بإخراج الأمير أَيْدُغْدي الأمير آخور إلى طرابُلُس بطّالاً. وكتب بالإفراج عن المسجونين بالإسكندرية والكرك.

وفي يوم السبت عاشره ركب السلطان والأمراء إلى الميدان على العادة، ولَعِب فيه بالكرة، فكان يوماً مشهوداً.

ووقف الناس للسلطان، في الفأر[1] الضامن، ورفعوا فيه مائة قصّة فقُبِض عليه، وضربه الوزير بالمقارع ضرباً مبرِّحاً وصادره، وأخذ منه مالاً كثيراً.

وفيه قُبِض على الأمير بَيْبُغَا طَطَر، المعروف بحارس طير، نائب السلطنة المتوجّه إلى نيابة غزّة في طريقه، وسجن بالإسكندرية.

وفي يوم الأحد حادي عشره وصل الأمراء من سجن الإسكندرية وهم سبعة نفر: مَنْجَك اليوسفيّ الوزير، وفاضل أخو بيبغا أُرُس، وأحمد الساقي نائب صَفَد، وعمر شاه الحاجب، وأمير حسين التَّتَريّ وولده، والأمير محمد بن بَكْتَمُر الحاجب. فركب الأمراء ومقدّمُهم الأمير طاز، ومعه الخيول المجهّزة لركوبهم، حتى لقيهم وطَلع بهم إلى القلعة، فقبّلوا الأرض وخلَع السلطان عليهم. ونزلوا إلى بيوتهم فامتلأت القاهرة بالأفراح والتهاني. ونزل الأمير شَيْخُون والأمير طاز والأمير صرغمتش إلى اسطبلاتهم، وبعثوا إلى الأمراء القادمين من السّجن التقادم السّنية من

= الملابس الرسمية المملوكية بدخول السلطان سليم مصر سنة ٩٢٢هـ، غير أنها بقيت عند عامة أهل مصر. وقد عرّفها أحمد تيمور باشا في كتابه معجم الألفاظ العامية المصرية بقوله: الملوطة ــ وقد يقولون الفلوطة ــ شيء كالقباء أو القميص لكنه قصير مسدود الصدر يلبسه نحو الحمالين في سكة الحديد وغيرها ليكون أخف لهم، ويلبسونه على الجلباب. (النجوم: ٢٦١/١٠، حاشية: ١، طبعة دار الكتب المصرية).

(١) راجع ص ١٧١ من هذا الجزء، حاشية (٢).

الخيول والتَّعابي القماش والبُسُط وغيرهما؛ فكان الذي بعثه شيخون لمَنْجَك خمسة أفراس ومبلـغ ألفي دينار، وقس على هذا.

ثمّ في يوم الإثنين ثاني عشر شهر رجب خلـع على الأمير قبلاي الحاجب وآستقـرّ في نيابة السلطنة بالديار المصريّة، عوضاً عن بيبغا ططر حارس طير.

وفي يوم الخميس خامس عشر شهر رجب قدِم الأمير بيبغا أُرُس من سجن الكَرَك، فركب الأمراء إلى لقائه، وطلـع إلى السلطان وقبّل الأرض وخُلِـع عليه ونزل إلى بيته، فلم يبق أحد من الأمراء حتّى قدّم له تَقْدِمة تليق به.

ثم في يوم الإثنين تاسـع عشره خلـع على الأمير بَيْبُغَا أُرُس واستقرّ في نيابة حلب عوضاً عن أَرْغون الكاملي؛ واستقرّ أرغون الكاملي في نيابة الشام، عوضاً عن أَيْتمش الناصريّ. وخُلِـع على أحمد الساقي، شادّ الشراب خاناه كان، بنيابة حماة عوضاً عن طَنْيَرَق، ورُسم لطنيرق أن يتوجّه إلى حلب أمير طبلخاناة بها، ثمّ رُسم بأن يكون بطّالاً بدِمَشق.

و[في يوم الأحد ثالث شعبان][1] سافر بَيْبُغَا أُرُس وأحمد الساقي بعد أيام إلى محلّ[2] كفالتهما. [وفيه][3] سأل الأمير مَنْجك الإعفاء عن أخذ الإمرة [في نيابة صفد] وأن يقعد بطّالاً بجامعه[4]، فأُجيب إلى ذلك بسفارة الأمير شَيْخون، وآستـردّ أملاكه التي كان أنْعم بها السلطان على المماليك والخُدّام والجواري، ورمّم ما تشعّث من صِهْريجه وآستجـدّ به خُطبة. ثم خلـعَ السلطان على عمر شاه وآستقـرّ حاجب الحجاب عوضاً عن قُبْلاي المنتقل إلى نيابة السلطنة بديار مصر، وأنعم على طَشْتَمُر القاسميّ بتقدمة ألف، وآستقـرّ حاجباً ثانياً، وهي[5] تقدمة بَيْغَرا.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) أي نيابة حلب ونيابة حماة.

(٣) في الأصل: «ثم». وما أثبتناه عن السلوك.

(٤) جامع منجك. (خطط المقريزي: ٢/٣٢٠).

(٥) في السلوك: «وفي يوم الخميس سابعه قدم أمير علي الماردينى وأنعم عليه بتقدمة بيغرا».

وفيها أخرج جماعة من الأمراء وفُرِّقوا بالبلاد الشامية، وهم: الأمير طَيْنَال الجاشْنَكِير، وآقْجُبا الحمويّ الحاجب، ومَلِكْتَمُر السعدي[١]، وقُطْلُوبُغا أخو مُغْلَطاي، وطَشْبُغا الدوادار.

وفي يوم السبت تاسع شعبان وَصَل الملك المُجاهد صاحب اليمن من سجن الكَرَك، فخُلع عليه من الغد ورُسم له بالعود إلى بلاده من جهة عَيْذَاب[٢]؛ وبعث إليه الأمراء بتقادِم كثيرة وتوجّه إلى بلاده. وكانت أمّه قد رجَعَت من مكة إلى اليمن بعد مسكه وأقامت في مملكة اليمن [ابنة الملك][٣] الصالح، وكتَبَتْ إلى تُجّار الكَارِم تُوَصِّيهم بابنها المجاهد وأن يُقرِضوه ما يحتاج إليه، وخَتَمَتْ على أموالهم من صنف المَتْجَر بعَدن وتَعِزّ وزَبيد. فقَدِم قاصدها، بعد أن قُبِض على المجاهد ثانياً وسُجِن بالكَرَك، بعد أن كان رَسَم له الملك الناصر حسن بالتوجّه إلى بلاده، لأمرٍ بَدَا منه في حقّ السلطان في الطريق، فكتب مُسفِّره يُعرِّف السلطان بذلك. إنتهى.

ثم في يوم الإثنين ثاني عشر شعبان، وصل إلى القاهرة الأمير أَيْتَمُش الناصريّ المعزول عن نيابة الشام، فقُبِض عليه من الغد.

ثم قَدِم الشريف ثُقْبَة صاحب مكّة في مستهّل شهر رمضان، بعد ما قدم قوده وقود أخيه عجلان، فخَلَع السلطان عليه بإمرة مكّة بمفرده. وآقترض [ثُقبة] من الأمير طاز ألف دينار، ومن الأمير شَيْخون عشرة آلاف درهم، وآقترض من التجار مالاً كثيراً، وآشترى الخيل والمماليك والسلاح وآستخدم عِدّة أجناد.

ورُسِم بسفر الأمير حُسام الدين لاجين العلائيّ مملوك آقْبُغا الجاشْنَكير صحبته ليُقلدّه إمرة مكّة.

ثم سافر الأمير طَيْبُغا المجديّ في خامس[٤] شوّال بالحج والمحمل على

---

(١) في السلوك: «السعيدي».
(٢) عيذاب: كانت من الثغور المصرية على البحر الأحمر.
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) في السلوك: «خامس عشر شوال».

العادة، وسار الجميع إلى مكّة، ولم يَعْلَم أحد خبرَ المجاهد صاحب اليمن حتّى قَدِم مبشِّر الحاجّ في مستهّل المحرّم سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وأخبر بوصول الملك المجاهد إلى ممالك اليمن في ثامن عشر ذي الحجة من السنة الماضية، وأنه آستولى على ممالكه.

وفي شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة شرع الأمير طازفي عمارة قصره[١] وإصطبله، تجاه حمّام الفارقانيّ بجوار المدرسة البُنْدُقْدَارِية[٢] على الشارع؛ وأدخل فيه عدّة أملاك، وتولّى عِمارته الأمير مَنْجَك؛ وحمل إليه الأمراء وغيرهم من الرّخام وآلات العِمارة شيئاً كثيراً. و[فيه] شرع الأمير صرغتمش أيضاً في عِمارة إسطبل[٣] الأمير بدرجك، بجوار بئر[٤] الوطاويط قريباً من الجامع الطُّولوني وحَمل إليه الناس أيضاً شيئاً كثيراً من آلات العمارة. ثم خلَع السلطان على الأمير صرغتمش المذكور، وآستقرّ رأس نَوْبة كبيراً، في رتبة الأمير شَيْخون باختيار شيخون؛ وجعل إليه التصرُّف في أمور الدولة كلها من الولاية والعَزْل والحكم، ما عدا مال الخاصّ، فإن الأمير شيخون يتحدّث فيه[٥]. فقصَد الناسُ صرغتمش لقضاء أشغالهم، وكثـرت مهابتُـه، وعارض الأمـراءَ في جميـع أفعالهم. وأراد [صرغتمش] ألا يُعمل شيءٌ إلاّ من بابه وبإشارته، فإن تحدّث غيرُه [في عزل أو ولاية][٦] غَضِب وأبطل ما تحدّث فيه وأخرق بصاحبه. فأجمـع الأمراء على استبداد السلطان بالتصرُّف، وأن يكون ما يُرْسم به على لسان الأمير صرغتمش رأس نَوْبة. فطال صرغتمش وآستطـال وعَظُم ترُّفعه على الناس؛ فتنكرّت له الأمراء وكَثُرت الأراجيف بوقوع فتنة، وإعادة الملك الناصر حسن ومَسْك شيخون [وطاز، وانفراد صرغتمش بـالكلمة][٦] وصـاروا الأمراء على تحـرّز وآستعـداد؛ فـأخذ

---

(١) ذكره المقريزي باسم دار طاز. (خطط: ٢/٧٣).

(٢) ذكرها المقريزي باسم الخانقاه البندقدارية. (انظر الخطط: ٢/٤٢٠).

(٣) ذكره المقريزي باسم دار صرغتمش. (خطط: ٢/٧٤).

(٤) بئر الوطاويط. (خطط: ٢/١٣٥).

(٥) وزاد المقريزي: «. . وما عدا أمور الوزارة».

(٦) زيادة عن السلوك.

صرغتمش في التبرؤ مما رُمِي به، وحلف للأمير شيخون وللأمير طاز، فلم يُصدِّقْه طاز وهمّ به، فقام شَيْخون بينهما قياماً كبيراً، حتى أصلح بينهما، وأشار على طاز بالركوب إلى عمارة صرغتمش فركِب إليه وتصافيا.

وفي هذه الأيام من سنة ثلاث وخمسين رتّب الأمير شَيْخون في الجامع[١] الذي أنشأه العلامةَ أكمل الدين محمد الروميّ الحنفيّ مُدَرِّساً، وجعل خَطِيبَه جمال الدين خليل بن عثمان الروميّ الحنفيّ، وجَعَل به درساً للمالكيّة أيضاً وولّى تدريسه نورَ الدين السَّخاويّ المالكيّ، وقرّر له ثلاثمائة درهم كلّ شهر ورَتَّب به قُرّاء ومؤذنين وغير ذلك من أرباب الوظائف، وقرّر لهم معاليمَ[٢] بلغَت في الشهر ثلاثة آلاف درهم.

قلت: ذلك قبل أن تُبْنى الخانقاه تُجاه الجامع المذكور.

وفي عاشر جُمادَى الآخرة خلَع السلطان على الأمير شَيْخون العُمَري، واستقرّ رأس نَوْبة كبيراً عوضاً عن صرغتمش لأمر اقتضي ذلك. وعند لبس شيخون الْخِلعة قَدِم عليه الخبر بولادة بعض سراريه ولداً ذكراً، فُسرّ به سروراً زائداً، فإنه لم يكن له ولد ذكر.

وفي هذه الأيام آدّعى رجل [بالقاهرة][٣] النبوّة، وأنّ معجزته أن يَنْكِح امرأة فَتلِد من وقتها ولداً ذكراً يُخبر بصحّة نبوّته؛ فقال بعضُ مَن حضر: «إنك لبئس النبيّ»، فقال: «لكونكم بئس الأمة»، فضَحِك الناس من قوله، فحُبِس وكُشِف عن أمره، فوجدوا له نحو آثني عشر يوماً من حين خرج من عند المجانين[٤].

---

(١) جامع شيخون. (خطط المقريزي: ٣١٣/٢) وذكر المقريزي أن هذا الجامع أنشىء سنة ٧٥٦هـ. وصوابه، كما ذكر الأستاذ محمد رمزي بناءً على كتابة موجودة في نهاية طراز الوجهة العمومية للمسجد، سنة ٧٥٠هـ. أما التاريخ الذي ذكره المقريزي وهو سنة ٧٥٦هـ فهو تاريخ بناء خانقاه شيخون الواقعة تجاه هذا الجامع.

(٢) جمع معلوم، والمراد به الراتب الشهري.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) عبارة السلوك: «منذ خرج من عند الممرورين بالمارستان».

وفي يوم الأربعاء عاشر شهر رجب قَدِم كتاب الأمير أَرْغُون الكامليّ نائب الشام يتضمن أنه قُبض على قاصد الأمير مَنْجَك الوزير، بكتابه إلى أخيه بَيْبُغَا أُرُس نائب حلب، يحسّن له الحركة والعصيان. وأرسل الكتاب، وإذا فيه أنه آتفق مع سائر الأمراء، وما بَقِي إلا أن يركب ويتحرّك. فآقتضى الرأي التأني حتىً يحضُر الأمراء والنائب إلى الخدمة من الغد ويُقرأ الكتاب عليهم ليدبّروا الأمر على ما يقع عليه الاتفاق. فلمّا طَلَع الجماعة من الغد إلى الخدمة لم يحضُر منجك، فطُلِب فلم يوجد، وذكر حواشيه أنهم من عشاء الآخرة لم يَعْرِفوا خبَرَه. فركب الأمير صَرْغتمش في عدّة من الأمراء وكَبَس بيوت جماعته فلم يقَع له على خبر؛ وتفقدوا مماليكه فَفُقِد منهم آثنان؛ فنُودِي عليه في القاهرة، وهُدِّد من أخفاه؛ وأُخْرِج عيسى بن حسن الهَجان في جماعة من عرب العائذ على النُّجُب لأخذ الطرقات عليه، وكُتِب إلى العربان ونُوّاب الشام ووُلاة الأعمال على أجنْحِة الطيور بتحصيله، فلم يقدروا عليه، وكُبِست بيوت كثيرة.

ثمّ في يوم الأربعاء رابع عشرين شهر رجب قَدِم الخبر بعصيان الأمير أحمد الساقي نائب حَمَاة وبعصيان الأمير بَكْلَمش نائب طرابُلُس.

وفي يوم السبت سابع عشرينه، كُتِب بإحضار الأمير بَيْبُغَا أُرُس نائب حلب إلى الديار المصرية، وكُتب ملطّفات لأمراء حلب تتضمّن أنّه: إن آمتنع من الحضور فهو معزول؛ ورُسِم لحامل الكتاب أن يُعلِم بيبغا أُرس بذلك مشافهةً بحضرة أمراء حلب.

فقدم البريد من الشام بموافقة ابن دُلْغادر لبيبغا أُرس، وأنّه تسلطن بحلب، وتلقّب بالملك العادل، وأنه يُريد مصر لأخذ غُرمائه، وهم طاز وشَيْخون وصَرْغتمش وبُزْلار وأَرْغون الكامليّ نائب الشام. فلمّا بلغ ذلك السلطانَ والأمراءَ، رَسَم للنائب [بيبغا ططر حارس الطير][1] بَعْرض أجناد الحَلْقة، وتعيين مضافيهم من عَبْرة أربعمائة دينار الإقطاع فما فوقها ليُسافروا.

(١) زيادة عن السلوك.

ثم قَدِم البريد بأنّ قَرَاجَا بن دُلْغادر قَدِم حلب في جَمْـع كبير من التُّرْكُمان، فركِب بيبغا أُرُس وتلقّاه، وقد وَاعد نائب حَمَاة وطرابُلُس على مسيره أوّل شعبان إلى نحو الديار المصرية، وأنهم يلقوه على الرَّسْتَن[1]. فأمر السلطان الأمير طُقْطَاي[2] الدَّوَادار بالخروج إلى الشام على البريد وعلى يده ملطّفات لجميع أمراء حلب وحماة وطرابلس؛ فسار طقطاي حتّى وصل دِمَشق وبعث بالملطّفات إلى أصحابها، فوجد أمر بيبغا أرس قد قَوِي، ووافقه النوّابُ والعساكر وآبـن دُلغادر بتُرْكُمانه، وحَيَّار بن مُهَنَّا بعُرْبانه. فكتَبَ نائب الشام بأن سفر السلطان لا بد منه، «وإلا خَرَج عنكم الشام جميعُه». فـآتّفق رأيُ أمراء مصر على ذلك، وطلَب [السلطان] الوزير [علم الدين عبد الله بن زنبور] ورَسم له بتهيئة بيوت السلطان، وتجهيز الإقامات في المنازل؛ فذَكَر أنّه ما عنده مالٌ لذلك، فرسم له بقَرْض ما يحتاج إليه من التجّار، فطَلَب تُجّار الكَارِم وباعهم غلالاً من الأهراء بالسعر الحاضر، وعِدَّة أصناف أخَر، وكَتب لمُغْلَطَاي بالإسكندريّة، وأَخَذ منه أربعمائة ألف درهم، وأَخَذ من النائب مائةَ ألف درهم قَرْضاً، ومن الأمير بَلَبَان الأستادار مائةَ ألف درهم؛ فلم يَمْضِ أسبوعٌ حتّى جهّز الوزيرُ جميـعَ ما يحتاج إليه السلطان.

وخرج الأمير طاز في يوم الخميس ثالث شعبان، ومعه الأمير بُزْلار والأمير كلتاي والأمير فارس الدين أَلْبَكي. ثم خرج الأمير طَيْبُغا المجديّ وآبـن أَرْغون النائب وكلاهما مقدّم ألف في يوم السبت خامس شعبان. وخرج الأمير شيخون العُمَري في يوم الأحد سادسه بتجمُّل عظيم. فبينما الناس في التفرّج على طُلْبه إذ قيل قُبِض على مَنْجَك اليوسفي. وهو[3] أن الأمير طاز لمّا رحَل ووصل إلى بلبيس قيل له: إنّ بعض أصحاب منجك صحبة شاورشي مملوك قُوْصون، فطلبهما الأمير طاز وفَحَص عن أمرهما فرابه أمرُهما؛ فأمر بالرجل فَفُتِّش، فإذا معه كتاب منجك لأخيه بيبغا أُرُس، يتضمّن أنه قد فعل كلّ ما يختاره، وجهّز أمرَه مـع الأمراء كلِّهم،

(١) الرستن: بلدة قديمة بين حمص وحماة على نهر العاصي. (معجم البلدان).
(٢) في السلوك: «أرقطاي».
(٣) المراد: وسبب ذلك.

وأنه أخفى نفسه وأقام عند شاورِشي أيّاماً، ثم خرج من عنده إلى بيت الحُسام الصَّقْري[١] أستاداره، وهو مقيم حتّى يَعرف خبره، وهو يستحثه على الخروج من حلب. فبعث به طاز إلى الأمير شَيْخون، فوافى الاطلاب خارجة؛ فطلب شيخون الحُسام الصّقْري وسأله فأنكر، فأخذه الأمير صَرْغَتمش وعاقبه. ثمّ ركب إلى بيته بجوار الجامع الأزهر وهَجَمه فإذا مَنْجك ومملوكه، فأخذه صرغتمش وأركبه مكتوف اليدين إلى القلعة، فسُيِّر من وقته إلى الإسكندرية فحُبِس بها.

ثمّ ركب السلطان الملك الصالح من قلعة الجبل في يوم الأثنين سابع شعبان في بقية الأمراء والخاصكية ونزلَ إلى الرَّيْدانية خارج القاهرة وخَلَع على الأمير قُبْلاي باستقراره نائب الغَيْبة ورتّب أمير علي المارديني أن يُقيم بالقلعة ومعه الأمير كُشْلي السّلاح دار ليُقيما داخل باب القُلّة، ويكون على باب القلعة الأمير أُرْنان[٢] والأمير قُطْلُوبُغا الذهبي؛ ورتّب الأمير مجد الدين موسى الهذباني مع والي مصر لحفظ مصر. ثم استقلّ السلطان بالمسير من الريدانية في يوم الثلاثاء بعد الظهر.

وقدم البريد بأنّ الأمير مُغْلَطاي الدوادار خرج من دِمَشق يريد مصر، وأنّ الأمير أَرْغُون الكامليّ نائب الشام لمّا بلغه خروج بيبغا أُرُس بمن اجتمع معه من العساكر، عزم على لقائه؛ فبلغه مخامرة أكثر أمراء دمشق، فاحترس على نفسه، وصار يجلس بالميدان وهو لابسٌ آلةَ الحرب. ثم اقتضى رأيُ الأمير مسعود بن خَطِير أنّ النائب لا يَلْقَى القوم، وأنه يُنادي بالعَرْض للنفقة [في منزلة][٣] الكسوة، [ويركب إليها][٤]، فاذا خرج العسكر إليه بمنزلة الكُسْوة، منعهم من عبورهم إلى دمشق، وسار بهم إلى الرَّمْلة في انتظار قدوم السلطان، وأنه استصوب ذلك وفعله، وأنه مقيم بعسكر دِمَشْق على الرملة، وأن الأمير أَلْطُنْبُغا بُرْناق نائب صفد سار إلى بيبغا أُرُس، وأن بيبغا أرس سار من حلب إلى حماة واجتمع مع نائبها أحمد الساقي وبَكْلمش نائب طرابُلُس،

(١) في السلوك: «الحسام القصري».

(٢) في السلوك: «أرنال».

(٣، ٤) زيادة عن السلوك.

وسار بهم إلى حَمْص؛ وعند نزوله على حمص وصل إليه مملوكا الأمير أرقطاي بكتاب السلطان ليحضر، فقَبَض عليهما وقيّدهما وسار يريد دمشق، فبلغه مسيرُ السلطان واشتهر ذلك في عسكره، وأنه عُزِل عن نيابة حلب، فانحلت عزائم كثير ممن معه من المقاتلة، وأخذ بيبغا أُرس في الاحتفاظ بهم والتحرز منهم إلى أن قَدِم دمشق يوم الخميس خامس عشرين شهر رجب، فإذا أبواب المدينة مغلّقة والقلعة محصنّة. فبَعث [بيبغا أرس] إلى الأمير إياجي نائب قلعتها يأمره بالإفراج عن قردم وأن يفتح أبواب المدينة؛ ففتح أبواب المدينة ولم يُفْرِج عن قردم. فركب الأمير أحمد الساقي نائب حماة وبكلمش نائب طرابُلُس من الغد ليُغيرا على الضِّياع، فوافى بعضُ عسكر بيبغا أرُس نجّاباً يُخبر بمسك منجك ومسير السلطان من خارج القاهرة. وعاد أحمد وبكلمش في يوم الأثنين رابع عشر شعبان وقد نزل طاز بمن معه المزيرب؛ فارتجّ عسكرُ بيبغا أُرُس، وتواعد قَرَاجا بن دلغادر وحَيّار بن مهنا على الرحيل، فما غَرَبَت الشمس إلا وقد خرجا بأثقالهما وأصحابهما وسارا. فخرج بيبغا أُرُس في أثرهما فلم يدركهما؛ وعاد بُكرة يوم الثلاثاء، فلم يستقر قراره حتى دُقّت البشائر بقلعة دِمَشق بأن الأمير طاز والأمير أرغون الكامليّ نائب الشام وافَيَا دِمَشق وأن الأمير شيخون والسلطان ساقة؛ فَبُهِت بيبغا أُرُس وتفرّق عنه مَنْ كان معه، فَرِكب عائدا إلى حلب في تاسع عشر شعبان؛ فكانت إقامته بدِمَشق أربعةٍ وعشرين يوماً أفسَدَ أصحابهُ بدِمشَق فيها مفاسدَ وقبائحَ من النهب والسَّبْي والحريق والغارات على الضِّياع من حلب إلى دمشق، وفعلوا كما فعل التتار أصحابُ قازان وغيره. فبعث السلطان الأمير أَسَنْدَمُر العلائي إلى القاهرة بالبِشارة فقَدِمَها يوم الجمعة خامس عشرين شعبان، ودقّت البشائر لذلك وزُيِّنت القاهرة.

وأمّا السلطان الملك الصالح فإنه ٱلتقى مع الأمير أَرْغُون شاه الكامليّ نائب الشام على بُدَّعَرْش من عمل غزّة، وقد تأخّر معه الأمير طاز بمن معه فدخلوا غزّة، وخلعَ السلطان على أرغُون المذكور باستمراره في نيابة دِمشق، وأنْعَم عليه بأربعمائة ألف درهم، وأنعم على أمير مسعود بن خَطير بألف دينار، وعلى كلِ أمراء دمشق كل واحد قَدْر رُتبته، فكان جملة ما أنفق السلطان فيهم ستمائة ألف درهم.

وتقدّم الأمير شيخون والأمير طاز والأمير أرغون نائب الشام إلى دمشق، وتأخر الأمير صَرْغتمش صحبةَ السلطان ليدبّر العسكر. ثم تبعهم السلطان إلى دمشق فدخلها في يوم الخميس مستهلّ شهر رمضان، وخرج الناس إلى لقائه، وزُيّنت مدينة دمشق، فكان لدخوله يومُ مشهود. ونَزَل السلطان بقلعة دمشق، ثم ركب منها في الغد يوم الجمعة ثانيه إلى الجامع الأموي في مَوْكب جليل حتى صلى به الجمعة. وكان الأمراء قد مَضوا في طلب بيبغا أُرُس.

وأما بيبغا أُرُس فانه قَدِم إلى حلب في تاسع عشرين شعبان، وقد حُفِرت خنادق تُجاه أبواب حلب وغُلّقت. وامتنعت القلعة عليه ورَمَتْه بالحجارة والمجانيق، وتَبِعهم الرجال من فوق الأسوار بالرّمي عليه، وصاحوا عليه؛ فبات تلك الليلة بمن معه وركب في يوم الخميس مستهل شهر رمضان للزحف على مدينة حلب، وإذا بصِياح عظيم، والبشائر تدُقّ في القلعة؛ وهم يَصِيحون «يا منافقون، العسكر وصل». فالتفتَ بمَن معه، فإذا صناجقُ على جبل جَوْشَن[١]، فانهزموا عند ذلك بأجمعهم إلى نحو البرية. ولم يكن ما رَأَوْه على جبل جَوشَن عسكر السلطان، ولكنه جماعة من جند حلب وعسكر طرابُلُس كانوا مختفين من عسكر بيبغا أُرُس عند خروجه من دِمَشق، فساروا في أعقابه يريدون الكَبْسَة على بيبغا أُرُس وتَعبَّوا على جبل جوشن، فعندما رآهم بيبغا لم يَشُكّ أنهم عسكر السلطان فانهزم. وكان أهل بانقُوسَا[٢] قد وافقوهم وتقدّموا عنهم، فمسكوا المضايق على بيبغا، وأدركهم العسكر المذكور من خلفهم، فتمزق عسكرُ بيبغا أُرُس، وقد آنعقد عليهم الغُبار حتى لم يمُكن أحدٌ أن ينظر رفيقَه فأخذهم العربُ وأهلُ حلب قَبْضاً باليد، ونهبوا الخزائن والأثقال، وسلبوهم ما عليهم من آلة الحرب وغيره. ونجا بيبغا أُرُس بنفسه بعد أن آمتلأت الأيدي بنهب ما كان معه، وهو شيء يَجِلّ عن الوصف. وتتبّع أهلُ حلب أمراءَه ومماليكَه وأخرجوهم من عِدّة مواضع، فظَفِرُوا بكثير منهم، فيهم أخوهُ الأميرُ فاضل، والأميرُ أَلْطُنْبُغا العلائي شادّ الشراب خاناه، وأَلْطُنْبُغا بُرنْاق نائب

(١) جبل جوشن: جبل مطلّ على حلب في غربيها. (معجم البلدان).
(٢) بانقوسا: من قرى حلب، سميت باسم جبل بانقوسا. (معجم البلدان).

صفد، ومَلِكْتَمُر السعيدي، وشادِي أخو نائب حماة، وطَيْبَغا حلاوة الأوْجاقي، وآبـن أيْدُغْدي الزرّاق، ومَهْدِي شاد الدواوين بحلب، وأسنباي قريب آبـن دُلْغَادِر، وبهادُرُ الجاموس، وقِلِيـج أرسلان أُستادار بيبغا أُرُس، ومائة مملوك من مماليك الأمراء؛ فقُيِّدوا الجميـع وسُجِنوا. وتوجّه مـع الأمير بيبغا أُرُس أحمد الساقي نائب حَمَاة وبَكْلمش نائب طرابُلُس وطَشْتَمُر القاسِميّ نائب الرَّحْبَة وآقبغا البالِسيّ وطَيْدَمُر وجماعة أُخَر، تبلـغ عِدَّتُهم نحوَ مائة وستة عشر نفراً.

ثم دخل الأمراء حلب وأخذوا أموال بيبغا أُرُس؛ وكتبوا إلى قَرَاجا بن دُلْغَادر بالعفو [عن أمير أحمد نائب حماة][1] والقبض على بيبغا أُرُس ومَنْ معه؛ فأجاب بأنّه ينتظر في القَبْض عليه مرسومَ السلطان، وقد نَزَل بيبغا أُرُس عنده. وسأل إرسال أمان لبيبغا أُرُس وأنّه مستمرّ على إمرته، فجُهِّز له ذلك فآمتنـع من تسليمه؛ فطَلَب الأمراءُ رمضانَ من أمراء التُّرْكُمان، وخُلِع عليه بإمرة قَرَاجا بن دُلْغادِر وإقطاعه. وعاد الأمراءُ من حلب، وآستقـرّ بها الأمير أَرْغُون الكامليّ نائبُ الشام؛ وعاد الجميـع إلى دِمَشْق ومعهم الأمراءُ المقبوضُ عليهم في يوم الجمعة سلـخ شهر رمضان. وصلّوا العيد بدِمشق مـع السلطان الملك الصالـح صالـح. وأقاموا إلى يوم الاثنين ثالث شوال، فجلس السلطان بطَارِمَة[2] قلعة دِمَشْق وأُخرج الأمراء المسجونون في الحديد ونُودي عليهم: «هذا جزاء من يُخامر على السلطان ويخونُ الأيمان[3]». ووسّطوهم واحداً بعد واحد، وقد تقدّم ذكرُ أسمائهم عند القبض عليهم؛ فُوسِّط الجميـعُ، ما خلا مَلِكْتَمُر السَّعِيدي فإنه أُعيد إلى السجن. وخَلَـع السلطان على أَيْتَمُش الناصريّ وآستقـرّ في نيابة طرابُلُس عوضاً عن بَكَلْمُش السِّلاح دار. وخَلَـع على طَنْيَرَق بنيابة حَمَاة عوضاً عن أحمد الساقي، وعلى الأمير شهاب الدين أحمد بن صُبيـح[4] بنيابة صَفَد عوضاً عن أَلْطُنْبُغَا بُرْناق.

---

(١) في الأصل: «عنه». وما أثبتناه بين معقوفين مستفاد من السلوك.

(٢) الـطارمة: بيت من خشب يكـون سقفه عـلى هيئة قبـة، لجلوس السلطان. (خطط المقريـزي: ١/٣٥و٢/٤٤٤).

(٣) في السلوك: «ويخون الإسلام».

(٤) في السلوك: «أحمد بن صبح».

ثم صلّى السلطان صلاة الجمعة بالجامع الأمَويّ وهو سابع شوّال، وخرج من دِمشق يريد الديار المصريّة بأمرائه وعساكره، فكانت مدّةُ إقامته بدمشق سبعةً وثلاثين يوماً. وسار حتّى وصل القاهرة في يوم الثلاثاء خامس عشرين شوّال من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، ومشى بفَرَسه على الشُّقَق الحرير التي فُرِشت له بعد أن خرج الناس إلى لقائه والتفرُّج عليه، فكان لدخوله القاهرة أمرٌ عظيم لم يتّفق ذلك لأحد من إخوته. وعند ما طَلَع إلى القلعة تلقَّته أمُّه وجواريه ونَثَرُوا على رأسه الذهبَ والفِضَّة، بعد أن فُرِشت له طريقُه أيضاً بالشِّقاق الأطلس الملوّنة، والتهانِي تزُفّه؛ ولم يبق بيت من بيوت الأمراء إلا وفيه الأفراح والتهاني.

وفي قدوم السلطان الملك الصالح يقول العلاّمة شهاب الدين أحمد بن أبـي حجلة التِّلِمْساني الحنفيّ، تغمده الله برحمته: [الكامل]

الصالحُ الملك المعَظمُ قـدْرُهُ تُطوَى لـه أرض البعيـدِ النـازِحِ
لاتعجبـوا من طَيِّهـا في سَيْـرِهِ فـالأرضُ تُطْوَى دائماً للصـالـحِ

ثم عَمِل السلطان عِدَّة مهمّات بالقلعة والقصر السلطانيّ، وخَلَع على جميع الأمراء وأرباب الوظائف.

ثمّ قُبِضَ على الوزير عَلَم الدين عبد الله بن أحمد بن زُنْبور، وهو بخلعته، قريب المغرب. وسبب ذلك أنّه لّما فُرِّقت التشاريفُ على الأمراء، غَلِط الذي أخذ تشريف الأمير صَرْغتمش، ودخَل إليه بتشريف الأمير بَلَبَان السِّنانيّ الأستادار، فلمّا رآه صرغتمش تحرّك ما عنده من الأحقاد على آبـن زُنْبور المذكور، وتنمّر[1] غَضباً، وقام من فوره ودخل إلى الأمير شَيْخون وألقَى البُقْجَة قدّامَه وقال: «انْظر فِعْل الوزير معي»، وحَلّ الشاش وكشف التشريف. فقال شيخون: «هذا وقـع فيه الغلط»: فقام صَرْغَتْمش، وقد أخذه من الغضب شِبْهُ الجنون، وقال: «أنا ما أرضى بالهَوَان، ولا بُدّ من القبض عليه، ومهما شئت فافْعَل [بـي]». وخرج فصادف آبـن زُنْبور

(١) في السلوك: «وتميّز غضباً».
(٢) زيادة عن السلوك.

داخلاً إلى شَيْخون وعليه الخِلْعة، فصاح في مماليكه خُذوه. ففي الحال نزعوا عنه الخِلْعة، وجَرُّوه إلى بيت صرغتمش، فسجَنه في موضع مُظْلم من داره، وعَزَل عنه آبنه رزق الله في موضع آخر. وكان قبل دخوله إلى شيخون رتّب عدَّة مماليك على باب خِزانة الخاص، وباب النحاس، وباب القلعة، وباب[1] القرافة، وغيره من المواضع، وأوصاهم بالقبض على حاشية آبن زنبور وجميع الكُتّاب، بحيث لا يدعوا أحداً منهم يخرج من القلعة. فعند ما قَبَض على آبن زُنْبور آرتجّت القلعة، وخرجت الكتّاب فقَبَضت مماليكُ صرغتمش عليهم كلّهم، حتى على شهود الخزانة وكُتّابها، وكُتّاب الأمراء الذين بالقلعة. وآختلطت الطمّاعة بمماليك صرغتمش، وصاروا يَقْبِضون على الكاتب، ويمضون به إلى مكان ليعرّوه ثيابه، فإن آحترموه أخذوا مِهْمازه من رجله، وخاتمه من إصبعه، أو يَفْتَدِي نفسه منهم بمالٍ يدفعه لهم، حتى يُطلقوه؛ وفيهم من آختفى عند الغِلْمان[2]، فقرّروا عليه مالاً، وآسترهنوا دواتَه، بحيث إنّ بعض غِلْمان أمير حُسَيْن أخي السلطان جمع ستَّ عشرةَ دواة من ستة عشر كاتباً، وأصبح يُجبيهم ويدفع لهم أدويَتهم[3]. وذهب من الفَرَجيات والعمائم والمناديل شيءٌ كثير. وساعة القبض على ابن زُنْبور، بعث الأمير صرغتمش الأمير جُرْجي والأمير قَشْتَمُر في عِدّة من المماليك إلى دُور آبن زنبور بالصناعة[4] بمدينة مصر، وأوقفوا الحَوْطة على حريمه، وختموا بيوته وبيوت أصهاره؛ وكانت حُرَمُهم في الفَرَح وعليهنّ الحُلِيّ والحُلَل، وعندهنّ معارِفُهنّ. فَسَلب المماليكُ كثيراً من النساء اللّاتي كنّ في الفَرَح، [ووقفوا][5] حتّى مكّنوهنّ من الخروج إلى دورهنّ؛ فخَرج عامّة نساء آبن زنبور وبناته، ولم تبق إلّا زوجُته

---

(١) المراد باب القرافة الذي كان بالقلعة. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٢٠٤.

(٢) عبارة السلوك: «وفيهم من اختفى ببيت أمير، فقرر غلمان الأمير عليه مالاً، واسترهنوا دواته... إلخ.

(٣) كذا. وصوابه: «دويّهم».

(٤) في السلوك: «دور ابن زنبور بالمصاصة من مدينة مصر». والمصاصة كان خطاً كبيراً من أخطاط مصر. ويستفاد مما ذكره ابن دقماق في الانتصار (٤/١٤، ١٦، ٢٤) أن هذا الخط آختص بسكن اليهود والنصارى في مصر منذ أيام الفاطميين.

(٥) زيادة عن السلوك.

فوكّل بها؛ وكُتِبَ إلى وُلاة الأعمال بالوجه القبليّ والوجه لبحريّ بالحَوْطة على ماله وزراعته، ومَالَهُ من القُنود والدّواليب وغيرها، وخَرَج لذلك عدّةٌ من مُقَدَّمي الحَلْقة؛ وتوجّه الحُسام العلائي إلى بلاد الشام ليوقّـع الحَوْطة على أمواله. وأصبح الأمير صرغتمش يوم السبت ثامن عشرين شوّال، فأخرج آبـن الوزير آبـن زنبور رزق الله بُكْرة، وهّدده، ونزل به من داره من القلعة إلى بيته، وأخَذَ زوجة آبـن زُنْبور أيضاً وهدّدها، وأَلْقَى آبنهـا رزق الله إلى الأرض ليضربه فلم تَصْبِر، ودلّته على موضـع المال، فأخذ منه خمسة عشر ألف دينار وخمسين. ألف درهـم، وأخرج من بئر صندوقاً فيه ستّة الآف دينار ومصاغ؛ ووَجَد له عند الصارم مشدّ العمائر ستّة الآف دينار ومائة وخمسين ألف درهم، سوى التُّحَف والتفاصيل وثياب الصوف وغير ذلك. وألزَم محمد [بن](١) الكُورانيّ والي مصر بتحصيل بنات آبـن زُنْبُور، فنُودِي عليهنّ؛ ونقل ما في دُور صِهْرَي آبن زنبور وسُلِّما لشادّ الدواوين، وعاد صَرْغَتْمش إلى القلعة. فَطلب السلطانُ جميـعَ الكُتّاب وعَرضهم، فعيّن موَفّق الدين هِبة الله [بن إبراهيم](١) للوزارة وبـدر الـدين [كـاتب يَلْبُغـا لنـظر الخـاصّ](١) و[تـاج الـدين أحمـد بن الصاحب](١) أمين الملك عبد الله بن الغَنّام لنظر الجيش، وأخاه كريم الدين لنظر البيوت [وآبـن السعيد لنظر الدولة](١) وقَشْتَمُر مملوك طُقُزْدَمر لشدّ الدواوين.

وفي يوم الأحد تاسـع عشرين شوّال خَلَـع على الجميـع، وأقبل الناس إلى باب صَرْغَتْمش للسعي في الوظائف، فولّى الأسعد حربة آستيفـاء الدولة، وولى كريم الدين أكرم ابن شيخ ديوان الجيش. وسلم [الأمير صرغتمش] المقبوض عليهم لشادّ الدواوين وهم: الفخر [آبـن](١) قَرَوِينَة ناظر البيوت، والفخر بن مليحة ناظر الجيزة والفخر مستوفي الصُّحبة، والفخر بن الرضيّ كاتب الإسطبل، وآبـن معتوق كاتب الجهات، وطلب التاج بن لفيتة ناظر المَتْجر وناظـر المطبـخ، وهـو خال آبـن زُنْبور، فلم يوجد؛ وكُبِست بسببه عِـدَّةُ بيوت، حتى أُخِـذَ. وصار الأميـر صَرْغَتْمش ينزِل، ومعه ناظر الخاصّ وشهود الخِزانة، ويَنقُل حواصل آبـن زُنْبور من

(١) زيادة عن السلوك.

مصر إلى حارة زَوِيلة فأعياهم كثرةُ ما وجدوه له، وتُتبِّعت حواشي ابن زنبور، وهُجِمت دور كثيرة بسببهم.

ثم في مستهلّ ذي القعدة نزل الأمير صرغتمش إلى بيت ابن زنبور بالصناعة[١]، وهَدم منه ركناً فوجد فيه خمسة وستّين ألف دينار، حَمَلها إلى القلعة؛ وطَلَب ابنَ زنبور وضربه عُرياناً فلم يعترف بشيء؛ فنزل إلى بيته وضَرَب ابنه الصغيرَ وأمّه تراه في عِدّة أيام حتى أسمعْته كلاماً جافياً، فأمر بها فعُصِرت. وأخذ ناظر الخاصّ في كشف حواصل ابن زنبور بمصر، فوجد له من الزيت والشّيرج والنُّحاس والرَّصاص والكِبْريت والعَكَر[٢] والبَقَّم[٣] والقَنْد[٤] والعسل وسائر أصناف المَتْجَر ما أذهله، فشرع في بيع ذلك كلّه. هذا والأمير صَرْغَتْمش ينزل بنفسه وينقلُ قماش ابن زنُبور وأثاثه إلى حارة زَوِيلة ليكون ذَخيرة للسلطان، فبلغَت عِدةُ الحمّالين الذين حملوا النّصافي والأواني الذهب والفضّة والبِلّور والصِّينيّ والكُتُب والملابس الرجالية والنسائية والزراكش واللآليء والبُسُط الحرير والمقاعد ثمانمائة حمّال، سوى ما حُمِل على البِغال. وكان ما وُجد له من أواني الذهب والفضّة ستّين قنطاراً، ومن الجواهر ستين رطلاً، ومن اللؤلؤ الكبار إردبين، ومن الذهب الهَرْجة[٥] مائتي[٦] ألف دينار وأربعة الآف دينار، وقيل ألف ألف دينار، ومن الحوائص الذهب ستة الآف حياصة، ومن الكَلْفَتاة الزّركش ستة الآف كلْفَتاه، ومن ملابسه عِدّة ألفين وستمائة فرجية، ومن البُسُط ستة آلاف بساط، ومن الشاشات ثلاثمائة شاش؛ ووجد له من الخيل والبِغال ألف رأس، ودواب حلّابة ستة الآف رأس، ومن معاصر السكر خمس وعشرون معصرة، ومن الإقطاعات سبعمائة إقطاع، كلّ إقطاع متحصله

---

(١) في السلوك: «بالمصّاصة».

(٢) لعل المراد به الزيت العكر، أي بقايا الزيت المستعمل للإضاءة.

(٣) البقّم: شجر يصبغ به، ويعطي لوناً أحمر، ويسمى العندم.

(٤) القند: عصارة قصب السكر.

(٥) الهرجة: الدنانير من الذهب الخالص تستعمل في الحلي كالأساور والعقود وغيرها. (انظر السلوك: ٢/٢/٣٩٣، حاشية: ٤؛ وخطط المقريزي: ٢/٢٩٢).

(٦) في السلوك: «ثلاثين ألف دينار وأربعة الآف دينار».

خمسة وعشرون ألف درهم في السنة؛ ووجد له مائةُ عبد وستون طواشيّاً وسبعمائة جارية، وسبعمائة مركب في النيل، وأملاك قُوِّمت بثلاثمائة ألف دينار، ورُخام بمائتي ألف درهم، ونحاس بأربعة الآف دينار، وسروج وبدلات عدّة خمسمائة؛ ووُجِد له آثنـان وثلاثون مخزناً، فيها من أصناف المَتْجر ما قيمتُه أربعمائة ألف دينار؛ ووُجِد له سبعة الآف نِطْـع[1] وخمسمائة حمار ومائتا بستان وألف وأربعمائة ساقية، وذلك سوى ما نُهب وما آختُلس؛ على أنّ موجوده أبيـع بنصف قيمته. وُوجد في حاصل بيت المال مبلـغ مائة ألف وستون ألف درهم؛ وبالأهراء نحو عشرين ألف إردب: وهذا الذي ذكرناه محرّر عن الثقات. وأما غيرُنا فذكرَ له أشياء كثيرة حداً، أضرَبْنا عن ذكرها خوف المجازفة.

وكان آبتداء [أمر] آبن زُنْبُور أنه باشر في آستيفاء الوجه القبليّ، فنهض فيه وشُكرت سيرتُه إلى أن عَرَض الملك الناصر محمد بن قلاوون الكُتّاب ليختار منهم من يُولّيه كاتب الإسطبل، وكان آبـن زنبور هذا من جملتهم وهو شابٌ، فأثنى عليه الفخرُ ناظر الجيش وساعده الأكُوز والنَّشْو، فوُلِّي كـاتب الإسطبـل عوضـاً عن آبـن الجيعان فنالته فيها السعادة. وأُعجب به السلطان لفِطْنته، فدام على ذلك حتى مات الناصر، فـآستقرّ مستوفي الصُّحْبة، ثم آنتقـل عنها إلى نظر الدولة. ثم ولي نظر الخاصّ بعناية الأمير أرُغُون العلائي، ثم أضيف إليه نظر الجيش؛ وجَمَـع بعد مدّة إليهما الوزارة، ولم تتفق لأحد قبله هذه الوظائف[2].

قلت: ولا بعده إلى يومنا هذا، (أعني لواحد في وقت واحد).

وعَظُم في الدولة ونالتْه السعادة، حتى إنه كان يُخْلَـع عليه في ساعة واحدة ثلاث خِلَـع، ويُخْرَج له ثلاث أفراس؛ ونَفَذَت كلمتُه وقَوِيت مهابتُه، وآتّجـر في جميـع الأصناف حتى في المِلْـح والكبْريت. ولمّا صار في هذه الرتبة كَثُرت حُسّاده وسَعوا فيه عند صَرْغَتْمش وأغْرَوْه به، حتى كان من أمره ما كان. وكان يقوم بكُلَف

(١) النطـع: بساط من أديم أو جلد. (محيط المحيط).

(٢) عبارة السلوك: «ولم يتفق لأحد قبله الجمـع بين الوظائف الثلاث» وهي أوضـح.

شَيْخون جميعها من ماله[١] وصار صرغتمش يُسمِع شيخون بسببه الكلام، ويقول: «لو مَكَّنْتَني منه أخذتُ منه للسلطان ما هو كَيْتَ وكَيْتَ»، وشيخون يعتذر له ويقول: «لا يوجد من يَسُدّ مَسَدّه، وإن كان ولا بُدّ يُقرِّر عليه مالٌ ويستمرّ على وظائفه»؛ وبينما هم في ذلك قَدِم الخبر بعصيان بَيْبُغا أرُس، فاشتغل صرغتمش عنه حتى سافروا وعادوا إلى القاهرة، ووقع من أمر الخِلْعة ما حكيناه.

ثم انتُدِب جماعةٌ بعد مَسْكه للسعي في هلاكه وأشاعوا أنه باق على دين النَّصْرانية، وأثبتوا في ذهن صرغتمش ذلك، وأنه لمّا دخل إلى القُدس في سَفْرته هذه بدأ في زيارته بالقُمامة[٢] فقبّل عَتَبتها وتعبّد فيها ثم خرج إلى المسجد الأقصى فأراق الماء في بابه ولم يُصلّ فيه، وتصدّق على النصارى ولم يتصدّق على غيرهم، ورتّبوا فَتَاوى أنه آرتـدّ عن دين الإسلام.

وكان أجلّ مَنْ قام عليه الشريفُ شرفُ الـدين نقيب الأشراف والشـريفُ أبو العباس الصّفراويّ وبدرُ الدين ناظر الخاصّ والصوّاف تاجرُ الأمير صَرْغَتْمش، وأُشهد عليه أنّ جميـعَ ما يملكه [إنما هوّ] للسلطان من مال بيت المال دون ماله. ثم حسّنوا لصرغتمش ضَرْبَه، فأمَر به فأُخرج وفي عُنُقه باشةٌ[٣] وجنزير، وضُرب عُرْياناً قُدّام باب قاعة الصاحب من القلعة. ثم أُعيد إلى موضعه وعُصر وسُقي الماء والملـح. ثم سُلِّم لشادّ الدواوين وأمر بقتله، فنـوّع عليه أنواع العذاب، فتكلّم الأمير شَيْخُون في عدم قتله، فأمسك عنه، ورَتّب له الأكل والشرب، وغُيِّرت عنه ثيابه، ونُقل من قاعة الصاحب إلى بيت صرغتمش؛ واستمرّ على ذلك إلى أن أُخرج إلى قُوص منفياً، ومات بها بعد أن أخذ سائرُ موجوده، وأُخِذ منه ومن حواشيه فوق الألْفَي ألف دينار. انتهى.

---

(١) عبارة السلوك: «وكان يحمل لشيخون مال الخاص؛ وهو الذي عمر له العمارة التي على النيل من ماله، وكان يقوم له بما يفرّقه من الحوائص على مماليكه ونحو ذلك.»

(٢) المراد بها كنيسة القيامة بالقدس. وقد جرى المؤرخون المسلمون في القرون الوسطى على هذه التسمية. وذكروا أن سبب هذه التسمية يعود إلى كون مكان هذه الكنيسة كان قمامة أهل البلد. (انظر معجم البلدان).

(٣) الباشة في معاجم اللغة حلقة ذات عروة وزرّ، تجعل في طرف القيد، فتحيط برسغ الدابة عند الربط. ومعناها هنا حلقة توضـع حول رقبة الواقـع تحت العقوبة ليربط فيها إلى جنزير.

وأما أمرُ الديار المصرية فإنه لمّا كان يوم الأثنين ثامن عشرين ذي الحجّة قَدِم البريد من حلب بأخذ أحمد الساقي نائب حَمَاة، وبكلمش نائب طرابُلُس، من عند ابن دُلْغَادِر وسُجِنا بقلعة حلب، فأمر السلطان إلى نائب حلب بخَلْعه.

وفي هذه الأيام تَوفِّي الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بعد أن عَهد لأخيه أبـي بكر، فطُلِب أبو بكر وخُلِـع عليه خِلْعة الخلافة بحضرة السلطان والأمير شَيْخون، ولُقِّب بالمعتضد بالله أبـي بكر. يأتي ذكره في الوفَيَات على عادة هذا الكتاب. وقد ذكرناه في المنهل الصافي بأوسَـع مما يأتي ذكره فيه، وأيضاً في مختصرنا المنعوت: «بمَوْرد اللّطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة».

وأما أمر بَيْبُغا أُرُس فإنه لمّا أرسل قَرَاجا بن دُلْغادِر أحمد الساقي نائب حماة وبكلمش نائب طرابُلُس إلى حلب في القيود واعتُقِلا بقلعة حلب حسب ما ذكرناه، فكان ذلك آخر العهد بهما. ثم أرسل قَرَاجا المذكور بَيْبُغا أُرُس بعد أيام في محرّم سنة أربـع وخمسين وسبعمائة فاعتُقِل بقلعة حلب، وكان ذلك آخر العهد به. أيضاً. رحمه الله. وقيل: إنه ما حضر إلى حلب إلا رؤوسهم. والله أعلم.

وفي بيبغا أُرس يقول الأديب زين الدين عبد الرحمن بن الخضر السنجاريّ الحلبـيّ ــ رحمه الله ــ أبياتاً منها: [الطويل]

بَغَى بَيْبُغـا بَغْيَ الممـالِـكِ عَنْـوَةً ... وما كان في الأمـر المُرادِ مـوفَّقَا
أغارَ على الشقراءِ في قَيْد جهله ... لكي يركبَ الشهباءَ في المُلك مطْلقَا
فلمّا عَلَا في ظهـرها كـان راكباً ... على أدهمٍ لكنّـه كـان مُـوثَقـا

ثم رسم السلطان الملك الصالـح صالـح أن يَقَرَّ أهل الذمّة على ما أقرهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عليه من ترك تشبّههم بالمسلمين في أمر من الأمور، وترك ركوب الخيل وحَمْل السلاح، ورفـع أصواتهم على أصوات المسلمين وأشباه ذلك.

ثم رسم بنفي الأمير مَنْجك اليوسفي الوزير كان إلى صفد بطّالاً. وفي هذه السنة (أعني سنة أربـع وخمسين وسبعمائة) انتهت عمارة الأمير سيف الدين طاز التي

تُجاه حمام الفارقاني، فعمل طاز وليمة وعزم على السلطان والأمراء، ومدّ سِماطاً عظيماً. ولمّا انتهى السِّماط وعزم السلطان على الركوب، قدّم له أربعة أرؤس من الخيل بسروج ذهب وكنابيش زَرْكَش، وقدّم للأمير سيف الدين شَيْخون فرسين، ولصَرْغَتْمش فرسين، ولسائر الأمراء المقدّمين كل واحد فرساً، ولم يُعهد قبل ذلك أن سلطاناً نزل إلى بيت بعض الأمراء بعد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلا هذا.

وحـجّ بالناس في هذه السنة الأمير ركن الدين عُمَرشاه الحاجب، صاحب القنطرة[1] خارج القاهرة.

ثم استهلّت سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكان فيها الواقعة والفِتنة بين حاشية طاز وبين صرغتمش. والسبب لهذه الحركة أن الأمير صَرْغَتْمش كان يخاف من طاز ويَغضّ منه، وكذلك كان طاز يغضّ من صرغتمش؛ وكان طاز يدخل على شيخون مِراراً عديدة بمسك صرغتمش، وكان شيخون يكره الفِتن والفساد، وقصدُه الصلاح للأمور بكلّ ما يُمكن، فكان شيخون يَعِده ويُصبِّره. وكان صرغتمش أيضاً يخاف شرّ طاز ويقول لشيخون: «هذا ما يريد الاّ هلاكي»، فكان شيخون يُطمِّنه على نفسه ويَعِده بكلّ خير. وكان إخوه طاز وحواشيه تُحرِّضه على صرغتمش وعلى إثارة الفتنة. وقَوِيَ أمرُ طاز وإخوته وخرج عن الحدّ، وهم الأميرُ جَنْتَمُر وكُلْتاي وصِهْره طقطاي، فهؤلاء الذين كانوا يُحرّكون طاز على قيام الفتنة، ومسك صرغتمش ليستبدّ طاز بالأمر وحدَه، ويكونوا هم عظماء الدولة، وشيخون يعلم بذلك ويُسَكِّنهم ويُرجعهم عن قصدهم، وطاز يَستحي من شيخون. وطال الأمر إلى أن اتفق طاز مـع إخوته المذكورين وغيرهم من مماليكه وأصحابه أنه يخرُج هو إلى الصيد؛ فإذا غاب عن المدينة، يركب هؤلاء على صرغتمش ومن يلوذ به ويمُسكونه في غيبته، فيكون بغَيْبة طاز له عذْر عند شيخون من حَيَائه منه؛ فلمّا خرج طاز إلى الصيد بالبحيرة بإذن الأمير شيخون له، وما عند شيخون عِلْم من هذا الاتفّاق، رتّب حاشية طاز وإخوته ومن يلوذ به أمرَهم، واجتمعوا ولَبِسوا السلاح ورَكبوا على صرغتمش؛ فلمّا سمـع شيخون بذلك أمرَ مماليكَه أن يركبوا بالسلاح، وكانوا مقدار سبعمائة مملوك،

(١) خطط المقريزي: ٢/ ١٤٧.

فركبوا. ورَكب الأمير صَرْغَتْمش ومن يلوذ به. ووقع الحرب بينهم وبين إخوة طاز، وتقاتلا فانكسر إخوة طاز وقُبَض عليهم، وعلى أكابر مماليك طاز وحواشيه، فهربت البقية؛ فدخل صرغتمش هو ومن بقي من أكابر الأمراء إلى شيخون وقالوا: «لا بدّ من خَلْع الملك الصالح صالح وإعادة الملك الناصر حسن إلى السلطنة» لكون الصالح كان يميل إلى طاز، فاعتذر شيخون بأعذار غير مقبولة، وأراد إبقاء الصالح، فلم يُوافقوه؛ وما زالوا به حتى أذعن، واتفقوا على خلعه فخُلِع، وأعيد الملك الناصر حسب ما يأتي ذكره في ترجمته.

وكان خَلْع الملك الصالح صالح في يوم الأثنين ثاني شوّال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. وحُبِس بالقلعة في بعض دورها إلى أن تُوُفِّي بها في ذي الحجة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وله نحو سبع وعشرين سنة. ودِفُن بتربة عمّه الملك الصالح عليّ بن قلاوون [الخاتونية] بالقرب من المشهد النفيسي خارج القاهرة.

وكان ــ رحمه الله ــ ملكاً جليلاً مليح الشكل عاقلاً، لم تُشْكَر سيرتُه ولم تُذم، لأنه لم يكن له في سلطنته إلا مجرّد الاسم فقط، لغلَبَة شيخون وطاز وصَرْغَتْمش على الأمر، لأنهم كانوا هم حلّ المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا لغيرهم.

وأمّا أمر طاز فإنه يأتي ــ إن شاء الله تعالى ــ في أوّل سلطنة الملك الناصر حسن، بعد ذكر حوادث سِني الملك الصالح هذا، كما هي عادة هذا الكتاب. اِنتهى والله سبحانه أعلم.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

وهي سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، على أنه حَكم من السنة الماضية من سابع عشر جُمادى الآخرة إلى آخرها.

وفيها (أعني سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة): تُوفّي قاضي القضاة نجم الدين محمد الأَذْرَعي الشافعي بدِمَشْق على قضائها، وتولى بعده قضاء دمشق قاضي القضاة كمال الدين المَعَرِّي قاضي قضاة حلب.

وتُوفّي الشيخ الإمام العلّامة فريد دهره ووحيد عصره، زَيْن الدين المعروف بالعَضُد العَجَمي الحنفي رحمه الله تعالى. كان إماماً بارعاً مفتّناً فقيهاً مصنّفاً، وله اليد الطُّولَى في علم المعقول والمنقول؛ وتولى قضاء القضاة بممالك القان بوسعيد ملك التتار، بل كان هو المشار إليه بتلك الممالك، والمعوّل على فتواه وحكمه؛ وتَصدّى للإقراء والإفتاء والتصنيف عدّة سنين. ومن مصنفاته «شرح المختصر لابن الحاجب» و«المواقف» و«الجواهر» وغير ذلك في عدّة فنون؛ وكان رحمه الله كريماً عفيفاً جواداً حسن السِّيرة مشكور الطريقة.

وتُوُفّي الأديب الفاضل الشاعر بدر الدين أبو علي الحسن بن علي المغربي المعروف بالزُّغاري الشاعر المشهور. مات عن نيف وخمسين سنة. ومن شعره قوله: [الرجز]

أعجبُ ما في مجلِسِ اللهوِ جرى ... مِن أدْمُعِ الرّاووقِ لما انسكبتْ
لم تَزلِ البطّةُ في قَهْقَهةٍ ... ما بيننا تضحكُ حتى انقلبتْ

قال وله أيضاً: [البسيط]

قالتْ وقد أنكرتْ سَقامِي ... لم أرَ ذا السُّقمَ يوم بَيْنِكْ
لئن أصابتْك عينُ غيري ... فقلتُ لا عينَ بعد عينِكْ

قال وله أيضاً: [المتقارب]

فُتِنتُ بِأسمرَ حُلوِ اللَّمى   لسُلوانه الصَّبُّ لم يَستطِعْ
تَقَطَّع قلبي وما رقَّ لِي   ودَمْعِي يَرِقّ ولا يَنقطِعْ

وتُوُفِّي النُّوين أَرِتْنا، وقيل أرِطْنَا، سلطان بلاد الروم. كان نائباً عن السلطان بُوسعيد بن خَرْبَنْدا ملك التتار بجميع ممالك الروم، ودام على ذلك سنين؛ فلمّا مات بُوسعيد كاتَبَ أرتنا هذا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وقال له: «أريد أن أكون نائبك بممالك الروم»، فأجابه الملك الناصر محمد وكتب له بذلك، وأرسل إليه الخِلَع السنيّة وكتب له: «نائبُ السلطنة الشريفة بالبلاد الرومية[1]». ولم تزل رُسُلُه تتردّد إلى الديار المصرية إلى أن مات في أوائل المحرّم من هذه السنة، رحمه الله تعالى. وكان ملكاً عارفاً عاقلاً سَيُوساً مدبّراً، طالت أيامه في السعادة.

وتُوُفِّي الأمير سيفُ الدين تُلَك بن عبد الله الناصري الأمير آخور بغزّة في عوده إلى الديار المصرية؛ وقد تقدّم ذكرُه في عدّة أماكن من هذا الكتاب.

وتُوُفِّي الشيخ بهاء الدين محمد بن علي بن سعيد الفقيه الشافعي بدمشق في شهر رمضان. وكان فقيهاً فاضلاً يُعرف بآبن إمام المشهد.

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين يحيى بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر الشافعي الدِّمشقي، المعروف بابن القَيْسَراني، كاتب سرّ دِمَشق، بطّالاً. كانت لديه فضيلة، وهو من بيت كتابة وفضل.

وتُوُفِّي الأمير شهاب الدين أحمد بن بيليك المُحسنيّ. كان أميراً فقيهاً شافعياً أديباً. نظَم كتاب «التنبيه في الفقه» وكتب عِدّة مصنفات؛ وكان معدوداً من الفضلاء العلماء.

---

(١) انظر صبح الأعشى: ٣٥٨/٥ ــ ٣٦٣، وفيه تفصيلات وافية عن علاقة بلاد الروم وحكامها بملوك الديار المصرية، وخاصة الناصر محمد بن قلاوون ــ وانظر أيضاً معجم زامباور: ٢٣٢ ــ ٢٣٣.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وآثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وست[١] عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الصالح صالح آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

وهي سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي الخليفة أمير المؤمنين، الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد الهاشمي العباسي. كان بويع بالخلافة بعد وفاة والده بقُوص في العشرين من شعبان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، فلم يمض له ما عَهده أبوه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لِمَا كان في نفسه من والده المستكفي بالله من مَيْله للملك المظفر بيبرس الجَاشْنَكِير، وأراد أن يُولّي الخلافة لبعض أقاربه، بل أحضره وخَلَع عليه. ثم مات الملك الناصر بعد ذلك بمدّة يسيرة، فتمّت بموته خلافة الحاكم هذا إلى أن مات في هذه السنة. والمتولّي يومئذ لأمور الديار المصرية الأمير شَيْخون والأمير طاز والأمير صَرْغَتْمش ونائب السلطنة الأمير قُبْلاي، والسلطان الملك الصالح صالح. وكان الحاكم مات ولم يَعْهَد بالخلافة لأحد، فجمع الأمراء القضاة، وطُلِب جماعة من بني العباس، حتى وقع الاختيار على أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان فبايعوه ولقّبوه بالمعتضد.

وتُوُفّي قاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ جمال الدين الحنفي المعروف بآبن الفُوَيْرة في العشر الأوسط من شوّال. كان فقيهاً بارعاً. باشر توقيع الدَّسْت الشريف، وكَتَب وصنّف، وولي القضاء سنين.

---

(١) في السلوك: «وتسع عشرة إصبعاً».

وتُوُفّي الشيخ المُسند المعمَّر صدر الدين محمد بن شرف الدين محمد بن إبراهيم المَيْدُومي[1] المصري في شهر رمضان ودُفِن بالقرافة عن تسعين سنة. وكان مولده سنة أربع وستين وستمائة؛ وهو آخر من حدّث عن النَّجيب عبد اللطيف وآبن علّان؛ وسمع منه السِّراجان: البُلْقيني وآبن المُلَقِّن.

وتُوُفِّي القاضي الرئيس زين الدين أبو حفص عمر بن شرف الدين يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أبي السفاح الحلبي الشافعي الكاتب. [كان] كاتب الإنشاء بحلب، ثم ولي صحابة[2] الإنشاء بها ووكالة بيت المال إلى أن مات بحلب عن نَيِّف وستين سنة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أُلجيبُغَا بن عبد الله العادلي. كان من أكابر الأمراء. أقام أميراً نحو ستين سنة؛ وكان قد أصابتْه ضربةُ سيف في وقعة أَرْغون شاه بدِمَشق بانتْ منها يدُه اليمنى. وآستمرّ على إمْرته وتقدمته إلى أن مات في السابع من شهر ربيع الآخر، ودُفن بترتبه بدِمَشق خارج باب الجابية وقد أناف على تسعين سنة.

وتُوفّي الأمير الجليل بدر الدين مسعود بن أوحد بن مسعود بن الخطير بدِمَشق في سابع شوّال، بعد ما تنقّل في عِدّة ولايات وأعمال: مثل حُجوبية الحُجّاب بديار مصر، ونيابة غَزّة وغير ذلك. وكان مولده سنة ثلاث وثمانين وستمائة بدمَشق، ونشأ بها، وولي الحُجوبية بها. وأرسله تَنْكِز إلى مصر صحبة أَسَنْدَمُر رسول جُوبان، فلمّا رآه الملك الناصر أعجبه شكلُه، فرسَمَ له بإمرة طبلخاناه بمصر وجعله من جملة الحجّاب؛ فأقام على ذلك إلى أن قَبَض السلطان على مملوكه أَلْماس الحاجب ولاّه عِوضَه حاجب الحجّاب؛ ولم يكن بمصر يوم ذلك نائب سلطنة، فعظُم أمرُه، إلى أن مُسك تَنْكِز رَسَم له [السلطان] بنيابة غَزّة. ثم بعد موت الملك الناصر أُعْطِي إمرة بدِمشَق، ثم طُلِب إلى مصر وأعيد إلى حجوبيّة الحجّاب ثانياً؛ فلم تَطُلْ مدّتُه لاختلاف الكلمة، وأُخْرج إلى نيابة غَزّة ثانياً، ثم عُزل ونُقِل إلى إمرة مائة وتقدمة

(١) الميدومي: نسبة إلى ميدوم، إحدى قرى مديرية بني سويف بمصر.

(٢) المراد أنه صار صاحب ديوان الإنشاء بها.

ألف بدِمَشق؛ ثم وَلِي نيابة غزّة ثالث مرّة وأقام بها سنين، ثم عُزِل وتوجّه إلى دمشق أميراً بها. ثم وَلِي نيابة طرابُلُس، فلم تَطُل مدّته بها وعُزِل، وتوجّه أيضاً إلى دمشق فأقام بها إلى أن مات. رحمه الله.

وتُوُفِّي في هذه السنة جماعةٌ ممن تقدّم ذكرُهم من الأمراء، قُتلوا بقلعة حلب، وهم: الأمير أحمد الساقي نائب حماة، وبَكْلَمش نائب طرابُلُس، وبَيْبُغا أُرُس نائب حلب وغيرهم.

فأما الأمير بَيْبُغَا أُرُس القاسميّ، فإن أصله من مماليك الملك الناصر محمد ابن قلاوون ومن أعيان خاصكِيّته؛ ثم ولي بعد موته نيابة السلطنة بالديار المصرية في أوّل سلطنة الملك الناصر حسن؛ ثم قُبض عليه بطريق الحجاز وحُبس ثم أُطلق في أول دولة الملك الصالح صالح، وتولّى نيابة حلب بعد أَرْغُون الكاملي، ولمّا وَلِي نيابة حلب شدّد على مَنْ يشرب الخمر بها إلى الغاية، وظَلَم وحَكَم في ذلك بغير أحكام الله تعالى، حتى إنه سَمَّر من سَكِر وطِيفَ به بشوارع حلب، وفي هذا المعنى يقول ٱبن حبيب: [الرجز]

أهلَ الطِّلا تُوبوا وكلُّ منكم يَعود عن ساق التُّقَى مُشَمِّرا
فمن يَبِتْ راووقه[1] معلَّقا أصبح ما بين الورَى مُسَمَّرا

وفيه يقول القاضي شرف الدين حسين بن ريان: [الخفيف]

تُبْ عن الخمر في حلب والزمِ العقلَ والأدبْ
حدُّها عند بَيْبُغَا بالمسامير والخشبْ

ثم خرج بَيْبُغا عن طاعة السلطان، ووقع له ما حكينا في ترجمة الملك الصالح، إلى أن ظُفِر به وقُتِل في قلعة حلب؛ وفيه يقول بعض الأدباء: [البسيط]

لمّا ٱعتدى بَيْبُغا العادي ومَنْ معه على الورى فارقوا كُرْهاً مواطنَهمْ
خوفَ الهلاك سَرَوْا ليلاً على عَجَل فأصبحوا لا تُرَى إلا مساكِنُهم

---

(١) الراووق: الكأس.

وتُوُفِّي الرئيس أمين الدين إبراهيم بن يوسف المعروف بكاتب طَشْتَمُر. كان من أعيان الكُتّاب، وتولّى نظر الجيش بالديار المصريّة مدّة، ثم عُزل وأُخرِج إلى القُدس فأقام به مدّة، ثم أعيد إلى القاهرة فأقام بها إلى أن مات.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين بَيْغَرَا بن عبد الله الناصري ثم المنصوري، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية وهو بطّال بحلب؛ وكان شجاعاً مِقداماً من أعيان أمراء مصر؛ وقد تقدّم ذكره في عدّة أماكن.

وتُوُفّي الأمير زين الدين قَراجَا بن دُلْغَادر صاحب أُبُلُسْتَيْن في رابع عشر ذي القعدة؛ وقد تقدّم ذكره في واقعة الأمير بَيْبُغَا أُرُس.

وتُوُفِّي مُستوفِي الصحبة أسعد حربة أحد الكُتّاب المسالمة في ذي القعدة من السنة.

وتوفي الشيخ جمال الدين أبو الحجاج يوسف آبن الإمام شمس الدين أبـي محمد عبد الله بن العفيف محمد بن يوسف بن عبد المنعم المقدسي النابلسي ثم الدمشقي الحنبلي في شهر رجب؛ ومولده سنة إحدى وتسعين وستمائة.

وتُوُفِّي الشيخ إمام الدين محمد بن زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن القَيْسي القَسْطَلّاني الشافعي بالقاهرة في عشرين المحرّم؛ ومولده بمكّة المشرَّفة في سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وتُوُفِّي حاكم الموصل وسِنْجَار الأمير بدر الدين حسن بن هندوا[١]. كان من أعيان الملوك وكان بينه وبين صاحب مارِدِين عداوة، ووقع بينهما حروب قُتِل في بعضها حسن هذا بعد القبض عليه.

وتُوُفِّي القاضي شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب [بن الشهاب أحمد بن محيي الدين يحيى][٢] بن فضل الله بن المُجَلِّي بن دَعْجان بن خَلَف القرشيّ العُمَرِي. نسْبته إلى عُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه. [مات في شوّال من هذه السنة] [٢].

(١) في السلوك: «حسن بن هند».

(٢) زيادة عن الدرر الكامنة.

مولده[1] في ثالث ذي الحجّة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بدِمشق، ومات بها في شهر رمضان؛ وكان إماماً بارعاً كاتباً بليغاً أديباً مترسّلاً. كتب المنسوب الفائق، وتنقّل في الخدم حتى ولي ناظر ديوان الإنشاء بالديار المصرية مدّة طويلة؛ وهو أوّل كاتب سرّ ولي بمصر من بني فضل الله؛ ولّاه الأشرف خليل بن قلاوون بعد عزل عماد الدين إسماعيل بن أحمد بن الأثير، فدام في كتابة السرّ سنين، إلى أن نقله الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى كتَابة سرّ دمَشق، عوضاً عن أخيه محيي الدين يحيى بن فضل الله، وولي عِوضَه القاضي علاء الدين بن الأثير. ولمّا مات رثاه الشعراءُ والعلماءُ، ورثاه العلّامة شهاب الدين محمود بقصيدته التي أوّلها: [الطويل]

لِتبْكِ المعالِي والنُّهى الشرَف الأعلَى وتَبْكِ الوَرَى الإحسانَ والحِلْمَ والفضلا

ومن شعر القاضي شرف الدين المذكور يمدح الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي: [الكامل]

تَهَبُ الألوفَ ولا تهاب لهم ألفاً إذا لاقيتَ في الصَّفِّ
أَلْفٌ وأَلْفٌ في نَدًى وَوَغًى فلأجل ذَا سَمَّوْك بالألفي

وله أيضاً لمّا خُتِن الملك الناصر محمد بن قلاوون: [الخفيف]

لم يُرَوِّع له الخِتَانُ جَنَاناً قد أصاب الحديدُ منه حديدا
مثلما تنقصُ المصابيح بالقَطِّ فتزداد في الضياء وُقُودا

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً. والله سبحانه أعلم.

* * *

(١) من هنا وحتى آخر الترجمة يتعلّق بعبد الوهاب بن جمال الدين فضل الله العمري، وهو عمّ والد صاحب الترجمة المتوفي سنة ٧١٧هـ والمولود سنة ٦٢٣هـ. ـ راجع الجزء التاسع، ص ٢٤٠ (وفيات سنة ٧١٧هـ) ـ وانظر خطط المقريزي: ٢/٥٦.

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح صالح آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

وهي سنة خمس وخمسين وسبعمائة، وفيها خُلِع الملك الصالح المذكور في ثاني شوّال.

وفيها تُوُفِّي العلاّمة زَين الدين أبو الحسن عليّ بن الحسين بن القاسم بن منصور بن عليّ المَوْصِليّ الشافعيّ، الشهير بآبن شيخ العُوَيْنَة، بالمَوْصِل عن أربع وسبعين سنة. وكان إماماً فقيهاً بارعاً مصنّفاً ناظماً ناثراً. نَظَم كتاب «الحاوي» في الفقه، وشرح «المختصر» و«المفتاح»، وقَدِم إلى الشام متوجِّهاً إلى الحجاز الشريف وهو القائل: [الطويل]

وما آخترت بُعْدَ الدار عمّن أُحِبُّهُ صُدوداً وحاشَى أن يُقال صُدُودُ
ولكنّ أسبابَ الضرورةِ لم تَزَلْ إلى غير ما تَهْوَى النفوسُ تَقودُ

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين أحمد آبن القاضي شمس الدين إبراهيم بن المسلم بن هبة الله بن حسان بن محمد بن منصور الجُهَنِيّ الشافعي الشهير بآبن البارِزِيّ، ناظر أوقاف دِمَشق، وبها مات عن نيّف وثمانين سنة.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام سراج الدين أبو حفص عمر آبن القُدْوة نجم الدِّين عبد الرحمن بن الحسين بن يحيى بن عبد المحسن القَبّاني الحنبلي. كان إماماً زاهداً عابداً. أفتى ودَرَّس وحَدَّث، وباشر مشيخة المالكيّة بالقُدْس إلى أن مات.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلاّمة فخر الدين أبو طالب أحمد بن عليّ بن أحمد الكوفي البغداديّ الحنفيّ، الشهير بآبن الفصيح. مات بدِمَشق وقد قارب الثمانين سنة. وكان إماماً عالماً بارعاً في فنون، ناظماً ناثراً. نَظَم «الكَنْز في الفقه» و«السراجية في الفرائض». وقَدِم إلى دمشق وتصدّى للافتاء والتدريس والإقراء إلى أن مات بها. ومن شعره، وهو في غاية الحسن: [الوافر]

أَمَـرَّ سِـوَاكَـهُ مـن فـوق دُرّ ونـاوَلَنِيـه وهـو أحبُّ عنـدي
فـذُقْتُ رُضـابَـه مـا بين نَـدٍّ وخَمْـرٍ أُمْـزِجـا منـه بشَهـد

وله أيضاً: [الرجز]

زار الـحـبـيـبُ فـحـيَّـا يـا حُسْـن ذاك الـمُحَـيَّـا
مـن صـدّه كنـتُ مَيْـتـا مـن وَصْـلِه عُـدتُ حَـيّـا

وتُوُفِّي الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الظاهري الدمشقي الشافعي مدرّس الفرُّوخْشَاهِيّة(١). كان فقيهاً فاضلاً. مات بدِمَشق عن نيّف وثمانين سنة. وكان له نظم وينشىء المقامات؛ وله القصيدة الحجازية التي أولها: [الطويل]

سَرَت نسْمَةُ الوادي فَأذْكرتِ الصَّبَّا ليـالِي مِنًى فانصبّ مـدمعه صَبًّا

وتُوُفِّي الشيخ الإمام جمال الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن الحسن الهَرَوِي الحلبيّ الحنفيّ، المعروف بالشيخ زاده. كان فقيهاً متصوِّفاً زاهداً. قال آبن حبيب: أنشدني بيتين بالفارسي، وذَكَر لي معناهما، وآقترح عليّ نظمهما بالعربي، فقلت: [الكامل]

ألحـاظُه شَهِدت بِـأنِّي مُخطِئٌ وأتَـتْ بـخطِّ عِـذَاره تَـذْكَـارَا
يـا حاكِمَ الحُبّ اتَّئِد في قِصَّتِي فـالخطُّ زورٌ والشُّهـودُ سَكـارَى

ومن إنشاء الشيخ زاده المذكور قوله: [الطويل]

ومـا العيشُ إلَّا والشَّبيبةُ غَضَّـةٌ ولا الحبُّ إلَّا والمحِبُّـون أطفـالُ
وهم زعموا أنّ الجنونَ أخو الصِّبَا فـليت جنـوناً دام والنـاسُ غُفّـالُ

وكانت وفاته بحلب عن نيّف وخمسين سنة.

---

(١) المدرسة الفروخشاهية، أو الفرخشاهية: من مدارس الحنفية بدمشق. نسبتها إلى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب. واقفتها والدته حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله. (الدارس: ١/ ٤٣١).

وتُوُفِّي الشريف علاء الدين أبو الحسن عليّ آبن الشريف عزّ الدين حمزة بن عليّ بن حسن بن زُهْرة بن الحسن بن زهرة بن الحسين الحلبي، نقيب الأشراف بحلب؛ وبها مات عن نيّف وسبعين سنة؛ وكان رئيساً كاتباً مجيداً عارفاً مُثْرياً.

وتُوُفِّي الصاحب الوزير عَلَم الدين عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم، الشهير بآبن زُنْبور، المصريّ القِبْطِيّ المقدَّم ذكرُه. ولي الوزارة ونظر الجيش والخاصّ، ولم تجتمع لأحد قبله. ثم نُكِب وصُودِر وأُخذت أموالُه وذخائرُه التي وصفناها في ترجمة الملك الصالح، ومات بقُوص معتَقلاً.

وتُوُفِّي الوزير الصاحب موفَّق الدين أبو الفضل هِبَة الله بن سعِيد الدّولة القِبْطِيّ المصريّ. ولي نظر الدولة ثم الخاصّ ثم الوزارة إلى أن مات. وكان مشكور السِّيرة حسن الأخلاق، وعنده تواضعٌ وكرمٌ ومعرفة وعَقْل.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي الناصري، نائب طرابُلس. مات بها وتولّى عوضه مَنْجَك اليوسفيّ الوزير أخو بيبغا أُرُس. وكان أيتمش وافر الحِشْمة، ليِّن الجانب، بعيدَ الشرّ قريب الخير، وعنده عقل وسكون ووقار. ولي الحجوبيّة والوزارة بالديار المصريّة، ثم ولي نيابة دِمَشق مدّة سنين، إلى أن قُبِض عليه وسُجِن بثغر الإسكندرية؛ ثم أُطلِق وولي نيابة طرابُلُس بعد بَكْلَمش الناصريّ، فدام على نيابتها إلى أن مات.

وتُوُفِّي السلطان أبو الحجاج يوسف[1] بن إسماعيل بن فرج صاحب الأَنْدَلُس وما والاها؛ طُعِن بَخِنْجر في جَبِينه في يوم عيد الفِطْر، فمات منه، وتسلطن بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن يوسف.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين إياجي بن عبد الله الناصري، نائب قلعة دِمشق. كان شجاعاً مقداماً، أظهر في فتنة الأمير بيبغا أُرُس أمراً عظيماً من حفظ قلعة دمشق، وقاتل بيبغا أُرُس قتالاً عظيماً، وقام في ذلك أتمّ قيام.

(١) هو سابع ملوك بني نصر بالأندلس. قتلَ في المسجد بغرناطة بينما كان ساجداً في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر؛ هجم عليه مجهول وطعنه بسكين، وقبض عليه، فسئل، فتكلم بكلام مختلط، فقتل وأحرق بالنار. (انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب: ص ٣٠٤ ــ ٣٠٦).

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين مُغْلَطَاي بن عبد الله الناصريّ، بطّالاً في عاشر شهر رمضان؛ وكان من أعيان مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخاصّكيّته؛ وتولّى رأس نَوْبة، ثم صار أميرَ شِكار، ثم ولي الأمير آخورية الكُبْرَى، ثم أُمْسِك وحُبِس بعد أمور وقعت له، ثم أُطلِق وأُخرج إلى الشام بطّالاً، فدام به إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي تاج الدين أبو الفضائل أحمد بن الصاحب أمين الملك عبد الله بن الغَنّام القِبْطيّ المصريّ في شوّال تحت العقوبة؛ وهو أحد الكُتّاب المعدودة، وتولّى عِدّة وظائف وباشر عدّة مباشرات؛ وكان مشكور السِّيرة. رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة تسع عشرة ذراعاً وخمس أصابع.

سلطنة الملك الناصر حسن[1] الثانية على مصر

قد تقدّم ذكرُه في سلطنته الأولى من هذا الكتاب، وذكرنا أيضاً سبب خَلْعه من السلطنة بأخيه الملك الصالح صالح، ثم ذكرنا في ترجمة أخيه الصالح سَبَب خَلع الصالح وإعادة الناصر هذا فلا حاجة لذكر ذلك ثانياً. والمقصود هنا الآن ذِكْرُ عَوْد الملك الناصر حسن إلى مُلكه فنقول:

ولمّا قُبِض على أصحاب الأمير طاز، اِتّفق صَرغَتْمش مع الأمير شَيْخون على خلْع الملك الصالح من السلطنة وسلطنة الملك الناصر حسن ثانياً، وأبرموا ذلك حتى تمّ لهم. فقاموا ودخلوا إلى القلعة، وأرسلوا طلبوا الملك الصالح؛ فلمّا توجّه إليهم أخِذ من الطريق وحُبِس في بيت من قلعة الجبل. وأرسلوا أشهدوا عليه بأنه خَلَع نفسه من السلطنة؛ ثم طلبوا الملك الناصر حسناً من محبسه بالقلعة، وكلّموه

(١) انظر مراجع ترجمته وأخباره في ص ١٤٨ من هذا الجزء، حاشية(١).

في عوده، وأشرطوا عليه شروطاً قَبِلها. فأخذوه إلى موضع بالقلعة، فيه الخليفةُ والقُضاة، وبايعوه ثانياً بالسلطنة، ولبَّسوه تشريفَ السلطنة وأُبَّهَة الملك؛ ورَكِب فرس النَّوبة ومشت الأمراء بين يديه إلى الإيوان، فنزل وجلس على تخت الملك، وقبّلوا الأمراء الأرض بين يديه على العادة؛ وكان ذلك في يوم الإثنين ثاني شوّال سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

ولم يغيّر لقبه، بل نُعت بالناصر كما كان أوّلاً على لقب أبيه. ونُودِي بآسمه بمصر والقاهرة، ودُقَّت البشائر، وتمّ أمره.

وحالما قَلَع الملك الناصر خِلْعة السلطنة عنه، أمر في الحال بمَسْك الأمير طاز، فشفَع فيه الأمير شَيْخون لأنه كان أمّنه وهو نَزِيله؛ فَرَسَم له السلطان بالتوجّه إلى نيابة حلب، فخرج من يومه وأخذَ في إصلاح أمره، إلى أن سافر يوم الجمعة سادس شوّال؛ وسار حتى وصل حلب، في الخامس من ذي القعدة؛ وكانت ولايتُه لنيابة حلب عوضاً عن الأمير أَرْغُون الكامليّ.

وطُلِب أرغون إلى مصر، فحضر أرغون إلى القاهرة، وأقام بها مدّة يسيرةً ثم أُمسِك. وأقام طاز في نيابة حلب، ومعه أخوه كُلْتاي وجَنْتَمُر وكلاهما مقدّمان بها.

ودام الملك الناصر حسن في الملك إلى أن دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة، والخليفة يوم ذاك المُعتضِد بالله أبو بكر، ونائبُ السلطنة بمصر الأميرُ آقْتَمُر عبد الغني، وأتَابَك العساكر الأمير شَيْخون العُمَرِيّ ــ وهو أوّل أتابك سمي بالأمير الكبير، وصارت من بعده الأتابكية وظيفةً إلى يومنا هذا؛ ولَبِسها بخِلعة: وإنما كانت العادة في تلك الأيام [أنه] مَنْ كان قديمَ هجرة من الأمراء سُمّي بالأمير الكبير، من غير خِلْعة؛ فكان في عصر واحد جماعةٌ كلُّ واحد منهم يسمّى بالأمير الكبير، حتى وُلِّي شيخون هذا أتابكيّة العساكر ــ وسمّي بالأمير الكبير ــ بطَلَب تلك العادة القديمة، وصارت من أجلّ وظائف الأمراء. تمّ ذلك. إنتهى.

وكان نائب الشام يوم ذاك أمير عليّ المَارِدِيني، ونائب حلب طاز، وصاحب بغداد وما والاها الشيخ حسن آبن الشيخ حسين سِبْط أرْغُون بن أبْغَا بن هُولاكو.

وفي هذه السنة أيضاً كَمُلَت خانقاة[١] الأمير الكبير شَيْخون العُمَري بالصَّليبة والربـع[٢] والحمّامان؛ وفَرَغت هذه العمارة ولم يتشوّش أحد بسببها. ورَتّب في مشيختها العلّامة أكمَل الدين محمد [بن محمود][٣] البابَرْتي الحنفيّ، وأشركه في النظر.

ودام السلطان حسن في السلطنة ولم يُحرّك ساكناً إلى أن آستهلّت سنةُ ثمانٍ وخمسين وسبعمائة قَبَض على أربعة من الأمراء وسُجنوا بثغر الإسكندرية، وهم: الأمير قُجا السلاح دار، وطُقْطَاي الدّوادار، وقُطْلُوبُغَا الذهبيّ، وخليل بن قَوْصون. وخَلَـع على الأمير علم دار باستقراره في الدوادارية، وخَلَـع على الأمير قَشْتَمُر[٤] باستقراره حاجباً ووزيراً؛ وكان القبضُ على هؤلاء الأمراء بعد أن ضُرِب الأمير شيخون بالسيف، وحُمِل إلى داره[٥] جريحاً ولَزِم الفِراش إلى أن مات، حسب ما يأتي ذكره.

وأمرُ ضَرْب شَيْخون كان في يوم الإثنين من شعبان سنة ثَمانٍ وخمسين وسبعمائة؛ وهو أن السلطان الملك الناصر حسناً جلَس في اليوم المذكور على كرسي المُلك بدار العدل للخدمة، والأمراء جلوسٌ في الخدمة، والقضاةُ والأعيانُ وجميـع أرباب الدولة. وبينما السلطان جالسٌ على كرسي المُلك، وثَبَ مملوكٌ من المماليك السلطانية يُسَمَّى قُطْلُوخَجَا[٦] السلاح دار على الأمير الكبير شَيْخون، وضربه بالسيف ثلاثَ ضَرَبَات أصابت وجهَه ورأسَه وذراعه، فَوَقـع شيخون مَغْشيّاً

---

(١) الخانقاه والخانكاه: بيت الصوفية للعبادة. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤١٤). وعن بناء هذه الخانقاه وما شرطه واقفها على الفقهاء والصوفية انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢١، والسلوك: ٣/١/١٧.

(٢) الربـع ــ والجمـع رباع ــ عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكائل للتجارة. وتكون مساكن الربـع مخصصه لسكنى العامة من الناس بالأجرة الشهرية.

(٣) زيادة عن خطط المقريزي. والبابرتي: نسبة إلى بابرتى، قرية من أعمال بغداد.

(٤) في السلوك: «طشتمر القاسمي». وفيه أنه استقرّ حاجب الحجّاب. وكان حاجب الحجّاب في ذلك الوقت يقوم بمهام الوزير. ــ راجـع أيضاً ص ٩٩ مـن هذا الجزء، حاشية(١).

(٥) تبيّن للأستاذ محمد رمزي أن دارشيخون (دار شيخو) هي نفسها دار قوصون أو إسطبل قوصون؛ وذلك أن هذه دار قد صارت مخصصة لسكنى كل من صار أتابك العساكر، أي قائد الجيش.

(٦) في السلوك: «قطلوقجا، ويقال: باي قجا».

عليه، وأُرْجف بموته. وقام السلطان من على الكرسي ودخل إلى القصر، ووقعت الهَجَّة[١]. فلمّا سَمِعت مماليكُ شيخون بذلك، طلعوا القلعة راكبين صُحبة أمير خليل بن قَوْصون أحد الأربعة المقبوض عليهم بعد ذلك، فحَملوا شيخون على جَنَوِيّة[٢] وبه رَمَقٌ، ونزلوا به إلى داره؛ وأحضروا الجرائحية فأصلحوا جراحاته. وبات شيخون تلك الليلة [في إصطبله][٣]؛ وأصبح السلطان الملك الناصر حسن ونزل لعيادته من الغد؛ فدخل عليه وحلَف له أن الذي وقع لم يكن بخاطره ولا له عِلْم به، وكان الناس ظنوا أن السلطان هو الذي سلَّطه[٤] على شيخون، فتحقَّق الناس براءةَ السلطان. وطَلَع السلطان إلى القلعة وقد قبض على قُطْلُوخَجَا المذكور، فرَسم السلطان بتسميره فسُمِّر. ثم وُسِّط في اليوم المذكور، بعد أن سأل السلطان قطلوخجا السلاح دار المذكور عن سبب ضرب شيخون بالسيف، فقال: «طلبتُ منه خُبزاً[٥] فمنعني منه وأعطاه لغيري». ولَزِم شيخون الفِراش من جِراحه إلى أن مات في ذي القعدة من السنة. وبموته خَفّ عن السلطان أشياء كثيرة؛ فإنه كان ثقيلَ الوَطْأة على السلطان إلى الغاية، بحيث إن السلطان كان لا يفعل شيئاً حتى يُشاوره حقيرَها وجليلَها؛ فلما مات آلتفت السلطان حسن إلى إنشاء مماليكه، فأمَّر منهم جماعةً كثيرة على ما سيأتي ذكره.

ثم أخذ السلطان حسن في شراء دار أَلْطُنْبُغا المارِداني ويَلْبُغا اليَحْيَاوي بالرُّمَيلة، وهدَمهما، وأضاف إليهما عدّةَ دور وإسطبلات أُخَر. وشرَع في بناية مدرسته المعروفة به تُجاه قلعة الجبل، التي لم يُبْنَ في الإسلام نظيرها، ولا حكاها مِعْمار في حسن عملها، وذلك في سنة ثمانٍ وخمسين المذكورة.

---

(١) يقال: هجَّت النار هجاً وهجيجاً، أي اتقدت وسمع صوت استعارها. والعامة تقول: هجَّ هجيجاً إذا فرَّ مسرعاً والهجَّة هنا استعمال عاميّ بمعنى الصيحة والتسارع والفرار.

(٢) راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٣) زيادة مستفادة من السلوك.

(٤) الضمير هنا عائد على قطلوخجا الذي ضرب شيخون.

(٥) الخبز: الإقطاع. ــ وعبارة السلوك: «قدّمتَ له قصة لينقلني من الجامكية إلى الإقطاع؛ فلم يفعل، فبقي في نفسي منه». والجامكية هي الراتب الشهري.

ولما شَرَع في عمارتها جعل عليها مشدّين ومهندسين وآجتهد في عملها. وأما مصروفها وما آجتمع بها من الصُّنّاع والمعلّمين فكثير جداً لا يدخل تحت حصر. وقيل: إن إيوانها يعادل إيوان كِسْرى في الطول.

قلت: وفي الجملة إنها أحسن ما بُني في الدنيا شرقاً وغرباً في معناها بلا مدافعة[١].

وفي هذه السنة وقَعَ أمرٌ عجيب، قال آبن كثير في تاريخه: «وفي هذه السنة حَمَلت جارية من عتقاء الأمير الهيدباني[٢] قريباً من تسعين يوماً، ثم شَرَعت تَطْرح ما في بطنها، فوضعت قريباً من أربعين ولداً، منهم أربع عشرة بنتاً. وقد تشكل الجميع، وتميزّ الذكر من الأنثى، فسبحان القادر على كل شيء.

قلت: وآبن كثير ثِقة حُجّة فيما يَرْويه وينقله. إنتهى.

ولما مات شَيْخون إنفرد صَرْغَتْمش بتدبير المملكة. وعظُم أمره وآستطال في الدولة، وأخذ وأعطى، وزادت حُرْمتُه، وأثرى وكثُرت أمواله، إلى أن قبض عليه الملك الناصر حسن، حسب ما يأتي ذكره في محلّه، إن شاء الله تعالى.

ثم إنّ السلطان قَبَض على الأمير طاز نائب حلب، في أوائل سنة ثمانٍ وخمسين المذكورة بسفارة صَرْغَتْمش، وقيّده وحَمَله إلى الإسكندرية فحبسه بها؛ وولّى عِوضَه في نيابة حلب الأمير مَنْجك اليوسفيّ الوزير، نُقِل إليها من نيابة طرابلُسُ.

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/٣١٦. وقد ذكرها باسم جامع الملك الناصر حسن.

(٢) في البداية والنهاية: «الأمير سيف الدين تمر المهمندار» ورواية ابن كثير تختلف عما ورد هنا. قال ابن كثير: «وفي شعبان من هذه السنة حكي عن جارية من عتيقات الأمير سيف الدين تمر المهمندار أنها حملت قريباً من سبعين يوماً، ثم شرعت تطرح ما في بطنها، فوضعت في قرب من أربعين يوماً، في أيام متتالية ومتفرقة، أربع عشرة بنتاً وصبياً بعدهن، قلّ من يعرف شكل الذكر من الأنثى». (انظر البداية والنهاية: ١٤/٢٧٠) ــ ورواية أبي المحاسن هنا تتفق مع رواية العيني في عقد الجمان (حوادث سنة ٧٥٨هـ). ولعلّ أبا المحاسن ينقل عن العيني وينسب الرواية خطأً إلى ابن كثير.

ثم عَزَل السلطان عِزّ الدين بن جَماعة عن قضاء الشافعية بديار مصر، وولّى عِوضَه بهاء الدين بن عَقِيل؛ فأقام آبـن عَقِيل في القضاء ثمانين يوماً وعُزِل، وأعيد آبـن جماعة.

ثم نَقَل السلطان مَنْجك اليوسُفيّ المذكور من نيابة حلب إلى الشام عوضاً عن أمير على المَارديني، ونَقَل المارديني إلى نيابة حلب، كلّ ذلك في سنة ثمانٍ وخمسين وسبعمائة المقدّم ذكرها.

وخَلَـع السلطان على تاج الدين بن رِيشة وآستقـرّ في الوزارة.

ثم نَفَى السلطان جماعة من الأمراء، منها الأمير جُرجي[١] الإدريسيّ، وأنعم بإقطاعه، وهو إمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر، على مملوكه يَلْبُغا العُمَري صاحب الكَبْش[٢]، وهو الذي قَتل أستاذَه الملك الناصر حسناً المذكور، حسب ما يأتي ذكرهُ في وقته من هذا الكتاب في هذه الترجمة. ثم خَلَـع السلطان على يلبغا[٣] وجعله أميرَ مجلس عوضاً عن الأمير تَنكز بُغَا المارِدِينـي.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان سنة تسـع وخمسين وسبعمائة، أمسك السلطانُ الأميرَ صَرْغَتْمش الناصريّ، بعد ما أقعد له قواعد مـع الأمير طَيْبُغَا الطويل ويَلْبُغَا العُمَري وغيرهما، وأَمسك معه جماعة من الأمراء، وهم طَشْتَمُر القاسمي حاجب الحجاب، وطَيْبُغا[٤] الماجَاري، وأَزْدَمُر وقُمارِي وأرْغُون الطَّرْخاني وآقْجُبا الحمويّ، وجماعة أخر من أمراء الطبلَخانات والعشرات. وكان سببُ مسكه أنّ صَرْغَتْمش كان قد عظُم أمرُه بعد موت شيَخون، وآستبدّ بأمور الدولة وتدبير الملك؛ فلما تمّ له ذلك، ندَب الملك الناصرَ حسناً لمسك طاز ووغّر خاطرَه عليه، حتى كان من أمره ما كان. فلمّا صَفَا له الوقت بغير منازع، لم يقنَـع بذلك، حتى

---

(١) أورد المقريزي هذا الخبر في حوادث سنة ٧٥٩هـ.

(٢) المراد أنه كان من الأمراء الذين سكنوا بالكبش. والكبش حيّ من أحياء القاهرة يطل على بركة الفيل وصليبة ابن طولون.

(٣) في الأصل: «ثم خلـع عليه». والتعديل للتوضيـح.

(٤) في السلوك: «طقبغا صاووق الماجاري».

رام الوثوب على الملك الناصر حسن ومَسْكه واستقلاله بالمُلك؛ فبلغ الناصرَ ذلك، فاتّفق مع جماعة من الأمراء على مسكه عند دخوله على السلطان في خلوة؛ فلّما كان وقت دخوله، وقفوا له في مكان رتّبهم السلطان فيه، فلما دخل صرْغَتْمش إحتاطوا به وقبضوا عليه، ثم خرجوا لمن عيّن لهم من الأمراء المقدّم ذكرهم، فقبضوا عليهم أيضاً في الحال، وحُبسوا الجميع بقلعة الجبل. فلما بلغ مماليك صرغتمش وحواشيه من المماليك، ركبوا بالسلاح وطلعوا إلى الرميلة، فنزل إليهم المماليك السلطانية من القلعة، وقاتلوهم من بُكرة النهار إلى العصر عِدّة وجوه، إلى أن كانت الكسرة على مماليك صَرْغَتْمش. وأخذتْهم السيوف السلطانية، ونُهِبت دار صَرْغَتْمش عند بئر الوطاويط، ونُهِبت دكاكين الصليبة، ومُسِك من الأعجام صوفية المدرسة[1] الصَّرْغَتْمشية جماعةٌ لأنهم ساعدوا الصَّرْغَتْمشية وأحموهم عند كَسْرتهم؛ وما أُذِّن المغرب حتى سكن الأمر وزالت الفتنة، ونُودي بالأمان والبيع والشراء.

وأصبح الملك الناصر حسن في بُكرة يوم الثلاثاء وهوسلطان مصر بلا منازع. وصَفَا له الوقت، وأخذ وأعْطى، وقرّب مَن آختار وأبعدَ من أبعد، وخلع على الأمير أُلْجاي اليوسفيّ واستقرّ به حاجب الحجاب عِوضاً عن طَشْتَمُر القاسميّ. وخَلَع على جماعة أُخر بعِدّة وظائف. ثم أخذ في ترقية مماليكه والإنعام عليهم، وأعيان مماليكه: يَلْبُغا العُمَريّ وطَيْبُغا الطويل، وجماعةٌ من أولاد الأمراء.

وكان يَميل لإنشاء أولاد[2] الناس وترقّيهم إلى الرتب السنية، لا لحبّه لهم، بل

(١) المدرسة الصرغتمشية (خطط المقريزي: ٢/٤٠٣).

(٢) أولاد الناس: هم أبناء أمراء المماليك. وقد كان أمراء المماليك أكثر اهتماماً بتربية مماليكهم وإعدادهم ليخلفوهم في مناصب الدولة منهم بتربية أولادهم الذين كانوا ينشؤون عادة في حجور النساء، وكانوا في الغالب ينغمسون في الحياة المدنية وكثيراً ما يتجهون إلى العلم. وكان هذا الفريق من أبناء الأمراء يطلق عليهم «أولاد الناس». وقد ظفر علم التاريخ بمؤرخين جليلين من هذا الفريق في القرن الخامس عشر هما ابن تغري بردي وابن إياس. وكان الناصر حسن أول من قرّب أولاد الناس ودفعهم إلى حياة الإمرة والجندية متوخياً الاستعاضة بهم عن أمرائه من المماليك الذين كثر تآمرهم عليه وعلى إخوته من آبناء الناصر محمد بن قلاوون. وكان الناصر حسن يردد: «عمري ما سمعت أحداً يقول: ابن ناس خامر» أي =

كان يقول: «هؤلاء مأمونُو العاقبة، وهم في طيّ علمي، وحيث وجَّهتهم إليه توجَّهوا، ومتى أحببتُ عَزْلَهم أمكنني ذلك بسهولة، وفيهم أيضاً رِفْقٌ بالرعية ومعرفةٌ بالأحكام[١] حتى إنه كان في أيامه منهم عِدّة كثيرة، منهم أمراء مقدّمون، يأتي ذكر أسمائهم في آخر ترجمته، إن شاء الله تعالى.

ثمّ أخرج السلطانُ صَرْغَتْمش ورُفقتَه في القيود إلى الإسكندرية، فسُجِن صرغتمش بها إلى أن مات في ذي الحجة من السنة، على ماسيأتي ذكرُ صرغتمش في الوفيات من حوادث سنين الملك الناصر حسن.

ثم إن السلطان عَزَل الأميرَ مَنْجك اليوسفي عن نيابة دِمَشق في سنة ستين وسبعمائة، وطَلَبه إلى الديار المصرية؛ فلما وصل منجك إلى غزّة بلَغه أن السلطان يُريد القبضَ عليه، فتسحّب ولم يُوقف له على خَبَر. وعَظُم ذلك على السلطان وأكثرَ من الفحص عليه، وعاقَب بسببه خلائقَ فلم يُفِدْه ذلك.

ثم خَلَع السلطان على الأمير عليّ المارِدِينيّ نائب حلب، بإعادته إلى نيابة دِمَشق كما كان أوّلاً؛ وآستقرّ بَكْتَمُر المؤمنيّ في نيابة حلب عوضاً عن عليّ الماريني، فلم تَطُل مدّته بحلب وعُزِل عنها بعد أشهر بالأمير أَسَنْدَمُر الزيني، أخي يَلْبُغا اليَحْيَاوِيّ نائب الشام كان.

ثم خَلَع السلطان على فخر الدين بن قَرَوِينة باستقراره في نَظَر الجيش والخاصّ معاً.

ثم ظهر الأمير منجك اليوسفيّ من اختفائه في بيت[٢] بالشّرف الأعلى

= تآمر. وفي أيامه كان هناك عشرة من أبناء الناس برتبة مقدم ألف، وهي أعلى الرتب العسكرية. وكذلك تشكلت فرقة عسكرية في الجيش المملوكي سميت باسم أولاد الناس، وكانت تقتصر على أبناء أمراء المماليك فقط. (انظر: خطط المقريزي: ٣١٨/٢؛ والسلوك: ٦٩٠/٣/١؛ وبدائع الزهور: ٥٧٨/١/١؛ والجوهر الثمين: ٢١٥/٢؛ والمؤرخ ابن تغري بردي: ص ١٥).

(١) إشارة إلى تمرّس هؤلاء بالحياة المدنية وإقبالهم على العلم.

(٢) في السلوك: «قبض على الأمير منجك من داريّا بالشرف الأعلى ظاهر مدينة دمشق». وفي بعض أصول السلوك: «من دار بالشرف الأعلى». ولعل هذه الأخيرة تحريف للصيغة الأولى. وداريا قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة. ــ والمراد بالشرف: المكان المرتفع (انظر معجم البلدان).

بدِمشق، في سنة إحدى وستين وسبعمائة، بعد أن اختفى به نحو السنة، فأُخِذ وأُحضِر إلى القاهرة؛ فلمّا مَثَل بين يدي السلطان، وعليه بشْت[١] عَسَلي وعلى رأسه مِئْزَر، صفح عنه لكونه لم يخرج من بلاده، ورَسَم له بإمرة طبلخاناه بدمشق، وأن يكون طرخاناً[٢] يقيم حيث شاء؛ وكُتِبَ له بذلك توقيعٌ شريف.

ثم في هذه السنة وقع الوباء بالديار المصرية، إلى أوائل سنة آثنتين وستين وسبعمائة. ومات في هذا الوباء جماعةٌ كثيرة من الأعيان وغيرهم، وأكثرهم كان لا يتجاوز مرضُه أربعة أيام إلى خمسة، ومَنْ جاوز ذلك يطولُ مرضُه؛ وهذا الوباء يقال له: الوباء الوَسَطِيّ (أعني بين وباءين).

وفي هذه الأيام عَظُم يَلْبُغا العُمَري في الدولة حتى صار هو المشار إليه، وثَقُلَت وطأته على أستاذه الملك الناصر حسن، مع تمكُّن الملك الناصر في مُلْكه. وكان يلبغا العمري وطَيْبُغا الطويل وتَمان تَمُر هم أعظم أمرائه وخاصَّكِيَّته من مماليكه.

فلمّا أن استهلت سنة آثنتين وستين وسبعمائة بلَغ الملكَ الناصرَ أنّ يَلْبُغا يُنْكِر عليه من كونه يُعطِي إلى النساء الإقطاعات الهائلة، وكونه يختص بالطواشية ويُحكِّمهم في المملكة وأشياء غير ذلك. وصارت الخاصكِيّة يَنْقُلون للسلطان عن يلبغا أموراً قبيحة في حقّه في مثل هذا المعنى وأشباهه؛ فتكلّم الملك الناصر حسن مع خواصّه بما معناه: إنه قبض على أكابر أمرائه من مماليك أبيه، حتى استبدّ بالأمر من غير منازع، وأنشأ مماليكه مثل يَلْبُغا المذكور وغيره، حتى يَسْلَم من مُعارِض، فصار يلبغا يعترِض عليه فيما يفعله، فعظُم عليه ذلك ونَدِم على ترقيه، وأخذَ يترقّب وقتاً يُمسك يلبغا فيه.

---

(١) البشت: ثوب من الصوف بلونه الطبيعي دون صباغة، يلبس عادة في مواقف الزهد والتذلل. (ملحق دوزي) ــ وعبارة السلوك: «وهو لابس بشتاً من صوف، وقد اعتمّ بمئز من صوف».

(٢) الطرخان: هو الأمير المعزول المتقاعد بغير عمل، تجري عليه ما يكفيه من أموال الدولة. ــ راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

واتّفق بعد ذلك أن السلطان حسناً خرج إلى الصيد ببرّ الجيزة بالقرب من الهرمين، وخَرجت معه غالبُ أمرائه يَلْبُغا وغيره على العادة. فلمّا كان يوم الثلاثاء تاسع جُمادى الأولى من سنة اثنتين وستين المذكورة، أراد السلطانُ القبض على يَلْبُغا لما بلغه عن يلبغا أنه يريد الركوب عليه هناك؛ فصبَرَ السلطان حسن حتى دخل الليلُ، فركَب ببعض خاصّكيّته من غير استعداد ولا اكتراث بيلبغا، وسار يريد يَكْبِس على يلبغا بمخيَّمه، فنمّ بعض خاصّكيّة السلطان بذلك إلى يلبغا. فاستعدّ يلبغا بمماليكه وحاشيته لقتاله، وطلب خُشْدَاشِيَته وواعدهم بالإمريات والإقطاعات، وخوّفهم عاقبة أستاذهم الملك الناصر حسن المذكور، حتى وافقه كثير منهم. كلّ ذلك والملك الناصر في غفلة استخفافاً بمملوكه يلبغا المذكور، حتى قارب السلطان خَيْمة يلبغا، خرج إليه يلبغا بمن معه وقاتله، فلم يثبُت السلطان لقلّة من كان معه من مماليكه؛ وانكسر وهرَب، وعدّى النيلَ، وطلَع إلى قلعة الجبل في الليل ــ في ليلة الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين المذكورة ــ وتَبِعه يلبغا ومن معه يريد القلعة، فاعترضه ابن المُحسني أحد أمراء الألوف بمماليكه، ومعه الأمير قَشْتَمُر المنصوري، وواقعا يلبغا ببولاق وقعةً هائلة، انكسر[1] فيها يلبغا مرتين، وابن المحسنيّ يتقدّم عليه. كلُّ ذلك وابن المحسنيّ ليس له عِلْم من السلطان أيْن ذهب، بل بلغه أنه توجه إلى جهة القلعة؛ فأخَذ [ابن المحسني] في قتال يلبغا وتعويقه عن المسير إلى جهة القلعة. واشتدّ القتال بين يلبغا وابن المحسنيّ حتى أردف يلبغا الأمير أُلجاي اليوسفيّ حاجب الحّجاب وغيره، فانكسر عند ذلك ابن المحسني وقَشتَمُر، وقيل: إنّ يلبغا لمّا رأى شِدّة ابن المحسني في القتال دَسّ عليه من رجّعه عن قتاله وأوعده بأوعاد كثيرة، منها أنه لا يُغير عليه ما هو فيه في شيء من الأشياء خوفاً من طلوع النهار قبل أن يدرِك القلعة، وأخذ السلطان الملك الناصر حسن، لأنّ الناصر كان طلع إلى قلعة الجبل في الليل، ولم يشعر به أحد من أمرائه ومماليكه وخواصّه، وصاروا في حَيْرة من عدم معرفتهم أين توجّه السلطان، حتى يكونوا معه على قتال يلبغا. وعَلِم يلبغا أنه متى

(١) قارن بما جاء في السلوك: ٣/١/٦١ ــ ٦٢، وقد وردت هذه الوقائع باختلاف غير يسير عما هنا.

تعوّق في قتال آبن المحسني إلى أن يطلُع النهار، أتت العساكر الملكَ الناصر من كل فَجّ، وذهبت رُوحه؛ فلما ولّى آبنُ المحسنى عنه، آنتهز يلبغا الفرصة بمن معه، وحرّك فرسه، وصحبته مَن وافقَه، إلى جهة القلعة، حتى وصل إليها في الليل. والله أعلم.

وأمّا أمر السلطان حسن، فإنه لمّا آنكسر من مملوكه يَلْبُغا، وتوجّه إلى قلعة الجبل حتى وصل إليها في الليل، ألْبَس مماليكه المقيمين بالقلعة، فلم يَجِد لهم خيلاً لأنّ الخيول كانت في الربيع. وبينما هو في ذلك طَرَقه يلبغا قبل أن يطلع النهار وتجتَمع العساكر عليه، فلم يجد الملك الناصر قوّةً للقائه، فلَبِس هو وأيْدَمُر الدواداري زِي الأعراب ليتوجَّها إلى الشام، ونزلا من القلعة وقت التسبيح؛ فلقيهما بعضُ المماليك فأنكروا عليهما وأمسكوهما في الحال، وأحضروهما إلى بيت الأمير شرف الدين [موسى][1] بن الأَزْكُشِي أستادار[2] العالية، فحملهما في الوقت إلى يلبغا حال طلوع يلبغا إلى القلعة، فقتلهما يلبغا في الحال قبل طلوع الشمس.

وكان عمْر السلطان حسن يوم قُتِل نيفاً على ثلاثين سنة تخميناً؛ وكانت مدّة مُلْكه في سلطنته هذه الثانية ستّ سنين وسبعةَ أشهر [وسبعةَ أيام]. وكان قتلُه وذهابُ ملكه على يد أقرب الناس إليه من مماليكه وخواصّه، وهم: يلبغا العمَري وطَيُبغا الطويل وتمان تَمُر وغيرهم، وهم من مشترواته؛ اِشتراهم، ورباهم، وخوّلهم في النعم، ورقاهم إلى أعلى المراتب، خوفاً من أكابر الأمراء من مماليك أبيه؛

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الأستادار: هو الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه. ولفظه الصحيح «إستدَّار» بكسر الهمزة في أوله وحذف الألف بعد التاء. والقول: أستاذ الدار خطأ من الكتاب لظنهم أن هذا اللقب مكوّن من لفظين عربيين هما: أستاذ ودار؛ في حين أنه مكوّن من لفظين فارسيين هما: «إستد» أو «سِتَدْ» ومعناه الأخذ، و«دار» ومعناه الممسك. قال القلقشندي: والعامة تنطق به على الصواب. (صبح الأعشى: ٥/٤٢٩ ـ ٤٣٠) وإضافة صفة «العالية» لهذا اللقب هي إضافة تلحق «الدار» على افتراض أنها لفظ عربي، كما يفهم من القلقشندي. وبذلك يكون الاستادار وأستادار العالية بمعنى واحد.

فكان ذهابُ رُوحه على أيديهم، وكانوا عليه أشدّ من تلك الأمراء. فإنّ أولئك لما خلعوه من السلطنة بأخيه الملك الصالح، حبسوه بالدور من القلعة مكرماً مبجّلاً، وأجروا عليه الرواتب السنيّة، إلى أن أعادوه إلى ملكه ثانياً، وهم مثل شَيْخون وصَرْغَتْمش وقُبْلَاي النائب وغيرهم؛ فصار يتذكّر ما قاساه منهم في خَلْعه من السلطنة وتحكُّمهم عليه، فأخذ في التدبير عليهم حتى قَبَض على جماعة كثيرة منهم وأبادهم. ثم رأى أنه ينشىء مماليكَه ليكونوا له حزْباً وعَضُداً؛ فكانوا بعكس ما أمّله منهم، ووثبوا عليه، وكبيرُهم يَلْبُغا المقدّم ذكرُه. وعندما قبضوا عليه لم يُمهلوه ساعةً واحدة؛ وعندما وقع نظرُهم عليه قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض، موافاةً لحقوق تربيته لهم وإحسانه إليهم؛ فكان بين فعل مماليك أبيه به وبين فعل مماليكه له فرق كبير. ولله در القائل: «مُعاداة العاقل، ولا مُصاحبة الجاهل».

قلت: لا جَرَم أنّ الله تعالى عزّ وجلّ عامل يَلْبُغا المذكور من مماليكه بجنس ما فعله مع أستاذه، ووثبوا عليه وقتلوه أشرّ قِتله، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وآستولى يلبغا العُمَري الخاصكيّ على القلعة والخزائن والسلاح والخيول والجمال، وعلى جميع ما خلفه أستاذه الملك الناصر حسن، وأقام في المملكة بعده آبن أخيه الملكَ المنصورَ محمد آبن الملك المظفّر حاجّي آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون، كما سيأتي ذكره بعد حوادث سنين الملك الناصر حسن، كما هي عادة هذا الكتاب.

وكان الملك الناصر حسن سلطاناً شجاعاً مقْداماً كريماً عاقلاً حازماً مدبّراً سَيُوساً، ذا شهامة وصَرامة وهَيْبة ووقار، عالي الهمة كثير الصدقات والبّر؛ ومما يدّل على علوّ همته مدرسته التي أنشأها بالرميلة تُجاه قلعة الجبل في مدّة يسيرة، مع قِصَر مدّته في السلطنة والحَجْر عليه في تصرفه في سنين من سلطنته الثانية أيضاً. وكان صفته للطول أقرب، أشقر وبوجهه نَمَش، مع كَيْس وحلاوة؛ وكان متجملاً في مَلْبَسه ومَرْكبه ومماليكه وبَرْكه. إصطنع مرّة خَيْمة عظيمة، فلمّا نجزت ضُرِبت له

بالحوش[1] السلطاني من قلعة الجبل، فلم يُرَ مثلها في الكِبَر والحسن؛ وفيها يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة التِّلمسانيّ المغربي، رحمه الله تعالى: [الطويل]

حَوَتْ خيْمةُ السلطان كلّ عَجِيبةٍ ... فأمسيتُ منها باهِتاً أتعجَّبُ
لسانِيَ بالتقصِير فِيها مُقَصِّر ... وإن كان فِي أطنابِها بات يُطْنِبُ

وكان السلطان الملك الناصر حسن مُغْرماً بالنساء والخُدّام، وٱقتنى في سلطنته من الخدّام ما لم يقتنه غيرُه من ملوك التُّرك قبله؛ وكان إذا سافر يستصحب النساء معه في سفره لكونه ما كان له مَيْلٌ للشّباب كعادة الملوك من قبله: كان يَعِفُّ عن ذلك.

وفي محبته إلى النساء وواقعته مع يلبغا يقول بعض أصحاب يلبغا فيه شعراً: [الكامل]

لمّا أتى للعادياتِ وزُلْزِلَتْ ... حَفِظَ النساءَ وما قَرَا للْوَاقِعَهْ
فلأجْلِ ذاك المُلك أضحْى لم يكنْ ... وأتى القِتالُ وفُصِّلَتْ بالقارِعهْ
لو عامل الرحمنَ فاز بكَهْفِه ... وبنصرِهِ فِي عصرهِ في السابِعهْ
من كانت القَيْنات مِنْ أحزابِه ... عَطْعط[2] بِهِ الدّخان نارٌ لامِعهْ
تَبّت يدا من لا يخاف مِن الدعا ... فِي الليلِ إذْ يَغْشَى يَقَعْ فِي النازِعهْ

وخلّف السلطان الملك الناصر حسن، تغمّده الله برحمته، من الأولاد الذكور

---

(١) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور: ٥٧٢/١/١ ـ ٥٧٣ أن السلطان ضرب تلك الخيمة في «كوم برا» خارج القاهرة. وقال في وصف تلك الخيمة إنها كانت من جملة هديّة تلقاها السلطان من قبل صاحب اليمن. وكانت خيمة غريبة الشكل، على هيئة قاعة، وبها أربعة لواوين، وبها حمّام، ولها أحواض من خشب؛ وبتلك الخيمة تفاصيص ونقوش غريبة. وقد أقام السلطان في تلك الخيمة خارج القاهرة نحو ثلاثة أشهر، وذلك أنه كان بالقاهرة في ذلك الوقت أوخام وأوبئة شديدة. وكان في كل ليلة يحضر عنده مغاني العرب (يقصد المغنين) وخيال ظل، ويحرق إحراقات نفط.

(٢) قال ابن إياس: «وقد أشار الناظم بقوله «عطعط» إلى آسم مغنٍ كان من ندمائه، وكذلك «الدخان» كان اسم مشبب من ندمائه يحضر في مجلسه».

عشرة: وهم أحمد وقاسم وعليّ وإسكندر وشعبان وإسماعيل ويحيى وموسى ويوسف ومحمد، وستّاً من البنات. وخَلّف من الأموال والقُمَاش والذهب العَيْن والسلاح والخيول وغيرها شيئاً كثيراً. استولى يَلْبُغا على الجميع، وتصرّف فيه حسب ما أراده.

وكان السلطان حسن محباً للرعية، وفيه لِين جانب. حُمِدت سائر خِصاله، لم يُعب عليه في مُلْكه سوى ترقّيه لمماليكه في أسرع وقت؛ فإنه كان كريماً بارّاً بإخوته وأهله، يميل إلى فعل الخير والصدقات؛ وله مآثرُ بمكة المشرّفة، واسمه مكتوب في الجانب الشرقيّ من الحَرم؛ وعُمِل في زمنه بابُ الكعبة الذي هو بابها الآن، وكسا الكعبة الكُسوة التي هي إلى الآن في باطن البيت العتيق. وكان كثيرَ البرّ لأهل مكة والمدينة، إلى أن كانت الواقعة لعسكره بمكة في أواخر سنة إحدى وستين وسبعمائة التي كان مقدّم عسكرها الأمير قندس وآبن قراسَنْقُر وحصل لهم الكَسْرة والنهب والقتل من أهل مكة وإخراجهما من مكة على أقبح وجه[1]. غَضِب [السلطان] بعد ذلك على أهل مكة، وأمر بتجهيز عسكر كبير إلى الحجاز للانتقام من أهل مكة، وعزمَ على أنه ينزعها من أيدي الأشراف إلى الأبد. وكاد يَتِمُّ له ذلك بسهولة وسُرعة، وبينما هو في ذلك وقع بينه وبين مملوكه يَلْبُغا وكان من أمره ما كان.

وكان السلطان حسن يميل إلى تقدمة أولاد الناس إلى المناصب والولايات، حتى إنه كان غالب نوّاب القِلاع بالبلاد الشامية في زمانه أولاد ناس، ولهذا لم يخرج عليه منذ سلطنته بالبلاد الشامية خارجيّ. وكان في أيامه من أولاد الناس ثمانية من مقدّمي الألوف بالديار المصرية. ثم أنعم على ولديه [أحمد وقاسم][2] بتقدمتي ألف فصارت الجملة عشرة؛ فأما الثمانية فهم: الأمير عمر بن أرغون النائب، وأَسَنْبُغا بن الأبي بكري، ومحمد بن طُوغَاي، ومحمد بن بهادُر رأس نَوْبة، ومحمد بن

---

(١) انظر تفصيل ذلك في السلوك: ٥٤/١/٣.

(٢) زيادة عن السلوك.

المُحْسنيّ الذي قاتل يَلْبُغا، وموسى بن أرقطاي، وأحمد بن آل ملك، وشرف الدين موسى بن الازْكشِي الأسْتَادار، فهؤلاء من مُقَدّمي الألوف. وأما الطبلخانات والعشرات فكثير. وكان بالبلاد الشامية جماعة أُخر؛ فكان آبن القَشتمري نائبَ حلب، وأمير عليّ المَارِدينيّ نائبَ الشام، وابن صُبَيْح نائب صَفَد. وأمّا من كان منهم من المقدّمين والطبلخانات نوّاب القِلاع فكثير. وقيل: إن سبب تغيير خاطر يَلْبُغا من أستاذه الملك الناصر حسن ــ على ما قيل ــ أنه لما عَمِل ابن [1] مولاهم البلِّيقة[2] التي أوّلها:

مَنْ قال أنا، جُنْدِي خَلَق، لقد صدق. عندي قبا، من عهد نوح، على الفتوح. لو صادفوا شمس السطوح، كان آحترق

ورَقَصوا بها بين يَدي السلطان حسن. وأشاروا بـ«الجندي خلق» إلى يَلْبُغا، وهو واقف بين يدَي السلطان حسن والسلطان حسن يَضْحَك ويستعيدُها منهم؛ فغَضِب من ذلك يلبغا وحَقَد على أستاذه السلطان؛ وهذا يبعُد وقوعُه لكنّه قد قيل.

قلت: وقد أثبتنا هذه البلِّيقة ــ والتي عَمِلها الشيخ زَيْن الدين عبد الرحمن ابن الخرّاط في الفقيه التي أوّلها:

من قال أنا فقيه بَشَر لقد فَشَر

ــ في تاريخنا المنهل الصافي في ترجمة ابن الخرّاط المذكور بتمامها وكمالها وهما من أظرف البلاليق في معناهما. والله أعلم. انتهى.

* * *

(١) هو سراج الدين عمر بن مولاهم، كما في المنهل الصافي للمؤلف.

(٢) راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر

وهي سنة ست وخمسين وسبعمائة. على أنه حكم في السنة الخالية، بعد خلع أخيه الملك الصالح صالح، من شوّال إلى آخرها.

وفيها (أعني سنة ست وخمسين) تُوُفّي قاضي القضاة شيخ الإسلام تقيّ الدين أبو الحسن علي بن زين الدين عبد الكافي بن عليّ بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمّام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن عليّ بن سِوَار بن سليم الأنصاري السُّبْكي الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ بشاطىء النيل في ليلة الاثنين رابع جُمادى الأخرة؛ ومولده في شهر صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة بسُبْك[1] الثلاث، وهي قرية بالمنوفية من أعمال الديار المصرية بالوجه البحري. وكان ــ رحمه الله ــ إماماً عالماً بالفقه والأصلين والحديث والتفسير والنحو والأدب؛ وفي شهرته ما يُغني عن الإطناب في ذكره. وقد استوعبنا ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» بأوسع من هذا فلينظر هناك لمن أراد ذلك. ومن شعره: [الكامل]

إنّ الولايَة ليس فيها راحةٌ إلّا ثلاثٌ يَتّبِعْها العاقِلُ
حُكْمٌ بحقٍّ أو إزالة باطِلٍ أو نَفْعُ مُحتاجٍ سِواها باطِلُ

وتُوُفّي قاضي القضاة نور الدين أبو الحسن عليّ بن عبد النصير بن علي السَّخاويّ المصري المالكي قاضي قضاة الديار المصرية بها، وقد قارب الثمانين سنة، في ليلة الاثنين ثاني جُمادَى الأولى، ودُفِن بالقرافة.

وتُوُفّي الشيخ الأديب شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الدِّمشْقي الشاعر المشهور المعروف بالخّياط بطريق الحجاز. ومن شعره قوله: [السريع]

---

(١) سبك الثلاث، ويقال لها أيضاً سبك الضحّاك. وهي من القرى المصرية القديمة. وقد سميت بسبك الثلاث لانعقاد سوقها في يوم الثلاثاء من كل أسبوع. وبمديرية المنوفية أيضاً قرية أخرى تسمى سبك العبيد، أو سبك العويضات، ويقال لها اليوم سبك الأحد لانعقاد سوقها في يوم الأحد من كل أسبوع. (محمد رمزي).

خَلَّفتُ بالشامِ حبيبي وقد يَمَّمْتُ مِصراً لِغِنىً طارِقِ
والأرضُ قد طالت فلا تَبْعُدِي باللهِ يا مِصر على عاشِقِ

وتُوُفّي القاضي تاج الدين أبوعبد الله محمد بن محمد بن عبد المنعم بن عبد الرحمن بن عبد الحق السعْدِيّ البارْنَبَارِي(١) المصريّ كاتب سِرّ طرابلُس. وكان فاضلاً كاتباً، خَدَم الملوك وباشر كتابة سِر طرابلُس. وكان له شعر جيِّد وكتابةٌ حسنة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العلّامة شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن يوسف [بن عبد الدائم](٢) بن محمد الحلبي النحوي المقرىء الفقيه الشافعي المعروف بآبن السَّمين ــ رحمه الله ــ في جُمادى الآخرة. وكان إماماً عالماً، أفتى ودرّس وأقرأ عدّة سنين.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين قُبْلاي بن عبد الله الناصري في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول. وكان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون؛ وولي نيابة الكَرَك ثم الحجوبية الثانية بمصر، ثم نقل إلى الحجوبية الكبرى بها، ثم ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية. وقد تقدّم من ذكره نبذة جيدة في عدة تراجم.

وتُوُفّي القاضي زَيْن الدين خِضْر ابن القاضي تاج الدين محمد بن زَيْن الدين خِضْر بن جمال الدين عبد الرحمن بن علم الدين سليمان بن نور الدين عليّ كاتب الإنشاء بالديار المصرية. ومولده ليلة الأحد رابع ذي الحجة سنة عشر وسبعمائة. كان فاضلاً قادراً على الكتابة سريعَها، يكتب من رأس القلم التواقيعَ والمناشير؛ واعتمد القاضي علاء الدين علي بن فضل الله عليه. وكان له نظمٌ ونثرٌ. رحمه الله تعالى. ومن شعره في مِقَصّ قوله: [الطويل]

---

(١) البارنباري: نسبة إلى بلدة بارنبارة، إحدى القرى المصرية القديمة. وتعرف اليوم باسم «برمبال القديمة» وتقع على البحر الصغير الذي كان يعرف قديماً ببحر أشموم. (محمد رمزي).

(٢) زيادة عن الدرر الكامنة.

يُحَـرِّكنِي مولاي في طَـوعِ أمـرِه ويُسْكِنُني [شـانِيـهِ][١] وسْطَ فؤادِهِ
ويقَطـعُ بـي إن رام قَطْعاً وإنْ يَصِلْ يَشُقُّ بحدِّي الوصلَ عند اعتماده

وتُوُفّي الأمير سيف الدين آص ملك بن عبد الله بطّالاً[٢] بدِمَشق في شهر رمضان. وكان من أعيان الأمراء، وتنقَّل في عِدّة وظائف وأعمال، وكان مشهوراً بالشجاعة. رحمه الله.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين قردم بن عبد الله الناصري الأمير آخور بَطّالاً بدِمَشق في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان، وقد تقدّم ذكره في عدّة أماكن.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً. والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر

وهي سنة سبع وخمسين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي السيد الشريف شرف الدين أبو الحسن علي بن الحسين بن محمد الحُسَيْني نقيب الأشراف بالديار المصرية، وقد تُوُفّي عن سبعين سنة. وكان رحمه الله إماماً عالماً فاضلاً، درّس بالقاهرة بمشهد الحُسين والفخرية، وولي حِسْبة القاهرة ووكالة بيت المال، وكان معدوداً من الرؤساء العلماء.

وتُوُفّي قاضي القضاة نجم الدين أبو عبد الله محمد ابن القاضي فخر الدين عثمان بن أحمد بن عمرو بن محمد الزُّرعيّ الشافعيّ قاضي قضاة حلب في صفر. وكان ــ رحمه الله ــ إماماً عالماً فاضلاً. افتى ودرّس وولي الحكم[٣] بعدّة بلاد.

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

(٢) البطّال والطرخان بمعنى الخالي من الخدمة والعمل في وظائف الدولة ــ راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٣) أي ولي القضاء.

وتُوُفّي صاحب بغداد وما والاهـا الشيـخ حسن[١] بن الحسين بن آقْبُغا بن أيلكان ببغداد، وملَك بعده ابْنه الشيـخ أُوَيْس. والشيـخ حسن هذا هو سِبْط الملك أَرْغُون بن أَبْغا بن هولاكو بن طولون بن جنكزخان ملك التتار صاحب «اليَسَق»[٢] والاحكام التركية. وكان في أيام الشيـخ حسن الغلاءُ العظيم ببغداد حتى أُبيـع بها الخبزُ بسنـج[٣] الدراهم وبَرِح الناس عنها، وكان مشكور السيِّرة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الشيـخ الإمام شرف الدين إبراهيم[٤] بن إسحاق بن إبراهيم المُنَاوي الشافعي في يوم الثلاثاء خامس شهر رجب[٥] وكان ــ رحمه الله ــ فقيهاً عالماً. ناب في الحُكم بالقاهرة، وأفتى ودرّس وشرح الفرائض «من الوسيط» وغيره.

وتُوُفّي الشيـخ الإمام العالم كمال الدين أحمد بن [عمـر بن أحمد بن][٦] مَهدي النَّشَائي الشافعي في يوم الأحد حادي عشر صفر؛ ومولده في أوائل ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وستمائة. وكان ــ رحمه الله ــ إماماً عالماً خطيباً فصيحاً مصنّفاً. ولي خطابة جامـع الأمير أيْدَمُر الخطيري ببولاق وإمامته ودرّس به، وهو أوّل من ولي خَطابته وإمامته. ومن مصّنفاته: كتـاب «جامـع المختصـرات» وكتاب «المنتقى». وعلّق على «التنبيه»[٧] استدراكات، وله غير ذلك. والله أعلم.

(١) في معجم زامباور: ص ٦٠، ٣٧٧ «تاج الدين شيخ حسن بزرك بن حسين». وساق نسبه بعد إيلكان إلى جلائر. والشيـخ حسن هذا هو أول الحكام الجلائريين الشيعة الذي حكموا بغداد من سنة ٧٤٠هـ إلى سنة ٨١٣هـ.

(٢) أي «الياسا» أو «الياسة». وهي مجموعة الأحكام والقوانين التي وضعها جنكزخان وسار عليها التتار من بعده. كما كان لهذه القوانين أثرها في حياة المماليك. وقد سبق الكلام عليها. ــ راجـع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٣) السنـج والصنـج. ما يوضـع في الميزان من أثقال ليوزن به. والمراد أنه كان يوزن الخبز بالأثقال التي توزن بها الدراهم، وذلك لندرة الخبز. ــ والسنجة والصنجة: كفة الميزان.

(٤) كذا في السلوك والدرر الكامنة. وفي الأصل: «محمد بن إسحاق».

(٥) في الدرر الكامنة أنه مات في شهر رمضان.

(٦) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

(٧) هو «التنبيه» في الفقه لأبـي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي المتوفي سنة ٤٧٦هـ. (الأعلام: ١/٥١).

أمر النيل في هذه السنة:

الماءالقديم خمس أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشرون إصبعاً. والله أعلم.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر

وهي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي الأمير الكبير أتابَكَ العساكر شَيْخون بن عبد الله العمري الناصري اللالا مدبِّر الممالك الإسلامية بالديار المصرية في السابع من ذي الحجة بالقاهرة من جرح أصابه لمّا ضربه قُطْلوخَجَا السلاح دار في مَوْكب السلطان حسن، حسب ما تقدّم ذكره في ترجمة السلطان حسن هذه الثانية. وقيل: كانت وفاته في أواخر ذي القعدة وسنّه نيّف على خمسين سنة. وكان أصله من كتابية الملك الناصر محمد ابن قلاوون؛ وكان تُركيّ الجنس، جَلَبه خواجا عمر من بلاده وباعه للملك الناصر؛ وتَرَقّى بعد موت الملك الناصر حتى صار أتابك العساكر بالديار المصرية. وهو أوّل من سُمِّي بالأمير الكبير؛ وليها بخلعة، وصارت من بعده وظيفة. وهو صاحب الجامع والخانقاه بخُطّ صليبة أحمد بن طولون. وقد تقدّم من ذكره في ترجمة الملك الناصر حسن والملك الصالح صالح وغيرهما ما يُستغنى عن ذكره هنا ثانياً. ودُفِن بخانقاته المذكورة. وفي شيخون يقول بعض شعراء عصره مضمّناً: [البسيط]

شَيخو الأمير المفدّي كلُّه حسَنُ ... حَوَى المحاسِن والحُسنى ولا عجبُ

دع الذين يلومونِي عليه سُدًى ... لِيذْهبُوا في ملامِي أيَّة ذهبوا

وتُوُفّي الشيخ الإمام العالم العلّامة قوام الدين أبو حنفية أمير كاتب ابن أمير عمر ابن أمير غازي[1] الفارابي الإتقاني الحنفي بالقاهرة، ودفن بالصحراء خارج القاهرة. وكان ــ رحمه الله ــ إماماً عالماً مُفْتَناً بارعاً في الفقه واللغة العربية والحديث وأسماء الرجال وغير ذلك من العلوم؛ وله تصانيف كثيرة منها: «شرح

(١) كذا في السلوك والدرر الكامنة. وفي الأصل: «فارس».

الهـداية»[1] في عشـرين مجلّدا «وشـرح الأخسيكثي»[2] «وشـرح البَـزْدَوِي»[3] ولم يكمّله. وولي التدريس بمشهد أبـي حنيفة ببغداد. ثم قَدِم دِمَشق فأفتى بها ودرّس وآشتغـل، وصنّف بدمشق كتاباً في منـع رفـع اليدين في الصلاة فاضلاً عن تكبيرة الافتتاح. ثم طُلب إلى القاهرة مكرّماً معظّماً حتى حضرها وصار بها من أعيان العلماء لا سيّما عند الأمير صَرْغَتْمش الناصري، فإنه لأجله بنى مدرسته بالصليبة حتى ولّاه تدريسها. ولما مات ــ رحمه الله تعالى ــ ولي تـدريس الصَّرْغَتْمشيـة العّلامة أرْشد الدين السرائي الحنفي.

وتُوُفّي قاضي القضاة نجم الدين أبو إسحاق إبراهيم آبـن القاضي عماد الدين أبـي الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المنعم بن عبد الصمد الطَّرَسُوسي ثم الدمشقي الحنفي قاضي قضاة الحنفية بدِمَشق بها عن نحو أربعين سنة. وكان ــ رحمه الله ــ إماماً عالماً علاّمة، أفتى ودَرّس وناب في الحكم عن والده بدمشق، ثم استقل بالوظيفة من بعده عِدّة سنين، وحُمِدت سيرتُه. وله مصنّفات كثيرة منها: كتاب «رفع الكُلْفة عن الإخوان في ذكر ما قدّم القياس على الاستحسان»، وكتاب «مَنَاسك الحـج» مُطَوّل، وكتاب «الاختلافات الواقعة في المصنّفـات»، وكتاب «محظورات الإحرام»، وكتاب «الإرشادات في ضبط المشكلات» عدّة مجلدات، وكتاب «الفتاوى في الفقه»، وكتاب «الإعلام في مصطلـح الشهود والأحكام»، وكتاب «الفوائد المنظومة في الفقه».

---

(١) الهداية في الفروع لشيخ الإسلام علي بن أبـي بكر المرغيناني الحنفي المتوفي سنة ٥٩٣هـ. وشرحه المشار إليه هنا هو «غاية البيان ونادرة الأقران». (كشف الظنون: ٢/٢٠٣٣). وفي حاشية ص ٣٢٥ من الجزء العاشر من النجوم، طبعة دار الكتب المصرية، أورد المحقق اسمه «غاية البيان ونادرة الزمان في آخر الأوان».

(٢) هو أحمد بن محمد بن القاسم، ذو الفضـائل الأخسيكثي: أديب من الكتـاب المترسلين في دواوين السلاطين. توفي سنة ٥٢٨هـ. ونسبته إلى «أخسيكث» من فرغانة. تقال بالثاء والتاء. (الأعلام: ١/٢١٥).

(٣) البزدوي هو علي بن محمد بن الحسين، فخر الإسلام البزدوي. فقيه أصولي من كبار الحنفية. توفي سنة ٤٨٢هـ. ونسبته إلى «بزدة» قلعة بقرب نسف. (الأعلام: ٤/٣٢٨).

وتُوُفّي الأمير سيف الدين أَرْغُون بن عبد الله الكاملي، المعروف بأرغون الصَّغير، بالقُدس بطّالاً قبل أن يبلغ الثلاثين سنة من العمر. وكان أرغون خصيصاً عند الملك الكامل ثم عند أخيه الملك الصالح إسماعيل، وتَرَقّى حتى صار أميرَ مائة ومقدّم ألف بديار مصر. ثم ولي نيابة حلب، ثم نيابة الشام، ثم أُعيد إلى نيابة حلب ثانياً إلى أن طُلِب إلى القاهرة وقُبِض عليه واعتُقِل بالإسكندرية مدّة، ثم أُخرِج إلى القدس بطّالاً، فمات به. وكان أميراً جليلاً عارفاً شجاعاً كريماً، وفيه بِر ومعروف وله مآثر؛ من ذلك بيمارستان بحلب وغيره. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الشيخ شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد المحسن العَسْجديّ الشافعيّ. كان معدوداً من فقهاء الشافعية. رحمه الله.

وتُوُفّي القاضي علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأَطْرُوش الحنفيّ محتسب القاهرة وقاضي العسكر[1] بها. كان من بَيَاض[2] الناس وله وجاهة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العلّامة محبُّ الدين أبو عبد الله محمود ابن الشيخ الإمام علاء الدين أبي الحسن علي بن إسماعيل بن يوسف القُونَويّ الشافعيّ في يوم الأربعاء ثامن عشرين شهر ربيع الآخر؛ وكان فقيهاً مصنِّفاً؛ ومن مصنَّفاته: «شرح ابن الحاجب في الأصول» وكتاب «اعتراضات على شرح الحاوي» في الفقه لأبيه. وله غير ذلك.

---

(١) قاضي العسكر: وجدت هذه الوظيفة منذ أيام الفاطميين، ولكنها لم تكن منفصلة عن وظيفة قاضي القضاة. ولما كانت دولة المماليك دولة عسكرية فقد كان من يشغل هذه الوظيفة جندياً، وعمله يشمل شؤون العسكر. وعليه أن يقبل من الجند من كان ظاهره العدالة، فإن الشهود المعدلين يعز وجودهم في العسكر؛ وإذا نصبت الخيام كان عليه أن يكون في منزل معروف يقصد فيه، وأحسن ما يكون ذلك عن يمين الأعلام السلطانية. وكان قاضي العسكر يهتم بالأمور التي يجب الفصل فيها بين الجند كالغنائم والشركة والقسمة والمبيعات والرد بالعيب، وأن يسرع في فصل القضاء بين الخصوم لئلا يكون في ذلك تشاغل عن مواقع الحرب؛ وكان قضاة العسكر في مصر يمثلون المذاهب: الشافعي والحنفي والمالكي، وفي الشام يمثلون المالكي والحنبلي. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٦٥).

(٢) الأبيض من الناس: النقي العرض، والكريم الأخلاق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم شبع أذرع وإصبع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وست أصابع. والله أعلم.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر

وهي سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الأمير سيف الدين صَرْغَتْمش بن عبد الله الناصريّ في سجنه بثغر الإسكندرية في ذي الحّجة. وكان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وتَرَقّى حتى صار من أكابر الأمراء ومدبِّري الديار المصرية مع الأمير شَيْخون وبعده؛ وقد تقدّم من ذكره في ترجمة الملك الصالح والملك الناصر حسن ما يكتفي بذكره هناك. ولمّا حبَسه الملك الناصر حسن بثغر الإسكندرية كَتَب إليه صَرْغَتْمش كتاباً يتخضّع إليه فيه وفي أوّله: [الكامل]

(١) قلبي يُحدّثني بِأنّك مُتْلِفِي رُوحي فِداك عَرَفْت أم لم تَعرِفِ

فلم يلتفت الملك الناصر لكتابه، وفَعَل به ما قُدّر عليه. وكان صرغتمش عظيماً في الدولة، فاضلاً، مشاركاً في فنون، يُذاكر بالفقه والعربية، ويُحبّ العلماء وأرباب الفضائل، ويُكثر من الجلوس معهم؛ وهو صاحب المدرسة بخُطّ الصليبة؛ وله بِرٌّ وصدقات، إلا أنه كان فيه ظلمٌ وعَسْف مع جَبَروت.

وتُوُفّي القاضي شرف الدين أبو البقاء خالد بن عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر المخزومي الشافعيّ المعروف بابن القَيْسَرانيّ الحلبي ثم الدِّمشقي بدمشق عن نيّف وخمسين سنة؛ وكان كاتباً فاضلاً مصنفاً. باشر كتابة الإنشاء بدمشق، ووكالة بيت المال، وسمع الكثير.

---

(١) الشعر لابن الفارض.

وتُوُفّي قاضي الإسكندرية فخر الدين أبو العبّاس محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بآبـن المُخَلِّطة في يوم الجمعة سابع شهر رجب. ولِيَ قضاءَ الإسكندرية أشهراً، بعد أن كان دَرّس بالقاهرة بمدرسة الصَّرْغَتْمشية: دَرس الحديث. وكان فاضلاً عارفاً بالأصول، وله سماع. وتولى بعده قضاء الإسكندرية بآبـن التَّنَسِيّ.

وتُوُفّي ملك الغرب أبو عِنان فارس آبن السلطان أبـي الحسن عليّ بن السلطان أبـي يوسف يعقوب[1] بن عبد الحق بن محيو بن حمامة المَرينيّ المغربـي بمدينة فاس، بعد أن حَكَم خمس[2] سنين، وكان مشكورَ السِّيرة. رحمه الله.

وتُوُفّي الشريف مانـع بن علي بن مسعود بن جمّاز بن شيحة الحُسَيْني، أمير المدينة بها. وتَولّى المدينةَ الشريفة بعده[3] آبـن عمّه فضل بن القاسم في ذي القعدة.

وتُـوُفّي الأمير سيف بن فضل بن مُهَنّا بن عيسى بن مُهَنّا بن مانـع بن حديثة ابن عُصَيَّة[4] في ذي القعدة؛ وكان جواداً شجاعاً. ولي إمرة آل فضل غير مرة. وقيل إنه قُتِل سنة ستين وهو الأصـحّ.

وتُوُفّي الشيـخ الإمام شمس الدين محمد بن عيسى بن حسن بن كُر الحنبلـي، إمام أهل المُوسيقى؛ وله فيها تآليف حسنة، ويتصل نسبه إلى الخليفة مَرْوان بن محمد الحمار. وكان صوفيّاً فقيهاً، وله زاويةٌ عند مشهد الحسين بالقاهرة. ومولده في شهر ربيـع الأوّل سنة إحدى وثمانين وستمائة بالقاهرة. وكان فاضلاً، قرأ القرآن على الشّطنوفي[5]، وحَفِظ «الأحكام»[6] لعبد الغني و«العُمْدة في الفقه» للشيـخ

---

(١) في الأعلام (١٢٧/٥): فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان، المتوكل على الله. ــ ومثله في معجم الأنساب والأسرات الحاكمة للمستشرق زامباور.

(٢) في الأعلام ومعجم زامباور أنه حكم عشر سنوات، من ٧٤٩هـ إلى ٧٥٩هـ.

(٣) في السلوك: «استقرّ بعد ابن عمه الفضل بن القاسم في ذي القعدة سنة ٧٥٣هـ».

(٤) في الأصل: «غضيّة». والتصحيح عن مسالك الأبصار: ١١٦/١.

(٥) علي بن يوسف بن حريز، أبو الحسن الشطنوفي. عالم بالقراءات ومن فقهاء الشافعية. توفي سنة ٧١٣هـ. (الأعلام: ٣٤/٥).

(٦) هو «عمدة الأحكام» في الحديث، للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد الجماعيلي المتوفى سنة ٦٠٠هـ. ــ راجع وفيات سنة ٦٠٠هـ.

مُوفّق[١] الدين، «والملحة»[٢] للحريري، وسَمِع على أشياخ عصره مثل الدِّمياطِيّ والابَرْقُوهِيّ وغيرهما، وصنف كتاباً في الموسيقى سماه: «غاية المطلوب، في [فنّ][٣] الأنغام والضروب» وقد أوضحنا أمره وما يتعلّق بفنّه الموسيقي في المنهل الصافي، إذ هو محلّ الاستيعاب.

وتُوُفّي الأمير الطّواشي صفي الدين جوهر بن عبد الله الجَنَاحي البَتْخَاصي، مقدّم المماليك السلطانية، وقد قارب المائة سنة من العمر. وكان من أعيان الخدّام وأماثلهم.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين تَنْكِز بُغَا بن عبد الله المارديني أمير مجلس وزَوْج أخت السلطان حسن. كان من أكابر الأمراء بالديار المصرية، لا سيما في دولة الناصر حسن. وكان عاقلاً مدبِّراً سيُوساً.

وتُوُفّي الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن داود بن الهَكّارِي الكُردِي الشافعي بدمَشق في ذي القعدة. ومولده سنة خمس وثمانين وستمائة. وكان فقيهاً فاضلاً.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين مَلِكْتَمُر بن عبد الله السَّعْدي[٤] في ذي القعدة بحمَاة بَطّالاً بعد أن ولي عدّة وظائف وتنقّل في عدّة ولايات. رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وثماني أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد. تقدمت وفاته سنة ٦٢٠هـ.

(٢) «الملحة في الإعراب» منظومة في النحو لأبي محمد القاسم بن علي الحريري المتوفي سنة ٥١٦هـ. (كشف الظنون: ٢/١٨١٧).

(٣) زيادة عن هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي.

(٤) في السلوك: «السعيدي في ثامن ذي القعدة».

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر

وهي سنة ستين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي قاضي القضاة تقيّ الدين أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد ٱبن شَاش المالِكيّ، قاضي قُضاة الديار المصرية، في يوم الأربعاء رابع شوّال، ودُفِن بالقرافة. وكان إماماً بارعاً في مذهبه، أفتى ودرس وناب في الحكم، ثم ٱستقل بالقضاء؛ وكان مشكورَ السيِّرة، من علم وفضل. رحمه الله.

وتُوُفي قاضي قُضاة حَمَاة تقيّ الدين أبو المظفّر محمود بن بدر الدين محمد بن عبد السلام بن عثمان القَيْسي الحنفيّ الحموي، الشهير بٱبن الحكيم. باشر قضاء حماة تسع عشرة سنة، وحُمِدت سيرته؛ ومات بمنزلة ذات الحج[1] من الحجاز، وقد جاوز ستين سنة. وكان عالماً زاهداً وَرِعاً.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العالم العّلامة شيخ الإسلام وقُطب الوجُود أبو البقاء، وقيل أبو الوفاء، خليل بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المالكي المَالَقِي ثم المكيّ، العالم المشهور، صاحب التصانيف في مذهبه، بمكة المشرفة بعد أن ٱنتهت إليه رياسة مذهبه، ولم يُخَلّف بعده مثلُه.

وتُوُفّي القاضي جمال الدين إبراهيم ٱبن العلاّمة شهاب الدين محمود بن سليمان[2] ٱبن فهد الحلبي الحنبلي بحلب عن أربع وثمانين سنة. وكان فاضلاً كاتباً ماهراً في صناعته. كَتَب في ديوان الإنشاء بمصر، وولي كتابة سرّ حلب ثلاث مرات نيِّفاً وعشرين سنة، وحدّث عن جماعة من حُفّاظ الديار المصرية والإسكندرية. وكان عارفاً بالاصطلاح[3] والكتابة، وله نظمٌ ونثر. ومن شعره ما كتبه لوالده متشوّقاً بقوله: [السريع]

---

(١) ذات الحج أو ذات الحاج: منزلة من منازل طريق ركب الحاج الشامي بعد عمّان بثلاث مراحل للذاهب إلى المدينة المشرّفة. (طبعة دار الكتب المصرية من النجوم: ٣٣٢/١، حاشية: ٤).

(٢) في فوات الوفيات والسلوك والدرر الكامنة: «سلمان».

(٣) المراد مصطلح الكتابة الديوانية. أي أصول المكاتبات على أنواعها مما هو من عمل كاتب الإنشاء.

هــل زمـنٌ ولّـى بِـكـم عــائــدٌ أم هل ترى يـرجِـع عيشٌ مضى
فــارقـتُـكـم بــالــرغـم مِـني ولـم أختـره لكِنّي أَطَعْتُ الـقـضَـا

قلت: لو كانت وظيفته قضاء حلب كان في قوله: «أطعت القضا» تورية. وكان جواداً ممدّحاً. وفيه يقول البارع جمال الدين محمد بن نُبَاتة المصري قصيدته المشهورة التي أوّلها: [الطويل]

أجِيـرانَنَـا حيّـا الـربيـع ديـاركم [وإن لم يكن فيها لطرفي مَرْبَـعُ](١)

وتُـوُفّي القـاضي تـاج الـدين أحمـد بن يحيى بن محمـد بن علي بن أبـي القـاسم بن علي بن أبـي الفضـل العُـذري الـدمشقي الحنفي، المعـروف بآبن السّكاكري. كان عارفاً بعلل المكاتيب الحكيمة،(٢) خبيراً بسلوك طرائفها العلمية والعملية. وكتب الحكم والإنشاء بحلب ومات عن خمس وستين سنة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأمير عز الدين طُقْطاي بن عبد الله الصالحيّ الدّوادار بطرابُلُس عن بضـع وأربعين سنة معتَقَلاً. وكان أميراً فاضلاً جليلاً رئيساً. وفيه يقول الشيـخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصَّفَدِيّ تغمّده الله برحمته: [الكامل]

هــذا الـدّوادارُ الــذي أقــلامُــه تَـذَرُ المَهَارِق مثـلَ روض نافِـحِ
تَجـري بأرزاق الـوَرَى فَمـدادهـا وَبْـلٌ تحـدّرَ من غَمــام سافِـحِ
أستغفـر الله العـظيم غَلِطتُ بـل نهـرٌ جرَى من لـج بحـر طافـح
وإذا تـكــون كــريهــةٌ فـيمينُــه تَسْــطُو بحـدّ أسنّـةٍ وصفـائـح
يا فخرَ دهـر قد حـواه [فإنّـه](٣) عِزٌّ لمـولانـا المليـك الصـالـحِ

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

(٢) كذا في الأصل. وعبارة الدرر الكامنة: «كان عارفاً بالشروط، بارعاً فيها، غاية في إخراج علل المكاتيب. وقد كتب في مجلس الحكم بحلب.»

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية.

وتُوُفّي الخان جانبك خان بن أزْبك خان صاحب كرسيّ سَرَاي وبلاد الدّشت بها، بعد أن حَكَم ثماني[1] عشرة سنة. ونسبه يتّصل لجِنْكِزْخان، وتولى بعده الملك آبنه بردبك خان والله أعلم بالصواب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة تسع عشرة ذراعاً وثلاث أصابع. وقيل أربعة أصابع من غير زيادة، والله سبحانه أعلم بالصواب.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر

وهي سنة إحدى وستين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي الشيخ الإمام العالم العّلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري الحنبلي النحوي في ليلة الخامس من ذي

(١) ورد في دائرة المعارف الإسلامية أن جانبك (جاني بك) حكم من ١٣٤٢م إلى ١٣٥٧م، أي نحو خمس عشرة سنة. وذكر زامباور في معجمه مدة تقرب من المدة التي حدّدها المؤلف هنا، غير أنه جعل حكمه ما بين ٧٤١ و٧٥٨هـ. وفي هذه السنة الأخيرة تولى ابنه بردبك (بردي بك محمد).
وقد حكم جاني بك جلال الدين محمود بعد والده أوزبك خان غياث الدين محمود (١٣١٣م ــ ١٣٤١م). وكانت مملكته تعرف بمملكة بيت بركة، نسبة إلى بركة خان بن طوجي خان بن جنكزخان، وقاعدتها مدينة السراي. وكانت هذه المملكة تضم السراي وخوارزم والقرم ودشت القبجاق، وحكامها كانوا في الغالب مسلمين، وهم من القبيل الأزرق من المغول. وكان العرب يسمون صاحب هذه المملكة بصاحب السرير. ــ قال ابن فضل الله العمري: وكان صاحبها في الأيام الناصرية (محمد بن قلاوون) السلطان أزبك خان؛ وقد خطب إليه السلطان فزوّجه بنتاً تقرّباً إليه. وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتحاد وصدق وداد، من أول أيام الظاهر بيبرس وإلى آخر وقت. (توفي العمري سنة ٧٤٩هـ). ــ وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن انهيار الامبراطورية الإيلخانية سنة ١٣٣٥م قد جعل القطيع الذهبي في ظل أوزبك خان يعود إلى ما كان له قبلاً من شأن عظيم؛ ذلك أن هذا الأمير الذي كان شخصياً يدين بالإسلام قد مكن للإسلام تمكيناً على نهر الفولغا، ومن ثم اعتنق جميع الخانات هذا الدين. وهنالك أصبح معظم تتار الفولغا يدخلون شيئاً فشيئاً في ثقافة إسلامية سنية من طراز خاص نجده في آسيا الصغرى. ــ (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٥/٥٦٩ ــ ٥٧٠؛ والتعريف بالمصطلح الشريف: ٦٩ ــ ٧١؛ وصبح الأعشى: ٧/٢٩٤ و٤/٤٥٦؛ ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة: ٣٦٣ ــ ٣٦٤).

القعدة، ودُفِن بعد صلاة الجمعة بمقابر[1] الصوفيّة خارج باب النصر من القاهرة. وكان بارعاً في عدّة علوم، لا سيما العربية فإنه كان فارسها ومالك زِمامها، وهو صاحب الشرح على ألفية ابن مالك في النحو المسمّى «بالتوضيح»، وشرح أيضاً «البُرْدة» [وشرح] «بانت سعاد» وكتاب «المُغْني» وغير ذلك؛ ومات عن بضع وخمسين سنة. وكان أوّلاً حنفيّاً ثم استقرّ حنبليّاً وتنزل في دروس الحنابلة.

وتُوُفّي قاضي القضاة صدر الدين أبو الربيع سليمان بن داود بن سليمان ابن محمد بن عبد الحق الدمشقي الحنفي باليمن عن ثلاث وستين سنة. وكان إماماً بارعاً مفتناً. أفتى ودرّس بدمشق، وباشر بها عدّة وظائف، منها: كتابة الإنشاء، والنظر[2] في الأحكام؛ ورحل إلى العراق وخراسان ومصر والحجاز واليمن. وكان له شعر جيّد، من ذلك قوله: [السريع]

لما بَدَا في خَدِّه عارِضٌ وشاق قلبي نَبْتُهُ الأخضرُ
أمطر أجفانِيَ مستمطِراً فقلتُ هذا عارِضٌ مُمْطر

وتُوفّي الشيخ الإمام الحافظ صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي الدمشقي الشافعي. كان إماماً حافظاً رحّالاً عارفاً بمذهبه. سمع بالشام ومصر والحجاز، وتقدّم في علم الحديث، وجَمَع وألّف وصنّف ودَرّس بالصلاحيّة[3] والتّنْكِزية[4] بالقدس؛ وكانت وفاته في المحرّم من هذه السنة. وقال الإسنويّ: سنة ستين. ومولده بدِمَشق في سنة أربع وتسعين وستمائة.

وتُوفّي القاضي ضياء الدين أبو المحاسن يوسف بن أبي بكر بن محمد،

---

(١) حدد الأستاذ محمد رمزي مكانها اليوم بالمقابر المعروفة بجبانة باب النصر بالقاهرة.

(٢) لعلّ المراد بذلك ولايته لنظر الأحباس بدمشق، كما ورد في السلوك للمقريزي.

(٣) المدرسة الصلاحية بالقدس: وقفها السلطان صلاح الدين على الشافعية سنة ٥٨٨هـ. وكان موضعها كنيسة، فهدمها وبنى مكانها المدرسة. وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي نزل عنها الأتراك للآباء البيض المسيحيين فجعلوها مدرسة إكليركية. وفي الحرب العظمى أرجعها الترك مدرسة للعلوم الدينية الإسلامية. ولما سقطت القدس بأيدي الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة. (خطط الشام: ١٢٢/٦).

(٤) المدرسة التنكزية بالقدس: أنشأها الأمير تنكز الناصري نائب الشام سنة ٧٢٩هـ بجانب باب الحرم. ولا تزال عامرة إلى الآن. (خطط الشام: ١١٨/٦).

الشهير بآبن خطيب بيت الآبار الدِّمشقي. مات بالقاهرة عن نيف وسبعين سنة. وكان مقدّماً في الدولة الناصرية، وباشر الحِسْبة[1] ونظر الأوقاف وغيرهما.

وتُوُفّي الشيخ تقيّ الدين إبراهيم آبن الشيخ بدر الدين محمد بن ناهض بن سالم بن نصر الله الحلبي، الشهير بآبن الضَّرير، بحلب عن بضْع وستين سنة. وكان فقيهاً بارعاً. سَمِع الحديث وجَمَع وحَصّل وكتب كثيراً من الإنشاء والعلم والأدب.

وتُوُفّي الشريف زين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن علي محمد بن علي الحسيني الحلبي، نقيب الأشراف بحلب. كان رئيساً نبيلاً من بيت رياسة وشرف. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الشيخ شرف الدين موسى بن كُجُك الإسرائيلي الطبيب في شوّال. وكان بارعاً في الطب، مشاركاً في غيره.

وتُوُفّي الشيخ الإمام الخطيب شهاب الدين أبو العباس أحمد [بن][2] القسطلاني، خطيب جامع عمرو ــ رحمه الله ــ بمصر القديمة في ذي الحجة. وكان ديِّناً خيراً، من بيت فضل وخطابة؛ وقد تقدّم ذكر جماعة من آبائه وأقاربه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم اثنتا عشرة ذراعاً سواء. مبلغ الزيادة أربع وعشرون ذراعاً. قاله غير واحد. وخَرِبت أماكن كثيرة من عِظَم زيادة النيل. والله أعلم.

* * *

(١) سبق الكلام على الحسبة. ــ انظر فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٢) زيادة عن السلوك.

المصادر والمراجع

الجزء العاشر

١ ــ الأعلام، لخير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.

٢ ــ أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام، لابن الخطيب ــ تحقيق ليفي بروفنسال ــ دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦.

٣ ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار، لابن دقماق ــ دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٤ ــ البداية والنهاية، لابن كثير ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

٥ ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ــ سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣.

٦ ــ بلدان الخلافة الشرقية، تأليف لسترانج ــ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤.

٧ ــ تاريخ الشجاعي (تاريخ الناصر محمد بن قلاوون وأولاده) ــ تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن ١٩٧٨.

٨ ــ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان ــ دار المعارف بمصر ١٩٧٩.

٩ ــ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٤.

١٠ ــ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري ــ تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١ ــ الجوهر الثمين، لابن دقماق ــ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥.

١٢ ــ الخطط التوفيقية الجديدة، لعلي باشا مبارك ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٠ ــ ١٩٨٦.

١٣ ــ خطط الشام، لمحمد كرد علي ــ مطبعة الترقي، دمشق ١٩٢٧.

١٤ ــ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار)، للمقريزي ــ دار صادر، بيروت.

١٥ ــ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.

١٦ ـ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ـ إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
١٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٧.
١٨ ـ الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة ـ دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٤.
١٩ ـ دول الإسلام، للذهبي ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٨٥.
٢٠ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، لخليل بن شاهين الظاهري ـ باريس ١٨٩٤م.
٢١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ـ (ج ١ ـ ٢) تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨ ـ (ج ٣ ـ ٤) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢.
٢٢ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي ـ طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٢ ـ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
٢٤ ـ الطبقات الكبرى، للشعراني ـ القاهرة ١٩٥٤.
٢٥ ـ فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
٢٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ـ دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
٢٧ ـ لسان العرب، لابن منظور ـ دار صادر، بيروت.
٢٨ ـ مختار ديوان علم الدين أيدمر المحيوي ـ دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣١م.
٢٩ ـ المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل ـ مطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.
٣٠ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري ـ تحقيق دوروتيا كرافولسكي. (القسم الأول في قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين؛ والقسم الثاني في دولة المماليك الأولى) ـ المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.
٣١ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، للمستشرق زامباور ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
٣٢ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي ـ دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
٣٣ ـ معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
٣٤ ـ المعجم الوسيط ـ إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
٣٥ ـ ملحق دوزي ـ Supplement aux Dictionnaires arabes.-2vols. Paris-Leyden.1927.
٣٦ ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي ـ ج ١ ـ ٢. تحقيق محمد محمد أمين ـ القاهرة ١٩٨٤.
٣٧ ـ المؤرخ ابن تغري بردي (مجموعة أبحاث) ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤.
٣٨ ـ الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال ـ القاهرة ١٩٦٥.

٣٩ ـ الموسوعة الفلسطينية ــ إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية: أحمد المرعشلي وعبد الهادي هاشم وأنيس صايغ ــ دمشق ١٩٨٤.
٤٠ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي ــ طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر ــ وطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
٤١ ــ نفح الطيب، للمقري ــ تحقيق إحسان عباس ــ دار صادر، بيروت ١٩٨٨.
٤٢ ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري ــ دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٥.

فهرس محتويات الجزء العاشر

